



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر  
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com  
www.Ghaemiyeh.org  
www.Ghaemiyeh.net  
www.Ghaemiyeh.ir

ساریخ

# ذوق لیل ساجور

تالیف

عزیز گلشنی و محمد اسحاق گلشنی

مجلد اول



طراحی و نگارگری  
دکتر عزیز گلشنی و محمد اسحاق گلشنی



انتشارات  
موسسه فرهنگی و هنری  
دار الفکر الطبعة  
اصفهان - ایران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# تاريخ دوله آل سلجوق

كاتب:

عماد على عبد السميع

نشرت في الطباعة:

منشورات دارالافاق الجديد

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
١١	تاريخ دولة آل سلجوق
١١	اشارة
١١	المقدمة الأتراک السلاجقة
١٣	[التمهيد]
١٣	أصل السلاجقة
١٧	الانقلاب على مسعود و قتله
١٩	السلاجقة في العراق
٢٥	طغرل بك في العراق
٣٦	بعد طغرل بك
٤٠	كيف سيطر الجماليون؟
٤٤	الاسترسال في التزييف
٥٠	بين السلاجقة و الصليبيين
٥٣	و عادت الخطبة للسلطان محمد ببغداد
٥٦	التلاقي في بغداد
٥٧	بركيارق من جديد
٥٨	في الجانب الآخر من الوطن الإسلامي
٦٠	نقطة بيضاء
٦٢	في غرب العالم الإسلامي
٦٤	من هم المثلثون؟
٦٤	ابتداء الحركة و تطورها
٦٨	تساقط بلاد الاندلس
٧٠	ثورة قرطبة

- ٧٢ ..... مع السلاجقة
- ٧٤ ..... الحال فى غرب العالم الإسلامى
- ٨٢ ..... بين السلاجقة و الخوارزميين مؤسس الدولة الخوارزمية
- ٨٣ ..... فساد ما بين سنجر و أنسز
- ٨٣ ..... بين الخطا و سنجر
- ٨٤ ..... توسع ملك خوارزم شاه
- ٨٦ ..... العودة إلى الخوارزميين
- ٨٧ ..... الخطا و الخوارزميون
- ٨٨ ..... الصدام الأول: خوارزميا، سلجوقيا، عباسيا
- ٨٨ ..... صدام المتحالفين
- ٨٩ ..... عود إلى الخطا
- ٩٣ ..... التتر و المغول
- ٩٣ ..... التتر يتحركون
- ٩٥ ..... دولة بنى عمار فى طرابلس
- ٩٥ ..... تأسيس الدولة و ازدهارها
- ٩٦ ..... منقبة مؤسس الإمارة، أمين الدولة الحسن بن عمار
- ٩٧ ..... دار العلم فى طرابلس
- ١٠٠ ..... أمراء الدولة علماء مؤلفون
- ١٠١ ..... حركة شعرية ناشطة
- ١٠٢ ..... بنو عمار من الكتاب إلى السيف
- ١٠٤ ..... ابن عمار و السلاجقة
- ١٠٤ ..... بنو عمار و العمران
- ١٠٥ ..... [تاريخ دولة آل سلجوق]
- ١٠٥ ..... مقدمة

- ١٠٦ ..... ذكر نبذة من بداية حال السلجقية
- ١٠٨ ..... ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرلبك أبي شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجق إلى بغداد في ٢٥ من رمضان سنة ٤٤٧ هـ و معه الوزير عميد الملك
- ١٠٩ ..... ذكر عوارض عرضت و حوادث حدثت
- ١٠٩ ..... ذكر عودة السلطان إلى بغداد و حضوره بين يدي الخليفة
- ١١٣ ..... ذكر سبب تولى ابن دارست وزارة الخليفة إلى حين انصرافه
- ١١٣ ..... ذكر حوادث في هذه السنين
- ١١٤ ..... ذكر وصول السلطان طغرلبك إلى بغداد
- ١١٤ ..... ذكر وفاة السلطان طغرلبك بالرى
- ١١٤ ..... ذكر سيرة طغرلبك - رحمه الله -
- ١١٥ ..... ذكر جلوس السلطان عضد الدولة ألب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجق
- ١١٦ ..... ذكر نظام الملك
- ١١٦ ..... ذكر ما جرى لألب أرسلان بعد ملكه
- ١١٦ ..... ذكر وصول شرف الملك أبي سعد محمد ابن منصور بن محمد مستوفى المملكة إلى بغداد
- ١١٧ ..... ذكر حوادث طوارئ و طوارق و اتفاقات و موافقات
- ١١٨ ..... ذكر أحوال ألب أرسلان بديار بكر و الشام
- ١١٩ ..... ذكر خروج ملك الروم و كسره و قسره و أسره
- ١٢١ ..... ذكر أحداث حدثت في هذه السنين
- ١٢٢ ..... ذكر وفاة ألب أرسلان في سنة خمس و ستين و أربعمائه
- ١٢٣ ..... ذكر جلوس السلطان جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان على سرير الملك
- ١٢٤ ..... ذكر وفاة القائم بأمر الله، و تولى المقتدى بأمر الله
- ١٢٤ ..... أيام السلطان جلال الدنيا و الدين أبي الفتح ملكشاه ابن ألب أرسلان يمين أمير المؤمنين
- ١٢٨ ..... ذكر الأكابر و الكتاب في زمانه و هم الكمال و الشرف و سيد الرؤساء و ابن بهمينار و تاج الملك
- ١٣١ ..... ذكر ظهور الإسماعيلية

- ١٣٢ ..... ذكر نبذ من حوادث و أخبار في أيام ملكشاه أغفلها الوزير أنوشروان
- ١٣٣ ..... ذكر جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك
- ١٣٥ ..... ذكر دخول السلطان ملكشاه إلى بغداد
- ١٣٦ ..... ذكر حوادث
- ١٣٦ ..... ذكر حال ولاية السلطان أبي المظفر بركيارق بن ملكشاه برهان أمير المؤمنين
- ١٣٧ ..... وزارة عز الملك أبي عبد الله الحسين بن نظام الملك
- ١٣٩ ..... ذكر خروج السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين من جنزة وارن إلى الري و أصفهان
- ١٤٢ ..... وزارة الأمير ضياء الملك أبي نصر أحمد بن نظام الملك
- ١٤٥ ..... وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن الحسين الميبذى
- ١٤٧ ..... ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان ابن خالد في نيابة الوزارة
- ١٤٨ ..... ذكر تولى كمال الملك على السمرمي اشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه و ابتداء أمره
- ١٥٠ ..... ذكر وزارة ربيب الدولة أبي منصور ابن الوزير أبي شجاع- رحمه الله
- ١٥١ ..... ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا و الدين أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين
- ذكر وصول السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم معز الدنيا و الدين أبي الحرث سنجر بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين من خراسان إلى حدود العراق و طذ
- ١٥٨ ..... ذكر وزارة شمس الملك بن نظام الملك
- ١٦١ ..... ذكر وزارة الدرکزینی في سنة ٥١٨ هـ
- ١٦٤ ..... ذكر وزارة شرف الدين أبي نصر أنوشروان بن خالد
- ١٦٦ ..... ذكر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود إلى أن استقر الملك لطرغل:
- ١٦٧ ..... ذكر جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا و الدين أبي طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان
- ١٦٨ ..... ذكر ما جرى للملك داود بن محمود بعد وفاة أبيه
- ١٦٩ ..... ذكر حوادث جرت في أثناء ذلك من السلطان مسعود و أتاك آق سنقر الأحمديلى
- ١٧٠ ..... ذكر ما كان من حديث عمى العزيز و حادثته بعد عوده إلى القلعة
- ١٧١ ..... ذكر قتل الوزير الدرکزینی و ما آل إليه أمر السلطان طغرل
- ١٧٢ ..... وزارة شرف الدين على بن رجاء



- ١٧٣----- ذكر جلوس السلطان المعظم غياث الدنيا و الدين أبى الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين سنة ٥٢٨ هـ
- ١٧٥----- ولاية أمير المؤمنين أبى جعفر منصور الراشد بالله بن المسترشد بالله- رضى الله عنهما-----
- ١٨٥----- ذكر زنى بن آق سنقر فى آخر عهده-----
- ١٨٥----- ذكر مقتل جعفر نائب زنى بالموصل-----
- ١٨٧----- ذكر حال جمال الدين الجواد أبى جعفر محمد بن على بن أبى منصور-----
- ١٨٨----- عاد الحديث إلى ذكر ما جرى للسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بعد موت جاولى فى سنة ٥٤١ هـ-----
- ١٨٩----- ذكر وزارة تاج الدين بن دارست الفارسى-----
- ١٨٩----- ذكر ما جرى من الحوادث التى انحلت بها تلك العقود و اختلت تلك العهود-----
- ١٩٠----- ذكر وزارة شمس الدين بن النجيب الأصم الدرکزىنى-----
- ١٩١----- ذكر ما جرى بأصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابه-----
- ١٩١----- ذكر بعض الحوادث-----
- ١٩٢----- ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه إلى الرى فى أواخر شعبان سنة ٥٤٤ هـ-----
- ١٩٣----- ذكر حوادث فى تلك السنين-----
- ١٩٣----- ذكر ما تجدد من الملك ملكشاه ابن محمود و وفاة السلطان مسعود-----
- ١٩٤----- ذكر جلوس السلطان ملكشاه بن محمود-----
- ١٩٥----- ذكر جلوس السلطان غياث الدنيا و الدين أبى شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه فى أواخر سنة ٥٤٧ هـ-----
- ١٩٦----- ذكر ما جرى للسلطان سليمان بن محمد ابن ملكشاه و جلوسه على سرير السلطنة-----
- ١٩٦----- ذكر رجوع السلطان محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه إلى مقر ملكه بهمدان بعد غيبة سليمان-----
- ١٩٧----- ذكر ما اعتمده الإمام المقتفى لأمر الله بعد موت السلطان مسعود محمد بن ملكشاه-----
- ١٩٩----- ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد و قبول الخليفة له و تجهيز الجيش معه و ذلك فى سنة ٥٥٠ هـ-----
- ٢٠٠----- ذكر اتصال الملك جفرى شاه بن محمود بأخيه السلطان محمد-----
- ٢٠٠----- ذكر حوادث جرت فى تلك السنين-----
- ٢٠١----- ذكر وزارة شمس الدين أبى النجيب الدرکزىنى-----
- ٢٠١----- ذكر وصول السلطان محمد إلى محاصرة بغداد و ما اعتمده أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله من حسن الصبر المعقب حميد الظفر و النصر-----

- ٢٠٥ ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ابن داوود بن ميكائيل بن سلجق و شرح نبذ من أحواله من ابتداء عمره إلى خاتمة أمره --- ٢٠٥
- ٢٠٥ ذكر السبب في ذلك ----- ٢٠٥
- ٢٠٧ عود إلى حديث سنجر ----- ٢٠٧
- ٢٠٩ ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان ----- ٢٠٩
- ٢٠٩ ذكر السبب في ذلك ----- ٢٠٩
- ٢١١ ذكر جماعة من خواص سنجر و مماليكه أحبهم ثم سلاهم و وضعهم بعد أن أعلاهم ----- ٢١١
- ٢١٢ ذكر علو همة السلطان سنجر و كرمه و إسهام أصحابه و أمرائه من نعمه ----- ٢١٢
- ٢١٣ ذكر سبب اختلال ملكه و انحلال سلكه ----- ٢١٣
- ٢١٣ ذكر السبب في ذلك و انكسار سنجر في حربته مع الخطائية ----- ٢١٣
- ٢١٤ ذكر انتعاش سنجر بعد أن عشر و انتقاشه «١» و انجباره بعد أن شيك «٢» و انكسر ----- ٢١٤
- ٢١٥ ذكر نوبة الغز و ذلك في سنة ٥٤٨ هـ ----- ٢١٥
- ٢١٦ ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان محمد ابن محمود عن بغداد بعد حصارها في سنة ٥٥٢ هـ ----- ٢١٦
- ٢١٨ ذكر وفاة الإمام المقتفى لأمر الله و جلوس ولده الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف أمير المؤمنين ----- ٢١٨
- ٢٢٠ ذكر ما آل إليه أمر السلطان سليمان، و كيف جفاه زمانه و خان و كيف قبض من مجلسه ملكه، و نقل إلى منزل هلكه ----- ٢٢٠
- ٢٢٠ ذكر مراسلة الخليفة للسلطان ----- ٢٢٠
- ٢٢١ ذكر جلوس السلطان ركن الدنيا و الدين أبي المظفر أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ----- ٢٢١
- ٢٢٣ ذكر وفاة السلطان أرسلان في سنة ٥٧١ هـ و وفاة أتاك ايلدكز قبله ----- ٢٢٣
- ٢٢٤ ذكر الوزراء المتولين ----- ٢٢٤
- ٢٢٤ فهرس الموضوعات ----- ٢٢٤
- ٢٢٩ تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ٢٢٩

## تاريخ دولة آل سلجوق

## إشارة

سرشناسه : عمادالدين كاتب، محمد بن محمد، ٥١٩-٥٩٧ق.

عنوان قرار دادى : [تواريخ آل سلجوق]

عنوان و نام پديد آور : تاريخ دولة آل سلجوق اول كتاب يتناول تاريخ هذه الدولة التى ... / عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني؛ اختصار الفتح بن على بن حمد البندارى الاصفهاني؛ تحقيق لجنة احياء التراث العربى فى دارالافاق الجديد.

مشخصات نشر : بيروت : منشورات دارالافاق الجديد، ١٩٨٠م. = ١٤٠٠ق. = ١٣٥٩.

مشخصات ظاهرى : ٢٨٧ص.

يادداشت : عربى.

يادداشت : ص.ع. به انگليسى: Imad – Din al – Asphani – a history of the seljuks.

موضوع : ايران — تاريخ — سلجوقيان، ٥٩٠ – ٤٢٩ق.

شناسه افزوده : بندارى، فتح بن على، ٥٨٦-٦٤٣ق.

شناسه افزوده : احياء التراث العربى فى دارالافاق الجديد.

رده بندى كنگره : DSR٨٠٩/ع٨ت ٩ ١٣٥٩

رده بندى ديوبى : ٩٥٥/٠٥٢

شماره كتابشناسى ملّى : ٨١-٦٨٩٩

## المقدمة الأتراك السلاجقة

بسم الله الرحمن الرحيم الأتراك السلاجقة يمثلون القوة الإسلامية الجديدة التى حلت محل الغزنويين فى خراسان و المشرق الإسلامى، و التى غدت الإسلام بدماء فتية جديدة، ساعدته على الصمود و الانتصار، و الانتشار فى بلاد الروم. ذلك لأن الخلافة العباسية قبل ذلك الوقت كانت عاجزة عن حماية حدودها بسبب عداوتها مع الخلافة الفاطمية فى القاهرة. و قد انتهزت الدولة البيزنطية هذه الفرصة، و أخذت تغير على الحدود الإسلامية المتأخمة لها، و تتوغل فى شمال الشام و الجزيرة. و لكن من حسن حظ الخلافة العباسية فى ذلك الوقت، أن جاءتها من المشرق تلك القوة التركية الفتية المليئة بفتوة البداوة و عنفوانها، فأنقذتها من انهيار محقق. ففى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) استطاعت جيوش السلاجقة بقيادة سلطانها "ألب أرسلان"، و باسم الخلافة العباسية، أن تحرز انتصارا حاسما على الإمبراطور البيزنطى "رومانوس ديوجينيس" ROMANOS DIOGENES، و أن تأخذه أسيرا فى موقعة "ملاذكرد" أو "منزكرد" من أعمال "خلاق" على الفرات الأعلى، شمال بحيرة فان VAN عند أرمينية.

لقد جاء السلاجقة فى فترة انحطاط القوى الإسلامية الأخرى من عباسية و فاطمية و نجحوا فى توحيد المشرق الإسلامى من جديد، فأعطوا المسلمين الحيوية و النشاط فى الجهاد ضد الصليبيين، و يذكر بأن طغرل سلطان السلاجقة كتب إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله مظهرها و لواءه له، مؤكدا حبه لرفع راية الإسلام و إعلاء كلمة الله فى نشر الإسلام غربا، و قد أقره الخليفة العباسى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م سلطانا على السلاجقة، مما أكسب دولة السلاجقة الفتية صفة الشرعية و أثار حميتها الدينية لمناجزة البيزنطيين و استرداد البقاع التى كانوا قد احتلوها فى أرمينية و الأناضول، و قد أعطت نتائج هذه الموقعة سمعة إسلامية ضخمة للسلاجقة باعتبارهم المجاهدين و المدافعين عن الإسلام، و العاملين على نشر الدعوة، و إزاء ذلك مهدت الطريق أمام السلاجقة لنشر الدعوة فى آسيا الصغرى - حيث

وجه "أب

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤

أرسلان "ابن عمه" سليمان قتلش، "إلى الأناضول، و أقام هناك دولة سلاجقة الروم، نسبة إلى بلاد الروم التي قامت فيها. و منذ ذلك الوقت، عم الإسلام بلاد آسيا الصغرى التي صارت تعرف إلى الآن باسم بلاد الأناضول الإسلامية.

واستحدثت السلاجقة- أيضا- بعض الأنظمة و العادات الفارسية و التركية التي جلبوها معهم من المشرق، و لم تكن معروفة من قبل أيام الأمويين و العباسيين و الفاطميين. و من أمثلة ذلك، استخدام "الجاليش" في مقدمه الجيش، و "الجاليش" عبارة عن خصلة و شعر ذيل الحصان، كانت ترفع في أعلى سنان الراية أمام الجيش، ثم صارت تطلق مجازا على مقدمه الجيش أو طلائعه باسم "الجاليشية". و من "أمثلة ذلك أيضا حمل "الغاشية" بين يدي السلطان في الأماكن و المناسبات الحافلة كالميادين و الأعياد و المواكب و نحوها كشعار للسلطنة. و "الغاشية" عبارة عن: سرج من الجلد مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر كأنها مصنوعة كلها من الذهب. يحملها ركاب الدار بين يدي السلطان، و يلفتها يمينا و شمالا. و قد انتقلت هذه العادة إلى مصر و الشام على يد صلاح الدين الأيوبي و خلفائه، و استمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك كرمز للطاقة و الإخلاص للسلطان "حمل الغاشية بين يديه".

كذلك استحدثت السلاجقة نظام المدارس الدينية، و هي منشآت علمية هدفها بث روح الجهاد بين المسلمين و التصدي للطائفية، مثل: المدرسة النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي "نظام الملك" في بغداد. و سار على هذه السياسة "نور الدين محمود زنكي" في الشام، ثم "صلاح الدين الأيوبي" في مصر. على أنه يلاحظ في هذا الصدد أن مدينة الإسكندرية عرفت نظام المدارس الدينية في أواخر أيام الفاطميين و قبل مجيء صلاح الدين الأيوبي، فأول مدرسة أنشئت فيها هي المدرسة الحافظية التي أسسها "رضوان بن ولخشي" وزير الخليفة "الحافظ الفاطمي" سنة ٥٣٣ هـ، "و أسند التدريس فيها إلى "الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف"، الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته أبي بكر الطرطوشي المشهور بكتابه "سراج الملوك"، و "الحوادث و البدع".

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥

و بعد عشر سنوات أي في سنة ٥٤٤ هـ بنى "العادل بن السلار"، وزير الخليفة الظافر الفاطمي، مدرسة دينية أخرى بالإسكندرية، و أسند التدريس بها إلى "الفقيه الشافعي أبي الطاهر أحمد السلفي" صاحب كتاب "معجم السفر". و يمكن القول بأن الأيوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في أنحاء مصر و الشام متأثرين في ذلك بسياسة السلاجقة.

و قد سار السلاجقة- أيضا- على سنة أسلافهم "السامانيين" المتمثلة في الإكثار من المماليك الأتراك، و تربيتهم منذ الصغر تربية عسكرية إسلامية لاستخدامهم في الجيش و الإدارة. و قد شرح هذا النظام وزير السلجوق "نظام الملك الطوسي" في كتابه "سياسة نامة" إرشادا للحكام السلجوقيين. و على هذا الأساس غلب الطابع العسكري على الدولة السلجوقية، فصار ولايتها و قادتها من هؤلاء المماليك، كما أصبحت معظم أراضيها في فارس، و الجزيرة، و الشام، مقسمة إلى إقطاعات عسكرية يحكمها القادة من هؤلاء المماليك، في مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها للدولة في وقت الحرب. و سمي هؤلاء المماليك الكبار باسم "الأتابكة". و "الأتابك" لفظ تركي مركب معناه الأب الأمير، و معناه المربي لابن السلطان، ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح للكبار من القواد بمعنى أبو الجيش أو قائد الجيش أو نائب السلطنة.

و هكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا أشخاصا من كبار مماليتهم أطلقوا عليهم "الأتابكة" ليكونوا مربين لأولادهم القصر، و منحهم إقطاعات كبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الأبناء، و تأديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب. و لكن سرعان ما صار هؤلاء "الأتابكة" أصحاب النفوذ و السلطان في تلك الولايات. و من مشاهير الأتابكة في أوائل القرن السادس الهجري (١٣ م)، الأمير "عماد الدين زنكي" مؤسس أتابكية الموصل و حلب، و هو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته "مملوكا" للسلطان "ملكشاه السلجوقي"، و عن طريق "زنكي" و ابنه نور الدين محمود "كان ظهور قواده" نجم الدين "أيوب" و

ولده "صلاح

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦

الدين "الذي تأثر بالنظم السلجوقية، و إليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر و الشام، حيث بقيت زمان الأيوبيين، ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك، التي تبلور فيها هذا النظام التربوي العسكري الإسلامي، و صار راسخا متينا، و مكنها من صد الزحف المغولي شرقا، و طرد المستعمر الصليبي من مصر و الشام غربا. و في ذلك يقول "القلقشندى ("صبح الأعشى ج ٤ ص ٦")، و دأبت سلطنة المماليك في مصر على أن تنقل عن كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها، فسلكت سبيله، و نسجت على منواله، حتى تهذبت و ترتبت أحسن ترتيب، و فاقت سائر الممالك، و فخر ملكها على سائر الممالك."

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧

### [التمهيد]

### أصل السلاجقة

أصولهم تعود إلى القبائل التركية التي عرفها العرب باسم (الغز)، و التي استطاعت في القرن السادس الميلادي أن تقيم امبراطورية ذات طابع بدوي امتدت من الصين إلى البحر الأسود. و حين اصطدمت بالصينيين فضعضعوها. هاجر (الغز) في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) متجهين إلى الغرب في الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين دون أن يستطيعوا تحقيق وحدتهم، بل عادوا متقاتلين، و انتشرت فروعهم ممتدة إلى البعيد؛ حيث وصلت إلى فارياب على نهر سرداريا (سيحون).

و من هؤلاء تحدر السلاجقة.

و سبب تسميتهم بهذا الاسم هو انتسابهم إلى أحد أجدادهم سلجوق بن دقاق، و دقاق هذا أو تقاق كما يلقبه ابن الأثير كان وجه الأتراك الغز، على جانب من الرأى و التدبير فأطاعه قومه و اتبعوه، و ولد له سلجوق الذي تقدم عند ملوك الترك كأبيه، و شعر يوما أن ملك الترك يتآمر عليه، فاستنفر جماعته و مضى بهم إلى دار الإسلام فصار مسلما بين المسلمين، و استقر في نواحي (جند) و راح يؤلب المسلمين على الترك و يغزوهم بهم. و بعد أن كان هؤلاء يأخذون الخراج من المسلمين، طردهم سلجوق و ساد المسلمون في تلك الأرض و مات سلجوق (بجند) بعد أن عمر مئة سنة و سبع سنين، و ترك من الأولاد: أرسلان و ميكائيل و موسى.

و قتل ميكائيل في غزواته لبلاد الأتراك، و ترك من الأولاد: بيغو و طغرل بك محمد و جغرى بك داود، فسار الثلاثة في عشائرهم، و تقدموا فنزلوا على بعد عشرين فرسخا من بخارى، فتوجس الشر منهم أمير بخارى فلم يسألهم فتركوه إلى بغراخان ملك تركستان، و أقاموا في بلاده. و لكنهم ظلوا في ربيبة من أمره، فتقرر بين طغرل بك و أخيه داود أن لا يلتقيا معا في مجلس بغراخان، بل ينفرد كل واحد منهما بالمجىء إليه، و يبقى الثاني بين قومه خوفا من أن يغدر بهما مجتمعين.

و لما فشل بغراخان في الجمع بينهما في مجلس واحد قبض على طغرل بك، فاستنفر داود قومه و مشى إلى مقاتلة بغراخان لاستنقاذ أخيه، فاصطدم بقوى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨

بغراخان الزاحفة إليه فهزمها و استطاع تخليص أخيه. فرأى أن يعودا بقومهما إلى قاعدتهما الأولى (جند) غير البعيدة عن بخارى فيقيما فيها.

و بانقراض الدولة السامانية و تملكك إيلك الخان بخارى استفحل أمر أرسلان بن سلجوق عم داود و طغرل بك فيما وراء النهر، و كان على تكين أخو إيلك الخان، في سجن أرسلان خان فهرب و استطاع الاستيلاء على بخارى و تحالف مع أرسلان بن سلجوق

حيث صارا قوين، فمضى إليهما إيلك خان أخو أرسلان خان فهزماه و ظلا في بخارى.

و كان على تكين يقلق محمود بن سبكتكين فيما تجاورا به من بلاد، و لا- يبالي أن يقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملوك الترك.

و كان محمود بن سبكتكين قد أوقع بجماعة أرسلان بن سلجوق في مفازة بخارى، فلما عبر محمود النهر إلى بخارى، هرب على تكين صاحبها منها، و حضر أرسلان بن سلجوق عند محمود فقبض عليه و أرسله سجيناً إلى الهند. و هاجم جماعته فأكثر القتل فيهم، و من سلم منهم فر إلى خراسان فعاثوا فيها فساداً، فطاردهم فيها و أجلاهم عنها، فلح قسم بأصبهان فأمر محمود نائبه فيها أن يحتال في قتلهم أو إرسالهم إليه، فاصطدم بهم يعاونه أهل أصبهان فهزمهم فانطلقوا ينهبون القرى في طريقهم حتى بلغوا أذربيجان.

على أنه كان بقي أكثرهم في خراسان فراحوا ينهبون و يخربون و يقتلون، فأرسل محمود من يطاردهم، فلبثوا في ذلك نحو سنتين إلى أن اضطر محمود إلى أن يقصد خراسان بنفسه، و راح يطلبهم من نيسابور إلى دهستان فساروا إلى جرجان، ثم عاد عنهم مستخلفاً ابنه مسعود بالرى فاستخدم بعضهم. فلما مات محمود سار ابنه مسعود و هم معه إلى خراسان.

ثم إن مسعوداً مضى إلى الهند لإخماد عصيان فيها، فعاودوا العيث في البلاد، و كان قد أرسل أحد قواده إلى الرى فلما بلغ نيسابور و رأى ما هم عليه من العبث،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩

قتل منهم من قتل، و لما بلغت أخبارهم مسعوداً عاقبهم أسوأ عقاب من قطع الأيدي و الأرجل و القتل و استصفاء الأموال.

هذا ما يتعلق بأرسلان بن سلجوق و عشيرته، و أما أولاد إخوته فإن على تكين صاحب بخارى راح يحاول الظفر بهم فقرب إليه يوسف بن موسى بن سلجوق، و هو ابن عم طغرل بك محمد، و جغرى بك داود و قدمه على جميع الأتراك الذين في ولايته و أقطعه أقطاعاً كثيرة، و لقبه بلقب الأمير.

و كان يهدف من وراء ذلك إلى أن يضرب به ابني عمه طغرل بك و داود، و لكن يوسف تأبى عليه و لم يماشه في هذا فأمر بقتله. فعظم قتله على طغرل بك و أخيه داود و على عشائريهما، فلبسوا عليه الحداد و جمعوا من استطاعوا جمعه من الأتراك للثأر له. و جمع على تكين جيوشه و بعث بها لقتالهم فهزموها.

و في سنة ٤٢١ هـ سار طغرل بك و داود إلى (ألب قدا) الذي تولى قتل ابن عمهما يوسف فقتلاه.

فأثار ذلك على تكين فقصدهم على و من تبعه من جموع أهل البلاد و ناوشوهم من كل جانب، فأوقعوا بهم موقعة عظيمة قتل فيها منهم العدد الكثير و سبوا نساءهم و ذراريهم، فاضطروا إلى العبور إلى خراسان. فلما عبروا جيحون كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش يدعوهم إليه ليتحالفوا معا.

فلبى طغرل بك و أخواه داود و بيغو دعوته، و خيموا بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦ هـ فغدر بهم و وجه إليهم أحد أمرائه ففاجأهم و أكثر فيهم القتل و النهب و السبي، فتركوا خوارزم بجموعهم إلى مغازة (نسا)، و قصدوا مروا دون أن يتعرضوا لأحد بشر، مخلفين أولادهم و ذراريهم في الأسر.

و كان مسعود بك محمود بن سبكتكين قد سيطر على طبرستان و أقام فيها، فكاتبوه مستأمنين، و اعدوا إياه بأن يكونوا أعواناً له يتوجهون لقتال من يفسد في بلاده.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠

و لكن مسعوداً قبض على رسلهم و بعث إليهم جيشاً جراراً التقى بهم عند (نسا) فانهزموا بعد قتال عنيف و غنمت أموالهم، فاختلف المنتصرون على اقتسام الغنائم اختلافاً أدى إلى التقاتل بينهم.

و كان داود قد قال لقومه: إن القوم قد اطمأنوا لهزيمتنا و ليس في ذنهم أننا نعود إليهم، فأرى أن نباغتهم و هم قارون مطمئون.

فعادوا إليهم و هم يتقاتلون فأوقعوا بهم و قتلوا منهم و أسروا و استردوا أموالهم و رجالهم.

و عاد المنهزمون إلى الملك مسعود في نيسابور يقصون عليه ما جرى، فندم على ما كان منه من رفض استئمانهم و صداقتهم، و رأى أن هيبتهم قد ملأت قلوب رجاله، و أنهم بعد هزيمتهم لجيشه قد طمعوا به بعد خوفهم منه، و خشى من معاودتهم قتاله، فأرسل إليهم يتهددهم و يتوعدهم.

فطلب طغرل بك من إمام صلاته أن يكتب إلى مسعود هذه الآية و لا يزيد عليها شيئاً: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُدِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [آل عمران: ٢٦].

فكتب ما أمره به، و تلقى مسعود الرسالة فكان صداها في نفسه أن كتب إليهم كتاباً يمنيهم فيه الأمانى الطيبة، و أرسل لهم مع الكتاب خلعا نفيسة، و طلب إليهم الرحيل إلى آمل الشط، و هى مدينة على نهر جيحون، كما نصحهم بترك الشرك و الفساد، و أقطع (دهستان) لداود، و (نسا) لطرغرل بك، و (فراوه) لبيغو، و منح كل واحد منهم لقب (الدهقان).

و لكنهم استخفوا بالرسول و بالخلع، و أظهروا عدم ثقتهم بالسلطان، و قالوا للرسول: لو علمنا أن السلطان يبقى علينا إذا قدر لأطعناه، و لكننا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكتنا لما عملناه و أسلفناه، فنحن لا نطيعه و لا نثق به.

ثم راحوا يفسدون في الأرض، و بعد فترة تركوا ذلك و قالوا: إذا لم نستطع الانتصاف من مسعود فلا داعى للإساءة إلى الناس و نهب أموالهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١

ثم فكروا بمخادعة مسعود و التظاهر بالخضوع له، و يطلبون منه أن يطلق عنهم أرسلان بن سلجوق من الحبس.

فاستجاب لطلبهم هذا، و أطلق أرسلان، و أحضره إليه فى بلخ، و أمره أن يكتب إلى بنى أخيه طغرل بك و بيغو و داود بأن يكفوا عن الشر و يستقيموا فى حياتهم. فأرسل إليهم رسولا يأمرهم بذلك.

يقول ابن الأثير: و أرسل معه (إشقى) و أمره بتسليمه إليهم. فلما وصل الرسول و أدى الرسالة و سلم إليهم (الإشقى) نفروا و استوحشوا و عادوا إلى أمرهم الأول فى الغارة و الشر، فأعاده مسعود إلى محبسه و سار إلى غزنه.

و برجعى إلى معجم لسان العرب رأيته يفسر (الإشقى) بهذه التفسير:

الإشقى: المتقب.

الإشقى: ما كان للأساقى و المزاد و القرب و أشباهها.

الإشقى: المخصف للنعال.

الإشقى: السراد الذى يخرز به.

أما السلاجقة قصدوا بلخ و نيسابور و طوس و الجوزجان، فأفسدوا و نهبوا و خربوا البلاد و سبوا، فتصدى لهم الملك مسعود بن محمود، و أرسل جيشاً فى ثلاثين ألفاً بقيادة حاجبه (سباشى) من غزنه. فلما وصل خراسان خرب ما سلم من تخريب السلاجقة، و ظل طيلة سنة يدافع و يطاول حذرا من الاصطدام بهم، فإذا ابتعدوا تتبعهم، و إذا أقبلوا رجع عنهم.

و فى سنة ٤٢٩ هـ كان هو فى قرية بظاهر سرخس، و السلاجقة بظاهر مرو مع طغرل بك - و قد بلغهم خبره - فساروا إليه و باشروا قتاله، فلما جاء الليل أخذ سباشى ما خف من مال و هرب فى خواصه و ترك خيامه و نيرانه على حالها، و قيل:

إنه فعل ذلك بالاتفاق معهم، و فى الصباح عرف من بقى من عسكره خبره فانهمزوا.

و تقدم داود أخو طغرل بك و هو والد السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور فدخلها بغير قتال، و وصل بعدهم طغرل بك. ثم وصلت رسل الخليفة حاملة رسالته

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢

في وعظهم و نهيمهم عن النهب و القتل و التخريب، فأكرموا رسل الخليفة و عظموهم و خدموهم.  
 و مال داود إلى نهب المدينة، فنهاه طغرل بك، فتجاهله داود، و بعد جدال طويل تحول عن النهب الصريح إلى النهب المغلف ففرض على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار.  
 و مضى طغرل بك إلى دار الإمارة، و جلس على سرير الملك مسعود، و سير أخاه داود إلى سرخس فملكها، ثم استولوا على خراسان كلها عدا بلخ.

و كانوا ثلاثة إخوة: طغرل بك، و داود، و بيغو. أما ينال و اسمه إبراهيم فهو أخو طغرل بك و داود لأمهما.  
 أما الملك مسعود فقد خرج من غزنة إلى بلخ أول سنة ٤٢٨ هـ، و سبب خروجه منها ما كان يبلغه من أخبار السلاجقة و ما ارتكبه من الاستيلاء على البلاد و القتل و السبي و التخريب.

و أقام فترة في بلخ يتهيأ لمطاردة السلاجقة، ثم قصد سرخس فتجنب السلاجقة الاصطدام به و تظاهروا بأنهم سيدخلون المفازة التي بين مرو و خوارزم، و كان جيش مسعود يتعقبهم، فما لبثوا أن اصطدموا بإحدى قطعه العسكرية فظفرت بهم، ثم واجههم بنفسه فانتصر عليهم مما أدى إلى ابتعادهم عنه، ثم رجعوا إلى نواحي مرو، قريبا منه، فقابلهم و قتل منهم عددا كبيرا و هرب الآخرون لاجئين إلى البرية التي اعتادوا الاحتماء بها.

أما في نيسابور فقد ثار الناس بهم فقتلوا من قتلوا منهم و انهزم من بقى إلى البرية ملتجئين بجماعتهم. و مضى مسعود إلى هرات ليعد عدته لمطاردة لهم. فابتعد طغرل بك ما قدر على الابتعاد عن طريق مسعود، ناهبا كل ما يمر به من بلاد مثخنا فيها.  
 و راح مسعود يطارده فلما صار قريبا منه مضى طغرل بك ممعنا في السير إلى (استوا) و استقر بها، فمضى إليه مسعود، فرحل إلى طوس محتما بجبالها المنيعه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣

و مضايقتها العسيرة العبور، فسير إليه مسعود أحد قواده في عساكر كثيرة، فلما قرب منه ارتحل طغرل بك نواحي أبيورد. و كان مسعود قد سار بنفسه إليه فاصطدم طغرل بك بمقدمة جيشه فهزمه و استسلم عدد كبير من جنوده، فلما رأى ذلك و علم أنه مطارد من كل جانب دخل المفازة إلى خوارزم و أوغل فيها. و مضى مسعود إلى نيسابور منتظرا حلول الربيع ليعاود مطاردة السلاجقة.  
 و أقام داود في مدينة مرو، و تعددت انهزومات عساكر السلطان مسعود في لقاءاتهما مع السلاجقة و تضععت معنويات جنوده رهبة منهم، لا سيما بعد ابتعاده هو إلى (غزنة)، فراح نوابه و ولاته يستغيثون به و يذكرون له عيث السلاجقة في البلاد.

و لكنه كان لا يجيب، و لا يبالي مشغولا بقضايا الهند و مشاكلها، صارفا النظر عن السلاجقة و عن خراسان.  
 و باشتداد أمر السلاجقة في خراسان، صمم وزراء مسعود و أصحاب الرأي في دولته على استنهاضه لملاقاة خطر السلاجقة، و بينوا له أن السلاجقة إذا تمت لهم السيطرة على خراسان فهم سائرون إلى غزنة حتما.

فتنبه للخطر و أعد جيشا كثير العدد بقيادة حاجبه (سباشي) و أرفقه بأحد كبراء أمراءه (مرداويج بن بشو). و لم يكن في سباشي من الشجاعة ما تقتضيه هذه القيادة؛ بل كان جبانا، فأقام بهرات و نيسابور، ثم باغت (مرو) و بها داود، فانهزم داود و لحقته العساكر، فأدرکه أحد الأمراء فقاتله داود فقتل الأمير و انهزم جنوده و تضعضوا و ارتفعت معنويات السلاجقة.

و عاد داود إلى مرو و أحسن السيرة في أهلها، و في أول جمعه من شهر رجب سنة ٤٢٨ هـ خطب باسمه و لقب بملك الملوك.  
 ثم التقى داود و سباشي في شعبان سنة ٤٢٨ هـ على باب سرخس، فانهزم سباشي و سار و من معه إلى هرات، فتبعهم داود إلى طوس و غنم أموالهم، فكانت

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤

نتيجة هذه المعركة أن ملك السلاجقة خراسان و دخل طغرل بك نيسابور و خطب له فيها في شعبان باسم السلطان الأعظم، و أرسل



الحكام إلى النواحي.

و سار داود إلى هرات، واضطر مسعود إلى الذهاب بنفسه إلى خراسان بجيش كبير فيه عدد كثير من الفيلة و وصل إلى بلخ فزحف إليه داود و نزل قريبا منها.

ثم سار مسعود من بلخ يقود مئة ألف فارس فوصل الجوزجان و قبض على و اليها السلجوقي فصلبه، ثم واصل سيره إلى مرو الشاهجان. و مشى داود إلى سرخس و التقى بأخويه طغرل بك و بيغو، فأرسل إليهم مسعود عارضا الصلح، فذهب إليه بيغو بالجواب فتلقاه مسعود بحفاوة بالغة، و لكن الجواب كان بأننا لا نثق بمصالحتك بعد الذي كان بيننا.

و بهذا الجواب انقطع أمل مسعود بالصلح فسار من مرو إلى هرات، فقصدا داود مرو فقاومه و حاصرها سبعة أشهر مواصلا قتالها حتى سلمت.

و كان لتسليم مرو وقع الصاعقة على مسعود، فترك هرات إلى نيسابور ثم إلى سرخس، و كلما تبع السلاجقة إلى مكان تركوه إلى غيره، حتى كان الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون الربيع.

فلما جاء الربيع كان مسعود مشغولا بلهوه و شربه، و انقضى الربيع و الأمر كذلك، فلما جاء الصيف نبهه خواصه إلى ما هو فيه مستغفزين له على التصدي لأعدائه السلاجقة، فاستجاب لهم و سار من نيسابور إلى مرو لمطاردة السلاجقة، فدخلوا البرية فدخلها وراءهم في مرحلتين، و كان جنوده قد ضجروا من طول السفر و سئوا الترحل طيلة ثلاث سنين، بعضها مع سباشي و بعضها معه.

فلما دخل البرية اضطر لزول منزل قليل الماء في حر شديد ..

و كان داود و معه جل السلاجقة بإزائه، و الآخرون مقابل ساقه عساكره يتخطفون من تخلف منهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥

و زاد أمر مسعود بلاء أن حواشيه اختصموا و جمع من عسكره على الماء و ازدحموا و قامت الفتنة بينهم و أدى الحال إلى الاقتتال و التناهب، مما أدى إلى تخلخل معنويات الجند و راحوا يتذاكرون في التخلي عن مسعود.

و وصلت أخبار ما هم فيه إلى داود فباغتهم و هم في هذه الحال فولوا منهزمين و كثر القتل فيهم و تمت الهزيمة ...

و مضى مسعود في نحو مئة فارس حتى أتى غرستان.

و كانت غنائم السلاجقة لا حصر لها، و نزل داود في سرادق مسعود و قعد على كرسيه. و سار طغرل بك إلى نيسابور فدخلها آخر سنة ٤٣١ هـ و نهب أصحابه الناس.

و انتهى الأمر باستيلاء السلاجقة على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هرات فدخلها، و سار داود إلى بلخ فثبت فيها و إلى مسعود و قاوم، و أرسل إلى مسعود في غزته يستمده، فأرسل إليه مسعود مددا قويا، فقصدا قسم منهم الرخج و فيها جمع من السلاجقة فقاتلوهم فانهمز السلاجقة و خلت تلك الأماكن منهم.

و مضى الآخرون إلى هرات، و فيها بيغو فقاتلوه و دفعوه عنها. ثم أرسل مسعود ولده مودودا في جيش كبير مددا لمقاتليه هناك. و لكن الأقدار كانت لمسعود بالمرصاد.

## الانقلاب على مسعود و قتله

سار مودود إلى بلخ مددا لواليتها لرد داود السلجوقي عنها، و كان مع مودود وزير أبيه أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدبر له الأمور و يساعده في مهمته.

أما مسعود فبعد اطمئنانه إلى مسير الجيش السائر لإنقاذ بلخ، توجه بعد سبعة أيام من مسير الجيش، قاصدا الهند و معه أخوه محمد.

و كان سفره إلى الهند بقصد إعداد حملة يستعين بها على حرب السلاجقة فقد أيقن باستفحال أمرهم، و عجزه بما لديه من قوى عن

قمعهم، فلما عبر نهر سيحون معبرا معه بعض الخزائن، استغل أنوشتكين البلخي فرصة انفراده

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦

فضم إليه جماعة من الغلمان الدارية، ونهبوا ما كان قد تخلف من الخزائن، وأعلنوا إقامة محمد في الإمارة بدل أخيه مسعود، وجاءوا محمدا فسلموا عليه بالإمارة، فرفض ذلك و أباه عليهم، فهددوه، وأرغموه، فأجاب، و مضوا لحرب مسعود، و التقى الفريقان في حرب ضارية، أدت إلى انهزام مسعود، و تحصنه فيما يسميه ابن الأثير رباط ماريكله فحصره فيه، ثم خرج إليهم مستسلما فقال له أخوه محمد: انظر أين تريد أن تقيم، حتى أبعثك إليه، و معك أولادك و حرمك، فاختر قلعة كيكي فأرسله إليها محفوظا و أمر بإكرامه و صيانتها.

و فوض محمد أمر الدولة إلى ولده أحمد، و كان أهوج متخطبا فاتفق مع ابن عمه يوسف بن سبكتكين على قتل مسعود ليصفوا الملك له و لوالده فقتلاه.

و وصل خبر قتل مسعود إلى ولده مودود و هو بخراسان فعاد بعساكره إلى غزنة فالتقى بجيشه عمه محمد فانهمز محمد و جيشه، و قبض مودود على محمد و ولده أحمد و أنوشتكين البلخي و غيرهم فقتلهم، و عاد إلى غزنة.

فلما بلغ أهل هرات انتصار مودود ثاروا على من عندهم من السلاجقة و أخرجوهم منها بانتظار حاكم مودود. و كان مودود قد استقر أمره في غزنة، كما استقر في الهند. و في سنة ٤٣٣ هـ، و كان طغرل بك يملك جرجان و طبرستان و يولى عليها و يعود إلى نيسابور. و في سنة ٤٣٤ هـ سار إلى خوارزم و استولى عليها.

و في السنة نفسها خرج من خراسان إلى الري فتسلمها و تسلم غيرها من بلد الجبال.

و أرسل إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة و يطلب منه مالا، فاستجاب له و حمل إليه مالا و عروضا. و سار إلى همدان فملكها. و في سنة ٤٣٥ هـ سير مودود بن مسعود جيشا إلى نواحي خراسان فأرسل داود أخو طغرل بك- و هو صاحب خراسان- ولده ألب أرسلان في جيش فاقتلوا فكان النصر لألب أرسلان.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧

و في سنة ٤٣٦ هـ كان (السلطان) طغرل بك يستكمل أدوات (السلطنة) فيتخذ له وزيرا هو أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني، ثم وزر له بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، و هو أول من لقب نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك الكندري، و هو أشهر وزرائه، و سبب شهرته أن طغرل بك في أيامه عظمت دولته و وصل إلى العراق و خطب له بالسلطنة.

و في سنة ٤٣٧ هـ أرسل طغرل بك أخاه إبراهيم (ينال) إلى بلد الجبل فملكها، ثم سار إلى همدان و الدينور و قرميسين فملكها بعد أن أسرف في القتل و السبي و النهب في الثالثة؛ لأنه لقي فيها مقاومة، ثم سار إلى الصيمرة و حلوان فأحرق هذه و نهبها. و اتجهت جماعة من السلاجقة إلى خانقين مطاردين أهل حلوان، و انتشروا في تلك النواحي و بلغوا (مايدشت) و ما يليها فنهبوا و أغاروا عليها.

و في سنة ٤٣٨ هـ كان طغرل بك يحاصر أصفهان فلا يظفر بها، و انتهى الأمر بحمل مال إليه، و أن يخطب له فيها و في أعمالها. و في سنة ٤٣٩ هـ كان السلاجقة يمتدون إلى البندينجين فينهونها و يفعلون الأفاعيل القبيحة، من القتل، و النهب، و افتراش النساء، و العقوبة على تخليص الأموال، فمات منهم جماعة لشدة الضرب كما نص ابن الأثير في الكامل.

و وصلوا إلى ضواحي (باجسرى) فقتلوا الرجال، و غنموا الأموال، و نهبوا الأعمال، و عم ذلك باجسرى و الهارونية و قصر سابور، و جميع تلك الأعمال، و هلك من أهل تلك النواحي المنهوبة خلق كثير، فمنهم من قتل و منهم من غرق، و منهم من قتله البرد. و وصل الخبر إلى بغداد بأنهم عازمون على قصد بغداد فدب الذعر في الناس.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨

ثم اتجهوا إلى السيروان فحاصروا القلعة و أرسلوا سريةً نهبت البلاد و انتهت إلى مكان بينه و بين تكريت عشرة فراسخ. و التجأ إلى بغداد من أهل طريق خراسان خلق كثير، و ذكروا من حالهم ما أبكى العيون.

و في سنة ٤٤٠ هـ استولوا على شهرزور و حاصروا تيرانشاه و لكن وقوع الوباء دفعهم عنها و استردت منهم شهرزور.

و لما وصلت أخبار تنامي قوة السلاجقة و بسط سلطتهم لما وصلت إلى جماعاتهم فيما وراء النهر أقبل منهم خلق كثير إلى حيث يقيم إبراهيم (ينال)، فقال إبراهيم: بلادى تضيق عن مقامكم و القيام بما تحتاجون إليه، و الرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، و أنا سائر على أثركم.

فسبقوه و تبعهم، فوصلوا إلى (ملاذكرد)، و (ارزن الروم) و (قاليقلا) و بلغوا طرابزون و كل تلك النواحي. فزحف إليهم الروم و الإنجار بما يبلغ خمسين ألف مقاتل، فدارت الحرب سجالا، ثم انتصر السلاجقة فكانت غنائمهم كثيرة. و راحوا يتهبون و يتقدمون حتى لم يبق بينهم و بين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوما.

يقول ابن الأثير: و استولوا على تلك النواحي فنهبوا و غنموا ما فيها، و سبوا أكثر من مئة ألف رأس، و أخذوا من الدواب و البغال و الغنائم و الأموال ما لا يقع عليه الإحصاء.

و في سنة ٤٤١ هـ وقع الخلاف بين طغرل بك و أخيه إبراهيم (ينال)، حتى وصل الأمر إلى اقتتال جيشيهما و انهزام (ينال) و القبض عليه ثم إحسان أخيه إليه.

و توطد أمر طغرل بك و علت سلطته فأرسل إلى حاكم مقاطعة ديار بكر أن يقيم له الخطبة في بلاده ففعل، و أحس البيزنطيون أنه أصبح في جوارهم حكم قوى، فراسل ملكهم طغرل بك و هاداه و طلب إليه أن يتعاهدا فاستجاب له، و أعيد تعمير مسجد القسطنطينية و خطب فيه لطرغرل بك.

يقول ابن الأثير: و دان حينئذ الناس كلهم له، و عظم شأنه و تمكن ملكه و ثبت.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩

و نستطيع القول: إن هذه المرحلة هي مرحلة قيام الدولة السلجوقية و ابتداء أمرها ابتداء لا ينقصه شيء من حقائق الدول و مظاهرها. كان أبو منصور بن علاء الدولة صاحب أصفهان على تجاذب مع طغرل بك، تارة يطيعه، و تارة يتمرد عليه، فلما انتهى طغرل بك من عصيان أخيه إبراهيم (ينال)، مضى إلى أصفهان عازما على احتلالها فاستعصت عليه، و ظل على حصارها نحو سنة، و أخيرا استسلمت و دخلها في المحرم من سنة ٤٤٣ هـ فأحسن فيها السيرة، و استطابها فنقل ما كان له في الرى من مال و ذخائر و سلاح إليها و جعلها عاصمته.

على أن بعض الشرائح السلجوقية لم تفهم حقيقة قيام الدولة بسلطتها المركزية، فظلت تتصرف تصرفا قبائليا، فألب أرسلان بن داود أخى طغرل بك سار من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس دون أن يعلم عمه طغرل بك، فوصل إلى مدينة (نسا) و احتلها، و أحدث فيها مذبحه و نهبها و أسر الآلاف من رجالها.

يقول ابن الأثير: و كان الأمر عظيما. ثم عادوا إلى خراسان.

وراح طغرل بك يمد في ملكه فاستولى على أذربيجان و سار إلى أرمينية و قصد إلى ملاذكرد و كانت للبيزنطيين فحصرها و ضيق على أهلها و نهب ما جاورها من البلاد و أخرجها و أسر من رجالها، و بلغ حتى ارزن الروم، و عند حلول الشتاء عاد إلى أذربيجان دون أن يملك ملاذكرد. ثم توجه إلى الرى فأقام بها حتى دخلت سنة ٤٤٧ هـ.

سنة ٤٤٧ هـ بدت نية الملك السلجوقي طغرل بك في الاستيلاء على العراق، فأعلن أول ما أعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، و قد مهد بهذا الشعار ليبرر زحفه إلى العراق. و لم يكتف بهذا الإعلان، بل أضاف إليه أنه يريد المسير إلى الشام و مصر و إزالة المستنصر الفاطمي صاحبها.

وراح يعد لأمر الفتح عدته فاتصل بأنصاره بالدينور و قرميسين و حلوان خاصةً لقرب هذه المناطق من العراق، كما اتصل بغيرها مما هو أبعد منها، و أوصاهم بإعداد الميرة و جمع الأقوات و العلفوات و التهيؤ للتقدم عند ما يطلب إليهم ذلك.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠

ثم لم يلبث أن مشى إلى حلوان و انتشرت جماعته في طريق خراسان، و أرسل إلى خليفة بغداد يعلن فيه تابعيته له و طاعته لأوامره، بل و عبوديته.

و كان في بغداد جماعات كثيرة من الأتراك فكتب إليهم يمنيهم و يعدهم بالخير العميم.

أما الخليفة فقد كان هواه مع طغرل بك فأمر الخطباء في جوامع بغداد بأن يخطبوا لطرغرل بك، و أما الأتراك فقد أنكروا أمر طغرل بك و بعثوا إلى الخليفة برأيهم.

و أما الملك البويهى (الرحيم) فقد سلم أمره إلى الخليفة ليقرر ما يشاء، و كذلك فعل من كان مع الرحيم من الأمراء، فكان رأى الخليفة أن يرسلوا رسولا إلى طغرل بك بإعلان الطاعة، ففعلوا.

ثم أرسل إلى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد فأذن له، و خرج لاستقباله موكب حاشد فيه الوزير رئيس الرؤساء و القضاة و النقباء و الأشراف و أعيان الدولة مع وجوه الأمراء من عسكر الرحيم. فلما علم طغرل بك بتوجه المستقبلين إليه أرسل وفدا من قبله لملاقاتهم وزيره أبا نصر الكندرى مع بعض الأمراء و دخل بغداد.

إذا كان طغرل بك قد استقبل - حكوميا- بهذا الاستقبال الحافل، فإن عواطف الشعب لم تكن متوافقة مع هذا الاستقبال الحكومى.

و من الغريب - كما سنرى - أن دخول طغرل بك إلى بغداد و إعلان اسمه في الخطبة، كان يعنى نهاية الحكم البويهى الشيعى و حلول الحكم السلجوقى السنى مكانه، و مع ذلك فإن البغداديين السنيين هم الذين بادروه بالمقاومة و الثورة، في حين قابله الشيعة بالهدوء و السكينة و حماية جنوده من الاعتداءات السنية عليهم!! إن المؤرخ لا يستطيع أن يمر بهذا الأمر دون أن يقف عليه وقوفا طويلا، و دون أن يتساءل لماذا قابل سنيو بغداد طغرل بك و حكمه السلجوقى، بهذه الغضبة الدموية، و لماذا كان هدوء الشيعة و سكينتهم؟! ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١

الحقيقة في ذلك تشرف البويهيين و حكمهم، و تدل على أن البويهيين لم يكونوا يؤثرون فريقا على فريق، فالسنيون لم يروا في زوال حكمهم زوال عهد كان لا ينصفهم و يتعصب عليهم، و الشيعة لم يروا في ذلك خسرانا، لأن الحكم الزائل لم يكن يميزهم بشيء، فهم لا يخسرون شيئا بزواله و حلول حكم آخر محله، و قد فضلوا أن يبادروه بالإحسان إليه كما سنرى و السكوت عنه اتقاء لشر يمكن أن يحل بهم منه.

و ثورة السنيين إنما جاءت لما كان يتسرب إليهم من أخبار مظالم السلاجقة فيما كان بأيديهم من بلاد.

بدأت الاضطرابات ابتداء غريبا، فابن الأثير يقول: لما وصل السلطان طغرل بك بغداد دخل عسكره البلد للامتيار و شراء ما يريدونه من أهلها، و أحسنوا معاملتهم. ثم يقول: فلما كان الغد جاء بعض العسكر إلى باب الأزج و أخذ واحدا من أهله ليطلب منه تبا، و هو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم و صاح العامة بهم و رجموهم و هاجوا عليهم.

و سمع الناس الصياح فظنوا أن الملك الرحيم و عسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتج البلد من أقطاره، و أقبلوا من كل حذب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد إلا - أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم و حفظوهم (انتهى).

فى اليوم الأول كان التعامل حسنا بين الجنود (الغز) جنود طغرل بك و بين البغداديين، فالجنود امتاروا من تجار بغداد و أحسنوا التعامل معهم، و فى اليوم الثانى جاء جماعة منهم يريدون شراء التبن لدوابهم، و يبدو جليا أنهم لم يكونوا يعرفون كلمه (التبن) العريية، فحاولوا إفهام أحد المارة ما يريدون فأخذه جانبا ليتفاهموا معه، فظن أنهم يريدون به شراء، فاستنصر بالناس فنصروه و تألب عليهم الجمهور و صاحوا بهم و رجموهم و تكاثروا عليهم!.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢

لو كان البغداديون مبتهجين بزوال الحكم البويهى الشيعى لأغضوا عن استنجد ذاك الفرد المستنجد و لأقبلوا إليه و إلى من استنجد عليهم محاولين الاستفهام عما يجرى و لفضوا المشكل بين الفريقين بأهون سبيل ..

و لو كانوا مستبشرين بقدوم من أراحهم من حكم البويهيين لطبوا خاطر الجنود الغز و تعرفوا إلى حاجتهم و بادروا بإرشادهم إلى باعة التبن و اعتذروا إليهم عن سوء ظن ذاك الفرد بهم، و لتصافوا جميعا و انتهى الأمر بالتوادد و التحاب.

و لكن البغداديين كانوا آسفين لانقضاء العهد البويهى غاضبين على من أنهاه، فلم يكادوا يسمعون صرخة الاستنجد حتى هاجموا جنود طغرل بك و رجموهم دون أن يحاولوا الاستفسار عن سبب الخلاف، و الاستعلام من الجنود عما يريدون.

على أن الأخطر من ذلك هو أن الأمر لم يقتصر على من شهدوا التجاذب بين البغدادى و جنود طغرل بك فهاجوا على الجنود و رجموهم، بل تعدى إلى الجمهور البغدادى السنى كله، هذا الجمهور الذى وصفه ابن الأثير بقوله:

(و سمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم و عسكره قد عزموا على قتال طغرل بك فارتج البلد من أقطاره، و أقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد فى محال بغداد، إلا- أهل الكرخ (الشيعه) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز و حفظوهم، و معنى ذلك أن البغداديين حين علموا بتسليم الملك البويهى بالأمر الواقع و عدم مقاومته للاحتلال السلجوقى سكتوا و سلموا مثله بالأمر الواقع. و لكنهم حينما سمعوا الصياح و رأوا اشتباك مواطنيهم مع الغز جنود طغرل بك، ظنوا بأن الملك البويهى (الرحيم) غير رأيه و عزم على المقاومة، لذلك ارتج البلد بهم و أقبلوا من كل حدب ينسلون، و راحوا يقتلون كل من يصادفونه من الجنود، و أعلنوها ثورة عامة على طغرل بك و احتلاله.

أما أهل الكرخ (الشيعه) فقد كان موقفهم مغايرا، و يبدو واضحا أنهم لم يشاركوا فى هذه الثورة، بل راحوا يجمعون الجنود الغز و يحفظونهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣

و هذا ما يدعو إلى التفكير الطويل: السنيون يثرون على المحتل السنى القادم إليهم، و ينتصرون للحاكم الشيعى و يثرون معه حين توهموا أنه تائر على المحتلين، و لا يباليون أن يقتلوا الجنود السنيين حيث وجدوهم.

و الشيعه يقفون على الحياد فلا ينتصرون للحاكم الشيعى، و لا يثرون على الحاكم السنى، و يزيدون على ذلك بأن يجمعوا الجنود السنيين و يحموهم و يصونوا دماءهم!!

التفسير الصحيح لذلك- كما أشرنا من قبل- هو أن الحكم البويهى كان حكما عادلا غير متحيز لفريق على فريق، و أن السنيين كانوا راضين كل الرضا عن هذا الحكم الذى لم يسء لا إلى حياتهم العامة و لا إلى مذهبيتهم، و لم يتدخل فى طقوسهم و عقائدهم، بل تركهم أحرارا فى كل شىء، و الحرية هى مطمح الإنسان، فإذا حصل عليها فكل شىء بعدها يهون.

و كل ما فعله الحكم البويهى هو أنه كما ترك السنيين أحرارا، رفع الحيف عن الآخرين و أعاد إليهم حريرتهم المغتصبه، و تركهم يمارسون هذه الحرية فى طقوسهم و عقائدهم ..

و بذلك تساوى الجميع، بعد أن كانت الحرية لفريق دون فريق ..

و سمعة الحكم السلجوقى كانت سيئة لدى البغداديين، و أخبار مظالمه كانت تصل إليهم.

لذلك رأيناهم يقفون منه ذاك الموقف الحاد حين رأوه يصل إليهم. والإنسان لا تهمة حرته العقائدية فقط، بل تهمة حرته الكاملة، فماذا يجديه إذا كانت تترك له حرته العقائدية في حين تسلب منه حرية الحياة في كرامته و ماله و عيشه و اجتنائه العدل الاجتماعي. ونحن هنا لا نريد أن نستعرض الحكم البويهى الذى قابل البغداديون انتهائه بالثورة على من أنهاه، و حسبنا فى أن نورد نماذج مما شهد به المؤرخون من نصاعة

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤

الحكم البويهى، فابن الأثير يقول مثلا و هو يتحدث عن ظفر معز الدولة أبى الحسين أحمد بن بويه بياقوت و ملك شيراز بعد معركة شرسة.

يقول: كان معز الدولة فى ذلك من أحسن الناس أثرا، ثم يقول: إن معز الدولة وجد فيما غنمه بعد النصر: برانس لبيد عليها أذنان الثعالب و وجد قيودا و أغلالا، فسأل عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم و يطاف بكم فى البلاد. فأشار أصحاب معز الدولة أن يفعل بهم مثل ذلك، فامتنع و قال: إنه بغى و لوم ظفر، و قد لقي ياقوت بغيه.

ثم أحسن إلى الأسارى، و أطلقهم و قال: هذه نعمه و الشكر عليها واجب يقتضى المزيد، و خير الأسارى بين المقام عنده و اللحوق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم و أحسن إليهم.

و سار من موضع الوقعة حتى نزل بشيراز، و نادى فى الناس بالأمان و بث العدل، و أقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم ... و يصفه عند ذكر موته (ص ٥٧٥) بقوله: كان حليما كريما عاقلا.

و عندما يتحدث ابن الأثير (ص ٦٧٠) عن ركن الدولة البويهى يقول:

كان حليما، كريما، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، و جنده رءوفا بهم، عادلا فى الحكم بينهم، و كان بعيد الهمة، عظيم الجد و السعادة، متحرجا من الظلم، مانعا لأصحابه منه، عفيفا عن الدماء، يرى حقنها واجبا إلا فيما لا بد منه. و كان يحامى على أهل البيوتات و كان يجرى عليهم الأرزاق و يصونهم عن التبذل، و كان يقصد المساجد الجامعة فى أشهر الصيام، للصلاة، و ينتصب لرد المظالم، و يتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، و يتصدق بالأموال الجليئة على ذوى الحاجات، و يلين جانبه للخاص و العام. ثم يختم ابن الأثير الحديث عنه قائلا: رضى الله عنه و أرضاه.

و مثل هذا القول لا يقال إلا للخلفاء الراشدين.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥

و يقول ابن الأثير عن عضد الدولة: كان عاقلا فاضلا حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأى محبا للفضائل و أهلها، باذلا فى مواضع العطاء، مانعا فى أماكن الحزم، ناظرا فى عواقب الأمور. و بنى على مدينه النبى (صلّى الله عليه و سلم) سورا، و كان لا يعول فى الأمور إلا على الكفاءة، و لا يجعل للشفاعات طريقا إلى معارضة من ليس من جنس الشافع و لا فيما يتعلق به.

حكى عنه: أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته و يعدله، فقال: ليس هذا من أشغالك، إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد، و نقل مرتبة جندى و ما يتعلق بهم. و أما الشهادة و قبولها، فهو إلى القاضى، و ليس لنا، و لا لك الكلام فيه، و متى عرف القضاء من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته، فعلا ذلك بغير شفاعه. و كان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئا كثيرا من الأموال للصدقة و البر فى سائر بلاده، و يأمر بتسليم ذلك إلى القضاء و وجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقه.

و كان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم و يحاسبهم به إذا عملوا. و كان محبا للعلوم و أهلها مقربا لهم محسنا إليهم، و كان يجلس معهم يعارضهم فى المسائل، فقصد العلماء من كل بلد و صنفوا له الكتب منها: (الإيضاح) فى النحو، و (الحجة) فى القراءات،

و (الملكي) في الطب، و (التاجي) في التاريخ إلى غير ذلك، و عمل المصالح في سائر البلاد كالبيمارستانات (المستشفيات) و القناطر (الجسور) و غير ذلك من المصالح العامة.

هذه نماذج مما تحدث به المؤرخون عن رجال الحكم البويهى، لذلك لا نعجب إذا رأينا البغداديين الذين لم يكونوا على مذهبهم يغضبون لزوال حكمهم و يثورون على من أزال هذا الحكم.

أما الشيعة فلم يشاءوا أن يورطوا أنفسهم في ثورة اعتقدوا أنها فاشلة، فاجعلوا للحاكم الجديد سبيلا للإيغال في اضطهادهم، و رأوا أن يكون لهم يد بيضاء عنده في

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦

حمايتهم لجنوده و عدم التعرض لهم بالأذى و صون دمائهم. لعل هذه اليد تردعه عما يتوقعون من شره! ..

و بالفعل فقد بدا أن موقفهم هذا قد أثمر، و لكن المؤسف أن هذا الإثمار كان إلى حين.

لقد بلغ طغرل بك ما فعله الشيعة من حماية جنوده، فأمر بإحسان معاملتهم و أرسل وزيره إلى نقيب العلويين عدنان بن الشريف الرضى الذى كان يتولى نقابة العلويين بعد وفاة عمه الشريف المرتضى، و قد كان عدنان هذا أبرز شخصية شيعية في بغداد، بل كان رأس الشيعة فيها.

أرسل الوزير إلى النقيب يطلب إليه الحضور لمقابلته، فجاء إليه فشكره باسم طغرل بك، و ترك عنده خيلا بأمر طغرل بك تحرسه و تحرس المحلة كلها.

و معنى ذلك أنهم كانوا يتوجسون من اعتداءات ربما تقع على النقيب و على المحلة بسبب الموقف الحيادى الذى وقفته.

لقد كانت الثورة على الحكم الجديد ثورة هو جاء بدون قيادة و بدون تخطيط، فالعامه حين رأوا أنهم نجحوا فى قتل من قتلوا من الجنود، خرجوا إلى ظاهر بغداد حيث يعسكر الجيش السلجوقى، و خرج معهم جماعة من العسكر، بقصد الاشتباك بالجيش.

و فى تقديرات ابن الأثير أنه لو خرج معهم الملك الرحيم و من لديه من جنود لانتصرت الثورة.

و هذا غير بعيد؛ لأن فى ذلك على الأقل وجود قيادة، و وجود جنود محترفين.

و لكن يبدو أن (الرحيم) لم يكن من رجال مثل هذا الموقف الذى يقتضى شجاعة و حزما و حسن تدبير، لذلك تخلف عن الالتحاق بالثائرين و تخلف معه جنوده.

أما أعيان أصحابه فقد أسرعوا دفعا للتمهنة عنهم إلى دار الخلافة و أقاموا فيها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧

و وقع الصدام خارج بغداد بين الجماعات الثائرة و بين الجيش السلجوقى و كثرت القتلى من الفريقين.

و كان من الطبيعى أن تكون نهاية تلك الجماعات: الهزيمة؛ لأنه كان يعوز ثورتها شيان: التخطيط، و القيادة.

و كان هذان الشيطان الأساسيان مفقودين لدى الثوار المقاتلين، إذ إن ثورتهم انبعثت من انفعال جماهيرى طارئ فانتهدت إلى الهزيمة، و إحكام سيطرة طغرل بك على بغداد.

تحققت هواجس البغداديين فافتتح الحكم السلجوقى أمره بالنهب، و يصف ابن الأثير ما كان يجرى قائلا: و نهب الغز درب يحيى و درب سليم، و به دور رئيس الرؤساء و دور أهله فنهب الجميع. ا. ه. و رئيس الرؤساء هذا هو وزير الخليفة و هو الذى ذكرنا من قبل أنه خرج على رأس موكب حافل لاستقبال طغرل بك.

فلم يشفع له منصبه و استقباله و حفاوته، بل نهبت دوره و دور أهله.

و يسترسل ابن الأثير فى وصف ما افتتح به السلاجقة حكمهم فى العراق قائلا:

و نهبت الرصافة و ترب الخلفاء و أخذ منها من الأموال ما لا يحصى؛ لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقادا منهم أنها

محترمة.

و وصل النهب إلى أطراف نهر المعلى، و اشتد البلاء على الناس و عظم الخوف ا. ه.

و تجاهل طغرل بك ذلك كله، و كل ما فعله أنه أراد التخلص من ارتباطات و عوده للملك الرحيم التي كانت بتوسط الخليفة، فأرسل إلى الخليفة يعتب، و ينسب ما جرى إلى الملك الرحيم و أجناده، و يقول: إذا حضروا برئت ساحتهم، و إن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضع منهم. و أرسل للملك الرحيم و أعيان أصحابه أمانا لهم، فطلب إليهم الخليفة أن يذهبوا إلى طغرل بك و أرسل معهم رسولا من قبله يبرئهم مما يتهمهم به طغرل بك.

فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الجنود و نهبوا رسل الخليفة و أخذوا دوابهم و ثيابهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨

و مع أن احتلال السلاجقة للعراق و دخول طغرل بك بغداد كان في حقيقة الأمر نتيجة تواطؤ بين السلاجقة و الخليفة تخلصا من سيطرة البويهيين على الخلافة، فإن هيبه الخلافة انتهكت من السلاجقة في أول يوم وصلوا فيه إلى بغداد، و ذلك بإهانة رسل الخليفة و نهبهم و تجريدهم حتى من ثيابهم.

و زيد في الأمر أن الملك الرحيم و من معه إنما ذهبوا إلى طغرل بك بضمن الخليفة و رسالته بتبرئتهم، و لكن طغرل بك لم يبال بذلك، فبمجرد دخولهم عليه، أمر بالقبض عليهم و سجنهم، ثم أرسل الملك الرحيم معتقلا إلى قلعة السيروان.

و حال الخليفة ما لحقه من الإهانة بالقبض على الرحيم و أصحابه، و ما كان قد جرى على رسله، و نهب بغداد على مرآى و مسمع منه، فأرسل إلى طغرل بك ينكر ما جرى من القبض على الرحيم و جماعته، و الاعتداء على قصر الخلافة ببغداد و نهبها و ترويع أهلها. و يقول في رسالته:

(إنهم (الرحيم و صحبه) إنما خرجوا إليك بأمرى و أمانى، فإن أطلقتهم، و إلا فأنا أفارق بغداد، فإنى إنما اخترتك و استدعيتك اعتقادا منى أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، و حرمة الحريم تعظم، و أرى الأمر بالضد).

و إزاء هذه الغضبة الخليفية أطلق طغرل بك بعض المقبوض عليهم، أما الرحيم و هو المقصود الأول بكلام الخليفة فقد احتفظ به مقبوضا عليه و أرسله معتقلا سجينا إلى قلعة السيروان، كما مر.

و هكذا ظلت غضبة الخليفة بلا نتيجة عملية، فكان هذا بداية الاستهتار بمقام الخلافة، و بداية إذلالها و إحكام السيطرة عليها.

و أما ما يتعلق باحتجاج الخليفة على ما جرى على أهل بغداد، فقد قوبل بمد النهب و الترويع إلى ما يتجاوز بغداد و يصل إلى سوادها و أريافها، و ظل المد يتعاضم حتى صار مداه من الجانب الغربى من تكريت إلى النيل و من الشرقى إلى النهروان و أسافل الأعمال، كما ذكر ابن الأثير.

أى: أن النهب شمل معظم العراق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩

و يضيف ابن الأثير إلى ذلك قائلا: و خرب السواد و أجلى أهله عنه. هذه هي فاتحة أعمال السلاجقة في العراق التي عاملوا بها العراقيين جميعا السنين منهم و الشيعة.

على أنهم لم ينسوا أن يخصوصوا الشيعة الذين لم يشاركوا في الثورة عليهم، و حموا جنودهم من القتل و آوهم في دورهم، لم ينسوا أن يخصوصهم بنوع من الجور لا يطال غيرهم. فالشيعة لا يقولون في آذان السحر: (الصلاة خير من النوم)، بل يقولون بدلا عن ذلك (حى على خير العمل).

فإذا بأوامر طغرل بك من أول يوم تدخل في شئونهم المذهبية و تفرض عليهم أن يتركوا حى على خير العمل، و يبدلوها بالصلاة خير من النوم.



فى حين أن البويهيين الذين طال حكمهم فى بغداد و العراق لم يتدخلوا فى مثل هذه الشؤون، و تركوا الناس أحرارا فى طقوسهم المذهبية.

و سينال الشيعة ما هو أشد من هذا و أقطع.

### طغرل بك فى العراق

استقر طغرل بك فى بغداد و أمضى فيها ثلاثة عشر شهرا و أياما دون أن يلق الخليفة. و قد كان فى هذا تجاهل لمقام الخلافة و استهانة بالخليفة.

و هذا الخليفة الذى تأمر مع السلاجقة على البويهيين، عامله السلاجقة بالمهانة منذ اليوم الذى دخلوا فيه بغداد، كما رأينا فيما تقدم من الأحداث. و توات هذه المهانة إلى الحد الذى لم ير فيه الملك السلجوقى أن عليه أن يزور الخليفة! .. و إذا كان ما لقيه الخليفة هو المهانة، فإن ما لقيه الشعب هو الإذلال و الإفقار.

يقول ابن الأثير: (طال مقام السلطان طغرل بك ببغداد و عم الخلق ضرر عسكره، و ضاقت عليهم مساكنهم فإن العسكر نزلوا فيها و غلبهم على أقواتهم و ارتكبوا منهم كل محذور).

هذه الصورة الموجزة فى كلامه ترينا واقع الحال التى كان عليها أهالى بغداد فى حكم السلاجقة: الجنود يشاطرونهم السكنى فى دورهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠

و نستطيع أن نتصور بضعة جنود يساكنون أسرة فى منزلها، الأسرة المكونة من رجال و نساء و أطفال. و على هذه الأسرة أن تتكفل بإطعام هؤلاء الجنود، و فوق ذلك يرتكب هؤلاء الجنود فى الأسرة كل محذور!! و المحظورات التى لم يشأ ابن الأثير أن يعددها نستطيع أن نتخيلها و نحسها!.

هال الخليفة القائم بأمر الله ما يلقاه الشعب البغدادى- لا سيما و أنه المسئول الأول عن احتلال السلاجقة لبغداد- و ما دام السلطان السلجوقى يتجاهله، فقد رأى أن لا يخاطبه، و لا يتصل به مباشرة، فكلف وزيره الملقب رئيس الرؤساء: أن يكتب إلى عميد الملك الكندرى وزير السلطان أن يحضر لمقابلة الوزير فإذا حضر بين له عن الخليفة ما الناس فيه من البلاء، فإن أزال ذلك، و إلا يساعد الخليفة على الانتزاع عن بغداد ليعبد عن المنكرات.

و لا شك أن الخليفة قد تصرف تصرفا فيه كل الدقة (الدبلوماسية)، فهو لم يخاطب السلطان بنفسه، فدلل بذلك على أنه لا يعترف به. ثم هو لم يطلب من وزيره أن يذهب لمخاطبة وزير السلطان، بل طلب إليه استدعاءه إليه، فدلل بذلك على أنه هو و وزيره أصحاب السلطة الشرعية ...

و جاء الكندرى و تبلغ أمر الخليفة، و مضى إلى السلطان يبلغه ذلك. فاعتذر السلطان بكثرة العساكر و عجزه عن تهذيبهم و ضبطهم، و أمر الكندرى أن يبلغ عذره هذا إلى وزير الخليفة ..

و بذلك أبدى إصراره على استدامة الحال على ما كانت عليه، و رفض تعليمات الخليفة برفع البلاء، و عدم اكترائه بتهديد الخليفة بالرحيل عن بغداد ...

و هنا حدث ما لم يكن بالحسبان: فقد حصلت عند سنجار معركة حربية بين (البساسيرى)- سيأتى الحديث عنه- و معه نور الدولة بن ديبس بن مزيد، و بين قريش بن بدران صاحب الموصل و معه (قتلمش) فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قريش و قتل عدد الكثير من أصحابهما.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١

أما قتلش المنهزم بأصحابه فقد لقي هو وأصحابه من أهل سنجار الأذى البالغ.

و أما قریش بن بدران فقد جرح في المعركة، فجاء إلى نور الدولة ديبس بن مزید، فرحب به ديبس وأعطاه خلعة كانت قد وصلت من مصر فلبسها.

و انضم إليهم. و ساروا جميعا إلى الموصل و أعلنوا انضمامها إلى الخلافة الفاطمية و خطبوا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله. وصلت أنباء ما جرى إلى طغرل بك في بغداد و هو في عنفوان تجبره و استعلائه على الخليفة و إصراره على اضطهاد الشعب العراقي. و يبدو جليا أنها وصلت في نفس اليوم الذي رد فيه على رسالته وزير الخليفة بما رد، و بعد أن حمل وزيره الكندري رده إلى وزير الخليفة.

فأمام الخطر الداهم الذي فجأته أخباره عما جرى في الموصل، و الخشية من تفاقم الأمور و امتداد العصيان باتجاه بغداد، و قد بدت طلائعه بما جرى على ابن عمه و ممثله (قتلمش) في سنجار أمام ذلك، لم يجد بدا من التراجع عن طغيانه، و استرضاء الخليفة و البغداديين، و إيجاد مخرج لذلك، لا يبدو فيه ضعيفا متخاذلا، متراجعا عما عزم عليه، خائفا من الآتي.

كان المخرج هو ادعائه أنه رأى في تلك الليلة في منامه النبي (صلى الله عليه و سلم) عند الكعبة و كأنه يسلم على النبي و هو معرض عنه لم يلتفت إليه، و قال له: يحكمك الله في بلاده و عباده فلا تراقبه فيهم و لا تستحى من جلاله عز و جل في سوء معاملتهم و تفتري بإهماله عند الجور عليهم.

و تظاهر بأنه استيقظ فرعا، و أحضر وزيره الكندري و حدثه بما ادعى أنه رآه و أرسله إلى الخليفة يعرفه أنه يقابل ما رسم به بالسمع و الطاعة.

و أخرج الجند من دور العامة، و أمر أن يظهر من كان مخفيا إلى غير ذلك ...

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢

ثم تجهز طغرل بك و ترك بغداد لإخماد تمرد الموصل، فلما بلغ بجيشه (أوانا) نسي النبي (صلى الله عليه و سلم) و نسي المنام، فأعمل جيشه النهب فيها و في عكبرا و في كل ما كان يمر به في طريقه. و وصل تكريت فسلمت البلدة بمال قدمه صاحبها لطرغرل بك.

و لما وصل (البوازيج) أقام فيها حتى دخلت سنة ٤٤٩ ه فأتاه أخوه (ياقوتي) بالعساكر فسار بهم إلى الموصل و استخلصها.

و لما بدت لدبيس بن مزید و قریش بن بدران مظاهر قوة طغرل بك أسرعوا يوسطان من يشفع لهما عنده و يعفو عنهما ففعل.

و لكن إبراهيم (ينال) أخوه قال للوزير الكندري: من هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان و تصلح بينهم؟. هذا هو احترام السلاجقة للعرب! ...

ثم سار طغرل بك إلى ديار بكر و جزيرة ابن عمر، و لما كان يحاصرها سار جماعة من الجيش إلى (عمر اكمين) و فيه أربع مئة راهب فذبوا منهم مئة و عشرين راهبا، و افتدى الباقون أنفسهم بستة مكايك ذهباً ...

أرسلان البساسيري هو في الأصل مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهى، ثم صار من جملة الأمراء عند البويهيين يرسلونه في مهماتهم، ثم ترقى به الحال و تقدم عند الخليفة القائم و قلده الأمور بأسرها و خطب له على المنابر و هابته الملوكة، ثم جرت بينه و بين وزير الخليفة الملقب رئيس الرؤساء منافرات فخرج البساسيري من بغداد و جمع و استولى على بغداد، و أخرج الخليفة منها، و خطب للمستنصر الفاطمي و قتل رئيس الرؤساء شرقتله، و استولى على بغداد سنة كاملة. - في تفاصيل سنعرض لبعضها بقدر ما له ارتباط بموضوعنا -.

و مما يدل على كفاءة البساسيري، ما يذكره ابن الأثير في أحداث سنة ٤٢٥ ه من أنه فيها استخلف البساسيري في حماية الجانب الغربي ببغداد لأن العتارين اشتد أمرهم و عظم فسادهم و عجز عنهم نواب السلطان فاستعملوا البساسيري لكفايته و نهضته.

فهو يبدو هنا إداريا حازما معدا لمواجهة صعاب الأمور.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣

و في أخبار سنة ٤٣٢ هـ نقرأ أن خلافا قام بين جلال الدولة البويهى و بين قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل و أن جلال الدولة أرسل أبا الحارث البساسيرى فى مهمة عسكرية ناتجة من هذا الخلاف. و فى أحداث سنة ٤٤١ هـ نقرأ أن جمعا من بنى عقيل ساروا إلى بلاد العجم من أعمال العراق و بادوريا فنهوهما و أخذوا من الأموال الكثير، و كانا فى إقطاع البساسيرى فسار من بغداد بعد عودته من فارس إليهم، فالتقوا هم و زعيم الدولة أبو كامل بن المقلد، و اقتتلوا قتالا شديدا أبلى الفريقان فيه بلاء حسنا، و صبرا جميلا و قتل جماعة من الفريقين.

و ابن الأثير راوى هذا الخبر لم يحدثنا من قبل عن سفر البساسيرى إلى فارس، و لا هو حدثنا هنا عما آلت إليه تلك الحرب!

و إن نكن عرفنا أنه قد أصبح للبساسيرى إقطاعات عديدة واسعة و أن له مقاتلين ينفرون معه لقتال أعدائه قتالا شديدا.

ثم لا نلبث أن نقرأ أن حربا شديدة قامت بين نور الدولة دبيس بن مزيد و بين الأتراك الواسطيين، و أنه بعد وقوع الهزيمة على الواسطيين أرسلوا إلى بغداد يستجدون جندها، و أنهم بذلوا للبساسيرى أن يدفع عنهم نور الدولة، و يأخذ نهر الصلة و نهر الفصل لنفسه.

ثم نقرأ أن قرواشا أساء السيرة فى أهل الأنبار و مديده إلى أموالهم، فسار جماعة من أهلها إلى البساسيرى فى بغداد و سألوه أن ينفذ معهم عسكريا يسلمون إليه الأنبار فأجابهم إلى ذلك، و سير معهم جيشا، فتسلموا الأنبار، و لحقهم البساسيرى و أحسن إلى أهلها، و عدل فيهم، و لم يمكن أحدا من أصحابه أن يأخذ رطل خبز بدون ثمنه، و أقام فيها إلى أن أصلح حالها و قرر قواعدها و عاد إلى بغداد.

فها هنا يبدو البساسيرى صاحب عسكر مستقل بأمره يستجد به فينجد ...

ثم نراه بعد ذلك يسير من بغداد إلى طريق خراسان و يقصد ناحية الدزدار و يملكها و يغنم ما فيها، و كان سعدى بن أبى الشوك قد ملكها و قد عمل لها سورا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤

و حصنها و جعلها معقلا يتحصن به و يدخر بها كل ما يغنمه فأخذ البساسيرى جميعه.

و فى سنة ٤٤٣ هـ نرى البساسيرى إلى جانب الملك البويهى الرحيم مع دبيس بن مزيد و غيره يشرفون على ما تحقق من نصر للملك الرحيم فى التمرد الذى قام به جمع كثير من العرب و الأكراد فى خوزستان.

و فى أحداث سنة ٤٤٤ هـ نرى أن الملك الرحيم يسلم البصرة إلى البساسيرى، و فى السنة نفسها يزوج نور الدولة دبيس بن مزيد ابنه بهاء الدولة منصورا بابتنة أبى البركات بن البساسيرى.

و فى سنة ٤٤٥ هـ يصل الخبر إلى بغداد بأن جمعا من الأكراد و جمعا من الأعراب قد أفسدوا فى البلاد و قطعوا الطريق و نهبوا القرى، فيسير إليهم البساسيرى و يتبعهم إلى البوازيج فيوقع بطوائف كثيرة منهم و يقتل فيهم و يغنم أموالهم و ينهزم بعضهم، فيعبرون الزاب عند البوازيج فلا يدرکہم و لا يتمكن من العبور إليهم لزيادة الماء و بذلك نجوا و فى سنة ٤٤٦ هـ يرد اسم البساسيرى خلال ذكر فتنة فى بغداد هكذا: (و ركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم فنهوها و أحرقوا البيع و القلايات و نهبوا دار أبى الحسن بن عبيد وزير البساسيرى).

إذن فقد صار للبساسيرى وزير، و لكن ما هو المنصب الذى يشغله ليكون له وزير؟ إننا حتى الآن و فى جميع الأحداث التى تقدم ذكرها، لم نعرث فيما كتب عنه على اسم المنصب الذى يشغله أو المناصب التى تدرج فيها إلى أن بلغ المنصب الذى يصح أن يكون له فيه وزير.

على أنه في كل ما مر ذكره من تصرفاته يبدو مستقلا في هذه التصرفات لا يتلقى أوامره من أحد، مع أنه مقيم في عاصمة الحكم بغداد، وفيها الخليفة العباسي و الملك البويهى!.

و يبدو استقلاله الطاغى فيما حدث هذه السنة نفسها من هجوم بنى خفاجة على الجامعين و أعمال نور الدولة ديبس و نهبهم و فتكهم فى تلك النواحي، فأرسل

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥

نور الدولة إلى البساسيرى يستنجده فسار إليه منجدا و عبر الفرات فانهمز الخفاجيون و أوقع البساسيرى بهم و نهب أموالهم و شردهم كل مشرد، و عاد إلى بغداد و معه منهم خمسة عشرون رجلا فقتل جماعة و صلب جماعة.

و هذا كله يدل على تفرد فى السلطة لا يرجع فيه لا إلى الخليفة و لا إلى الملك و لا إلى الوزير. و لما حصر قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار و فتحها و خطب لطرغل بك فيها و فى سائر أعماله و نهب ما كان فيها للبساسيرى و غيره، جمع البساسيرى جموعا كثيرة و قصد الأنبار و حربى فاستعادهما.

ليس فى النصوص التى هى فى أيدينا ما يدل على أن البساسيرى كان يرجع إلى أحد فى تنفيذ ما يريد تنفيذه، و لا أن أحدا ممن أنجدهم كان يطلب الاستنجد من سلطة أعلى من البساسيرى فتتدب هى البساسيرى لإنفاذ النجدة، فيما عدا ما رأيناه فى أول عهده بالبروز من انتدابه لحماية الجانب الغربى ببغداد من تسلط العيارين عليه.

و لا أنه كان يستأذن أحدا فى استعمال القوة فى حماية ما يعتقد أنه من حقه. ثم رأينا أنه كان له وزير.

هذا يدل على انحلال سلطة الملك الرحيم المفروض فيه أنه هو صاحب السلطة الفعلية فى الدولة، و يدل على عدم جدارته لتولى المنصب الذى وصل إليه، مما كان له الأثر الأكبر فى تسهيل سيطرة السلاجقة على الخلافة، و دخول طغرل ببغداد دون أن يلقى مقاومة بويهية كان سبب فقدانها، فقدان الكفاءة القيادية عند الملك الرحيم.

السلطة المطلقة التى صارت للبساسيرى كان من الطبيعى أن لا تكون موضع رضا لا من الخليفة و لا من وزيره الملقب (رئيس الرؤساء) لا سيما من الأخير، فكانا يكتبان غضبهما لعجزهما عن الوقوف فى وجه تنامى نفوذ البساسيرى.

وجد أن اثنين مخاصمين للبساسيرى يسميهما ابن الأثير: أبا الغنائم، و أبا سعيد ابنى المحلبان صاحبى قريش بن بدران و صلا سرا إلى بغداد، مما ساء للبساسيرى و قال:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦

هؤلاء و صاحبهم لبسوا حلل أصحابى و نهبوا و فتحوا البثوق و أسرفوا فى إهلاك الناس، و أراد القبض عليهم فحيل بينه و بين ذلك. و نسب ذلك إلى رئيس الرؤساء، و اجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء فمنعها، و طالب بالضريبة التى عليها، و أسقط ما كان يدفع للخليفة شهريا من دار الضرب، و كذلك ما كان يدفع لرئيس الرؤساء و بعض الحواشى، و أراد هدم دور بنى المحلبان فمنع من ذلك. و قال: ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذى خرب البلاد و أطمع السلاجقة و كاتبهم.

ثم مضى إلى الأنبار، و أحرق ناحيتى (دما) و (الفلوجة)، و كان أبو الغنائم بن المحلبان بالأنبار قد أتاها من بغداد. و جاء نور الدولة ديبس إلى البساسيرى معاونا له على حصار الأنبار.

و نصب البساسيرى عليها المجانيق، و رماهم بالنفط، و دخلها قهرا، فأسر مئة نفس من بنى خفاجة و أسر أبا الغنائم بن المحلبان بعد أن كان قد ألقى نفسه فى الفرات فأخذ، و نهب الأنبار و أسر من أهلها خمس مئة رجل.

و عاد إلى بغداد، و أمامه أبو الغنائم على جمل، و عليه قميص أحمر، و على رأسه برنس، و فى رجليه قيد، و صلب جماعة من الأسرى.

و بالرغم من شدة هذا التحدى لرئيس الرؤساء و للخليفة نفسه، فقد قوبل بالصمت و الهدوء، ما دل على عجزهما عن كبح البساسيرى.

و لكن صدف بعد حين أن صديقا نصرانيا للباسيرى كان ينقل فى سفينة جرار خمر فاستغل هذا الأمر و حرّضت العامة بزعم أن هذا الخمر مرسل إلى الباسيرى فتجمهر خلق كثير.

و مما يدل على أن هناك تحريضا من رئيس الرؤساء أنه كان بين المتجمهرين موظف كبير من موظفى الدولة يصفه ابن الأثير بأنه (حاجب باب المراتب)، و هجم الجميع على السفينة و كسروا جرار الخمر و أراقوها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧

و بلغ ذلك الباسيرى، و بلغه ما أشيع باطلا بأن جرار الخمر مرسله إليه فعظم الأمر عليه، و نسب ما جرى إلى رئيس الرؤساء. فكان أن استصدر فتاوى من فقهاء الحنفية بأن الذى فعل، من كسر الجرار، و إراقة الخمر تعد غير واجب، و هى ملك رجل نصرانى لا يجوز.

و حرّض رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على الطعن فى الباسيرى و ذمه و التشنيع عليه، و نسب إليه كل ما ينالهم من أذى. فلم يلبثوا أن جاءوا إلى الخليفة، يستأذنونه فى التعدى على دور الباسيرى، و نهبها فأذن لهم فساروا إليها و نهبوا و أحرقوها و نكلوا بنسائه و أهله و نوابه، و نهبوا دوابه و جميع ما يملكه فى بغداد.

و راح رئيس الرؤساء يتناول فى مجالسه الباسيرى ذاما له، ناسبا إليه التآمر مع الخلافة الفاطمية فى مصر و مراسلة الخليفة المستنصر. و فسدت الأمور بين الخليفة، و الباسيرى إلى الحد الذى لا يمكن معه إصلاحها. و أرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد الباسيرى فأبعده.

و يقرر ابن الأثير: أن هذه الحالة كانت من أعظم الأسباب فى ملك السلطان طغرل بك العراق و القبض على الملك الرحيم. ثم حدثت معركة سنجار، و الاستيلاء على الموصل التى أشرنا إليها فيما تقدم، و بذلك جاهر الباسيرى بالثورة و مارسها عمليا و أعلن الانتماء إلى الخلافة الفاطمية.

و فى سنة ٤٥٠ هـ قام الباسيرى بمحاولة ثانية للاستيلاء على الموصل، بالتعاون مع قريش بن بدران، فاستوليا على المدينة، و لم يستوليا على القلعة إلا بعد حصار أربعة أشهر.

و هنا كانت ثورة الباسيرى قد أصبحت ثورة على الحكم السلجوقى الذى صار هو المسيطر على العراق، فلما بلغ طغرل بك ما جرى فى الموصل سارع إليها فلم يجد أحدا؛ لأن الباسيرى و قريش كانا قد غادراها، فمضى وراءهما إلى نصيبين.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨

على أن طغرل بك واجه هنا انشقاقا عائليا هو انفصال أخيه إبراهيم (ينال) عنه و توجهه إلى همدان. و كان إبراهيم هذا قد انشق عن أخيه قبل اليوم، و كان أخوه طغرل يصفح عنه عندما يظفر به، و لكن بدا أن الانشقاق هذه المرة كان أبعد اتجاهها، و أكثر خطرا من كل انشقاق سابق، إذ قيل: إنه كان نتيجة اتصال الفاطميين به، و تحالف بينه و بين الباسيرى. و سنعرض فى مكان آخر لهذا الانشقاق فى تفاصيل أوسع.

و كان الباسيرى يواصل ثورته و تقدم فاحتل بغداد و معه قريش بن بدران، و يفهم من نص ابن الأثير: أن قوته لم تكن تتجاوز أربع مئة غلام على غاية الضر و الفقر، و قوة قريش بن بدران تبلغ مئتي فارس. كذلك يفهم منه أنه كان يقابله العسكر و العوام، و مع ذلك فإنه بهذه القوة القليلة واجه العسكر و العوام.

و العوام الذين يذكّرهم ابن الأثير هنا ربما كانوا بعض المرتزقة، أو بعض من ينعقون مع كل ناعق. و الدليل على ذلك أن ابن الأثير نفسه يقول بعد بضعة سطور من قوله هذا، و هو يذكر أن هناك من كان لا يرى الاصطدام عسكريا بالباسيرى بسبب ميل العامة إلى الباسيرى يقول: أما الشيعة فللمذهب، و أما السنة فلما فعل بهم الأتراك (السلاجقة).

هذا القول الذى سجله ابن الأثير فى تاريخه يرينا حقيقة النعمة الشعبية على السلاجقة، فهو قبل أن يقول هذا القول، يذكر أن

البساسيري أعلن الانضمام إلى الخلافة الفاطمية، وخطب في جامع المنصور للخليفة الفاطمي المستنصر، وأمر بالأذان بحى على خير العمل.

والخلافة الفاطمية خلافة شيعية، تعتمد أحد المذاهب الشيعية، والمستنصر خليفه شيعي يمثل ذاك المذهب. والأذان بحى على خير العمل كان يعتبر تحدياً للسنيين الذين لا يأخذون به، كما كان استبداله في أذان الصبح بالصلاة خير من النوم يعتبر تحدياً للشيعه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٩

وفي تلك العصور كانت إذا نشبت الحرب بين حكم شيعي و حكم سني، فإن انتصر الأول كان أول ما يفعله هو الأذان بحى على خير العمل وإلغاء الصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وإذا انتصر الثاني كان يفعل العكس. فنور الدين محمود، مثلاً، عندما افتتح مدينة حلب- وكانت شيعية- كان أول أمر يصدره هو إبطال حى على خير العمل من الأذان، والإعلان بالصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وهدد كل من لا ينفذ هذا الأمر بالعقوبة الشديدة.

وأرسل مراقبين إلى مآذن المدينة كلها يرصدون له ما يجري، فجاء الجواب بأن أوامره نفذت في جميع المآذن ما عدا واحدة منها، رفض مؤذنها في أذان الصبح أن يؤذن بالصلاة خير من النوم. فأمر بأن يرمى من أعلى المئذنة إلى الأرض، ففعل به ذلك و مات تلك الميتة المروعة! ..

وفي المقابل: عند ما نجح إسماعيل الصفوي في إقامة الدولة الشيعية في إيران، كان إذا فتح مدينة، فأول شيء فعله: الأمر بالأذان: حى على خير العمل، وإلغاء:

الصلاة خير من النوم من أذان الصبح.

وكان في ذهنه ما فعله نور الدين محمود في حلب، فأرسل مراقبين إلى جميع المآذن، فجاءه الخبر بأن مؤذنا واحداً أذن صباحاً بالصلاة خير من النوم، فأمر بإلقائه من أعلى المئذنة إلى الأرض! ..

بهذه الفظائع الوحشية كان التعامل نصره للمذاهب، وتأييدا في زعمهم للدين!! أما السنيون في بغداد فلم يباليوا أن يؤذن في جامع المنصور بحى على خير العمل، وأن يعلن انضمامهم إلى خلافة شيعية ما دام في ذلك تخلصهم من حكم السلاجقة. إن في هذه الأحداث البغدادية من العبر ما علينا إلا أن ننظر إليه بعمق وتفكر، وما يدل على أن العصبية المذهبية التي طالما أدت إلى الفتن والتقاتل والتدابح ليست من أصالة الشعوب، بل إن الذين يحركونها إما أن يكونوا عمى البصيرة أو من المستغلين المستفيدين.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٠

فهذا الشعب البغدادي الذي طالما قرأنا في كتاب (الكامل) لابن الأثير نفسه ما كان يثور فيه من الفتن المذهبية، نراه هنا صفاً واحداً في مقاومة الظلم.

هذا الشعب وغيره من الشعوب ممن كانوا يهيجونه لمجرد كلمة تزداد في الأذان، أو تبدل بكلمة أخرى، أو ليغير ذلك من الأسباب، ها هو عندما يواجه الحقائق، يرى أنه لا ضير على هذا الفريق أن لا يرى الفريق الآخر عين ما يراه هو في الشئون المذهبية.

ولكن فقهاء السوء وحكام الجور هم الذين يؤججون العصبية المذهبية والنعرات الدينية.

الأولون ليستغلوا براءة الشعب لمنافعهم، والآخرين ليشغلوه عن التصدي لجورهم والتمرد على ظلمهم.

فهذا البساسيري لما عدل بين الناس، ولم يتعصب لمذهب، كان السنيون والشيعه في مناصرتهم على السواء، ومضى السنيون على أصالتهم الفطرية يؤيدونه على الظالمين وإن كانوا من أتباع مذاهبهم، ولم ينظروا إليه على أنه على غير مذهبهم.

وبالرغم من الرأي القائل بتفادي الصدام العسكري بالبساسيري؛ لأن جماهير الشعب سنية وشيعية تؤيده، وأنه لا توجد قوى سلجوقية

في بغداد تقاتله؛ لأن طغرل بك كان بجنوده في الري منشغلا بتمرد أخيه إبراهيم (ينال) عليه.

بالرغم من ذلك فإن رئيس الرؤساء استجاب للقائلين بالحرب، و كان بذلك يستجيب لأحقاده على البساسيري. فعندما جاءه القاضي الهمذاني واستأذنه في الحرب، و ضمن له قتل البساسيري أذن له، فخرج و معه الخدم و جماعات مختلفة، و أبعدها، و البساسيري يستجرحهم، فلما أبعدها حمل عليهم فانهزموا، و قتل منهم جماعة، و مات في الزحمة جماعة من الأعيان، و نهب باب الأزج، و كان رئيس الرؤساء واقفا دون الباب فدخل الدار، و هرب كل من في الحريم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤١

و بعد هذا النصر رجع البساسيري إلى معسكره مترقبا ما يحدث، و إذا بالخليفة يأمر بدوام القتال على سور الحريم، و لكنهم فوجئوا بالزعيق و نهب الحريم، و هنا رأى الخليفة أن يلجأ إلى هيبه الخلافة و مظاهر قوتها، فركب جواده لابسا السواد شعار الخلافة، و على كتفه البردة شاهرا سيفه، و على رأسه اللواء، و حوله زمرة من العباسيين، و الخدم بالسيوف المسلوله، فإذا به يعلم أن النهب قد وصل إلى أبواب داره، و أن كل هذه التهويلات لم تجد شيئا، فتراجع إلى الورا، و مضى نحو أحد كبار رجاله صاحب لقب (عميد العراق) فوجده قد استأمن إلى قريش، فعاد و صعد المنظره يائسا.

و برز هنا وزير الخليفة رئيس الرؤساء الذي كان بحقه و قصر نظره سبب هذه المحنة برز محاولا حماية الخليفة الذي ورطه بهذا كله باستنهاض مروءة قريش، فصاح:

يا علم الدين، يعنى قريشا: أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا منه قريش، فقال رئيس الرؤساء: قد أنالك الله منزلة لم ينلها أمثالك. و أمير المؤمنين يستند منك على نفسه و أهله و أصحابه بدمام الله تعالى و ذمام رسوله (صلى الله عليه و سلم) و ذمام العريبة. و معنى هذا: أن الخليفة يضع نفسه و أهله و أصحابه في حماية قريش، مستسلما لقضاء الله! ..

و كان قريش عند أمل الخليفة، فأجاب: قد أذم الله تعالى له، قال: ولي؟ و لمن معه؟ قال: نعم. و توكيدا لذلك خلع قريش قلنسوته و أعطها الخليفة، و أعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماما.

فتزل إليه الخليفة و رئيس الرؤساء و صارا معه.

و بلغ خبر ما جرى البساسيري، فأرسل إلى قريش: أتخالف ما استقر بيننا، و تنقض ما تعاهدنا عليه؟!.

و كانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما و أن لا يستبد أحدهما دون الآخر بشيء. و حلا للإشكال، و حذرا من وقوع الخلاف بينهما: اتفقا على أن يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدوه و أن يحتفظ بالخليفة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٢

و هكذا انتهى الأمر به إلى أن يحفظ الذمام نصف حفظ فوفى للخليفة و لم يف لرئيس الرؤساء ...

و مضى برئيس الرؤساء يا لضخامة اللقب!! مضى به إلى البساسيري، فلما وقعت عينه عليه قال له: مرحبا بمهلك الدول و مخرب البلاد. فتذلل رئيس الرؤساء قائلا: العفو عند المقدرة.

فقال البساسيري: لقد قدرت فما عفوت و أنت صاحب طيلسان، و ركبت الأفعال الشنيعة مع حرمي و أطفالي، فكيف أعفو أنا، و أنا صاحب سيف.

يشير بذلك إلى أن رئيس الرؤساء لم يكن صاحب سلطة فعليه في ظل أصحاب السلطة الحقيقيين، و مع ذلك فقد فعل ما فعل.

و أما الخليفة، فإن قريشا نقله راكبا إلى معسكره، محتفظا له بكل مظاهر الكرامة: عليه السواد و البردة و بيده السيف و على رأسه اللواء. و أنزله في خيمة بالمعسكر، و أخذ زوجته، أرسلان خاتون، و هى ابنة أخى السلطان طغرل بك، فسلمها إلى أحد أخصائه ليقوم بخدمتها.

أما دار الخلافة فقد ظل النهب فيها أياما.

وقد اختار قريش أحد بنى عمه ممن فيهم مروءة و دين، فسلمه الخليفة ليوصله إلى مأمّن خارج بغداد، فحمّله في هودج و سار به إلى بلدة (حديثه عانه) و تركه بها.

جرى هذا كله و السلطان طغرل بك غائب بجنوده عن بغداد، فأسرع أصحاب الخليفة و خدمه إليه مستنفرين.

سيطر البساسيري على بغداد، و جاء عيد الأضحى، فسار إلى المصلى تخفق عليه الألوية الفاطمية، معلنا بذلك التحاق بغداد بخلافة الفاطميين.

و أحسن السيرة في الناس، و بشهادة ابن الأثير: لم يتعصب لمذهب، و أجرى الجرايات على المتفقهاء.

و كانت والدة الخليفة و قد بلغت التسعين لا تزال في بغداد، فأفرد لها دارا و أعطاهما جاريتين من جواريتها لخدمتها، و عين راتبا تعطاه لنفقاتها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٣

أما العدو اللدود رئيس الرؤساء، فقد كان رهين السجن فلما تفرغ له أخرجه من السجن مقيدا و عليه جبة صوف و طرطور من لبد أحمر، و في رقبته مخنقة جلود بعير، و هو يقرأ:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) الْآيَةَ.

و لما مروا به في الكرخ- و هو حى الشيعة- و كان شديد العصية عليهم مؤذيا لهم، بصقوا في وجهه.

و بعد هذا التشهير به على ظهر جمل في شوارع بغداد، أعيد إلى معسكر البساسيري، و قد نصبت له خشبة و أنزل عن الجمل و ألبس جلد ثور، و جعلت قرونه على رأسه، و جعل في فكاه كلابان من حديد، و صلب ...

و مد البساسيري سلطته إلى واسط و البصرة. و أرسل إلى المستنصر الفاطمي في القاهرة يعرفه ما فعل، على أمل أن يمدد المستنصر بما يقوى به للسيطرة على العراق كله، و الحول دون سيطرة السلاجقة.

و قد كان يمكن أن يتم ذلك فتسود الخلافة الفاطمية العراق و يتغير مجرى التاريخ .. و لكن الأقدار كانت بالمرصاد، فقد كان وزير المستنصر أبا الفرج ابن أخى أبى القاسم المغربي، و هو ممن هرب من البساسيري، و في نفسه عليه ما فيها، فلم يشأ له أن يفوز بهذه الأمجاد، و فضل أهدافه الشخصية على أهداف الدولة التي جعلته وزيرها، فوقع في البساسيري و خفف من شأنه و هون فعله و حذر من عاقبته.

فأهمل الجواب على رسائله مدة، و لما أوجب كانت الأجوبة بغير ما أمل و رجاء، و هكذا ترك يواجه مصيره بنفسه.

كان طغرل بك خلال هذه الأحداث يعالج تمرّد أخيه إبراهيم (ينال)، و أخيرا وقع الصدام بينهما بالقرب من الرى، فانتتهت المعركة بانهزام إبراهيم و أسره، و كان من قبل قد ثار على طغرل بك أكثر من مرة و ظفر به و عفا عنه. أما هذه المرة فقد أمر بخنقه بوتر قوس. و كان ذلك في تاسع جماد الآخر سنة ٤٥١ هـ، و قال: إن من عوامل قتله أن تمرده كان السبب في عدم استطاعته حماية الخليفة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٤

و بانتهاء طغرل بك من أمر إبراهيم تفرغ لأمر البساسيري، و يبدو أنه وازن بين قواه و قوى البساسيري فرأى أن يحل الأمر سلميا مع البساسيري، فأرسل إليه و إلى قريش أنه يكتفى بأن تكون الخطبة له في بغداد و أن تكون السكة باسمه و أن يعاد الخليفة إلى بغداد على أن لا يعود هو إلى العراق.

فرفض البساسيري هذه المقترحات، فعند ذلك تقدم طغرل بك بقواته إلى العراق، و بوصول طلائعه إلى قصر شيرين غير البعيدة عن حدود العراق، كان البساسيري يبعد حريمه و أولاده عن الخطر، ثم يتبعهم خارجا من بغداد، بعد سيطرته عليها سنة، إذ كان دخوله بغداد في شهر ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ و خروجه منها في ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ.

و برحيل البساسيري دبت الفوضى في بغداد، و حرك المحركون النعرات المذهبية فثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه و أحرقوا



درب الزعفران، و هو على ما يقول ابن الأثير من أحسن الدروب و أعمرها.

و وصل طغرل بك إلى بغداد، و كان قبل وصوله قد أرسل من الطريق إلى قريش بن بدران أن يشكره على ما فعله للخليفة و لابنة أخيه زوجة الخليفة.

و كان الخليفة قد اتجه هو الآخر إلى بغداد فأرسل طغرل بك وزيره الكندري، و بعض الأمراء، و الحجاب و معهم الخيام العظيمة و السراقات و الخيل فلاقوا الخليفة و خدموه. و بوصول الخليفة إلى النهروان خرج طغرل بك لاستقباله، فقبل الأرض بين يديه و هنأه بالسلامة و اعتذر عن تأخره بانشغاله بإخماد تمرد إبراهيم.

و سبق طغرل بك الخليفة في الوصول إلى بغداد، ثم وصل الخليفة بعده.

و الذى يثير العجب هذا الانهيار السريع لموقف البساسيرى، لا سيما و أنه قد رفض مقترحات طغرل بك و كلها فى مصلحته و تأمين سلطته، فعلى أى شىء كان يستند فى هذا الرفض؟ هل كان لا يزال يأمل بتأييد القاهرة؟ الذى يلوح أنه كان فى انسحابه من بغداد يريد التوجه إلى الشام، فطغرل بك يقول للخليفة فى أول لقاء له

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٥

معه فى النهروان: أنا أمضى خلف هذا الكلب (يعنى البساسيرى) و أقصد إلى الشام، و أفعل فى حق صاحب مصر ما أجازى به فعله. و بعد استقرار طغرل بك فى بغداد أرسل أحد قواده فى ألقى فارس نحو الكوفة لمطاردة البساسيرى، و كان قد قال لطرغرل بك: أرسل معى هذه العدة حتى أمضى إلى الكوفة و أمنع البساسيرى من الإصعاد إلى الشام. و هذا كله يدل أنه كان فى نية البساسيرى التوجه نحو الشام، و أن هذه النية كانت معروفة عند طغرل بك و رجاله. و ربما كان قصده من الوصول إلى الشام أن يكون أقرب إلى مصر حيث يسهل عليه الاتصال بمن فيها، و إقناعهم بتجهيز حملة يستطيع بها السيطرة على العراق.

و مهما يكن من أمر، فقد تقدم من أرسلهم طغرل بك لمطاردة البساسيرى، و سار هو فى أثرهم، و وقع الصدام فسقط البساسيرى جريحا، فأخذه عميد الملك الكندري و قتله، و حمل رأسه إلى طغرل بك، فأمر بنقله إلى دار الخلافة و طيف به و صلب. و يقول ابن الأثير: و أخذت أموال أهل بغداد و أموال البساسيرى مع نسائه و أولاده، و هلك من الناس الخلق العظيم. أوجز ابن الأثير الحال فى بغداد إثر سيطرة طغرل بك عليها من جديد: أخذت أموال أهل بغداد، و هلك من الناس الخلق العظيم. و كان قد قال قبل ذلك: ثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه و أحرقوا درب الزعفران.

كانت الخطة المرسومة هكذا: أن التآلف الذى بدا بين السنين و الشيعة يجب إبطاله، و يجب إعادة الفتن المذهبية من جديد، و تأريث الأحقاد بينهما، لذلك جرى تحريض أهل باب البصرة السنين على نهب الكرخ الشيعى، و جرى إحراق درب الزعفران الذى كان من أحسن الدروب و أعمرها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٦

و نحن إذا كنا نعرف من مطالعاتنا لابن الأثير أن باب البصرة شيعى و الكرخ سننى، فإننا لا نعرف مذهب درب الزعفران. إننا نرجح أنه سننى، و ذلك استنتاجا منا أن الذين أغروا السنين بنهب الكرخ أغروا الشيعة بإحراق درب الزعفران. و بعد أن تم لهم تأجيج النفوس بالأحقاد المذهبية عطفوا على الفريقين معا فأعملوا فيهما النهب و القتل: (أخذت أموال أهل بغداد و هلك من الناس الخلق العظيم) هكذا قال ابن الأثير، و حسب هذا القول لنرى الصورة الرهيبة لبغداد يومذاك.

و بعد فراغ طغرل بك من أمر بغداد انحدر إلى واسط، و عبر إلى الجانب الشرقى من دجلة. يقول ابن الأثير: و سار إلى قرب البطائح فنهب العسكر ما بين واسط و البصرة و الأهواز ..

طغرل بك يريد مصاهرة الخليفة طمع السلطان طغرل بك بمصاهرة الخليفة القائم بأمر الله على ابنته، ففى سنة ٤٥٣ هـ أرسل أبا سعيد

قاضي الري خاطبا ابنة الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك، و أرسل في الجواب أبا محمد التميمي و أمره أن يبلغ طغرل بك رفض طلبه، فإن أصر طغرل بك على الطلب فإن عليه أن يبعث ثلاث مئة ألف دينار و يسلم واسطا و أعمالها. فاتصل التميمي أول ما اتصل بالوزير عميد الملك و أبلغه رسالة الخليفة، فرد الوزير: بأنه لا يصح أن يرد السلطان و لا يستجاب طلبه بعد أن سأل و تضرع، و لا يجوز مقابلته بطلب الأموال و البلاد، فهو يفعل أضعاف ما طلب منه. فقال التميمي: كما ترى، و ما تقره يكون فيه الصواب، فاعتقد الوزير أن الموافقة قد حصلت. فأسرع و أخبر السلطان بذلك فسر كل السرور.

و قد كان مثل هذه الموافقة و قبول مصاهرة الخليفة السلجوقي أمرا مستهجنا فمهما سما هؤلاء و أمثالهم فإنهم لا يعتبرون أكفاء لمصاهرة الأسرة العباسية لا سيما الخليفة، و يعتبر طلبهم إهانة ...

لذلك أسرع السلطان و جمع الناس و عرفهم أنه قد حصل على ما لم يسبق أن حصل عليه غيره من الملوك من مصاهرة الجهة النبوية. و طلب إلى الوزير عميد الملك تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٧

أن يذهب و معه أرسلان خاتون زوجة الخليفة و أن يصحبها مئة ألف دينار و ما شاكلها من الجواهر و غيرها، و أرفقه بعدد من وجوه الأمراء و أعيان الري.

و وصل الوزير إلى القائم بأمر الله و أوصل زوجة الخليفة إلى دارها، ثم ذكر للخليفة المهمة القادم بها و هي إتمام عقد الزواج. فاستنكر الخليفة ذلك و امتنع عن الإجابة إليها، و قال ما معناه: إنه يصير على الرفض فإن روعى رفضه و إلا فإنه يترك بغداد و يرحل إلى مكان آخر.

فقال عميد الملك ما مؤداه أن الامتناع لم يحصل من أول الأمر، و إذا حصل الآن فهو سعى على دمه، ثم ترك بغداد و نصب خيامه في النهروان.

و هكذا عاد التأزم من جديد بين السلطان و الخليفة، فتوسط في الأمر قاضي القضاة و غيره و حذروا الخليفة مما يمكن أن يؤدي إليه رجوع الوزير عميد الملك إلى السلطان بهذه النتيجة.

فكتب الخليفة إلى عميد الملك: نحن نرد الأمر إلى رأيك و نعول على أمانتك و دينك. و يبدو أنه فهم من هذا الكلام موافقة الخليفة فجاء يوما إلى الخليفة و معه جماعة من الأمراء و الحجاب و القضاة و الشهود و قال للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة.

و لكن رد الخليفة كان حاسما فقال: قد سطر في المعنى ما فيه الكفاية. فانصرف عميد الملك مغضبا و ترك بغداد. و لما بلغ السلطان ما جرى كتب إلى قاضي القضاة و الشيخ أبي منصور بن يوسف قائلا: هذا جزائي من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته و أنفقت أموالا في نصرته و أهلكت خواصي في محبته ...

و أطال العتاب - على حد تعبير ابن الأثير - و كمقابلة بالمثل فقد طلب السلطان طغرل بك ابنة أخيه زوجة الخليفة أن تعاد إليه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٨

و لما بلغ الأمر إلى هذا الحد و خيف حصول مضاعفات تؤدي إلى التقاطع التام، و رأى الخليفة شدة الأمر، اضطر إلى الاستسلام للواقع و أذن في إجراء عقد الزواج، فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٠ هـ بظاهر تبريز.

و قد كان فيما جرى و هن معنوى خطير للخلافة العباسية، إذ مهما علا شأن أمثال هؤلاء فإنه لا يمكن أن يكون كفؤا للزواج من سليلات البيت العباسي الهاشمي.

و يقول ابن الأثير مشيرا إلى ذلك: (و هذا لم يجر للخلفاء مثله فإن بنى بويه مع تحكهم و مخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في

مثل هذا ولا ساموهم فعله).

و أرسل السلطان أموالا كثيرة و جواهر نفيسة للخليفة و لولى العهد و لابنه الخليفة و لأمها و لآخرين. و كان لزوجة السلطان المتوفاة إقطاعات كثيرة فى العراق منها (يعقوبا) و غيرها، فجعل ذلك كله لزوجته الجديدة ابنة الخليفة.

و فى شهر المحرم من سنة ٤٥٥ هـ جاء السلطان إلى بغداد، و أتى الوزير عميد الملك يطالب الخليفة بانتقال زوجته السلطان إليه، فقبل طلبه بالرفض، و قيل له: إن المقصود بهذه الوصلة الشرف لا الاجتماع! كما قيل له: إن خطك موجود فى الشرط.

و قد كان هذا الزواج من أعجب الزوجات فى الدنيا! .. و يبدو جليا أن ما ذكره الخليفة كان قد سجل فى الورق و وقعه فيمن وقعه شاهدا الوزير عميد الملك نفسه.

ثم قال الخليفة: إنه إن كانت مشاهدة فتكون فى دار الخلافة.

و معنى ذلك: أن أقصى ما يوافق عليه الخليفة هو أن يتقابل العروسان مجرد مقابلة و أن تكون هذه المقابلة فى دار الخلافة .. فقال السلطان: نفعل هذا.

و لكن يفهم من النص الذى ذكره ابن الأثير أن السلطان رأى، أن تكون المقابلة فى مكان مخصص لها يليق بها، فأردف كلامه المتقدم بقوله: و لكن نفرد له من الدور و المساكن ما يكفيه، و معه خواصه و حجابيه و مماليكه فإنه لا يمكنه مفارقتهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٤٩

و على ذلك نقلت العروس إلى دار المملكة.

و مضت مشاهد الرواية على هذا الشكل:

جلست العروس على سرير ملبس بالذهب، و دخل السلطان إليها و قبل الأرض و خدماها. و لم تكشف الخمار عن وجهها و لا قامت له. و حمل معه لها شيئا كثيرا من الجواهر و غيرها. و استمر الحال على هذا المنوال: يحضر كل يوم يخدم و ينصرف. و مع ذلك فقد ظهر عليه سرور عظيم، و خلع على الوزير عميد الملك؛ لأن كل الذى جرى إنما جرى على يديه و بتوسطه. و أقام الموائد عدة أيام ... يقول ابن الأثير: إن السلطان ترك بغداد فى شهر ربيع الأول ذاهبا إلى الرى.

و إذا كان قد جرى ما ذكرناه فى المحرم فمعنى ذلك أن الأمر استمر على الصورة التى ذكرناها شهرين! ..

إذ لم يذكر ابن الأثير ما يدل على أن شيئا قد تبدل خلال الشهرين.

لم يترك السلطان بغداد وحده، بل اصطحب معه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة لأنها شكت إطراح الخليفة لها فأخذها معه. الخليفة الذى رفض إلا أن يكون زواج ابنته من السلطان السلجوقى زواجا شكليا، كل ما ينال السلطان منه مقابلة زوجته من وراء خمارها المسدول على وجهها. و إن فى هذا من الشرف للسلطان ما يغنيه عن كل شىء.

الخليفة الذى رفض إلا أن يكون الأمر كذلك، رأى فى مقابل هذا أن يطرح زوجته ابنة أخى السلطان، فلاذت بعمها فأخذها معه. و قد كان لنا أن نتظر اكتمال هذه الرواية العجيبة فصولا، لو لا أن الموت أنهاها بسرعة إذ مرض السلطان طغرل بك فى سفره هذا و مات فى رمضان من السنة نفسها ...

و يذكر ابن الأثير أن عمره كان حين مات سبعين سنة تقريبا، و أنه كان عقيما لم يلد ولدا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٠

إذا فقد خطب ابنة السلطان و عقد عليها و هو فى السبعين من عمره. فلا بدع أن يقنع من عروسه بالنظر إليها من خلف الخمار ... و أن يكون هدفه من هذا الزواج امتهان شموخ بيت الخلافة، و الإدلال على منافسيه، بأنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد.

و إذا كنا قد حرصنا على ذكر هذا العرس العباسى السلجوقى ببعض تفاصيله، فلأن فيه نماذج من علاقات السلاطين السلاجقة بالخلفاء العباسيين.

و نلاحظ هنا أن ما ربط سلطنة طغرل بك بخلافة القائم بأمر الله كان سبع سنين و أحد عشر شهرا و اثني عشر يوما. يرثي ابن الأثير السلطان طغرل بك قائلا: كان عاقلا- حليما من أشد الناس احتمالا، و أكثرهم كتماننا لسره، و كان يحافظ على الصلوات، و يصوم الاثنين و الخميس، و كان لباسه الثياب البيض، و كان ظلوما غشوما، قاسيا، و كان عسكره يغضبون الناس أموالهم، و أيديهم مطلقه في ذلك نهارا و ليلا. و كان كريما .. (انتهى).

و حين نعود إلى ما رثي به ابن الأثير الملوك البويهيين- و هو ما مر بعضه- و نقارنه برثائه لهذا الملك السلجوقي ندر ك البون الشاسع بين الحكام البويهيين و الحكام السلاجقة، فابن الأثير لم يقل عن أحد من البويهيين أنه كان ظلوما، غشوما، قاسيا، و لا قال: كان عسكره يغضبون الناس أموالهم و أيديهم مطلقه نهار و ليلا. بل قال عن معز الدولة مثل هذا القول- و هو يتحدث عن انتصاره:- و نادى في الناس بالأمان و بث العدل و أقام لهم شحنة يمنع الظلم.

و يقول عنه: كان حليما، كريما، عاقلا.

و يقول عن ركن الدولة: كان حليما، كريما، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، و جنده، رءوفا بهم، عادلا في الحكم بينهم، و كان متحرجا من الظلم مانعا لأصحابه منه عفيفا عن الدماء، يتصدق بالأموال الجليله على ذوى الحاجات.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥١

إلى غير ذلك من الأقوال التي قالها عن غير هذين الحاكمين و التي مر ذكر بعضها.

## بعد طغرل بك

أسرع الوزير عميد الملك الكندري بعد موت طغرل بك إلى إعلان حلول سليمان بن داود جغرى بك، أخى طغرل بك، مكان طغرل بك فى السلطنة، لأن طغرل بك، الذى لم يكن له ولد، قد عهد له بالملك بعده. على أن الأمر لم يمض بسلام فإن (باغى سيان) و (اردم) لم يقبلا بذلك و أسرعوا إلى قزوین و خطبا فيها لعصر الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغرى بك.

و كان هذا يتولى فى عهد طغرل بك خراسان و معه وزيره نظام الملك، و يبدو أن ميل الناس كان إليه، فاستسلم عميد الملك الكندري لهذا الواقع فأمر بالخطبة فى الرى للسلطان ألب أرسلان، و بعده لأخيه سليمان.

على أن ذلك لم ينجبه من انتقام ألب أرسلان، فإن عميد الملك زار نظام الملك وزير ألب أرسلان و دفع له مالا، و اعتذر و غادر منصرفا، فانصرف بانصرافه أكثر الناس، فأب ذلك ألب أرسلان مع ما كان من إعلان عميد الملك تسلطن سليمان فأمر بالقبض عليه و اعتقاله فى مرو الروذ سنة ثم أرسل إليه من قتله.

و يبدو أنه كان يتهم نظام الملك بالسعى به عند ألب أرسلان، إذ إنه لما قرب للقتل قال للجلاد: قل لنظام الملك: بئس ما عودت الأتراك قتل الوزراء و أصحاب الديوان، و من حفر قلبيا (بثرا) وقع فيه.

و الوزير عميد الملك هذا كان على طريقة سادته السلاجقة من التعصب المذهبى الذمى.

و هو لم يكتف بالتعصب على الشيعة الذين سماهم الروافض، بأن طلب من السلطان أن يلعنوا على منابر خراسان فلبى طلبه، كما كان شديد التعصب على الشافعية و إمامهم الشافعى.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٢

قوبل عهد ألب أرسلان بثورات عليه استطاع إخمادها واحدة بعد الأخرى، فكان أول الثائرين عليه أمير ختلان، ثم أمير الصاغانيان.

و كان عمه (بيغو بن ميكائيل) فى هرات فتار طالبا الأمر لنفسه.

أما النائران الأولان فقد قتل الأول منهما في المعركة، و أما الثاني فقد أسر و قتل. و أما عمه فقد استسلم بعد الحصار و التضيق فأبقى عليه و أكرمه و أحسن صحبته.

و كان مما فعله أن أعاد ابنه الخليفة التي عقد زواجها طغرل بك- أعادها إلى بغداد- و قال: إنه إنما قتل عميد الملك؛ لأنه نقلها من بغداد إلى الري بغير رضا الخليفة.

كما أرسل إلى الخليفة طالبا إقامة الخطبة له في بغداد، فجلس الخليفة جلوسا عاما و أعلن أمام رسل ألب أرسلان تقليد ألب أرسلان للسلطنة، و سلمت الخلع بمشهد من الناس. كما أن الخليفة أرسل إليه بطلب البيعة.

و عادت رسل ألب أرسلان إليه يصحبها رسول الخليفة، و هو في (نقجوان) بأذربيجان، فلبس الخلع و بايع للخليفة.

ثم قامت عليه ثورة سلجوقية أخرى قادها قتلتمش فقد بلغ ألب أرسلان خبر الثورة و هو في نيسابور، و أن قتلتمش قصد الري ليستولى عليها، فسار إليه ألب أرسلان و التقيا في معركة هزمت فيها جموع قتلتمش، و وجد قتلتمش ميتا ملقى على الأرض لا يدرى كيف كان موته، قيل: إنه مات من الخوف! ... و نقول هنا ردا على قول الدكتور عمر تدمري المتقدم: (و كان الخلاف المذهبي بين العبيديين

(الفاطميين) و الإسماعيليين الشيعة في مصر، و السلاجقة الأتراك و العباسيين السنة في العراق هو أشبه بالخلاف المذهبي بين الكنيستين اليونانية البيزنطية (الشرقية)، و اللاتينية الرومانية (الغربية)، بل هو خلاف أشد و أدهى لطالما أدى إلى القتال، إذ كانت بلاد

الشام مسرحا للصراع العسكري و السياسي و المذهبي بين السلاجقة

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٣

و الفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم).

نقول ردا على ذلك: إن هذا الكلام هراء في هراء، فعندما كان الفاطميون الشيعة الإسماعيليون يسيطرون على مصر، كان البويهيون الشيعة يسيطرون على العراق، و لم يكن هناك سلاجقة. و عندما زال حكم البويهيين عن العراق، و سيطر عليه السلاجقة كان حكم الفاطميين قد تضعف في مصر، و أواخر عهد المستنصر، ثم تلاشى هذا الحكم نهائيا في حياة المستنصر، باستيلاء الجمالين على الخلافة الفاطمية و إنشائهم الدولة الجمالية و حجرهم على الخلفاء الفاطميين، و منعهم من التصرف في شؤون الحكم، و تحكمهم في تعيين الخلفاء و أولياء عهدهم الذين أصبحوا أسرى في أيديهم.

و في هذا الوقت- وقت احتلال السلاجقة للعراق- كان السلاجقة هم الذين أثاروا الخلاف لا بينهم و بين الفاطميين؛ لأنه لم يكن هناك فاطميون، بل بينهم و بين شيعة العراق بأن تدخلوا في شؤونهم المذهبية، ثم أحرقوا مكتبتهم الكبرى في بغداد، و هاجموا بيت عالمهم الكبير أبي جعفر الطوسي، و أحرقوا كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس، مما اضطره للهجرة من بغداد و إغلاق مدرسته فيها ... إلى غير ذلك.

على أن طغرل بك بعد أن فعل ما فعل في العراق، كان هو البادئ بالتحرش بالخليفة الفاطمي المستنصر في مصر.

فإنه و هو في عنفوان طغيانه في بغداد، كاتب المستنصر طالبا إليه الدخول في طاعته.

إن الدكتور عمر تدمري من أجل أن يسيء إلى الفاطميين ظلما و عدوانا حشرهم مع السلاجقة عملا بقول من قال: اقتلوني و مالكا.

و رأى أنه لا بأس بأن يذكر السلاجقة بالشر ما دام هذا الذكر يوصل إلى ذكر الفاطميين بالشر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٤

قلنا أن طغرل بك هو الذي بدأ بالتحرش بالفاطميين الذين كانوا في أيامهم الأخيرة، بأن كاتب المستنصر في القاهرة طالبا إليه الدخول في طاعته.

و نريد أن نزيد الأمر إيضاحا و تفصيلا فنقول:

إن الدور الفاطمي كان قد انتهى قبل الزحف الصليبي بما يقارب ربع القرن، و أنه لم تكن هناك خلافة فاطمية حاكمة عند ابتداء

الغزو الصليبي، و أن سلطنته هذه الخلافة كانت قد انتهت بفعل التسلط الجمالي، و قيام الدولة الجمالية، و أصبح الخلفاء سجناء قصورهم، لا يملكون من الأمر شيئاً، كما سنفصله في الآتي من القول.

و نحن نريد هنا أن نوضح حقيقة أخرى، و هي أنه لم يقيم صراع بين الفاطميين و السلاجقة، لسبب واحد، لأنه لم يكن هناك حكم فاطمي يصارع السلاجقة و يزاحمهم على امتلاك البلاد؛ لأن الحكم الفاطمي عند بدء الهجمات السلجوقية على بلاد الشام، كان قد بدأ بالانهيار، ثم انهار فعلاً بالتسلط الجمالي.

و إن الموقف الفاطمي الوحيد في مواجهة السلاجقة كان في أواخر عهد المستنصر، عندما بدأ تضعف حكم المستنصر واضحا في سنة ٤٤٦ هـ بسيطرة المجاعة على البلاد و محاولة المستنصر استيراد القمح من بلاد البيزنطيين، و اشتراط الإمبراطورة البيزنطية (تيودورا) عليه أن يمدّها بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد، و كان المفهوم أن هذا المعتدى المفترض وجوده هو السلاجقة، فبالرغم من حرجة موقف المستنصر في بلاده و ما تهدده به المجاعة فقد رفض هذا الشرط لأنه يأبى أن يعين البيزنطيين على المسلمين .. و لما اشتد الأمر عليه حاول أن يحقق طلبه القمح بقوة السلاح ففشل.

و السلاجقة الذين رفض الخليفة الفاطمي المستنصر أن يعد الإمبراطورة البيزنطية بمعاونتها عليهم، لم يأبوا أن تحالفوا مع الإمبراطورة عليه و أن يستغلوا الموقف فيتقربوا منها! ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٥

بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الإمبراطور سبيل الأسرى و أرسل المعمارين إلى بيت المقدس و أنفق كثيرا من الأموال على تجديد الكنيسة.

و لما ولى قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع المستنصر و بعث إليه سنة ٤٣٧ هـ هدية عظيمة (اشتملت على ثلاثين قنطارا من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية).

استغل المستنصر فرصة صفاء العلاقات بينه و بين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية في دولته، فأرسل إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦ هـ يطلب منه أن يمدّه بأربع مئة ألف أردب من القمح فأبدى الإمبراطور استعدادا لمعونته مصر.

و لكنه لم يلبث أن توفي و خلفته الإمبراطورة (تيودورا) فاشتربت لتقديم هذه المساعدة أن يمدّها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها معتد. و كان المقصود بهذا المعتدى (السلاجقة). فرفض المستنصر الموافقة على هذا الشرط.

فأجابت تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر.

أثارت سياسة هذه الإمبراطورة، غضب الخليفة المستنصر و عول على محاربتها، فجهز جيشا بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، و ما لبث هذا القائد، أن نزل بالقرب من إفامية، ثم تجول في أعمال إنطاكية. فأرسلت الإمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، و أسر هو و كثير من جنده سنة ٤٤٧ هـ، و كان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضي عبد الله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، فلم تحفل الإمبراطورة بوجوده.

فاستغل طغرل بك ذلك و عمل على التقرب من البيزنطيين و التحالف معهم، فأرسل من العراق رسولا إلى القسطنطينية حاملا رساله و دية منه إلى الإمبراطورة تيودورا، ملتصقا فيها أن يصلى رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك، فدخله و صلى فيه صلاة الجمعة و أقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٦

و لما وقف المستنصر على سياسة الإمبراطورة تيودورا العدائية إزاءه و الإساءة التي لحقت بسفيره بعث بطلب كنوز كنيسة القيامة و نفائسها فأرسلت إليه.

و ازداد بذلك التوتر في العلاقات بين الفاطميين و البيزنطيين.

و استمر العداء مستمرا بين الدولتين حتى حل الجماليون محل الفاطميين في حكم مصر فظل على استمراره إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام.

هنا يمكن الفارق بين الفاطميين و السلاجقة: يرفض الخليفة الفاطمي الوعد- مجرد الوعد- بإنجاد البيزنطيين على السلاجقة الذين جاهره ملكهم طغرل بك بالعداء، بإرساله إليه رسالته من بغداد طالبا إليه الدخول في طاعته- كما تقدم ذكره- يرفض المستنصر ذلك مع ما فيه بلاده من خطر المجاعة و يضطر للدخول في حرب مع البيزنطيين، فيسارع ملك السلاجقة طغرل بك عارضا خدماته على البيزنطيين، فيتناصر السلاجقة و البيزنطيون على الفاطميين ...

و من هذه الحقائق يتبين أن كل ما ذكره التدمري عن الخلاف المذهبي بين الفاطميين الإسماعيليين الشيعة في مصر، و السلاجقة الأتراك و العباسيين السنة في العراق، و تشبيهه له بالخلاف بين الكنائس، و قوله أنه أدى إلى القتال و أن بلاد الشام كانت بذلك مسرحا للصراع العسكري و السياسي و المذهبي بين السلاجقة و الفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم.- إلى غير ذلك من أمثال هذه الأقوال- يتبين من الحقائق التي ذكرناها أن كل ما ذكره التدمري إنما هو تهويز في تهويز و أباطيل في أباطيل!

فالصراع كان قائما بين الفاطميين و البيزنطيين، تعاون فيه السلاجقة مع البيزنطيين.

و في خلال ذلك انتهى أمر المستنصر، و سيطر بدر الجمالي على مصر، و أنهى الحكم الفاطمي، و حل محله الحكم الجمالي، و أصبح الصراع سلجوقيا جماليا.

و كان البادئون بالصراع هم السلاجقة، مستغلين تعاطف البيزنطيين معهم، و تأييدهم لهم، ففي سنة ٤٦٣ هـ قصد (أتسز بن أوق) الخوارزمي و هو من أمراء

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٧

ملك شاه السلجوقي- قصد الشام فجمع الأتراك و سار إلى فلسطين ففتح الرملة، و سار منها إلى القدس، و حاصرها، و كان ذلك في أواخر عهد المستنصر، و بدء انهيار الدولة الفاطمية فاستطاع الاستيلاء على القدس و ما جاورها عدا عسقلان.

كان هذا الصدام الذي بدأه السلاجقة منصرفين عن قتال البيزنطيين إلى قتال المسلمين، و من التزاحم مع الروم على امتلاك البلاد، إلى التزاحم مع العرب شاهرين السيوف عليهم مقتحمين ديارهم، مقاتلين جنودهم! ..

و بعد ثلاث سنوات من هذه الوقائع، أي في سنة ٤٦٦ هـ كانت السيطرة الجمالية قد تمت على الخلافة الفاطمية، و كان بدر الجمالي قد أحكم قبضته على مصر، و أقصى المستنصر محجورا عليه. و هنا أصبحت المواجهة سلجوقية جمالية بحثه بعد أن كانت في بدئها مواجهة سلجوقية بدأها السلاجقة مع بقايا فاطمية ماشية إلى التلاشي، و لذلك رأيناها لا تلبث أن تتحطم أمام أول هجمة سلجوقية فتفقد القدس و جل فلسطين.

و هنا لم يكن للصليبيين وجود ليقال: إن الفاطميين استغلوا وجودهم للاستعانة بهم على السلاجقة، بل كان الوجود للبيزنطيين الذين استعان السلاجقة بهم على الفاطميين.

و ظل جهد السلاجقة متجها لقتال المسلمين و العرب، منصرفين عن البيزنطيين، حتى كانت السنة ٤٦٩ هـ، أي بعد ثلاث سنوات من سيطرة بدر الجمالي على مصر.

ففي هذه السنة صمم السلاجقة على غزو مصر نفسها فاتجه إليها قائداهم (أتسز) فتصدى له صاحب أمر مصر بدر الجمالي فهزمه و رده عن مصر.

فما دخل الفاطميين هنا و بعد هنا .. إلى وصول الصليبيين ليحشر اسمهم في الصراع السلجوقي الجمالي، ثم ليفترى عليهم عند وصول

الصلبيين إلى حدود بلاد الشام؟! إذا كان من مأخذ، وإذا كان من تهم، فيجب أن يوجه ذلك إلى المتصارعين، لا إلى المقصيين، المحجور، عليهم المغلولة أيديهم عن كل تصرف ...

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٨

و يمضى الصراع السلجوقى الجمالى فى حدته ففى سنة ٤٧٠ هـ كان قائد جيش بدر الجمالى يحاصر دمشق فاستنجد (أتسز) ممثل الحكم السلجوقى فيها بالملك السلجوقى تتش بن ألب أرسلان، فأقبل تتش لنجدته فى جمع كثير من التركمان، و لم يلبث عند وصوله إلى أسوار دمشق أن قتل أتسز و دخل دمشق ورد جيش بدر الجمالى عنها.

و ابن الأثير يسمى فى كل هذه الوقائع الجيش المصرى بجيش بدر الجمالى كما هو واقع الحال.

و فى سنة ٤٧٨ هـ وصل بدر الجمالى فى عساكر مصر إلى الشام، فحصر دمشق و فيها صاحبها السلجوقى (تتش) فضيق عليه و قاتله فلم يظفر منها بشيء، فرحل عنها عائداً إلى مصر و فى سنة ٤٨٥ هـ هاجم تتش حمص و عرقه و أفامية فملكها، و هاجم طرابلس و فيها جلال الملك بن عمار فلم يظفر بها.

و هكذا يستمر الجهد السلجوقى متجهاً إلى قتال المسلمين و العرب، و يظل الصراع سلجوقيا- جماليا، فيما عدا فجوة صغيرة فيه- لم يطل أمدها- انحرف فيها فكان سلجوقيا- عماريا فى طرابلس.

كل ذلك يجرى و الفاطميون غائبون أو مغيبون مضيق عليهم، لا- يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعاً، و مع ذلك فإن مزيفى التاريخ يجعلون الصراع سلجوقيا- فاطميا ليجدوا منفذاً يلجونه للافتراء على الفاطميين ..

و فى سنة ٤٨٩ هـ كان بدر الجمالى يسير إلى القدس فيستخلصها من أيدي السلاجقة .. و الفاطميون فى معتقلاتهم يكابدون فقدان حريتهم، و كف أيديهم، و زوال سلطانهم ..

## كيف سيطر الجماليون؟

نريد هنا أن نزيد الأمر إيضاحاً، لنرى القارىء أن الشام لم تكن أبداً مسرحاً للصراع العسكرى و السياسى و المذهبى بين السلاجقة و الفاطميين مما جعلها- على زعم التدمرى- منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٥٩

ديارهم، و أن كل ما ذكره التدمرى فى هذا الموضوع هو تزييف للتاريخ، و تحريف للحقائق.

طالت خلافة المستنصر الفاطمى ستين سنة و أربعة أشهر، تحقق له فى القسم الأول منها ما لم يتحقق لأحد من أسلافه، إذ خطب باسمه فى بغداد بعد أن طرد منها الخليفة العباسى- القائم بأمر الله- و استمر ذلك سنة فى تفاصيل مر ذكرها ..

كما أنه فى أواخر عهده عند استبداد الناصر الحمدانى به أقيمت الخطبة باسم القائم العباسى فى القاهرة، و فى القسم الثانى من عهده بدا التضعع بسيطرة بدر الجمالى، أو بما يمكن أن تسميه انتهاء العهد الفاطمى و حلول العهد الجمالى محله حكماً و سيطرة.

فقد قامت فعلاً الدولة الجمالية، بكل ما للدول فى تلك العصور من واقعية الحكم و مظهره، و صار سجين قصره محجوراً عليه بما نستطيع أن نطلق عليه بلغة العصر الحاضر اسم: الإقامة و لم يكن فى مصلحة الدولة الجديدة قتله أو الجبرية طرده، بل كان من مصلحتها الاحتفاظ به أسيراً فى يديها لاستغلال اسمه بما يمكن أن يستغل به.

يقول المقرئى عن بدر الجمالى: (تحكم فى مصر تحكّم الملوك، و لم يبق للمستنصر معه أمر، و استبد بالأمور و كانت مدة أيامه بمصر إحدى و عشرين سنة، و هو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر).

و يقول المقرئى: (و استتاب ولده (الأفضل) و جعله ولى عهده).

و بتسميته ابنه (ولياً للعهد) يكون قد أكمل إعلان قيام الحكم الملكى الجديد على أنقاض الحكم الفاطمى المنهار. و تكون دولة



جديدة قامت في مصر هي (الدولة الجمالية)، و هي وحدها المسئولة عما جرى في عهدها من أحداث و منها الصدام مع السلاجقة، ثم مع الصليبيين.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٠

و إذا كان بدر و ابنه لم يعلنوا إلغاء الخلافة نظريا في حين أنهما أغيها عمليا، فلأنهما لا يستطيعان ادعاء الخلافة لنفسيهما، فكانا يريدان غطاء شرعيا لحكمهما يبرران به تسلطهما، و كان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

و لما مات المستنصر كان الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي اختار خليفته. يقول المقریزی: (لما مات المستنصر بادر الأفضل بن بدر الجمالي إلى القصر و أجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر في منصب الخلافة و لقبه بالمستعلي بالله).

و هو أصغر أخوته: نزار، و عبد الله، و إسماعيل.

ثم يقول المقریزی: (و لم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر و لا نهى و لا نفوذ كلمة).

و كما قلت من قبل، فإن الدكتور تدمري يتبع مبدأ: اقتلوني و مالكا، فهو من أجل أن يفترى على التاريخ الفاطمي لا يبالي أن يقرنه بالتاريخ السلجوقي فيقول:

(إن السلاجقة و الفاطميين على حد سواء قد رأوا في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهداف كل منهم في القضاء على خصمه، أو الحد من خطره و نفوذه، و هكذا تيسر للصليبيين دخول الديار الشاميه، و احتلال القسم الساحلي بكامله، و الاستيلاء على بيت المقدس).

و نقول: لقد انتهت سلطة الفاطميين قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي - لا سيما بلاد الشام - بربع قرن.

فإن بدرا الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر و سيطر على الدولة سنة ٤٦٦ هـ، و كان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠ هـ و سقطت إنطاكية في أيديهم سنة ٤٩١ هـ.

إذن فلم يكن هناك فاطميون يرون في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهدافهم في القضاء على خصمهم أو الحد من خطره و نفوذه. بل كان هناك جماليون

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦١

أنهوا حكم الفاطميين و حلوا محلهم، فإن كان من مسئولية فهي تقع على هؤلاء الجمالين ..

و لكن هل صحيح أن الجمالين مسئولون عن تيسير دخول الصليبيين الديار الشاميه و احتلال القسم الساحلي بكامله و الاستيلاء على بيت المقدس؟!.

ذلك ما سنتحدث عنه في الآتي من القول.

و يوغل الدكتور عمر تدمري في الهوس فيقول: انساحت الجيوش الصليبية و وطئت أرض الشام، و كونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع و مرأى من السلاجقة و الفاطميين، و كان على الإمارات العربية المحايدة بين السلاجقة و الفاطميين أن تنتظر المساعدة أو النجدة منهم، إذ كان النزاع مستمرا بين الدولتين سياسيا و مذهبيا، و كان الوقت ذهبيا بالنسبة للصليبيين، و هم يشهدون الحالة التي عليها المسلمون من التفكك و التنازع و الضعف، فاستطاعوا في حملة واحدة أن يستولوا على القدس، و لو أن القوى الإسلامية في المنطقة طرحت خلافاتها جانبا، و وحدت صفوفها أمام العدوان الصليبي لما تعرض الساحل الشامي للذي لحقه، أو على الأقل لما لبث الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي نحو قرنين من الزمان، و بقدر ما يتحمل الفاطميون من تبعه لموقفهم المتخاذل، فإن السلاجقة يتحملون أيضا مثل ذلك. (انتهى).

ليختر الدكتور عمر تدمري إحدى الصفتين: إما أنه جاهل بوقائع تاريخ تلك الحقبة جهلا يضعه مع أشباه الأميين في التاريخ، و إما أنه

متعصب أعمى التعصب بصيرته فجعله ينطق بهذا القول، ما هي الحقيقة في ذلك؟ ..

أولاً: كان الحكم الفاطمي قد انتهى قبل ربع قرن من وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي، ثم إلى بلاد الشام كما بينا من قبل.

يقول المقریزی في خطته: (لم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٢

في عهد المستعلي الفاطمي هذا الذي لم يكن له مع الأفضل أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة تقدم الصليبيون إلى بلاد الشام واحتلوا القدس.

و كان صاحب الأمر والنهي و نفوذ الكلمة هو الأفضل بن بدر الجمالي، فلماذا تنسب أحداث تلك الفترة إلى الفاطميين و خلافهم؟. إنها يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي و نفوذ الكلمة، و هم غير الفاطميين.

أما قول التدمري: (انساحت الجيوش الصليبية و وطئت أرض الشام ... إلى آخر كلامه .. فإننا نقول له: إن الجيوش الصليبية انساحت و وطئت أرض الشام و احتلت القدس على مرأى و مسمع و خيانه من السلاجقة و أمثالهم من غير الفاطميين). و إليك التفاصيل:

يحدثنا ابن الأثير في تاريخه عن زحف كربوقا السلجوقي أمير الموصل لإنقاذ إنطاكية كما يلي:

(جمع العساكر و سار إلى الشام و أقام بمرج دابق و اجتمعت معه عساكر الشام، تركها و عربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دقاق بن تتش، و طغتكين أتابك، و جناح الدولة صاحب حمص، و أرسلان تاش صاحب سنجار، و سليمان بن أرتق و غيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم و خافوا لما هم فيه من الوهن و قلّة الأوقات عندهم. و سار المسلمون فنازلوا إنطاكية، و أساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين و أغضب الأمراء و تكبر عليهم ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك و أضمرؤا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، و عزموا على إسلامه عند المصدوقه.

و أقام الفرنج بإنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً يجدوا ما يأكلونه.

و تقوت الأقوياء بدوابهم، و الضعفاء بالميتة و ورق الشجر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٣

فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا، و قال: لا تخرجون إلا بالسيف. و كان معهم من الملوك: بردويل، و صنجيل، و كندفرى و القمص صاحب الرها و بيمنت صاحب إنطاكية، و هو المقدم عليهم ...) إلى أن يقول ابن الأثير: (فخرجوا (الإفرنج) متفرقين من خمسة و ستة، و نحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن و هم متفرقون سهل، فقال: لا- تفعلوا! أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، و لم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم هو بنفسه، منعهم و نهاهم.

فلما تكامل خروج الإفرنج، و لم يبق بإنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة بهم و الإعراض عنهم، و ثانياً من منعهم من قتل الإفرنج، و تمت الهزيمة عليهم، و لم يضرب أحد منهم بسيف و لا طعن برمح و لا- رمى بسهم، و آخر من انهزم سقمان بن أرتق، و جناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين، و انهزم كربوقا معهم. فلما رأى الإفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، و خافوا أن يتبعوهم. و ثبت جماعة من المجاهدين و قاتلوا حسباً و طلباً للشهادة، فقتل الإفرنج منهم ألوفا و غنموا ما في المعسكر من الأوقات و الأموال و الأثاث و الدواب و الأسلحة، فصلحت حالهم و عادت إليهم قوتهم) (انتهى).

و عندما ينهى ابن الأثير كلامه هذا، يشير إلى أن ما أتاحه تصرف كربوقا و خيانه القادة الآخرين، هي التي رسخت عزم الصليبيين على

الزحف إلى القدس بعد ما كان قد عراهم من اليأس والانهزال، حتى طلبوا الأمان والاستسلام، فيقول:  
لما فعل الإفرنج بالمسلمين ما فعلوا ساروا إلى معرة النعمان ... ثم تابعوا السير بعد ذلك إلى القدس.  
تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٤

كان ابن الأثير واضحاً في تحميل كربوقا والقواد الآخرين مسئولية نجاح الصليبيين في اختراق بلاد الشام والوصول إلى القدس، مع اختلاف نوع المسئولية بين كربوقا وبين بقية الأمراء والقواد.

لقد استطاع كربوقا أن يجيش الجيوش الإسلامية من الموصل حتى بلاد الشام و كل من في طريقه من شمال العراق حتى شمال الشام. وهذا ما أدركه الصليبيون الذين كانوا يعانون الوهن و قلة الأوقات - كما يقول ابن الأثير - بعد تلك الرحلة الطويلة التي بدءوها من قلب أوروبا وصولاً إلى إنطاكية.

و مما زاد في وهنهم و انخذالهم ما عانوه في حصارهم لإنطاكية حتى عادوا و كأنهم هم المحاصرون. لا المحاصرين و كانت المجاعة قد حلت بهم لانعدام موارد القوات فيهم. فدب اليأس فيهم، و بدأوا يتسللون من جيشهم هارين. و حين نعلم أنه كان في طليعة الهارين، الرجل الأول في الدعوة إلى إشعال الحرب الصليبية، و بطل جمع جموعها، و تحريض الجماهير على الانضمام إلى جيوشها، أعنى - بطرس الناسك - و حين نعلم أن الفرار من الجيش الصليبي الجائع الواهن قد تعدى العامة إلى القادة، ففر أمثال (ستيفن كونت بلوا) ..

حين نعلم ذلك ندرک إلى أى مدى كان الصليبيون يائسين منخذهين واهنين جائعين و هم يحاصرون إنطاكية.

و لو لا خيانه خائن كان داخل إنطاكية لعجز الصليبيون عن دخول إنطاكية.

لقد دخلوها على وهنهم و جوعهم، و ظلوا على هذا الوهن و الجوع، و هم داخلها؛ لأن أسباب الوهن و الجوع كانت لا تزال قائمة، فلا مصادر للقوت تقيهم الجوع و تدفع عنهم الوهن.

وصلت حملة كربوقا إلى إنطاكية و الصليبيون على تلك الحال، و وصلتهم أخبار عن ضخامة الجيوش التي أخذت تحاصرهم، لذلك قرروا الاستسلام و طلب الأمان كما ينص على ذلك ابن الأثير ...

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٥

و هذا يعنى أن الحملة الصليبية قد فشلت و أن جيوشها و قوادها قد قرروا الاستسلام، و أن القدس التي كانت هدفهم قد نجت، و انتهى أمرهم و لم تعد تقوم لهم قائمة ...

فماذا غير ذلك كله، و ماذا أحال وهنهم إلى قوة، و جوعهم إلى شبع، و ماذا بدلهم من موقف طالب استسلام إلى مهاجم منتصر؟!.

إن ابن الأثير يفصل لنا ذلك بعبارات مقتضبة فهو يقول:

(.. و لما سمعت الإفرنج (بقدم الجيوش الإسلامية الكثيفة) عظمت عليهم المصيبة و خافوا لما هم فيه من الوهن و قلة الأوقات عندهم).

ثم يسترسل ابن الأثير قائلاً:

(و أساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين و أغضب الأمراء و تكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك و أضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، و عزموا على إسلامه عند المصدوقة).

عوضاً عن أن تبعث كثرة الجند و ضخامة الجيش في نفس كربوقا التواضع لله على أن وفقه لقيادة هذه القوة الكبرى، و عوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته و يتألفهم و يلين لهم، عوضاً عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرأى في تلك الحشود الإسلامية مجرد أتباع له، و فى أولئك الأمراء مجرد مأمورين له، فازدهاه ذلك فتكبر و تجبر، و عامل الأمراء بمهانة أحفظتهم و غيرت نواياهم لا عليه وحده، بل على الموقف كله، فانقلبوا من متحيزين لنصرة الإسلام إلى ناوين خيانة الإسلام.

فالأمر يلخص، كما ذكر ابن الأثير، كما يلي:

١- كان الصليبيون داخل إنطاكية فى منتهى الوهن و انعدام الأوقات.

٢- قرروا الاستسلام بلسان قيادتهم الموجودة كلها داخل إنطاكية.

٣- رفض كربوقا استسلامهم و قرر دخول إنطاكية بالسيف.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٦

٤- بدأوا بالتسلل من إنطاكية فرأى المسلمون مقابلتهم، و هم شراذم تسهل إبادتهم تدريجيا، و بالفعل بدأ ذلك المسلمون فقتلوا كل من خرج، فرفض كربوقا ذلك و جاء بنفسه يمنع المسلمين من هذا.

٥- كان كربوقا قد أساء معاملته الأمراء المنضمين إليه و عاملهم بمهانة.

٦- حقد هؤلاء الأمراء عليه و قرروا عدم القتال و الانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٧- أصر كربوقا على منع جمهور المقاتلين معه من تصيد الأعداء و هم شراذم مما أغضب هذا الجمهور فقرروا ما قرره الأمراء من الانهزام دون قتال.

٨- وجدت جماعة فى الجيش الإسلامى رفضت ذلك فقررت الاستشهاد تقربا إلى الله.

فأول ما يطال كربوقا من المسئولية فى ذلك هو: تنفيره قلوب الأمراء منه، و الاستعلاء عليهم.

و ثانى ما يطاله- و هو الأخطر فى الأمر- هو رفضه استسلام الصليبيين بلا قتال.

و ثالث ما يطاله- و هو ما لا يقل خطورة عن الثانى- هو رفضه طلب جمهور المقاتلين عدم السماح للصليبيين بالتجمع كتلة واحدة و مقابلتهم و هم شراذم تسهل إبادتها.

فلماذا فعل كربوقا ذلك؟ ..

يصعب علينا اتهام كربوقا بالخيانة فنحن لا ننسبها إليه. و لكننا لا نتردد أبدا باتهامه بالأنايئة و حب الذات و تغليبهما على كل شىء مهما تعارض هذا الشىء مع المصلحة العامة.

إن أنانيته، و حبه لذاته، و حرصه على مجده الشخصى، جعلته يرفض استسلام الصليبيين بأمان بلا قتال و خروجهم من إنطاكية و رجوعهم إلى بلادهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٧

لأنه و قد أيقن بوهنهم و حلول المجاعة فيهم اعتقد أنه سيخوض معهم معركة سهلة يكون هو بطلها المنتصر.

و استسلامهم بلا قتال سيرحمه من التباهى بالانتصار عليهم فى معركة حاسمة.

و كذلك القول فى منعه جمهور المسلمين المقاتلين من تصيد الصليبيين أفرادا و شراذم، و هزيمتهم بهذه الطريقة، فإن ذلك سيرحمه من المجد الشخصى و التفاخر بالانتصار.

و هكذا فإن الأنايئة، و حب الذات، و طلب المجد الشخصى، عند كربوقا و خيائته الأمراء و جمهور المقاتلين قد حالت بين المسلمين و بين إنهاء الحروب الصليبية عند إنطاكية، و عرضتهم لما عرضتهم من فجاج دخول الصليبيين للقدس فاتحين و استمرار الاحتلال

الصليبي لبلاد الشام مئى سنة، و ما اقتضى ذلك من إذلال و سفك دماء.

هكذا كله يتناساه مزيفو التاريخ و يتجاهلون!! و يفتشون عن برىء يتهمونه و بطل يخونونه!

و هذا ما نأسف أن يتمسك به فى هذا العصر من يقولون إنهم أكاديميون و حملة دكتوراه و أساتذة جامعيون!

و يستطيع الدكتور عمر تدمرى تزييف التاريخ فيقول:

إن أول ما يؤخذ على الفاطميين هو عدم اكرائهم بالهجمة الصليبية على الشام، بل إنهم رحبوا بها لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في إنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها بين أيديهم شماتة بالسلاجقة. تاريخ دولة آل سلجوق ٦٧ الاسترسال في التزييف ..... ص: ٦٧

لا: لقد قلنا و نقول: إنه لم يكن هناك فاطميون عند الهجمة الصليبية على بلاد الشام، بل كان هناك: جماليون، و قد فصلنا ذلك فيما تقدم من الكلام.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٨

أما جرأته على الحق و الصدق في قوله عن الفاطميين (الذين لم يكن لهم يومذاك وجود) بأنهم رحبوا بالهجمة الصليبية على الشام، لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم السلاجقة، و قد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في إنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة- أما هذه الجرأة على الحق و الصدق، فإننا لا نعرف في تاريخ التعصب الأعمى لها مثيلاً.

في أى كتاب وجدت أن الفاطميين لم يكثرثوا بالهجمة الصليبية؟ و في أى كتاب قرأت أنهم رحبوا بها؟ في أى كتاب طالعت أن رسلهم إلى زعماء الصليبيين في إنطاكية عبروا عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة؟!.

نعيد و نكرر و سنظل نعيد و نكرر أن الفاطميين لم يكن لهم وجود عند الهجمة الصليبية، بل كانوا محجوراً عليهم، و كانوا سجناء دورهم، و أن الذين حلوا محلهم هم: الجماليون ..

و لكن هل فعل الجماليون هذا الذى يفتره عمر تدمرى؟ .. لن نجيب نحن على هذا السؤال، بل نترك للدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه: (النفوذ الفاطمى في بلاد الشام و العراق) ليجيب عليه، و ليسين حقيقة مهمة الرسل الذين أرسلهم الأفضل الجمالى إلى إنطاكية:

يقول الدكتور سرور في الصفحة ٦٧ من كتابه:

(لما وصل إلى الحكومة الفاطمية في مصر نبأ هجوم الصليبيين على إنطاكية رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن يتفردوا بإنطاكية و أن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين و تكون لهم الحرية في أداء شعائهم الدينية على أن لا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد و أن لا يدخلوها بسيوفهم). و من هذا يتبين أن الأفضل بن بدر الجمالى لما رأى سقوط إنطاكية و انهزام قوى كربوقا بخيانة أسلاف الدكتور عمر تدمرى أيقن أنه لم يبق في طريق الصليبيين قوى إسلامية

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٦٩

تستطيع التغلب عليهم و الحول بينهم و بين الوصول إلى القدس، فحاول أن يقنعهم بالوقوف عند إنطاكية على أن تكون لهم حرية زيارة القدس أفراداً غير مسلحين و أن يغادروها من يزورها منهم في مدة أقصاها شهر.

و أحسب أن هذا أقصى ما كان يستطيع أن يفعله الأفضل من أجل القدس يومذاك، فأين هو موضع التجريح بهذا الرجل؟!.

هذا إذا صح أن الأفضل أرسل سفارة، فنحن لم نجد ذكراً لهذه السفارة المزعومة في أى مصدر عربى! ..

و مع افتراض وجود السفارة نقول: إنه لما فشلت محاولة الأفضل السلمية لإيقاف الصليبيين عند إنطاكية استعد لحربهم.

فالاستعداد لحربهم كان واقعا سواء سلمنا بوجود السفارة أم لم نسلم. استعد الأفضل لحرب الصليبيين مع علمه بقوتهم و ضعف قوته أمام حشودهم، فقام و اليه على القدس بتسميم الآبار التى في طريقهم و طم القنوات لئلا يستفيدوا من مائها، و عهد بحراسة أسواق القدس إلى جماعة من العرب و السودان.

و يقول الدكتور حسن حبشى فى كتابه (الحروب الصليبية) فيما يقول عن جيش الأفضل بن بدر الجمالى المدافع عن القدس: (و أدرك الصليبيون أنهم واجهوا هذه المرة خصما يرى أن فى ضياع بيت المقدس ضياعا لهيئته السياسية و انتها كما لحرمانه الدينية). و نقول: كان ذلك على عكس أسلاف الدكتور عمر التدمرى الذين لم يروا حرجا فى أن يخونوا الإسلام و المسلمين حين انحازوا عن طريق الصليبيين عند إنطاكية، ففتحوا لهم باب الوصول إلى القدس!.

ثم يصف الدكتور حسن حبشى الدفاع البطولى عن القدس قائلا: (شرح الصليبيون فى الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩ (٤٩٢ هـ) و وجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعا قويا رغم ما استعدوا به من آلات الحصار و الأبراج المتحركة، و أخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٠

و استمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩ م فأين هذا الدفاع: دفاع جيش الأفضل بن بدر الجمالى عن القدس، من خيانة أسلاف عمر تدمرى و أسلاف محمد على الجوز و عند إنطاكية.

و بعد سقوط القدس و اصل الأفضل قتال الصليبيين، و قاد حملة لاسترداد القدس فى رمضان سنة ٤٩٢ هـ (آب ١٠٩٩ م) و وصل بها إلى عسقلان، فلما بلغت أخبارها إلى جودفرى فى القدس أرسل على عجل رسولا إلى تنكريد الذى كان فى نابلس يستدعيه هو و القوات التى معه للمشاركة فى دفع الخطر الداهم، كما استدعى بقية الأمراء الذين ساهموا فى بيت المقدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة، و لم يتخلف منهم أحد على الرغم مما كان قائما بينهم من خلاف يومذاك. و هكذا و حد الخطر بين جميع القوى الصليبية فتحشدت بأقصى ما تستطيع من تحشد، ففشلت معركة استرداد القدس فى تفاصيل ليس هنا مكان الخوض فيها. يقول المقريزى فى خطته: (و فى سنة أربع و تسعين خرج عسكر مصر لقتال الإفرنج و كانت بينهما حروب كثيرة). و يقول ابن الأثير: سير الأفضل ولده شرف المعالى فى السنة الحالية إلى الإفرنج فقهرهم و أخذ الرملة منهم.

و يقول المقريزى فى خطته: (و كوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان، باجتماع الإفرنج فاهتم للتوجه إليهم، فلم يبق ممكنا من مال، و سلاح، و خيل، و رجال، و استناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بين يدي الخليفة مكانه، و قصد استنقاذ الساحل من يد الإفرنج، فوصل إلى عسقلان، و زحف عليها بذلك العسكر). و لكن الحملة لم تنجح.

و قال المقريزى أيضا: و ذكر تجهيز العساكر فى البر عند ورود كتب صاحبى دمشق و حلب فى سنة سبع عشرة و خمس مئة ما يحث على غزو الإفرنج و مسيرها مع حسام الملك، و ركب الخليفة الأمر بأحكام الله، و توجه إلى الجامع بالمقس، و جلس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧١

بالمنظرة فى أعلاه، و استدعى مقدم الأسطول الثانى، و خلع عليه، و انحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال و العدد و الآلات و الآلات و الأسلحة.

و قال المقريزى: قال ابن المأمون البطائحي فى حوادث سنة تسع و خمس مئة:

و وصلت النجابتون من والى الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الإفرنج وصل إلى أعمال الفرما، فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والى الشرقية بأن يسير المركزية و المقطعين بها، و يسير الراجل من المعطوفية، و أن يسير الوالى بنفسه بعد أن يتقدم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا فى الطوالع، و يطاردوا الإفرنج، و يشارفوه فى الليل قبل وصول العساكر إليهم، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام، و تجهيز الأصحاب و الحواشى. فلما تواصلت العساكر و تقدمها العربان، و طاردوا الإفرنج، و علم بغدوين ملك الإفرنج أن العساكر متواصلة إليه، و تحقق أن الإقامة لا- تمكنه، أمر أصحابه بالنهب و التخريب و الإحراق و هدم المساجد، فأحرق جامعها و مساجدها و جميع البلد، و عزم على الرحيل ... إلى أن يقول: و أما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو و عادوا بعد

أن خيموا على ظاهر عسقلان ... ثم يقول:

و تواصلت الغارات على بلاد العدو و أسروا و قتلوا ...

و ظلت غارات الأفضل على شكل عصابات تغير على الصليبيين، و وصل بعضها إلى أسوار بيت المقدس سنة ٥٠٤ (١١١٠ م) و سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م)، و إلى يافا سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م).

و هذا يدل على أن الأفضل لم يهدأ، أو لم يترك الصليبيين يهدءون، بل ظل بغير عليهم و يقاتلهم، فكانت بينه و بينهم حروب كثيرة، على حد تعبير المقریزی.

و إذا كانت القوى الصليبية المتدفقة من أوروبا هي أكثر و أقوى مما استطاع الأفضل حشده، و إذا كان لقوى الصليبيين امتدادا دائما من الخارج، و ليس للأفضل أى إمداد من العالم الإسلامى الواسع، فذلك ليس ذنب الأفضل بن بدر الجمالى.

و بالرغم من أن من جاءوا بعد الفاطميين و الجمالين طمسوا كل ما يستطيعون طمسه من مآثر تلك اليهود، و ما قيل فيها من الشعر و النثر فقد أمكن أن يصل إلينا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٢

بعض ما خلده الشعراء من مآثر الأفضل بن بدر الجمالى فى جهاده للصليبيين. فمن ذلك قصيدة للشاعر أمية بن أبى الصلت، يشير فيها إلى انصراف البلاد الإسلامية الأخرى، عن مواجهة الخطر الصليبي، و اقتصار المواجهة على الأفضل و جيشه.

و فيها يقول مخاطبا الأفضل:

جردت للدين و الأسياف مغمدة سيفاً تفل به الأحداث و الغير ثم يشير إلى فشل حملة استعادة القدس:

و إن هم نكصوا يوماً فلا عجب قد يكهم السيف و هو الصارم الذكر

العود أحمد و الأيام ضامنة عقبى النجاح و وعد الله ينتظر ثم يتبنى الدكتور عمر تدمرى أقوال زملائه المتقدمين عليه فى الزمن، و المساوين له فى العصبية العمياء و التوغل فى الباطل و الافتراء على الحقيقة، أمثال: محمد كردعلى الذى ينقل قوله غير المستند إلى سند إلا اتقاء جذوة اللوم فى نفسه حيث يقول:

(و مما يشير الاستغراب و الدهشة أن الفاطميين ظلوا مكتوفى الأيدي، و هم يرون المدن الإسلامية تدمر، و يقتل رجالها و نساؤها و أطفالها، و تهدم مساجدها، و كأن الأمر لا- يعينهم طالما أنهم يعتقدون أن المتضرر الأول هم السلاجقة، و أنهم بعدم التصدى للصليبيين، يصرفون نظرهم عن الدخول إلى مصر).

و نقول لمحمد كردعلى، و لعمر تدمرى: أن خيانة أسلافكم السلاجقة هى التى فتحت الباب للصليبيين لكى يدمروا المدن الإسلامية و يقتلوا رجالها و نساءها و أطفالها و يهدموا مساجدها.

أما الفاطميون فلم يكن لهم وجود، و الجماليون الذين خلفوهم لم يقفوا مكتوفى الأيدي، و قد عناهم الأمر كل العناية، و قد رأينا فيما تقدم من القول ما فعلوه فى قتال الصليبيين ...

و أمثال ابن كثير الذى قدم التدمرى لشتائه بقوله:

و لقد هاجم المؤرخون الخلفاء الفاطميين، و دولتهم على مواقفهم المتخاذلة فكتب ابن كثير كلاما مقذعا قال فيه: ...

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٣

و قد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، و أكثرهم مالا، و كانوا من أغنى الخلفاء، و أجبرهم، و أظلمهم، و أنجس الملوكة سيرة، و أخبثهم سريرة، ظهرت فى دولتهم البدع، و المنكرات، و كثر أهل الفساد، و قل عندهم الصالحون من العلماء و العباد.

و كثر بأرض الشام النصرانية، و الدرزية، و الحشيشية، و تغلب الإفرنج على سواحل الشام بكمالها حتى أخذوا القدس، و نابلس، و عجلون، و الغور، و بلاد غزة، و عسقلان، و كركك، و الشوبك، و طبرية، و بانياس، و صور، و عكا، و صيدا، و بيروت، و صغد، و

طرابلس، و إنطاكية، و جميع ما والى ذلك إلى بلاد آياس و سبس، و استحوذوا على بلاد آمد، و الرها، و رأس العين، و بلاد شتى غير ذلك. و قتلوا من المسلمين خلقا و أمما لا يحصيها إلا الله، و سبوا ذراري المسلمين من النساء و الولدان مما لا يحد و لا يوصف. هذا الكلام ينقله، و يتبناه، و يحاضر به على المنابر، رجل يعيش في العقد الأخير من القرن العشرين، و يحمل شهادة دكتوراه و يدرس في الجامعة.

لقد كان على عمر تدمرى أن يخجل من مجرد وجود هذا الكلام في كتاب عربى، لو كان عمر تدمرى فعلا- رجل علم و فكر و تحقيق.

لقد استولى الإفرنج على ما ذكره ابن كثير من بلاد و فعلوا فيها ما عدده من الأفعال، و قد رأينا فيما تقدم أن الذين فتحوا للإفرنج باب الشام على مصراعيه، هم أسلاف ابن كثير، و محمد كردعلى، و عمر تدمرى، و محمد على الجوزو. فالعار في ذلك على أسلافكم، و يمتد العار إليكم، لأنكم لم تنكروا عليهم خيانتهم، أما الفاطميون فسنظل نكرر و نكرر أنهم لم يكونوا موجودين، و أن الجمالين الذين خلفوهم دافعوا دفاع الأبطال لذود الصليبيين لا سيما عن القدس ... و ابن كثير هذا الذى يفرض قلمه بتلك البذاءات عن الفاطميين هو نفسه الذى يقول عن واحد من أولئك الفاطميين في الصفحة ٢٨٤ من المجلد الحادى عشر من كتابه: البدايه و النهايه:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٤

كان المعز قبحة الله فيه شهامة، و قوة حزم، و شدة عرام، و له سياسة، و كان يظهر أنه يعدل، و ينصر الحق. هذه هى الصفات التى كان يتحلى بها الفاطميون و التى أنطق الله بها ابن كثير رغما عنه: الشهامة، و قوة الحزم، و شدة العرام، و السياسة، و العدل، و نصره الحق.

و مع ذلك فابن كثير لا- يتورع عن أن يقول عن صاحب هذه الصفات: قبحة الله، و أن يصف قومه الذين لا يقلون عنه فى التحلى بهذه الصفات بما وصفهم به، و أن يشتمهم بما شتمهم.

نحن لا نريد أن نتحدث عن أمجاد الفاطميين إلا بما ذكره ابن كثير نفسه، و بما أرغمه الله على تدوينه فى كتابه نفسه فهو يقول عن إحدى وقائعهم و هو يتحدث عن أحداث سنة ٣٥١ هـ:

و فيها فتح المعز الفاطمى حصن طبرمين من بلاد المغرب، فتحه قسرا بعد محاصرة سبعة أشهر و نصف. و قصد الإفرنج جزيرة أقریطش فاستنجد أهلها المعز فأرسل إليهم جيشا فانتصروا على الإفرنج.

و قال فى أحداث سنة ٣٥٣ هـ: و كان من عزمهم (الروم) أن يستحوذوا على البلاد الإسلامية كلها ... ثم يقول: و فيها كانت وقعة المجاز ببلاد صقلية، و ذلك أنه أقبل من الروم خلق كثير، و من الإفرنج ما يقارب مئة ألف، فبعث أهل صقلية إلى المعز الفاطمى يستنجدونه، فبعث إليهم جيوشا كثيرة فى الأسطول، و كانت بين المسلمين و المشركين وقعة عظيمة، صبر فيها الفريقان من أول النهار إلى العصر، ثم قتل أمير الروم منويل، و فرت الروم، و انهزموا هزيمة قبيحة، فقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، و سقط الإفرنج فى واد من الماء عميق، فغرق أكثرهم، و ركب البااقون فى المراكب، فبعث الأمير أحمد صاحب صقلية فى آثارهم مراكب آخر، فقتلوا أكثرهم فى البحر أيضا، و غنموا فى هذه الغزوة كثيرا من الأموال، و الحيوانات، و الأمتعة، و الأسلحة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٥

هو يعترف أنه كان من عزم الروم الاستحواذ على البلاد الإسلامية، و يعترف أن جيوش الفاطميين هى التى أحبطت عزمهم و ردتهم عن البلاد الإسلامية. كما اعترف من قبل أن جيش الفاطميين هو الذى أنجد مسلمى جزيرة أقریطش من الغزو الفرنجى فانتصر المسلمون على غازيهم من الإفرنج.

يعترف بذلك، ثم يصف الفاطميين بما وصفهم به، و يأتى اليوم أستاذ الجامعة الأكاديمى، أستاذ الجامعة حامل الدكتوراه: عمر



تدمرى فيستشهد بأقواله و يرددها على المنابر.

و لتزداد معرفة بابن كثير و متبنى أقواله، نقول: إنه و هو يذكر أحداث سنة ٣٥١ هـ، يذكر انتصار البيزنطيين على سيف الدولة الحمداني في إحدى المعارك و دخولهم حلب، فيقول: إن سيف الدولة فيه تشيع، لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء! ..

إن ابن كثير الذى يدعى الإسلام، و الغيره عليه لا يبالى أن يشمت بانتصار البيزنطيين على الحمدانيين ما دام الحمدانيون شيعة. و لكن الله يخزى ابن كثير بقلم ابن كثير نفسه، إذ تضطره الأحداث لأن يتم كلامه السابق قائلاً عن سيف الدولة: بعث مولاة نجا، فدخل بلاد الروم، فقتل منها خلقا كثيرا، و سبى جمعا غفيرا، و بعث صاحبه مع جيش طرطوس فدخلوا بلاد الروم فغنموا و سبوا، و رجعوا سالمين.

و لتعرف من هو ابن كثير، هذا الذى يتبنى الدكتور عمر تدمرى أقواله و يخطب بها على المنابر نذكر لك شيئا مما سجله فى تاريخه: (البداية و النهاية):

فهو عندما يتحدث عن وفاة الأشرف بن العادل الأيوبي يقول عنه فى الصفحة ١٤٧ من المجلد الثالث عشر: إنه كان يعانى الشراب أى أنه كان سكيراً. ثم يقول عنه فى الصفحة التالية:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٦

و لما توفى رآه بعض الناس و عليه ثياب خضر و هو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا و قد كنت تعانى الشراب فى الدنيا؟ فقال: ذاك البدن الذى كنا نعمل به ذاك عندكم، و هذه الروح التى كنا نحب بها هؤلاء فهى معهم.

ثم يعقب ابن كثير على هذا القول بقوله: و لقد صدق - رحمه الله-، قال رسول الله (صلى الله عليه و سلم): المرء مع من أحب. و هكذا فعلى رأى ابن كثير: لا- بأس بارتكاب المعاصى و منها شرب الخمر، ما دام مرتكبها يحب بعض الصالحين على أن الطامة الكبرى هى ما ذكره فى الصفحة ١٢٩ من المجلد الثانى عشر: عن الاختلاف فى إباحة الولدان فى الجنة، و ما قيل فى الإباحة و عدم الإباحة بين أبى على بن الوليد و أبى يوسف القزوينى، و أنه يباح لأهل الجنة و طء الولدان فى أدبارهم، فمال هذا إلى إباحة ذلك، لأنه مأمون المفسدة هناك. و قال أبو يوسف: إن هذا لا يكون، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، و من لك أن يكون لهم أدبار، و هذا العضو و هو الدبر إنما خلق فى الدنيا لحاجة العباد إليه لأنه مخرج الأذى عنهم، و ليس فى الجنة شىء من ذلك، و إنما فضلات أكلهم عرق يفيض من جلودهم، فإذا هم ضمير فلا يحتاجون إلى أن يكون لهم أدبار، و لا يكون لهذه المسألة صورته بالكلية!! هذا هو المؤرخ الذى يستشهد بأقواله الدكتور عمر تدمرى و يخطب بها على المنابر! .. و إنه ليشرف الفاطميين و غير الفاطميين أن يشتمهم من تشغله فى تاريخه أدبار الولدان! ..

و لا يشرف الدكتور عمر تدمرى أن يكون هذا مقتداه و مصدر أفكاره ..

و ابن كثير هذا الذى افترى على الفاطميين ما افترى، عندما يمر بخيانة الأيوبيين يمر بها مرا سريعا لا يلفت النظر، فهو مثلا عندما يتحدث عن تنازل العادل عن البلاد للصليبيين يقول:

و أطلق لهم شيئا من البلاد، و عندما يذكر تحالف الأيوبيين، الصالح إسماعيل صاحب دمشق، و الناصر داود صاحب الكرك، و المنصور صاحب حمص - عندما يذكر تحالف هؤلاء الأيوبيين مع الصليبيين على قتال قريبهم الأيوبي الصالح أيوب صاحب مصر، يذكر ذلك بدون أى اهتمام و أى إنكار. و عندما يذكر انضمام

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٧

القاضيين صدر الدين بن سنى الدولة و محيى الدين بن الزكى إلى هولوكو، و انضمام الملك السعيد بن العزيز بن العادل الأيوبي إلى المغول أيضا و قتاله معهم فى معركة عين جالوت، و مكاتبه الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل الأيوبي لهولوكو، و حثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، و جواب المغول له بالثبات، و نيابة البلاد، و أنهم قادمون عليه لفتح الديار المصرية - عندما

يذكر ابن كثير ذلك لا يرى فيه شيئا، ولا يرى أن هؤلاء الخونة يستحقون حتى كلمة تفرغ! ..

ثم لا يبالي أن يفترى على الأبرياء الشرفاء المخلصين! والدكتور عمر تدمري لم ترعه هذه الخيانات الصريحة المملوء بها وبأمثالها كتاب ابن كثير، فلم يشر إليها بشيء في كل ما كتب و دون، بل تمسك بالافتراءات والأباطيل والبذات والشتائم! ولا يكتفى التدمري بالتمسك بأذيال ابن كثير، بل لجأ إلى نظير لابن كثير، هو ابن الفرات، فنقل عنه ما كان عليه أن يخجل من قراءته، ولكنه - وهو يوافق هواه وعصبيته - انحدر مع ابن الفرات إلى دركات الخزي حين نقل عنه هذا القول الذي مهد له بقوله: وها هو ابن الفرات يورد رواية فيها الكثير من السخرية بالخليفة الفاطمي المراهق (الأمير بالله) وهو يتحدث عن سقوط مدينة طرابلس يقول فيها: ... و حكى أن السبب في أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الإفرنج كتب من فيها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتهما ويسألوه الميرة، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة، فبينما هم في ذلك إذا بمركب قد أقبل، فما شكوا أن فيه نجدة، فطلع منه رسول وقال: قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة، وقد أمر بإرسالها إليه، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي فعند ذلك أسوا من نصره و ضعفت قواهم.

إلى هذا المستوى انحط عمر تدمري، إلى هذا المستوى انحط من يعتبر نفسه مؤرخ الإسلام في بلاد الشام في هذا العصر! لقد انحط إلى حد تبنى السفاهات، والمناداة بها شعارا يواجه به جماهير الناس! ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٨

يا عمر تدمري، إن طرابلس بلدك، وأنت تعرف أنها صمدت بأبطالها الشيعة بنى عمار عشر سنين في وجه الصليبيين تقاتلهم، و تذودهم، و تتحمل مرارة حصارهم لها. و إنها لم تستنجد بمصر؛ لأن مصر كانت هي الأخرى تقاتل الصليبيين، و تدفعهم عن حمى الإسلام بقواها المحدودة التي لا تستطيع أن تستغنى عن جندي واحد منهم .. لقد استنجدت بأسلافك في بغداد الراجين في دعة العيش المتنعمين بغضارة الحياة! .. لقد استنجد وفدها بهم فردوه خائباً! و تركوها تلاقى مصيرها وحيدة! .. لقد كنت انتظر منك كل شيء .. و لكن لم يدر بخلدى أبدا أنك ستبنى الأكاذيب المصوغة بالبذاءة و انعدام الحياة! ..

## بين السلاجقة و الصليبيين

سنة ٤٩١ هـ كان الصليبيون يحتلون إنطاكية و يتوغلون منها في بلاد الشام قاصدين القدس.

و يقول ابن الأثير عن حاكم إنطاكية السلجوقي (باغى سيان) إنه بمجرد أن سمع صوت بوق الإفرنج يضرب عند السحر، و كان مع البوق عدد من الصليبيين لا يزيد على الخمسمائة لما سمع (باغى سيان) صوت البوق دخله الرعب، ففتح باب البلد و خرج هاربا على وجهه، فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه، فقيل إنه هرب، فخرج من باب آخر هاربا، و كان ذلك معونة للإفرنج، و لو ثبت ساعة لهلكوا.

و يقول ابن الأثير بعد ذلك بسطور: و كان الإفرنج قد كاتبوا صاحبى حلب و دمشق (السلجوقيين) بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكرامتهم و خديعة، حتى لا يساعدوا صاحب إنطاكية.

هكذا سلم السلاجقة باب العالم الإسلامي مفتوحا للصليبيين، فدخلوا منه حتى وصلوا إلى القدس! هرب حامى الباب بسماعه صوت البوق فلم يرم بسهم،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٧٩

و لم يجرّد سيفاً، و لم يشرع رمحا دفاعا عن البلد الذي أنفذ فيه سلطانه، و استصفى أمواله، و عاش فيه آمرا ناهيا مترفا، فلما جد الجد

لم يكن له هم إلا نفسه ففر هاربا لا يلوى على شىء، و لم يترك البلد و أهله و حدهم عرضة لمذابح الصليبيين، بل ترك حتى أسرته للقتل و السبى و الأسر.

و صاحباً حلب و دمشق (السلجوقيان) لم يعنهما أن يحتل الصليبيون إنطاكية، ثم ينطلقوا منها إلى أولى القبلتين و ثالث الحرمين، لم يعنهما ذلك ما دام الصليبيون قد طمأنوهما بأنهم لن يتعرضوا لهما.

و فى السنة التى كان الصليبيون يزحفون فيها على العالم الإسلامى فيحتلون إنطاكية و يتقدمون إلى بيت المقدس، كان السلجوقيون فى مكان آخر لا يكثرثون بهذا، و إنما يتقاتلون فيما بينهم فيقوم دولتشاه مع بيغو أخى طغرل بك فريفا، و يقود السلطان سنجر فريفا و يدخلون فيما بينهم بمعارك دامية. و فى السنة الثانية من احتلال القدس (سنة ٤٩٢ هـ) كان السلاجقة فى شغل عن هذا الاحتلال، و عن مذابح المسلمين فى القدس، و عن الذل الذى غرق فيه المسلمون كانوا فى شغل عن ذلك، و كانوا يتحاربون فى مكان آخر، كان القتال دائراً بين السلطان (بركيارق) و واليه (أنر)، و بين (إيران شاه) و حلفائه (الشوانكاره).

و مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك (الوزير السلجوقى) لم يعنه و هو فى بغداد ما يجرى فى القدس بل عناه الخلاف السلجوقى، فسار من بغداد لا إلى القدس لإنجاده و استنقاذا، بل إلى حيث يقيم (أنر) لإنجاده و استنقاذه.

و أنر هذا لم يعنه هو الآخر ما يجرى فى القدس على المسلمين، بل عناه أن الإسماعيليين قد انتشر أمرهم فى أصفهان فندب نفسه لقتالهم، و حصر قلعة على جبل أصفهان!

أنر السلجوقى لم ير فى انتشار أمر الصليبيين فى بلاد الشام ما يحفزه على أن يندب نفسه لقتالهم، و أن يسرع لحصار قلعة من قلاعهم. بل رأى فى انتشار أمر مواطنيه الإسماعيليين ما يحفزه على ذلك!

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٠

و تسقط القدس و يجرى ما يجرى فيها على المسلمين، و يأتى المستنجدون من الشام إلى بغداد، بغداد السلجوقية فى ذلك الوقت.

و يروى قصتهم ابن الأثير على هذا الشكل:

(و ورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى (قاضى دمشق) أبى سعد الهروى، فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون و أوجع القلوب و قاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا و بكوا و أبكونا، و ذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال و سبى الحرير و الأولاد و نهب الأموال). (انتهى).

كان يومذاك فى بغداد سلطتان: سلطة روحية بحتة هى سلطة الخلافة، و سلطة فعلية حاكمه هى سلطة السلاجقة.

و كل ما استطاع الخليفة أن يفعله هو أن يقنع سته من الفقهاء أن يسيروا نجدة لإخوانهم فى الشام، و مع أن هذه النجدة لا طائل وراءها، فإن هؤلاء لم يلبثوا أن رجعوا من أول الطريق ..

أما السلطة الفعلية سلطة السلاجقة فقد أصمت أذنيها عن سماع الاستغاثة، و تجاهلت وصول المستغيثين منصرفة إلى شئونها الخاصة. هذه السلطة التى لم تتوان عن أن يسير بها رأس من رءوسها الكبيرة، مؤيد الملك بن نظام الملك لإنجاد سلجوقى متنازع مع سلجوقى آخر.

و يعبر ابن الأثير عن الموقف أحسن تعبير حين يقول: (و اختلف السلاطين فتمكن الإفرنج من البلاد). و المقصود بالسلاطين: سلاطين السلاجقة إذ لم يكن يومذاك من يدعى بالسلاطين غيرهم.

و يبدو أن الخليفة المستظهر قد أخرج السلطان السلجوقى (بركيارق) فأرسل بركيارق إلى كربوقا أتاك الموصلى فذهب لإنقاذ إنطاكية. فكان من كربوقا و من معه من القواد أن تحكمت بكربوقا أنانيته، و تغلبت على القواد و جنودهم الخيانة فأضاعوا إنطاكية، و فتحوا البلاد للصليبيين ... - كما سيأتى بيانه -.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨١

أما بركيارق فقد كان مشغولاً عن الصليبيين بالافتتال مع السلاجقة الآخرين!

ففى سنة الزحف الصليبي و احتلال القدس، و مجيء الوفد الشامي للاستنجاد بالسلطة السلجوقية سنة ٤٩١ هـ و عودته خائباً، فى هذه السنة نفسها كان السلاجقة مشغولين بالتراحم على التسلط على بغداد، فالسلطان محمد بن ملكشاه ينزل أخاه بركيارق على السلطنة و يعلن نفسه سلطاناً و يقطع خطبة أخيه من بلاده و يقبض على زبيدة خاتون والدته أخيه السلطان بركيارق و يسجنها ثم تقتل خنقا.

و كان زعماء السلاجقة يتعاضدون، لا على التوجه إلى فلسطين لقتال الصليبيين، بل على التوجه لتوطيد أمر السلطان محمد، فيأتي سعد الدولة كوهرائين من بغداد، و كربوقا من الموصل، و جكرمش من الجزيرة، و سرخاب بن بدر من كركور، و غيرهم من غيرها و يتوجهون إلى السلطان محمد فى مدينة (قم)، فيوفد كوهرائين إلى بغداد ليحمل الخليفة على أن يخطب فيها للسلطان محمد، فيستجيب الخليفة لذلك، و يلقب السلطان محمد بلقب: غياث الدنيا و الدين!.

أى دين و أى دنيا كان هذا السلطان السلجوقى غياثهما؟ أما دنيا الإسلام فى الأرض المقدسة فكانت موزعة فى أيدي الصليبيين، و أما الدين فقد كان موءوداً بسيفهم!

و السلاجقة مع ذلك يسمون سلطانهم الجديد الالهى عن ذلك، العاكف على استغلال سلطته فى المسلمين يسمونه: غياث الدنيا و الدين! ..

لقد كان غياث دنياهم فعلاً، أما الدين فلم يكن له فيهم من غياث، و أما دنيا القدس فقد كانت فى مضية أى مضية. و لم يسكت بركيارق فجمع جموعه و أمير عسكره ينال بن أنوشتكين الحسامى و سار و معه غيره من الأمراء إلى واسط، يظلم جنوده الناس و ينهبون البلاد، حتى بلغ بغداد، فلما بلغها كان قد خطب له فيها قبل وصوله إليها بيومين! ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٢

و هنا ضعفت عزائم الحلفاء الذين كانوا أجمعوا على تعضيد مزاحمة السلطان محمد، فأما جكرمش فاستأذن كوهرائين فى العود إلى بلده بدعوى أن الأحوال قد اختلفت، فأذن له! ..

و اتفق الآخرون على أن يصدروا عن رأى واحد لا يختلفون ...

و لما كانت الدنيا قد أخذت تقبل على السلطان بركيارق، فقد كان رأيهم الواحد الذى لم يختلفوا فيه: أن كتبوا إلى بركيارق يقولون له: أخرج إلينا، فما فينا من يقاتلك!

فسار بركيارق إليهم، فترجلوا و قبلوا الأرض و عادوا معه إلى بغداد!

هذا السلطان و هؤلاء الأمراء، لم يذكر منهم ذاك القدس و أفاعيل الصليبيين فيها، و لم يكن فى خواطريهم التفكير فى إنقاذها! لقد اجتمعوا من كل مكان، و ما من مكان جاءوا منه إلا و فيه المقاتلة الأشداء، لقد استغلوا هؤلاء المقاتلة لتوطيد سلطانهم و إحكام أمرهم، و جردوا السيوف بعضهم على بعض، لا على أعداء الإسلام: فاتحى القدس، و ذابحى المسلمين فيه.

و بغداد هذه التى عادوا إليها مجتمعين، ليوطدوا فيها سلطان بركيارق بعد أن كانوا قد و طدوا فيها من قبل سلطان عدوه محمد بن ملكشاه .. بغداد التى لم تثرهم فيها استغائهم المستغيثين بهم لإنقاذ القدس، بغداد التى شهدت القادمين من الشام يكون العيون و يوجعون القلوب بذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، و سبى الحرير و الأولاد، و نهب الأموال.

بغداد التى شهدت كل ذلك، و شهدتهم معرضين عن الإغائهم، متجافين عن المعونة فلم تبك عيونهم، و لم تتوجع قلوبهم، و لم تتحرك سيوفهم، بل أعرضوا عن الصوت المستغيث! ..

بغداد تشهدهم اليوم متجمهرين فيها حول سلطانهم القديم الجديد بسيف مشهورة، و ألوية منشورة، و نفوس مسرورة!

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٣

أما بركيارق هذا، الذى اكتفى عند الاستنجاد به لإنقاذ مسلمى بلاد الشام من مذابح الصليبيين، و تخليص القدس من براثنهم، اكتفى

بانتداب من خانوا الأمانة و على رأسهم كربوقا، و لم تحفزه النخوة على أن يسير على رأس جموعه الغفيرة لجهاد الصليبيين. أما بركيارق هذا فهو يدخل بغداد اليوم ظافرا، مزهوا بتريد اسمهم في الخطب على منابرهما، غير متذكر أن الصليبيين دخلوا القدس ظافرين، مزهوين بتريد شعاراتهم على منبر المسجد الأقصى و محاريب بيت المقدس .. و عوضا عن أن يتوجه بجموعه إليهم، قاد تلك الجموع لقتال أخيه محمد، و كان أخوه مستعدا هو الآخر للقتال، و بدلا من أن يمحو كل من الأخوين ما في قلبه من ضغائن على الآخر، و يملئا قلوبهما بالضغائن على الصليبيين الذين أجروا سيول الدماء في رحاب أولى القبلتين عوضا عن ذلك صمما أن يتقاتلا و يتركا الصليبيين في القدس آمنين مطمئنين، متحفزين للانطلاق إلى كل مكان إسلامي. و يصف ابن الأثير القتال بين الأخوين بهذا الوصف:

(كان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، و كان محمد في القلب و معه الأمير سمرز، و على يمينته أمير آخر، و ابنه آياز، و على يسرته مؤيد الملك و النظامية.

و كان السلطان بركيارق في القلب، و وزيره الأعز أبو المحاسن، و على يمينته كوهرائين، و عز الدولة بن صدقة بن مزيد، و سرخاب بن بدر، و على يسرته كربوقا و غيره. فحمل كوهرائين من يمينه بركيارق على ميسرة محمد، و بها مؤيد الملك و النظامية، فانهموا و دخل عسكر بركيارق، في خيامهم فنهوهم. و حملت يمينه محمد على ميسرة بركيارق فانهمت الميسرة، و انضافت يمينه محمد إليه في القلب على بركيارق و من معه، فانهم بركيارق، و وقف محمد مكانه، و عاد كوهرائين من طلب المنهزمين الذين انهزموا بين يديه، و كبا به فرسه فأتاه خراساني فقتله، و أخذ رأسه، و تفرقت عساكر بركيارق، و بقي في خمسين فارسا).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٤

### و عادت الخطبة للسلطان محمد ببغداد

إذا كان بقيادة محمد بن ملكشاه عشرون ألف مقاتل، فلا شك أن بقيادة أخيه بركيارق ما لا يقل عن هذا العدد إن لم يزد عليه، فهذه أربعون ألف مقاتل كان على السلاجقة أن يسيروا بها لقتال الصليبيين، و صدهم عن التمدد في البلاد الإسلامية، و كانوا مستطيعين أن يضيفوا إليها أمثالها، لو استجاشوا الناس و استنفروا الرجال من أقصى خراسان إلى أقصى الشام، لقتال الصليبيين. و لكن قتال الصليبيين لم يكن يعينهم، و إنما كان الذي يعينهم هو الاقتتال فيما بينهم، و سفك دماء المسلمين في سبيل مطامعهم الشخصية. على أن بركيارق لم يأس فاتجه إلى (الرى) ثم إلى نيسابور، و وجد من يحالفه على قتال أخيه الآخر (سنجر) في معركة طاحنة انهزم فيها بركيارق.

و عاد فاستطاع جمع جيش مكون من خمسين ألف مقاتل، تقابل به مع جيش أخيه السلطان محمد المكون من خمسة عشر ألفا، فانتهت هذه المرة بركيارق بجيشه الأكثر عددا على جيش أخيه الأقل عددا.

و لا بد من أن نشير هنا إلى أن عبيد الله مؤيد الملك بن نظام الملك كان في صف السلطان محمد، فأسر في هذه المعركة، فقتله بركيارق بيده بعد أن سبه و أهانه، و بقي ملقى على الأرض عدة أيام إلى أن أذن بركيارق بدفنه، فحمل إلى تربة أبيه بأصبهان فدفن فيها.

هكذا كان يموت هؤلاء الناس هذه الميئات الذليلة، بدل أن يموتوا في ساحات الشرف أعزاء في قتال أعداء البلاد.

و هكذا يتبين أن بركيارق الذي استطاع بعد هزائمه المتتالية أن يجمع جيشا مؤلفا من خمسين ألف مقاتل، فيقاتل به أخاه في سبيل الملك، كان يستطيع جمع أضعاف هذا الجيش ليقاتل به الصليبيين. و مضى بركيارق بعد هذا النصر إلى (الرى) فوافاه إليها فيمن وافاه (كربوقا) صاحب الموصل.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٥

إن كربوقا هذا المسئول الأول عن هزيمة المسلمين في إنطاكية، و الذي كانت الحروب الصليبية ستنتهي عند إنطاكية لولا ما جناه هو و من معه من القواد، و الأمراء، و الجمهور، من جنائيات الأنايئة، و الخيانة. إن كربوقا هذا قد عاد، بعد أن جنى ما جنى إلى إمارته في الموصل، و كأن شيئا لم يحدث، و كأنه لم يكن هو و من معه السبب، فيما جرته الحروب الصليبية على المسلمين.

و ها هو يظهر دائما في الأحداث، مشاركا فيها مع هذا الجانب، أو ذاك الجانب، و قد رأيناه من قبل ينضم إلى جانب السلطان محمد على أخيه بركيارق، و ها هو الآن ينضم إلى بركيارق.

إن الذي لم يبال أن يكون هو و أعوانه السبب في نكبة العالم الإسلامي، و يعود بعد أن فعل ما فعل عند إنطاكية، يعود أميرا مزهوا، هل يبال أن يتلون كل يوم بلون، و أن ينصر هذا السلطان اليوم، ثم يعود فيخذله منضمًا إلى عدوه؟!.

إنه على خطى بركيارق، و غير بركيارق، من أولئك السلاجقة الذين يرون تهدم العالم الإسلامي بالأيدى الصليبية، فيشاركون في التهديم بخياناتهم، و أنانياتهم، و سفك دماء المسلمين فيما بينهم، بدل أن تسفك في جهاد الصليبيين.

على أنهم بلغوا أخط دركات النذالة في أخلاقهم الشخصية، فمحمد بن ملكشاه يقبض على زوجة أبيه و أم أخيه زبيدة خاتون فيهينها و يسجنها ثم يقتلها خنقا. و بركيارق يقبض على زوجة أبيه و والدته أخويه محمد و سنجر و يبادل بها الأسرى مع أخيه سنجر.

و من هذه صفاتهم الشخصية التي لا يبالون معها أن يهتكوا نساء آبائهم و إخوتهم، يطلب منهم أن يحافظوا على شرف الإسلام و عزة المسلمين!؟.

مضى محمد بعد هزيمته إلى جرجان مستنجدا بأخيه سنجر- و هما لأم واحدة- و كان لم يبق مع محمد سوى ٣٠٠ فارسا فوفاه أخوه سنجر من خراسان في عساكره.

يقول ابن الأثير:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٦

سارا من جرجان إلى دامغان فخر بها العسكر الخراساني (عسكر سنجر) و مضى أهلها هارين إلى قلعة كردكوه، و خرب العسكر ما قدروا عليه من البلاد، و عم الغلاء بتلك الأصقاع حتى أكل الناس الميتة و الكلاب، و أكل الناس بعضهم بعضا. و سارا إلى الري، فلما وصلا إليها انضم إليهما النظامية و غيرهم فكثر جمعهما و عظمت شوكتهما و تمكنت من القلوب هيبتهما (انتهى).

كان الصليبيون يفتكون بغرب العالم الإسلامي، و في الوقت نفسه كان السلاجقة يفتكون بشرق هذا العالم. وليتهم حين لم يهبوا لإنقاذ ذلك الغرب كفوا شرورهم عن ذاك الشرق.

في الأيام التي كان فيها الصليبيون يخربون طرابلس و صيدا و صور و يشردون أهلها و أهل غيرها من مدن و قرى بلاد الشام، كان السلاجقة يخربون (دامغان)، و يخربون ما قدروا عليه من البلاد، و إذا كان ابن الأثير قد اكتفى بذكر مدينة دامغان فإن قوله: خربوا ما قدروا عليه من البلاد كاف للدلالة على عظم التخريب؛ لأن ما قدروا عليه كان كبيرا.

و إذا كان الصليبيون قد بلغوا بالمذابح أقصى مداها في القدس، فلا شك أن المذابح قد بلغت حدا بعيدا في دامغان و غير دامغان مما سيطر عليه السلاجقة. و الدليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من فرار من سلم إلى القلاع المنيعه.

و مهما يكن من أمر فلم يبلغنا أن المسلمين في السيطرة الصليبية قد أكلوا الميتة و الكلاب، و أكلوا بعضهم بعضا. و لكن ذلك جرى على المسلمين في السيطرة السلجوقية المزامنة للسيطرة الصليبية.

الأحداث التي تحدثنا عنها فيما تقدم من القول، و التي جرت في السيطرة السلجوقية على شرق العالم الإسلامي جرت سنة ٤٩٤ هجرية.

فلنر ماذا كان يجري في السنة نفسها على غرب العالم الإسلامي: في سنة ٤٩٤ ه التي كان الملك السلجوقيان الأخوان المسلمان يدخلان بعسكرهما مدينة دامغان فيخربانها و يشردان أهلها فيهمون على وجوههم، ثم يخربون كل ما قدروا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٧

على تخريبه من البلاد، ثم يضطر المسلمون إلى أكل الميتة و الكلاب و أكل بعضهم بعضا. في تلك السنة (٤٩٤هـ) كان الصليبيون يتقدمون فيحتلون مدينة سروج من بلاد الجزيرة و يقتلون كثيرا من أهلها و يسبون حريمهم و ينهبون أموالهم، و لم يسلم إلا من مضى منهزما. دامغان في شرق العالم الإسلامي، و سروج في غرب هذا العالم. مصير واحد لقياه في زمن واحد .. مصير مأساوى فاجع ..

القوى التي دخلت دامغان و امتدت منها إلى ما استطاعت الامتداد إليه من بلاد .. هذه القوى لم تكن وظيفتها احتلال دامغان و تخريبها و تشريد أهلها، كانت وظيفتها الدفاع عن سروج و حمايتها من التخريب و حماية أهلها من القتل و السبي و النهب. لم يكن مكان محمد بن ملكشاه و مكان أخيه سنجر في دامغان، بل كان مكانهما في سروج. في السنة نفسها التي كان ينطلق فيها ابنا ملكشاه السلجوقي سنة ٤٩٤هـ - ينطلقان من دامغان حتى يبلغا (الري)، كان الصليبيون ينطلقون فيبلغون مدينة حيفا فيملكونها عنوة ..

و يظنون في انطلاقهم فيملكون مدينة (أرسوف) بالأمان و يخرجون أهلها منها ... و ينطلقون فيملكون مدينة (قيساريه) بالسيف و يقتلون أهلها و ينهبون ما فيها ... حملتان على العالم الإسلامي في سنة واحدة، حملة شرقية و حملة غربية، حملتان توحدتا في الهدف: تخريب المدن و ذبح أهلها و سبيهم و نهبهم!

حملتان توحدتا في الهدف، و كان من حق الإسلام أن تتناقضا، كان من حق الإسلام أن لا يكون ميدان إحداهما في الشرق و ميدان الأخرى في الغرب، بل إن تلتقيا معا في الغرب، أن تلتقيا متصادمتين تصادما دمويا يرد الغربية إلى غربها البعيد الذي قدمت منه! .. تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٨

لم تنته الحرب بين السلاجقة فالنصر الذي أحرزه بركيارق لم تدم نتائجه طويلا. لقد كان من نتائج هذا النصر أن أقبل الناس على بركيارق فاستطاع أن يجمع جيشا مكونا من مئة ألف مقاتل!

و هنا نعود إلى ما قلناه من قبل من أن استصراخ العالم الإسلامي كان ممكنا، و أن تأليف جيش قوى كبير يضم مئات الألوف يزحف للقضاء على الصليبيين كان مستطاعا لو كان هؤلاء القادة مخلصين للإسلام مهتمين بحاضر المسلمين و مستقبلهم. فإذا كان بركيارق قد جمع حوله مئة ألف مقاتل، من أجل هدف تافه لا يعدو أطماع الدنيا، فإنه مستطاع أن يجمع أضعاف هذا العدد من أجل هدف سام، لو كانت له أهداف سامية! و ما أبعد هؤلاء السلاجقة عن الأهداف السامية!

على أن بركيارق بعد أن تحقق له النصر لم يفكر بعيدا، و لم يعد لهذا الجيش ما يكفل له دوام التجمع، و الواقع هو أن مثل هذا الجيش كان يجب أن يكون له هدف واضح كبير يكفل استمرار بقائه، و لكن لا السلطان كان يملك هذا الهدف، و لا من هم حول السلطان كانوا يملكونه.

ففوجئوا أول ما فوجئوا بفقدان الحيرة، فلم يحاولوا تلافى أمر فقدانها، لفقدان الهدف، لذلك أخذوا يتفرقون فعاد ديبس بن صدقة إلى أبيه في الحلة.

و قامت ثورة على السلطان بركيارق بقيادة الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي بأذربيجان، فسير إليه كربوقا في عشرة آلاف فارس. دائما هذا الاسم الكريه كربوقا أمانا، و دائما هو في صميم الأحداث، لا يلويه عنها الخزي الذي لحق به في إنطاكية، و لا العار الذي جلله بفتحه باب بلاد الشام أمام الصليبيين ليلجوا منه إلى فتح القدس.

و استأذن الأمير (آياز) في أن يقصد داره بهمدان يصوم بها شهر رمضان و يعود بعد الفطر فأذن له، و تفرقت العساكر لمثل ذلك، و بقي بركيارق في العدد القليل.

على أن بركيارق فوجيء بأن أخويه محمد و سنجر قد جمعا الجموع، و حشدا الجنود، و أنهما لما بلغهما تفرق ما كان لديه من جيوش جدا في السير إليه، مسرعين  
تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٨٩  
في طي المراحل مرحلة بعد مرحلة، عازمين على مباغتته قبل أن يستطيع تجميع من كانوا مجتمعين حوله. و لما أصبحا غير بعيدين عنه صمم على اللحاق بآياز في همدان.  
و لكن الناس هم الناس فلما لاح لهم أن الدنيا قد بدأت تدبر عنه، طمع فيه من كان يهابه و آيس منه من كان يرجوه، كما قال ابن الأثير.

و كان من أول المنقليين عليه آياز نفسه، فقد بلغه و هو في الطريق إليه أن آيازا قد بعث إلى السلطان محمد لينضم إليه.  
لذلك حول بركيارق وجهه سيره عن همدان إلى خوزستان فكتب و هو في الطريق إلى بنى برسق يطلب إليهم الوصول إليه. و كان هؤلاء قد بلغهم امتناع آياز عليه، كما بلغهم تعاضم قوة محمد فرفضوا الاستجابة.. لذلك اضطر للتوجه إلى العراق، و في طريقه إلى العراق و عند وصوله إلى حلوان فوجيء بتطور لم يكن ينتظره، ذلك أن آياز قد بعث إليه أن يتوقف عن السير إلى العراق لأنه سائر إليه.

و لم يكن ذلك كرم أخلاق من آياز، بل كان حلقة من سلسلة الانتهازية و التذبذب و الوصولية، فإن محمد بن ملكشاه قد رفض قبول آياز بعد أن صار مستغنيا عنه بما أصبح يملك من قوة و اقتدار، و أكثر من ذلك فقد وجه حملة إلى همدان مما اضطر محمدا إلى الفرار عنها متخليا عن ذخائره فيها من مال و كراع و دواب، ما كان شيئا كثيرا وقع كله غنيمه في يدي محمد.  
و التقى بركيارق بآياز فكان كل ما بقى لهما من الجند معا خمسة آلاف فارس.

و قد كان جديرا ببركيارق أن لا يقبل آيازا بعد ما بدا له من خيانتته، و لكنه كان بحاجة لأى رجل و لأن المحنة وحدث بينهما.  
و لم يكن أمام الرجلين سوى مواصلة السير إلى العراق حيث وصلا بغداد، بعد أن كان الخليفة قد أرسل موكبا لاستقبال بركيارق، على أن بركيارق باعتباره السلطان الشرعى كان يعوزه المال للإنفاق على نفسه و على عساكره فأرسل إلى  
تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٠

الخليفة طالبا إنجاده بالمال، و بعد المداولات و المراجعات تقرر أن يصرف له خمسين ألف دينار.  
و لم يكن ذلك كافيا فامتدت أيدي بركيارق و أصحابه إلى أموال الناس، و لم يتورعوا في ذلك عن أى شىء حتى ضج الناس و تمنوا زوالهم.

على أن من أفضع ما فعلوه هو استصفاؤهم أموال قاضى جبله أبى محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صلحية، فقد كان لهذا الرجل نكايات فى الصليبيين أقضت مضاجعهم، ثم أدرك أنهم لن يتركوه بعد أن فعل بهم ما فعل فرحل بأهله و ماله إلى العراق لاثدا به و ترك أمواله فى مدينة الأنبار، و جاء بغداد ليقرر كيف يستقر؟

و لما عرف بركيارق بوصوله أرسل إليه أنه بحاجة إلى ثلاثين ألف دينار فاستجاب الرجل لذلك و قال إن أمواله فى الأنبار بالدار الذى نزلها، فلما عرفوا ذلك أرسلوا إلى الأنبار من استولى على كل ما يملك الرجل من مال.

### التلاقى فى بغداد

واصل السلطان محمد و أخوه سنجر سيرهما إلى بغداد بعد أن استولى محمد على همدان و غير همدان، و كان قد استطاع أن يجمع جيشا يزيد على عشرة آلاف فارس، كان عدته فى الزحف إلى بغداد. و كان بركيارق فى بغداد مريضا يتوقع أصحابه موته فى كل ساعة.



و كانت أخبار تقدم محمد إلى بغداد تصلهم. يقول ابن الأثير:

(فماج أصحابه و خافوا و اضطربوا و حاروا، و عبروا به في محفة إلى الجانب الغربي فنزلوا بالرملة و لم يبق في بركيارق غير روح يتردد و تيقن أصحابه موته و تشاوروا في كفته و موضع دفنه).

و يتابع ابن الأثير كلامه قائلا: (فبينما هم كذلك إذ قال لهم:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩١

إني أجد نفسى قد قويت و حركتى قد تزايدت، فطابت نفوسهم و ساروا، و قد وصل العسكر الآخر، فترأى الجمعان بينهما دجلة و جرى بينهما مراماة و سباب، و نهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط).

إذن فإن محمدا قد دخل بغداد دون أن يلقي مقاومة، فمرض بركيارق، و قد شغله و شغل أصحابه عن التفكير في الدفاع، و كان همهم النجاة بأنفسهم.

و كان من الطبيعي أن يضطربوا و يخافوا و يحاروا، فموت بركيارق سيجعلهم وجها لوجه أمام انتقام محمد، و مع ذلك فقد تماسكوا و حملوا سلطانهم في محفة عابرين به دجلة من جانب بغداد الشرقى إلى جانبها الغربى؛ لأن وصول محمد إلى بغداد سيكون في الجانب الشرقى و بذلك يكون دجلة حاجزا بينهم و بين جيوش محمد.

على أننا لا بد لنا من أن نتساءل عن حقيقة هؤلاء الأصحاب، حقيقتهم العددية، و حقيقتهم العسكرية، و حقيقتهم الخلقية.

و نغنى بالحقيقة الخلقية هنا: ما إذا كان ثباتهم مع بركيارق بعد أن صار إلى ما صار إليه من الوهن: الوهن الجسدى و الوهن العسكرى، هو وفاء منهم للرجل الذى كان بالأمس سلطانهم القوى الراتعين فى ظله فى خفض من العيش و دعة و نفوذ سلطان، أم أن ذلك خوف من المصير المجهول الذى ينتظرهم من العدو المنتصر، خوف يدعوهم إلى التماسك لمواجهة الخطر الداهم؟!.

ثم ما هى حقيقتهم العددية الموصلة إلى حقيقتهم العسكرية؟ إن ابن الأثير يقول: (و ساروا و قد وصل العسكر الآخر، فترأى الجمعان بينهما دجلة، و جرى بينهما مراماة و سباب، و نهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط).

و هذا يدل على أن بقايا جيش كان لا يزال يحيط ببركيارق، بقايا جيش ليس مؤهلا للصدام بجيش محمد، و كل ما استطاعته هذه البقايا هو أن ترمى أعداءها بالنبل من وراء نهر دجلة و أن تتبادل و إياها السباب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٢

و من فجاج هؤلاء الحكام المتنازعين على التحكم بالشعوب أنهم يستحلون نهب تلك الشعوب، فهؤلاء جماعة بركيارق نهبوا البلاد التى مروا فيها، من بغداد إلى واسط.

و الخليفة المستظهر بالله و قد أيقن برحيل بركيارق، بل ربما كان متوقعا موته- أسرع فأرسل إلى محمد توقيعا يتضمن الامتعاض من سوء سيرة بركيارق و من معه و الاستبشار بقدمه! ..

و يقول ابن الأثير: و خرج الخلق كلهم إلى لقائه!.

على أن إقامة محمد و أخيه سنجر لم تمتد فى بغداد أكثر من حوالى شهرين قصدا بعدهما العودة إلى موقعيهما: محمد إلى همذان، و سنجر إلى خراسان.

و إذا كان جماعة بركيارق قد نهبوا البلاد من بغداد إلى واسط، ثم نهبوا واسط نفسها كما سيأتى، فإن جيش محمد الذاهب إلى همذان لم يقصر هو الآخر فى النهب، فيقول ابن الأثير عنهم:

فنهبوا البلاد و خربوها! ..

يبدو أن مماشاة الخليفة لمحمد و طعنه ببركيارق قد بلغت بركيارق، فاعترض المتمين إلى الخليفة في واسط، و أسمعهم من القول في الخليفة ما قال ابن الأثير: أنه يقبح نقله، و بلغ ذلك الخليفة فأرسل يطلب إلى محمد العودة إلى بغداد فعاد، و إذا كان ابن الأثير يقول إن الخليفة عزم على الحركة مع محمد لقتال بركيارق، فلنا أن نقول: إن استدعاء الخليفة لمحمد لم يكن في الأصل للانضمام إليه في مهاجمة محمد، بل خوفا من أن يستفرد بركيارق الخليفة فينقض عليه في بغداد.

على أن محمدا طمأن الخليفة بأنه يستطيع وحده تأديب بركيارق و لا حاجة لمسير الخليفة معه، و بالفعل ترك محمد بغداد معاودا السير إلى مقصده.

أما بركيارق الذي وصل إلى واسط مريضا، فإن وصوله إليها أربع عسكر واسط، كما أربع أهلها؛ لأن الجميع لا يدرون أى موقف يتخذونه منه، فإذا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٣

والوه فربما غلب محمد على الأمر فانتقم منهم، و إذا قاوموه، فهو مقيم فيهم يستطيع أذيتهم، لذلك ارتأوا حلا وسطا، لا هو موالا، و لا هو معاداة. بل هو موقف سلبي إذا كان أقرب إلى عدم الموالا فهو ليس صريح المعاداة.

أما العسكر فقد أخذوا نساءهم و أولادهم و أموالهم و انحدروا إلى الزبيدية و أقاموا هناك. و أما الأهلون فقد لزموا أول الأمر بيوتهم، فلم يكن يرى في الطرق و الأسواق أحد منهم، و لكنهم لم يسلموا، فإن عسكر بركيارق نهب البلد.

و هكذا نرى أن لا صلة تربط بين هؤلاء الحكام و بين الشعب، و أن لا ولاء لهم في قلوب أبنائه، و لا محبة تربطهم به، فإذا قوى أمر أحدهم انصاع الناس له ماداحين، و إذا ضعف انقلبوا عليه ناكثين.

و هكذا فبعد أن شفى بركيارق من مرضه و بدأ أنه قد استقر في واسط، بعث إليه العسكر من الزبيدية يطلبون الأمان ليحضروا إليه، فأمنهم و جاءوا فاستقوى بهم، ثم عضدوه في السير معه إلى بنى برسق الذين لم يلبثوا أن قدموا إليه، و هكذا أخذ يتقوى شيئا فشيئا حتى صارت له قوة عسكرية مرموقة، فرأى عند ذلك أن يهب لمطاردة أخيه محمد، فالتقيا و محمد في طريقه إلى نهاوند، و كانا في قوتين متساويتين، هي أربعة آلاف فارس لدى كل واحد منهما.

و لما كادت القوتان تتصادمان، التقى بعض مقدمى القوتين و تذاكروا في أمر الصلح بين الأخوين بعد أن رأوا ما آل إليه أمر الناس من البلاء للنزاع بينهما.

و لم يكن أبلغ في التعبير عن نفور الشعب مما يجرى، و اعتقاد الناس أنهم أخوان يحملهم حكاهم على التذابح، من أنه حين التصاف بين الفريقين و خروج مبارز من أحد الصفين، و خروج مبارز له من الصف الآخر، كانا بمجرد أن تقع عين أحدهما على الآخر يعتنق كل واحد منهما مبارزه و يسلم عليه، ثم يعود عنه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٤

و انتهى أمر مفاوضات الصلح إلى أن يتقاسم الأخوان البلاد، و يتقاسما اللقب، فيكون لقب بركيارق: (السلطان) و لقب محمد: (الملك)، على أن يكون له جنزة و أعمالها، و أذربيجان، و ديار بكر، و الجزيرة، و الموصل و مضى كل منهما إلى مقره.

ثم عاد محمد فافتنع أنه مغبون في هذه المصالحة، و أن الأمراء خامروا عليه فعاد الأمر إلى ما كان عليه من التنازع في تفاصيل مهلكة دامية نتجاوز ذكرها.

### في الجانب الآخر من الوطن الإسلامي

في الوقت الذي كان فيه هؤلاء السلاجقة يتناحرون في المشرق الإسلامي و ينحرون الشعب معهم و يبهضونه بما لا يطيق حمله، في

الوقت الذي كان فيه بركيارق مثلاً يحاصر أخاه محمداً في أصفهان و يضيق عليها، فتعدم فيها القوات، و يرغم محمد أعيان البلد على أن يرضوه، فيأخذ منهم مالا عظيماً، ثم يعود فيقسط على البلد شيئاً آخر فيأخذه بالشدة و العنف، ثم يضطر للفرار من البلد، فيصبح أمر أصفهان كما وصفه ابن الأثير: (فلما فارق محمد أصفهان اجتمع من المفسدين و السوادية و من يريد النهب ما يزيد على مئة ألف نفس و زحفوا إلى البلد بالسلالم و الدبابات و طموا الخندق بالتبن و التصقوا بالسور، و صعد الناس في السلالم فقاتلهم أهل البلد قتال من يريد أن يحمي حريمه و ماله فعادوا خائبين).

و في الوقت الذي كان الوالي السلجوقي إسماعيل بن سلانجق يقتل من أهل مدينة (الري) مقتلة عظيمة، و يرسل من شعورهم إلى سلطانه بركيارق ما عمل منه مقاود و شكالات للدواب. في هذا الوقت بالذات و في السنة نفسها كان صنجيل الصليبي يحاصر طرابلس و يرغم أهلها على أن يدفوا إليه مالا و خيلاً و يتقدم منها إلى مدينة (أنطرسوس) فيحصرها و يفتحها و يقتل من بها من المسلمين، ثم يسير إلى حمص فينازلها و يحصر أهلها و يملك أعمالها. و كان القمص ينازل عكا و يضيق عليها، و كان الصليبي صاحب الرها يسير إلى بيروت و يحصرها و يضايقها.

و من بين هذه الظلمات تتوقد شعله في القاهرة فتخرج عساكرها إلى عسقلان ليمنعوا الإفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية على حد تعبير ابن الأثير،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٥

فيسمع بهم بردويل صاحب القدس فيسير إليهم فيقاتلهم فينصر الله المسلمين و ينهزم الإفرنج و يكثر القتل فيهم، و ينهزم بردويل و يختفى في أجمه قصب، فيحرق القاهريون تلك الأجمه و تلحق النار بعض جسد بردويل، و ينجو منها إلى الرمله فيتبعه القاهريون و يحيطون به فيتنكر و يخرج منها إلى يافا، و يكثر القتل و الأسر في أصحابه.

و بركيارق الذي أوفد كربوقا إلى أنطاكية فكان من أنانيته و حبه لذاته و خيانه جيشه أن فر منهزماً تاركا باب العالم الإسلامي مفتوحاً بلا- حارس أمام الصليبيين، كربوقا هذا كان بركيارق نفسه يرسله هذه المرة إلى أذربيجان فيستولى على أكثرها، ثم يمرض بها و يموت ...

و باغى سيان حاكم إنطاكية الذي لم يكذب يسمع صوت بوق الصليبيين حتى فر هارباً تاركا أسرته عرضة للسبي، باغى سيان هذا الذي لم يكن فيه ذرة من النخوة و الحمية تحملاه على أن يستميت دفاعاً عن شرف أسرته، بل تركها تسبي بأيدي الإفرنج، استطاع الدانشمند في هذا الوقت أن يجعل من شروط إطلاق بيمند من الأسر إطلاق ابنه باغى سيان من السبي.

في هذا الوقت الذي لم يستقر فيه أمر السلاجقة لا في بغداد و لا ما وراء بغداد وصولاً إلى أبعد مكان، و ظلت البلاد في تجاذب بينهم تسفك فيها الدماء و تنهب الأموال و يذل الناس. كان أمر الصليبيين قد استقر في القدس و يافا و أرسوف و قيساريه و حيفا و طبرية، و في فلسطين كلها ما عدا عسقلان، و في اللاذقية و إنطاكية.

و من الجزيرة: استقر أمرهم في الرها و سروج.

و كان صنجيل يحاصر طرابلس، و فيها فخر الملك بن عمار يقود الدفاع عنها و يرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الإفرنج و يقتلون من وجدوا، و قصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لنقل المواد من الإفرنج فيرحلوا عنه.

و نذكر هنا- للاعتبار- حادثة تدل على حقيقة هؤلاء السلاجقة، فإن أحدهم بلوك بن بهرام بن أرتق كانت له مدينة سروج فأخذها منه الصليبيون،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٦

فبدلاً من أن يعمل لاستردادها منهم، توجه إلى مدينة عانة الإسلامية فملكها و نهبها و سبي جميع نساها!.

ثم كان الصليبيون يمتدون فيحتلون جبيل، ثم عكا.

## نقطه بيضاء

نحن لا نبخس الناس أشياءهم فإذا سجلنا تلك الصفحات السود فإننا حين نرى نقطه بيضاء نسرع إلى تسجيلها ونصف أصحابها فمن ذلك الهوان الذي ارتمى فيه السلاجقة أمام الصليبيين يطل اثنان بنخوة إسلامية وحمية فائقة، اثنان كان بينهما ثارات و في قلبيهما أحقاد، و كان كل منهما يستعد للقاء صاحبه، هذان الاثنان هما: معين الدولة سقمان، و شمس الدولة جكرمش، و فيما كل منهما يتهيأ للانقضاض على صاحبه، تذكر ما عليه المسلمون من الذل و ما أحاق بديارهم من الاغتصاب و الانتهاب و الانتهاك، فنسيا ذحولهما، و أرسل كل منهما إلى صاحبه عارضا عليه أن يلتقيا، و يعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى و ثوابه، فاستجاب كل منهما لطلب صاحبه، فاجتمعا على (الخابور) و تحالفا و سارا إلى لقاء الصليبيين.

و كان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، و مع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك و العرب و الأكراد، فالتقوا مع الصليبيين على نهر البليخ فكان النصر لسقمان و جكرمش، فقتلوا من الصليبيين، و أسروا، و فاضت الغنائم، و كان بين الأسرى القمص بردويل صاحب الرها، و كانت معظم الغنائم في أيدي جماعة سقمان، و كذلك كانوا هم الذين أسروا القمص، و كادت الفتنة أن تقع لأن أصحاب جكرمش أخذوا القمص من خيام سقمان.

و ركب أصحاب سقمان للقتال فردهم، و قال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم باختلافنا، و لا أوتر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين.

و في المقابل فإنه حين توفي الملك دقاق بن تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق اختلف الورثة بين ولد له صغير، و بين عمه بكتاش بن تتش، و انضم إلى تتش الأمير إيتكين صاحب بصرى، و خرج هذان الاثنان إلى حوران، و لحق بهما كل من تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٧

يريد الفساد، و راسلا بغدوين ملك الصليبيين يستجدانه، فأجابهما إلى ذلك و سار إليهما فاجتمعا به و اتفقا معه. و السلاجقة الذين تخلوا عن البلاد للصليبيين، لم يتخلوا عن البلاد لأهل البلاد، و السلاجقة الذين عاش الصليبيون في جوارهم بأمان و اطمئنان، لم يمنحوا هذا الأمان و هذا الاطمئنان لمواطنيهم، ففي عنفوان ذاك المد الصليبي المتدافع دفعه. كان الأمير (بزغش) قائد عساكر السلطان سنجر، يتقدم لا إلى الوقوف في وجه ذاك المد، و يجمع الجموع لا لقتال الصليبيين، بل كان يتقدم للقضاء على جمهرة من أبناء البلاد و سكانها، و يجمع الجموع لتخريب البلاد و نهبها و قتل رجالها و سبي نساؤها. و كما قلنا، و نكرر هذا القول: كان الغرب الإسلامي يعانى المحنة على أيدي الصليبيين، و كان الشرق الإسلامي يعانى المحنة نفسها على أيدي السلاجقة.

و أنقل هنا عبارة ابن الأثير نفسها، فابن الأثير يقول: (جمع بزغش كثيرا من عساكر خراسان، و أتاه كثير من المتطوعة، و سار إلى قتال الإسماعيلية، فقصد طبس و هى لهم فخر بها و ما جاورها من القلاع و القرى، و أكثر فيها القتل، و النهب، و السبي، و فعل بهم الأفعال العظيمة!).

لم يكن هؤلاء السلاجقة أرحم في الأرض الإسلامية من الصليبيين، و بزغش هذا أين هو من الصليبيين الطاغين في أرض الإسلام، و هؤلاء المتطوعة أين هم عن التطوع لإنقاذ القدس من براثن مغتصبها؟! و ابن الأثير يقر بأن الإسماعيليين كانوا مواطنين مسالمين ككل المواطنين، فهو لم يشر إلى هفوة أو كلمة أو حركة لهم يستحقون معها ذرة مما ارتكبه فيهم القائد السلجوقي حليف الصليبيين و إن لم يحالفهم؛ لأن من يسالمهم و ينكل بمواطنيه هو الحليف الطبيعي لهم ...

و ابن الأثير: هذا المؤرخ المندفع بحميته للبكاء على ما آل إليه أمر المسلمين، و الشاكي إلى الله تفرق السلاطين، و انشغالهم عن حماية الإسلام و المسلمين.

ابن الأثير يعلق على ما حدث قائلا:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٨

(ثم إن بزغش، بعد عوده من هذه الغزاة، توفي، و كانت خاتمة أمره: الجهاد، - رحمه الله -.

تخريب المدن و القرى فى بلاد الإسلام و قتل رجالها و سبى نساءها و نهب أموالها، يعده ابن الأثير غزاةً و يعتبره جهادا، و يدعوا الله لمرتكب ذلك بالرحمة!

و تدخل سنة ٤٩٨ هـ و فيها يموت السلطان بركيارق بعد أن أوصى بولاية العهد لولده ملكشاه ذى الأربع سنين و ثمانية أشهر من عمره. و كانت بوفاته فى بروجرد و هو فى طريقه من أصفهان إلى بغداد، فلما أيقن بالموت أحضر جماعة الأمراء و أوصاهم بولده و أمرهم بمتابعة السير إلى بغداد، و بقى هو فى بروجرد على أمل العودة إلى أصفهان فمات دون تحقيق ذلك، و لكن جثته حملت إلى أصفهان فدفنت فيها.

مات بركيارق و هو فى الخامسة و العشرين من عمره بعد أن ملك اثنتى عشرة سنة كانت حافلة بالأحداث التى شهدنا بعضها فيما مر من القول.

و خطب لملكشاه الثانى الطفل على منابر بغداد، و لكن الشقاق لم يكن قد انتهى فهذا محمد بن ملكشاه أخو بركيارق الذى مر اسمه معنا كثيرا يهاجم الموصل ليقضى فيها على (جكرمش) فيكثر القتل فى عسكرها، و لما وصل خبر موت بركيارق إلى جكرمش سلم الأمر إلى محمد.

ثم سار محمد إلى بغداد و معه جكرمش و غيره من الأمراء يحاول انتزاع ملكها من ابن أخيه، و كان المباشر لأمر السلطان الطفل: الأمير (آياز).

و وصل السلطان محمد إلى بغداد و نزل فى الجانب الغربى منها بأعلاها، فخطب له فى هذا الجانب من بغداد، و لملكشاه بن بركيارق فى الجانب الشرقى!

خطبتان تمثلان سلطتين فى مدينة واحدة هى عاصمة الخلافة!

و كان قسم من بغداد لم يدخل فى نفوذ إحدى السلطتين و فيه جامع المنصور، فلم يخطب لأحد من السلطتين، بل قال الخطيب عوضا عن الخطبة لأحدهما: اللهم أصلح سلطان العالم، و سكت.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٩٩

لنا أن نفسر موقف هذا الخطيب بأحد تفسيرين: إما أن يكون الخطيب مذدبا انتهازيا لا يدري لمن تكون الغلبة فى الغد، فهو لا يريد أن يتورط بإعلان الولاء لأحد المتنازعين. و إما أن يكون مخلصا ساءه هذا الخلاف، لا سيما فى هذه الظروف التى يعانى فيها المسلمون ما يعانون من إذلال الصليبيين لهم، بينما ينشغل حكامهم بأنفسهم و شقاقهم و تقاطلهم فيما بينهم، فأرسلها دعوة صالحة موجزة ...

نحن نريد أن نميل إلى الرأى الثانى، لأننا نحسن الظن بالأمة، و نوقن أن فيها من كوامن الخير و الحمية و النجدة و الشهامة ما لو أهيب بها لدفعت شر الصليبيين و عدوانهم.

و خير ما يمثل الأمة، و صفتها الحقيقية، هو هذا الخطيب المجهول ...

و بعد أن كاد القتال أن ينشب بين الفريقين المتنازعين سلم (آياز) بالأمر الواقع و مشى للسلطان محمد. و توالى الأحداث حدثا بعد حدث، و فيها من التنازع و التقاطل و القتل ما فيها.

و من أهم ما كان فيها أن الإسماعيليين الذين أصيبوا بما أصيبوا به من التخريب و القتل و السبى و النهب، ما مر ذكره، وجدوا فرصة للانتقام فكانوا فى انتقامهم شرا ممن انتقموا منهم، إذ نالوا فى انتقامهم من الأبرياء و الضعفاء و القرييين و البعيدين، لا سيما قاصدى

بيت الله للحج.

وكما نقلنا هناك عبارة ابن الأثير في وصف ما جرى على الإسماعيليين لنقل هنا أيضا إنصافا للحقيقة عبارة ابن الأثير فيما أجراه الإسماعيليون. قال ابن الأثير:

(في هذه السنة (٤٩٨) سار جمع كثير من الإسماعيلية من (طريثيت) عن بعض أعمال بيهق، و شاعت الغارة في تلك النواحي و أكثروا القتل في أهلها و النهب لأموالهم و السبي لنسائهم ...

و في هذه السنة اشتد أمرهم، و قويت شوكتهم، و لم يكفوا أيديهم عن يريدون قتله، لاشتغال السلاطين عنهم. فمن جملة فعلهم: أن قفل الحاج تجمع، هذه السنة، مما وراء النهر، و خراسان، و الهند، و غيرها من البلاد، فوصلوا إلى خوار الري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٠

فأتاهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف، و قتلوهم كيف شاءوا و غنموا أموالهم و دوابهم، و لم يتركوا شيئا). و نحن هنا لا نستطيع أن نتهم ابن الأثير بالمبالغة، لأنه حين تحدث عما جرى على الإسماعيليين وصف الشدة التي نزلت بهم بمثل ما وصف ما أنزلوه هم من الشدة في الحجاج و غيرهم.

و لا- يشفع للإسماعيليين أنهم كانوا يثأرون لما نزل بهم ظلما، و أن قلوبهم كانت تغلى بالحق على من فعلوا بهم ما فعلوا، فالثأر لا يكون من الحجاج البريئين القادمين من كل مكان، و الحق على الحكام لا يجوز أن يبعث على الانتقام من الشعب. على أننا و نحن نقول ذلك لا ننسى مسؤولية الحكام عما جرى، هذه المسؤولية التي أوضحها ابن الأثير بقوله: (لاشتغال السلاطين عنهم).

لقد كان أول واجبات السلاطين حفظ الأمن، و رعاية أمور الشعب، و حمايته من عبث فريق منه بفريق آخر، و لكن سلاطين السلاجقة كانوا في شاغل عن ذلك بالاقتيال فيما بينهم، و التنازع على الاستئثار بظلم الناس. و إذا كانوا هم و جنودهم لا يتورعون عن السلب و التخريب و القتل و النهب فكيف يطلب من الناس أن يتورعوا عن ذلك؟! إنهم و هم الذين اعتدوا على الإسماعيليين الذين لا ذنب لهم، جروا الإسماعيليين على أن يعتدوا على من لا ذنب لهم.

### في غرب العالم الإسلامي

إذا كان الجانب الشرقي من العالم الإسلامي ظل يموج و يمور بمحن السلاجقة فيه، فكذلك كان الجانب الغربي يموج و يمور بمحن الصليبيين فيه، غير أن السلاجقة الذين اعتبروا أنفسهم غير ملزمين بشيء تجاه العالم الإسلامي، و إن استباحه الصليبيين له لا تعينهم، فانفردوا بالجانب الشرقي من هذا العالم مشغولين بأنفسهم، غير مباليين بما يجرى في الجانب الآخر من ذبح للمسلمين و انتهاك لحرمتهم، إذا كان الأمر كذلك حتى الآن، فإننا سنرى أن فيهم من تعاون مع

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠١

الصليبيين، و قد مر معنا شيء من هذا من قبل، و سنرى هنا لا تعاونا منهم مع الصليبيين مجرد تعاون، بل انضماما كاملا إلى صفوفهم. لم تهدأ المعارك مع الصليبيين، فهذا (طنكري) الصليبي صاحب إنطاكية يحاصر حصن أرتاح، و فيه نائب الملك رضوان، و ضاق الأمر على المسلمين، فأرسل النائب إلى رضوان يستنجد به، فسار رضوان في نجدة قوية من الخيالة و سبعة آلاف من الرجال بينهم ثلاثة آلاف متطوع.

و بعد أن بدأت المعركة بنصر المسلمين عادت الهزيمة فحقت بهم و قتل و أسر الكثير منهم، و لم ينج إلا الشريد، و سقط أرتاح بأيدي الصليبيين.

و أخرج الأفضل بن بدر الجمالي حمله من القاهرة، فتصدى لها بغدوين الصليبي صاحب القدس، ف وقعت المعركة في مكان بين

عسقلان و يافا فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر، بل ثبتا كلاهما.

يقول ابن الأثير عن هذه المعركة: و كان مع الإفرنج جماعة من المسلمين منهم بكتاش بن تتش (السلجوقي).

هذى هي الأمجاد السلجوقية، لا يكتفون بأن يتخلوا عن العالم الإسلامي، بل ينضموا إلى الصليبيين لقتال جيوشه ..

و هنا نعود إلى الدكتور عمر التدمري لنقول له: لم يكن الأمر كما زعمت من أن الصراع في بلاد الشام كان بين السلاجقة و الفاطميين، بل كان بين الجمالين، و بين الصليبيين متحالفين مع السلاجقة.

و بينما الفتن مستمرة بين السلاجقة في الشرق يستمر الصراع بين المسلمين و الصليبيين في الغرب. و قد يعن لأحد من السلاجقة أن يواثب الصليبيين، ثم لا يلبث أن يعود إلى حقيقته كهذا الذي حدث للملك رضوان بن تتش حين عزم على حرب الصليبيين فاجتمع إليه بعض الأمراء السلاجقة لهذه الغاية، و لكنهم ارتأوا أن يهاجموا أولا (جكرمش) صاحب الموصل و ما والاها، فساروا إليه، فلم يلبث الأمر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٢

أن انقلب إلى فتنة بينهم، و تأمر بعضهم على بعض و اقتتلوا، و نسوا الصليبيين و قتالهم، و انصرف أتباعهم من التركمان إلى نهب مواشى المسلمين.

و تملك الصليبيون حصن (أفامية)، و مدينة سمرين من أعمال حلب، كما كانوا قد ملكوا مدينة جبيل، و تقدم (صنجيل) الصليبي منها إلى حصار طرابلس التي كان يحكمها بنو عمار، و ثبت له بنو عمار فلم يقدر عليها، و لما رأى أن الحصار سيطول، بنى بالقرب منها حصنا و أقام تحته ريبضا، و لبث محاصرا لطرابلس يلتمس منها غرة تمكنه من التغلب عليها.

و لكن فخر الملك أبا على بن عمار كان له بالمرصاد، فهاجمه و أحرق ريبضه، و شاء قدر صنجيل أن يقف هو و بعض قادته و فرسانه على أحد سقوف الربض المحترقة، فانخسف بهم السقف، فأصيب صنجيل إصابة بالغة، لم يلبث بعدها أكثر من عشرة أيام مات بعدها متأثرا من إصابته بانخساف السقف.

و عز على الصليبيين ما جرى عليهم في حصار طرابلس، فأرسلوا إليهم من اللاذقية التي كانوا يحتلونها ميرة في البحر، فلم يكن ابن عمار غافلا عنهم، فأرسل في البحر قطعاً من أسطوله اعترضت قطع الصليبيين فقامت معركة بحرية بين الفريقين ظفر فيها أسطول ابن عمار، و أسر قطعاً بحرية للصليبيين عاد بها و بمن فيها من أسرى و مؤن إلى طرابلس.

و دام القتال بين بنى عمار و بين الصليبيين على طرابلس عشر سنين.

و يقول ابن الأثير: و ظهر من ابن عمار صبر عظيم و شجاعه و رأى سديد، ثم يقول ابن الأثير: و أجرى ابن عمار الجرايات على الجند و الضعفى، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجهم في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالا مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الإفرنج و قالان: إن صاحبنا صادرنا فخرنا إليكم لنكون معكم، و ذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عرقه و الجبل، فجعل الإفرنج جمعا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٣

فأرسل ابن عمار و بذل للإفرنج مالا كثيرا لیسلموا الرجلين إليه، فلم يفعلوا.

فوضع عليهما من قتلها غيلة.

هكذا كان فخر الملك أبو على بن عمار بطل الموقف بكل ما فى البطولة من شجاعه و حزم و تضحية و حسن تدبير.

و لو كان الأمر يكون و اليهود سائدين يومذاك بوسائلهم الإعلامية، لنزوه بلقب الإرهابى. فحيا الله ابن عمار: الإرهابى الأول فى التاريخ الإسلامى.

و يصف ابن الأثير حال الناس فى طرابلس قائلا: فعدمت الأقوات و خاف الناس على نفوسهم و أولادهم و حرمهم ...

هكذا كانت الحال في الغرب الإسلامي جهادا و نصالا للصليبيين، و كذلك كانت في الشرق على أيدي السلاجقة: جهادا و نصالا للمسلمين!.

يذكر ابن الأثير - خلال سرده للأحداث المتقدمة - خبرا موجزا لا بد من الوقوف عنده بعض الوقت: في هذه السنة ورد إلى بغداد إنسان من الملتمين ملوك المغرب، قاصدا دار الخلافة، فأكرم، و كان معه إنسان يقال له: الفقيه، من الملتمين أيضا، فوعظ الفقيه في جامع القصر، و اجتمع له العالم العظيم، و كان يعظ و هو مثلث لا يظهر منه غير عينيه. و كان هذا المثلث قد حضر مع الأفضل (بن بدر الجمالي) أمير الجيوش بمصر وقعته مع الإفرنج، و أبلى بلاء حسنا.

و كان سبب مجيئه إلى بغداد: أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين، أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا، إذا أرادوا الحج، يعدلون عن مصر، و كان أمير الجيوش بدر والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، و لا قابوه، فأمر بقتل من ظفر به منهم، فلما ولى ابنه الأفضل أحسن إليهم و استعان بمن قاربه منهم على حرب الإفرنج، و كان هذا من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد، ثم عاد إلى دمشق، و لم يكن للمصريين حرب مع الإفرنج إلا و شهدها، فقتل في بعضها شهيدا، و كان شجاعا فتاكا مقداما.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٤

### من هم الملتمون؟

لا بد لنا أولا من التعريف بالملتمين الذي ينتمى إليهم هذا الرجل الذي تحدث عنه ابن الأثير هذا الحديث الموجز: الملتمون هم الذين عرفوا في التاريخ باسمهم الآخر الأشهر: (المرابطون).

و هناك اختلاف في سبب تسميتهم بالملتمين و أقربها إلى المنطق: أنهم كانوا يتلثمون دفعا لهجير الصحراء صيفا، و زمهريرها شتاء، و قيل: إن سبب اللثام لهم، أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، و لم يكن فيها إلا المشايخ، و الصبيان، و النساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، و يتلثمن، و يضيقنه، حتى لا يعرفن، و يلبسن السلاح، ففعلن ذلك. و تقدم المشايخ و الصبيان أمامهن، و استدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما، فظنه رجالا، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، و رأى أن نسوق الغنم و نمضى، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم. فبينما هم في جمع الغنم من المراعى إذ أقبل رجال الحى، فبقى العدو بينهم و بين النساء، فقتلوا من العدو فأكثر، و كان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلا و لا نهارا.

### ابتداء الحركة و تطورها

كان ابتداء حركة المرابطين (الملتمين) سنة ٤٤٨ هـ، و يرد ابن الأثير نسبهم إلى (حمير) فيقول: هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، أشهرها: لمتونة، و جداله، و لمطة.

و كان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق رضى الله عنه فسيرهم إلى الشام، و انتقلوا إلى مصر، و دخلوا المغرب مع موسى بن نصير، و توجهوا مع طارق إلى طنجة فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء و استوطنوها. و الله أعلم بحقيقة هذا النسب ..

الرجل المحب للدين و أهله - كما يصفه ابن الأثير - المسمى:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٥

(الجوهر) من قبيلة جداله، ساقه حبه للدين إلى الذهاب للحج، فمر بفقيه في مدينة (القيروان) يعظ جماعة و يفقههم في الدين.



و الجوهري القادم من الصحراء، حيث البداية هناك كالبداة في كل صحراء لا يعرفون من الدين إلا ألفاظا يرددونها، أصغى إلى هذا الفقيه و كلما طال إصغاؤه كثر تعجبه مما يسمع، فالدين إذن ليس الشهادتين فقط، إن له أحكاما لا يدرون في الصحراء منها شيئا. و مضى الجوهري إلى الحج ثم عاد مارا بالفقيه المفقه و أطلعته على ما في نفسه قائلا: ما عندنا من هذا في الصحراء من شيء غير الشهادتين و الصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام ..

وقفه (الجوهري) على الفقيه في طريق مسيره إلى الحج، ثم وقفته عليه حين عودته من الحج و حديثه معه كانتا السبب في نشوء حركة دينية واسعة، ثم في نشوء دولة مترامية الأطراف امتدت من شمال أفريقيا حتى أقاصى الأندلس، نشبت فيها المعارك و سفكت الدماء و كثر القتلى، و كان بينهم (الجوهري) نفسه ...

لقد لبى الفقيه طلب (الجوهري) فبعث معه رجلا- اسمه عبد الله بن ياسين الجزولي، و كان في نظره فقيها صالحا، فسارا حتى بلغا قبيلة لمتونة، فأول ما فعله الجوهري ليرفع منزلة الفقيه بين القبيلة أن نزل عن جملة و أخذ بزمام جمل الجزولي يقوده، فأقبل الناس يهتئون بالأياب و يسألونه عن رفيقه، فأخبرهم أنه قادم ليشرح لهم العقائد الإسلامية و يدعوهم إلى تطبيقها، فلما أفاض الجزولي في الحديث، قالوا له:

أما ما ذكرت من الصلاة و الزكاة فقريب، و أما قولك من قتل يقتل، و من سرق يقطع، و من زنى يجلد أو يرحم فأمر لا نلتزمه. اذهب إلى غيرنا.

إن هذه الصورة من الحوار هي قبل كل شيء طريقة كل الطرافة، ثم هي تدلنا على حقيقة تطبيق الإسلام لا في هذه الصحراء وحدها، بل في الصحراوات كلها:

فلا صلاة و لا زكاة و لا حدود، إنهم لم يذكروا الصيام، فهل كانوا يصومون؟.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٦

إنهم لم يعدوا بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، و لكن قالوا: إن أمرها قريب، و أما غير القريب، و البعيد كل البعد فهو أن تطبق عليهم الحدود!.

فإذا كان كل قاتل يقتل، و كل سارق يقطع، و كل زان يجلد أو يرحم، فيا لكثرة من سيقتل منهم و سيقطع و سيجلد أو يرحم!. لذلك رفضوا قبول الفقيه الجزولي بينهم .. و إذا كان لنا أن نستنتج تفشى تلك الآثام بينهم، فإننا نستنتج كذلك أن إنثما كبيرا لا أثر له بينهم، هو: شرب الخمر.

عمل الجوهري و الفقيه بالنصيحة فقرر الرحيل إلى مكان آخر.

و كان بين المستمعين لكلام الفقيه شيخ أثقلته السنون و حنكته التجارب، فاستشف من بيان الفقيه و عزمه و استفاضته في الحديث، قدرة على الإقناع و ما بعد الإقناع من نجاح.

فعندما رأى الفقيه على جملة راحلا في الصحراء قال:

لا بد أن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم!.

وصحت نبوءة هذا الشيخ الصحراوي و صدقت فراسته، فكان للجمل و صاحبه في تلك الصحراء و ما وراء الصحراء شأن أي شأن!.

ترك الرجلان قبيلة لمتونة و مضيا إلى قبيلة (جدالة)، و هي قبيلة الجوهري، فدعا عبد الله بن ياسين هذه القبيلة و القبائل المجاورة لها إلى مثل ما دعا إليه قبيلة لمتونة.

و هنا اختلف الأمر عما كان عليه في لمتونة، ففي لمتونة كان إجماع على رفض عبد الله بن ياسين و دعوته، و في جدالة و ما جاورها وجد من يستجيب و وجد من يرفض.

عند هذا المفترق انقلب ذاك الشيخ الزاهد العابد المتقشف العازف عن الدنيا انقلب إلى متنمر مقاتل مخطط عازم على سفك الدماء

فى سبيل إنجاح أمره!

فصاح المستجيبين إليه بوجوب إعلان الحرب على الراضين، مخاطبا إياهم بهذا القول: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق و أنكروا شرائع الإسلام و استعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم رايه و قدموا عليكم أميرا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٧

فقال الجوهر: أنت الأمير.

و هنا تبدأ دهاء الفقيه و حنكته السياسية و تخطيطه المحكم، فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة. ثم التفت إلى الجوهر قائلاً:

و لكن أنت الأمير و كان الجوهر حكيمًا مخلصًا حين رفض الإمارة قائلاً:

لو فعلت هذا لتسلط قبيلى على الناس، و كان وزر ذلك على.

فقال ابن ياسين: الرأى أن نولى ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونته و كبيرها، و هو رجل سيد مشكور الطريقة مطاع فى قومه فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة و تتبعه قبيلته فتتقوى بهم.

فعادا إلى لمتونته التى خرجا منها و عرضا الأمر على أبى بكر بن عمر.

عندما جاء أول الأمر إلى لمتونته و دعيا بدعوتهما، لم يذكر أمره و رئاسته، لذلك لقا إعراضا و تجهما، أما اليوم، و قد جاء يقدمان مع الدعوة ما يقدمان من الإمرة و الرئاسة فقد أسرع أبو بكر بن عمر إلى تلبيتهما، فعقدا له البيعة.

و لكن المشكل كان فى اللقب الذى يضى على الأمير الجديد، فالدعوة دينية و ليست سياسية. و بالرغم من أنها اعتمدت السيف فى طلب انتشارها، و بالرغم من أنها عازمة على التسلط على الناس، فلا بد لأمرها من لقب يميزها عن غيره من المعتمدين على السيف العازمين على التسلط.

و لم يكن ذلك ليعجز الفقيه الداهية البارع فى التخطيط، فكما كان حكيمًا فى اختيار رئيس لمتونته للإمارة، كان حكيمًا فى اختيار لقبه، إذ لقبه بأمر المسلمين. فإذا كان هناك من يلقب (أمير المؤمنين)، فهنا من يلقب: (أمير المسلمين).

و لما كانوا قد ضمنوا ولاء لمتونته باختيار رئيسها للقيادة، فقد ذهبوا جميعا إلى جداله التى فيها أنصار لهم، فضموا أولئك الأنصار إلى رجال لمتونته، فتآلف لهم من ذلك نواة جيش يمكن الاعتماد عليها فى القتال. فقام ابن ياسين يحرض على الجهاد، و أطلق على الجماعة اسم (المرابطون).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٨

أما مخالفوهم فقد أقلقهم هذا التجمع، فتكثروا لمقاومته، و لكن ابن ياسين منع المرابطين من الاضطدام بهم أملا بإصلاح من يمكن إصلاحه منهم و إضعافهم. فوفق فى ذلك و لم يبق على عداء المرابطين سوى ألفى رجل، فعمل ابن ياسين على حصارهم فخندق عليهم، ثم صار المرابطون يخرجونهم جماعة بعد جماعة فيقتلونهم.

هكذا بدأ ابن ياسين يعاونه أبو بكر بن عمر دعوته الدينية بمذبحة رائعة لا شفقة فيها و لا رحمة، و هكذا مشى إلى هدفه الدينى دائسا على الجثث خائضا فى الدماء! ..

و إن دعوة- مهما سمت أهدافها- تفتتح بذبح ألفى رجل لهى دعوة جبارة تأبأها الإنسانية، و يابأها الدين!.

و أى ضلال يكون فيه الناس، لهُو أهون من هدى يقود إلى ذبح الأسارى و تضريح الأرض بدم ألفى رجل فى غير قتال ..

و نحن لا ندرى إذا كان (الجوهر الجدالى)- و هو الثالث فى القيادة المرابطية- قد كان من الأمرين بهذه المذبحة أم كان من الناهين عنها أو من المحايدين فيها، و لا نعلم مقدار ما يتحمل من المسئولية فى تنفيذها، و لكن الذى نعلمه أن الذبح قد وصل إليه.

لقد كان هو الأصل فى قيام هذا الكيان (المرابطى)، و كان هو الذى حمل الفقيه القيروانى على إرسال عبد الله بن ياسين، و كان هو الذى أخذ بزمام جمل ابن ياسين و قاده بنفسه تواضعا للدين و تعظيما للداعى إليه.

و يبدو أن (الجوهر) لم يكن يحسب أن الأمر سيصل إلى قيام مذبحة، بل كان في حسابه أن ابن ياسين سيعمل بمنطوق الآية القرآنية الكريمة: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [النحل: ١٢٥].

وقد رأيناه يرفض القيادة حين عرضها عليه ابن ياسين خوفا من تسلط قومه على الناس. لذلك فإنه يخيل إلى أنه عارض المذبحة و استنكرها فاستحق العقاب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٠٩

يقول ابن الأثير: (و لما استبد ابن ياسين بالأمر هو و أبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي و بقى لا حكم له تداخله الحسد، و شرع سرا في إفساد الأمر، فعلم بذلك منه و عقد له مجلس و ثبت عليه ما نقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة و شق العصا و أراد محاربة أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين، و أظهر السرور بالقتل طلبا للقاء الله تعالى!).

و في هذا الكلام ما يغنى عن أى تعليق، سوى القول بأن إظهاره السرور بالقتل كان حقيقيا لأنه رأى في هذا القتل تكفيرا عن تسيبه ما سبب ...

جرى كل ذلك، و ابن ياسين مشغول بالعلم، و قد صار عنده جماعة يتفقهون!- كما يقول ابن الأثير.-

اشتغل بالعلم و ترك الذبح لأبى بكر بن عمر، و تفقه عليه جماعة، و ذبح على يدى ابن عمر جماعات. و بالعلم الذى اشتغل به صدرت فتاواه بالقتل الجماعى.

هكذا تقاسما الأدوار، و لما لم يبق للجوهر الجدالي دور سوى الاعتراض كان يجب أن يذبح، فذبح بفقهِ ابن ياسين و سيف ابن عمر ..

يلق ابن الأثير على نتائج المذبحة قائلا: (فحينئذ دانت لهم قبائل الصحراء و هابوهم فقويت شوكة المرابطين)، ثم يقول معقبا على قتل الجوهر: (فاجتمعت القبائل على طاعتهم، و من خالفهم قتلوه).

و هكذا ظلت المذبحة مستمرة: ابن ياسين يشتغل بالعلم ليستنبط الفتاوى بالذبح، و ابن عمر ينفذ الفتاوى! و لم يكن استنباط الفتاوى يحتاج إلى كثير من العلم فابن الأثير يحدد الجريمة بقوله (فمن خالفهم قتلوه).

و إذا كان الحكم بقتل الجوهر قد احتاج إلى (حيثيات) و تعليقات، لمكانة الجوهر، فالحكم على غيره بالقتل لا يحتاج إلى (حيثيات)؛ بل إلى تطبيق مادة و حيدة ذكرها ابن الأثير: من خالف اقتلوه ..

ظل المرابطون فى نطاق صحراوى بحث فلم يتمددوا فى مناطق أخرى، و فى سنة ٤٥٠ هـ أى بعد سنتين من بدء دعوتهم قحطت بلادهم، فقرر ابن ياسين أن

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٠

يطلق المحتاجين إلى مناطق أخرى، فأمر تسعمائة شخص بالذهاب إلى (السوس) و التسلط على الناس هناك بطلب الزكاة، فجاءوا إلى (سلجماسة) و طالبوا بالزكاة.

و يبدو أن أبناء المذابح كانت وصلت فى حينها إلى السلجماسيين فأسرعوا بجمع مقدار كان من المال عاد به المرابطون إلى مقرهم ... و نجاحهم فى جمع المال من سلجماسة فتح عيونهم على ما وراء الصحراء، فصمموا على الوصول إلى الأندلس.

يقول ابن الأثير: (إن الصحراء ضاقت عليهم، و أرادوا إظهار كلمة الحق و العبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار ..).

و ابن الأثير هنا يقع فى التناقض: أنه يجعل فى أول القول سبب تطلعهم إلى ما وراء الصحراء هو أن الصحراء ضاقت بهم .. ثم يعود فيجعل سبب ذلك إرادتهم إظهار كلمة الحق و مجاهدة الكفار ...

أما إن الصحراء ضاقت بهم فصحيح، فابن ياسين و ابن عمر اللذان استطابا السلطة، و جدا أن السلطة حين لا تتجاوز الصحراء، هى سلطة محدودة المكان، محدودة السكان، و المهم جدا أنها محدودة المال، و قد رأيا أنها قابلة للتحط فى كل وقت، و حين تقحط يعوزهما

حتى ضمان العيش للمحتاجين، وقد كانت تجربة إرسال التسعمائة رجل إلى سلجماسه كافيّة لأن تجعلهما يصممان على الخروج من نطاق الصحراء، إلى حيث الرى و الخصب و المال الوفير.

و أما جهاد الكفار فمسألة فيها نظر كما يقولون إذ كان لا بد من مبرر للانطلاق من الصحراء! لقد جاهدا بما فيه الكفاية، جاهدا فيمن خالفهم من المسلمين فأكثر فيهم الذبح! ..

جاهدا حتى في ذبح المؤمن المخلص الذى ساق إليهما ما هما فيه من سلطان و عنفوان، جاهدا في ذبح الجوهر! ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١١

قاد أبو بكر بن عمر و عبد الله بن ياسين جماعة المرابطين فى الخروج من الصحراء و النية فى الوصول إلى الأندلس، و مشوا إلى السوس الأقصى، فرفضهم أهله و تصدوا لهم و قاتلوهم، فانهزم المرابطون و قتل عبد الله بن ياسين فى المعركة.

على أن ابن عمر لم ييأس فعاد و جمع جيشا سار به إلى السوس، و اصطدم بالسوسيين و زلقة فتغلب عليهم و هزمهم، ثم تقدم إلى سلجماسه فسار إليه صاحبها فهزمه ابن عمر و استولى على سلجماسه (سنة ٤٥٣ هـ).

و هكذا صار فى يد ابن عمر ملك فى مدينة مثل سلجماسه، فبادر إلى تعيين أحد بنى عمه الأقربين يوسف بن تاشفين واليا عليها.

و بعد أن بدرت بوادر الملك، و بدا أن هذا الملك قابل للاتساع هنا فى شمال أفريقيا، نسي ابن عمر الهدف الذى أعلن أنه يبغى فى تحركه تحقيقه، و هو الوصول إلى الأندلس و مجاهدة الكفار! .. و انصرف همه إلى التخطيط لبلوغ الهدف البديل و هو الوصول إلى

ما يمكن الوصول إليه مما حوله من بلاد و مجاهدة المسلمين فيها! .. فعهد بولاية سلجماسه إلى ابن أخيه أبى بكر بن إبراهيم بن عمر و جهز جيشا إلى السوس مع يوسف بن تاشفين فاستولى عليه.

و فى سنة ٤٦٢ هـ توفى أبو بكر بن عمر، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين و ملكوه عليهم و تلقب بلقب أمير المسلمين، و توسع فى ملكه حتى استولى على المغرب حصنا حصنا، و بلدا بلدا. ثم اختط مدينة مراکش و اتخذها عاصمة لملكه. و

استولى على سبتة و طنجة و سلا و غيرها، و صار له جيش كبير.

## تساقط بلاد الأندلس

فى سنة ٤٧٨ هـ، كانت مدينة طليطلة تسقط بيد الإسبان، و كان المعتمد بن عباد صاحب قرطبة و إشبيلية و غيرها يؤدى لهم الجزية، و قد نبه سقوط طليطلة عقلاء المسلمين إلى الخطر الذى ينتظر الحواضر الإسلامية الأخرى فى الأندلس.

و يصف ابن الأثير الموقف بهذه الكلمات:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٢

(و سماع مشايخ قرطبة بما جرى و رأوا قوة الإفرنج و ضعف المسلمين و استعانة بعض ملوكهم بالإفرنج على بعض) إلى أن يصل ابن الأثير إلى القول بأن المعتمد التقى بالمجتمعين، فتقرر إرسال رسول استنجد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين.

و لى ابن تاشفين الاستنجد و عبر البحر بعسكره إلى الأندلس، و وافى المعتمد و عسكره و عسكر قرطبة و المتطوعة الأندلسيين، و التقوا بالأذفونش و جيشه فى (الزلاقة) فكان النصر الكبير للمسلمين، و ذلك فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٩ هـ.

و عاد يوسف بن تاشفين بمرابطيه إلى مراکش. و فى العام الثانى عاد إلى الأندلس و التقى المعتمد بن عباد و عبد الله بن بلكين الصنهاجى صاحب غرناطة، و ساروا جميعا إلى حصار (ليط) و هو حصن منيع للإسبان، فعجزوا عن فتحه و رحلوا عنه.

و عاد ابن عباد إلى إشبيلية، و اجتاز ابن تاشفين فى طريق عودته بغرناطة و معه ابن بلكين. فأعلن ابن تاشفين استيلاءه على غرناطة غادرا بابن بلكين الذى اضطر لعبور البحر إلى أفريقيا، و عاد يوسف بن تاشفين إلى مراکش تاركا فى غرناطة من يحكمها نيابة عنه.

و امتد حكمه فى أفريقيا إلى ما لم يكن قد امتد إليه حتى الآن مثل: بلاد السوس، و ورغة، و قلعة مهدى.

وفي سنة ٤٨٤ هـ كان يوسف بن تاشفين يرسل حملة عسكرية إلى القسم الإسلامي من الأندلس فتستولي على مرسية، و شاطبة، و دانية، و بلنسية. ثم توجه إلى إشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد فتحتلها بعد معارك عنيفة.

و يصف ابن الأثير ما فعلته حملة المرابطين في إشبيلية قائلا: (و اشتد الأمر على أهل البلد و دخله المرابطون من واديه، و نهبوا جميع ما فيه، و لم يبقوا على سبد و لا لبد، و سلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم و أبيضت تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٣

المخدرات و انتهكت الحرمات، فأخذ المعتمد أسيرا و معه أولاده الذكور و الإناث، بعد أن استأصلوا جميع ما لهم، فلم يصحبهم من ملكهم بلغة زاد.

و سير ابن عباد و أهله إلى مدينة أغمات، فحبسوا فيها، و فعل أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهم أفعالا لم يسلكها أحد ممن قبله و لا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضى لنفسه هذه الرذيلة، و ذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهذا الفعل عن صغر نفس و لؤم قدره) (انتهى).

و قد ظل المعتمد بن عباد مسجوناً حتى توفي في السجن، و كان و هو في السجن مقيد الرجلين و في ذلك يقول من أبيات: تعطف في ساقى تعطف أرقم يساورها عضا بأنياب ضيغم و يقول ابن الأثير أيضا: (و لما أخذ المعتمد و أهله قتل ولداه بين يديه صبرا).

ثم سار المرابطون من إشبيلية إلى المرية و بطليوس، و كان عمر بن الأفظس صاحب بطليوس ممن أعان المرابطين على المعتمد، فساروا إليه و استولوا على بلده و أخذوه أسيرا هو و ولده الفضل فقتلوهما، فقال عمر حين أرادوا قتله: قدموا ولدى قبلى للقتل ليكون في صحيفتى، فقتل ولده قبله. و لم يتركوا من ملوك الأندلس سوى بنى هود لأنهم كانوا أقوىاء و لاعتبارات أخرى. و يقول ابن الأثير: (و لما استقصى عسكر أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) ملوك الأندلس، و أخذ بلادهم جمع ملوكهم و سيرهم إلى بلاد المغرب و فرقهم فيها).

و مما يلفت النظر هنا أن ابن الأثير الذى بدأ فى كل ما كتبه عن المرابطين متعاطفا معهم، بدأ هنا منكرا لفعله يوسف بن تاشفين، حاملا عليه.

و ربما كان لصفة الغدر التى يمكن أن يوصف بها ما ارتكبه ابن تاشفين فى الأندلس، أثر فى غضب ابن الأثير و هجومه على ابن تاشفين و نعته بما نعته به من (صغر نفس و لؤم قدره).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٤

و فى سنة ٥٠٠ هـ توفى يوسف بن تاشفين. و هنا تعود إلى ابن الأثير رفته فيتناسى ما وصف به ابن تاشفين من صغر نفس و لؤم قدره، و يقول فى رثائه: (توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب و الأندلس و كان حسن السيرة خيرا عادلا، يميل إلى أهل الدين و العلم و يكرمهم و يصدر عن رأيهم!).

ثم يقول: (كان حليما كريما، و كان يحب العفو و الصفح عن الذنوب العظام!).

و نحن نسأل ابن الأثير من وراء قبره: هل من حسن السيرة أن يفعل ما فعل بالمعتمد بن عباد؟! و هل من العدل أن يقتل ولديه صبرا أمام عينيه؟ و هل من الميل إلى العلم و الدين أن ينتهى أمر بنات المعتمد إلى ما انتهى إليه؟.

و هل أدماه سجن المعتمد حتى الموت و وضع القيد فى رجليه و قتل ولديه بلا- ذنب، هل كل ذلك صادر عن رأى أهل العلم و الدين؟!.

و هل ما جرى- مما ذكره ابن الأثير نفسه- يدل على أن ابن تاشفين كان يحب العفو و الصفح عن الذنوب العظام؟ و تولى بعد

يوسف ابنه علي بن يوسف، و يقول المراكشي (المعجب ٢٤١) عن عهده: (و استولى النساء على الأحوال و أسندت إليهن الأمور و صارت كل امرأة من أكابر لمتونته و مسوفة مشتملة على كل مفسد و شرير و قاطع سبيل و صاحب خمر و ماخور، و أمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله و يقوى ضعفه، و قنع باسم إمرة المسلمين و بما يدفع إليه من الخراج و عكف على العبادة و التبتل و أهمل أمور الرعية غاية الإهمال).

على أن ابن الخطيب (تاريخ المغرب العربي ٢٥٣) يقول عن عهده: (كان ملكا كبيرا فاضلا معتدلا عظم في أيامه الملك، و اتسق العز و ملك جميع بلاد المغرب إلى بجاية، إلى الأرض الأندلسية و الجزر الجوفية و بلاد القبلة بأسرها).  
و إننا نقول: إن اتساع الرقعة التي يحكمها، و الصفات التي ذكرها له لا تتنافى مع ما ذكره عنه المراكشي في المعجب، و لا ندرى أى كبير و فضل و اعتدال يقصد ابن الخطيب؟ ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٥

و في زمن علي بن يوسف هذا سنة ٥٠٥ هـ أى بعد توليه الملك بخمس سنين زحف الأذفونش صاحب طليطله لمهاجمة المناطق الإسلامية، فزحف على لمقابله و التقى الفريقان في معركة شديدة هزم فيها الأذفونش و عاد خائباً.  
و يعزو ابن الأثير هجوم الأذفونش إلى تصوره ضعف البلاد بعد وفاة ابن تاشفين، و يعلق على نتيجة المعركة قائلاً: (و ذل أذفونش حينئذ و علم أن للبلاد حاميا لها و ذابا عنها).

### ثورة قرطبة

و في سنة ٥١٤ هـ في عهد علي بن يوسف ثارت مدينة قرطبة على المرابطين.  
و يعزو ابن الأثير سبب الثورة إلى أن عبدا من عبيد الوالي مد يده خلال الاحتفالات بعيد الأضحى إلى امرأة فأمسكها فاستغاثت فوقت الفتنة (العظيمة) - كما يصفها ابن الأثير - بين العبيد و أهل البلد و دامت جميع النهار، و الحرب قائمة على ساق و أدركهم الليل ففترقوا.

فوصل الخبر إلى الوالي أبي بكر يحيى بن رواد، فاجتمع إليه الفقهاء و الأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحدا من العبيد الذين أثاروا الفتنة فأنكر ذلك و غضب منه، و أصبح من الغد و قد حشد مسلحية لقتال أهل البلد، فقاتلوه فهزموه، و تحصن بالقصر فحصره و تسلقوا إليه فهرب منهم بعد مشقة و تعب فنهبوا القصر، و أحرقوا جميع دور المرابطين و نهبوا أموالهم و أخرجوهم من البلد على أقبح صورته.

و اتصل الخبر بأمير المسلمين (علي بن يوسف) فاستعظم الأمر، و جمع العساكر من صنهاجة و زناتة و البربر و غيرهم فاجتمع له منهم جمع عظيم، فزحف بهم و اجتاز البحر إلى الأندلس و حصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمى دمه و حريمه و ماله.  
فلما رأى أمير المسلمين شدة قتالهم دخل السفراء بينهم و سعوا في الصلح، فأجابهم إلى ذلك.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٦

هذه النصوص التي أوردها ابن الأثير عن ثورة قرطبة على المرابطين ذات دلالات كبيرة عن هؤلاء المرابطين الذين قامت دعوتهم في الأساس على وعظ الناس و دعوتهم إلى التمسك بالدين، فإذا بهم يفتتحون الدعوة بذبح ألفى رجل، و صار الشعار من يخالف يقتل.  
ثم جرى ما جرى على المعتمد بن عباد، على يدى يوسف بن تاشفين، ثم كان الأمر في عهد ولده علي: أن استولى النساء على الأحوال، و صارت كل امرأة مشتملة على كل مفسد و شرير و قاطع سبيل و صاحب خمر و ماخور ...  
ثم هذه هي الثورة عليهم في قرطبة من أجل محاولة اعتداء عبد من عبيدهم على امرأة ...

و نستنتج من ثورة قرطبة ما يلي:

١- لم يستطع المرابطون الاندماج في الشعب و لم تغلغل دعوتهم في الجماهير، بل ظلوا عضوا منفردا عن الشعب، ينظر إليهم الناس على أنهم غرباء عنه.

٢- من أجل أن يستمر القتال طول النهار بين أهل قرطبة و بين العبيد، يجب أن يكون عدد هؤلاء العبيد كبيرا جدا. و هذا يتنافى مع أبسط قواعد الإسلام الذي حض على تحرير العبيد لا على الإكثار منهم، و هذا يدل - كما تدل أحداث يوسف بن تاشفين من قبل - على أن الحركة المرابطية كانت منذ تأسيسها على يد مؤسسها (التنفيذى) أبى بكر بن عمر، بعيدة عما تظاهرت بأنها تدعو إليه من التمسك بأهداب الدين.

و لا نشك أبدا بإخلاص عبد الله بن ياسين المؤسس (النظري) للحركة، و لكن الذى نشك به هو مقدار تفهمه لجوهر الإسلام و الدعوة الإسلامية، فالذى يأمر - أو على الأقل يرضى - بذيح ألقى مسلم صبورا من أجل أنهم لم يستجيبوا لتعاليمه، و يكون شعار دعوته: من لم يكن معنا قتلناه، هو إما مغفل استغله أبو بكر بن عمر، أو إنسان لا صلة له بروح الإسلام و جوهره و أسلوبه فى الدعوة إلى الحق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٧

٣- إذا كان ما أجمع عليه الفقهاء و الأعيان من أخذ أحد العبيد و قتله، يرضى أهل قرطبة، فهو لا يرضى لا الإسلام و لا العدالة و لا الحق، فكيف يصح فى الشريعة أن تأخذ رجلا - لم يثبت عليه أنه ارتكب ما يوجب قتله فتقتله؟! و إذا كان الأعيان قد أجمعوا على ذلك، فكيف يصح ذلك للفقهاء!؟

٤- هذه الجموع التى جمعها (أمير المسلمين) على بن يوسف ليته كان جمعها لهدف أسمى من تأديب أهل قرطبة.

٥- وصف ابن الأثير لثبات أهل قرطبة و قتالهم بأنه: قتال من يريد أن يحمى دمه و حريمه و ماله. هذا الوصف يدلنا على ما كان يتوقعه أهل قرطبة من (المرابطين) أصحاب الدعوة الإسلامية!! أن يرتكبوه بنسائهم و دمائهم و أموالهم.

مات على بن يوسف بعد أن قامت حركه إسلامية أخرى فى المغرب الأفيقى عرفت باسم (الموحدون) بقيادة ابن تومرت و قاتلت جيوش المرابطين، و دام القتال فى عهد الخليفة على حتى انتصر الموحدون و انتهى أمر المرابطين سنة ٥٤٢ هـ بعد أن ختموا عهدهم أسوأ خاتمه إذ استنجدوا بالإفرنج على قتال الموحدين.

يقول ابن الأثير: عن فتح الموحدين لمراكش عاصمة المرابطين: (و كان بمراكش جيش من الإفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم فجاءوا إليهم نجدة).

و كان قتل آخر ملوكهم إسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين - و هو صبي - سنة ٥٤٢ هـ، و به انقضت دولتهم بعد أن دامت سبعين سنة، و ولى منهم أربعة: يوسف و على و تاشفين و إسحاق.

و ابن الأثير الذى رأيناه أول الأمر يهاجم يوسف بن تاشفين و يحمل عليه، ثم يثنى عليه عند موته، يعود هنا بعد أن أصاب المرابطين ما أصابهم فيقول عن يوسف بن تاشفين: (و لقد أساء يوسف بن تاشفين فى فعله بالمعتمد بن عباد، و ارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرم سلط الله عليه فى عقابه من أربى فى الأخذ عليه و زاد).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٨

و نقول: ابتدأوا أمرهم بذيح ألقى مسلم صبورا، و انتهوا بالاستنجد بالإفرنج!.

و مع ذلك فهم أصحاب دعوة إسلامية!! ...

كان لا بد من هذا الحديث غير القصير عن المرابطين (الملثمين) لإيضاح ما ذكره ابن الأثير عن (الملثم) الذى جاء إلى بغداد خلال الحروب الصليبية، و أشار ابن الأثير إلى سبب قدومه إلى بغداد.

يقول ابن الأثير عن سبب قدومه - كما تقدم - إنه ممن قاتلوا الصليبيين مع الأفضل بن بدر الجمالى و أبلى بلاء حسنا.

أما لماذا جاء إلى بغداد ولم يعد إلى بلاده المحكومة من جماعته (المرابطين)، فلأن هؤلاء المرابطين الذين افتتحوا دعوتهم بذيح ألقى مسلم صبرا، وختموها بالاستنجد بالإفرنج واستقدموا جيشا منهم إلى عاصمتهم مراکش - إن هؤلاء المرابطين يعتقدون بالعلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح - كما يقول ابن الأثير - و المقصود بالعلويين هنا: الفاطميون، الذين اصطلح ابن الأثير في كل ما كتبه عنهم في كتابه (الكامل) على تسميتهم بالعلويين لا بالفاطميين، فهو ينسبهم إلى علي (ع) لا إلى فاطمة (ع).

أما لماذا يعتقدون فيه الاعتقاد القبيح فلأنهم على غير مذهبهم! .. وقد قاطعوهم بحيث أنهم إذا أرادوا الحج لا يمرون في مصر. و يؤكد ابن الأثير أن بدر الجمالي الذي كان قد سيطر على الخلافة الفاطمية وأصبح هو الحاكم الفعلي لمصر - أن بدر هذا حاول إصلاحهم، بمعنى التقرب إليهم وإزالة ما في نفوسهم، فلم يميلوا إليه ولا قاربوه. ولما أعياه أمرهم قرر معاملتهم بالشدّة، فكان يقتل من ظفر به منهم، و من أجل أن يفعل بدر ذلك فلا ريب أنه كان يخشى إفسادهم الناس عليه.

و عندما خلف الأفضل والده بدر عاد يستصلحهم و يحسن إليهم، و لقد كان في حرب متصلة مع الصليبيين، و يريد الاستعانة بكل من يمكنه الاستعانة به في هذه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١١٩

الحرب، فاستطاع استمالة فريق منهم فانضموا إليه في جهاد الصليبيين، و كان ممن انضم إليه: المثلث الذي تحدث عنه ابن الأثير. وبالرغم من أن اتصال هذا المثلث ببدر الجمالي كان اتصالا جهاديا أبلى فيه في قتال الصليبيين بلاء حسنا، فإنه كان يخشى العودة إلى بلاده، خوفا من أن يقتله قومه المرابطون، الذين يرون الاستنجد بالإفرنج حلالا، أما التعامل مع المسلمين الذين هم على غير مذهبهم، و لو كان تعاملًا جهاديا فهو حرام يستحق فاعله القتل. لذلك آثر الذهاب إلى بغداد لفترة، ثم عاد إلى مصر. و كما رأينا فيما قال ابن الأثير: لم يكن للمصريين حرب مع الإفرنج إلا و شهدها، فقتل في بعضها شهيدا ... و هذا القول يدلنا فيما يدل على أن الأفضل قد ظل مواصلا الحرب على الصليبيين دون انقطاع.

### مع السلاجقة

سنة ٥٠٠ هـ أقطع السلطان محمد جاولي سقاو الموصل و ديار بكر و الجزيرة كلها، مقابل أن يسير إلى الإفرنج و يأخذ البلاد منهم. و نعرف من هو جاولي هذا ننقل وصف ابن الأثير له:

(كان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد التي بين خوزستان و فارس و أقام بها سنين، و عمر قلاعها و حصنها، و أساء السيرة في أهلها و قطع أيديهم و جدد أنوفهم و سمل أعينهم ..

هذه هي سيرة الوالي الذي اختاره السلطان محمد ليحكم تلك الأرض الواسعة.

و السلطان محمد الذي يعرف ما يجري في الغرب الإسلامي، و يعرف استيلاء الصليبيين على الديار المقدسة، و يعرف عيث الصليبيين بالمسلمين و إذلالهم لهم، لم يكن من همه أن يهب بنفسه إلى إنجاد الإسلام و دفع الضيم عنه، بل عهد بهذه المهمة إلى من يعلم هو قبل غيره أنه ليس من رجالها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٠

عهد بهذه المهمة إلى (جاولي سقاو)! .. الرجل الذي قطع أيدي المسلمين في بلادهم و جدد أنوفهم و سمل أعينهم ..

الرجل الذي استحل في المسلمين كل ذلك .. يطلب إليه السلطان محمد أن يسير إلى الإفرنج ليأخذ البلاد منهم! ..

في موازاة قطع أيدي الرعايا و جدد أنوفهم و سمل عيونهم، عمر القلاع و حصنها، عمرها و حصنها بما خرب من البيوت و نقض من



الديار! ..

عمرها و حصنها حذرا من أن يثور عليه الذين خرب دورهم و هدم منازلهم، فيحتمى بها منهم .. هذا هو الرجل الذى طلب إليه سلطان السلاجقة قتال الصليبيين و استرجاع ما أخذوه من بلاد.

فماذا فعل؟ ماذا فعل جاولى سقاوو المنتدب لإنقاذ المسلمين؟ ..

ذهب من بغداد إلى الموصل و جعل طريقه على البوازيج فملكها، و نهبها أربعة أيام، بعد أن أمن أهلها و حلف لهم أنه يحميهم. هذا الذى أرسل لإنقاذ المسلمين من النهب و الذل، حول مهمته إلى نهب المسلمين و إذلالهم، هذا الذى أرسل ليحى شرائع الإسلام استباح شرائع الإسلام فكث بالأمان، و حث بالأيمان ..

و مضى بعد البوازيج إلى إربل، و فى الطريق لقيه (جكرمش) بجنوده ليحول بينه و بين الوصول إلى الموصل؛ لأن حكمها كان له فاقتلا و انتصر جاولى سقاوو.

و وصل خبر الهزيمة إلى جماعة جكرمش فى الموصل فتحصنوا بها لقتال جاولى سقاوو، و بدأ الطمع بالموصل و أرادها قلع أرسلان فصارت له.

و استنجد الملك رضوان بن تتش بجاولى ليقدّم إلى الشام لقتال الصليبيين قائلا له: إن الإفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم، فسار جاولى إلى الرحبة و حاصرها، فاشتد الحصار على أهلها و ضاقت عليهم الأمور، و استطاع جاولى دخولها فأول شىء فعله هو نهبها. ثم التقى جيشه بجيش قلع أرسلان فهزم قلع و دخل جاولى الموصل فى أحداث و خطوب جمّة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢١

أما المهمة التى انتدب لها جاولى، و هى الذهاب لقتال الإفرنج فقد نسيها جاولى فى غمار النهب و السلب، و استعاض عن استرداد أرض الشام من الإفرنج باسترداد الموصل من المسلمين.

و فى سنة ٥٠٢ هـ كانت نهاية حكم جاولى للموصل، فالسلطان محمد كان قد جعل إليه ولاية كل بلد يفتحه فاستولى على كثير من البلاد و الأموال و ما دام النهب يرافقه استيلاءه على البلاد، فمن الطبيعى أن تكثر لديه الأموال لكثرة ما استولى عليه من البلاد. و السلطان السلجوقى محمد الذى أطلق يده فى الفتح و النهب كان ينتظر أن يشركه جاولى بالمنهوبات، و لكن جاولى استأثر بها فقرر السلطان استبداله بغيره من الولاة الذين يتقاسمون مع سلاطينهم ما ينهبونه من الشعب، فاتفق مع جماعة من الأمراء و الولاة أن يتوجهوا إلى الموصل و بقية البلاد التى يحكمها جاولى و يأخذوها منه، فتوجهوا إلى الموصل.

فقرر جاولى ترك الموصل بعد أن أحكم أمر الدفاع عنها، و أو كل إلى زوجته إدارة الدفاع بعد أن مهد لها الأمور بأن حبس أعيان الموصل، و أخرج من أحداثها ما يزيد على عشرين ألفا، و أعلن أنه متى اجتمع عاميان على الحديث فى هذا الأمر قتلا ..

أصبحت الموصل فى يد زوجة جاولى فى شر حال من الذل و الرعب و توقع البلاء.

الأعيان فى السجن، و الشبان فى قبضة جاولى، و عامة الشعب فى فوضى لا قيادة فيها، فإذا خطر لاثنين أن يلتقيا فيتشاكيا قتلا فى الحال ..

أما هو فقد ترك الموصل، يقول ابن الأثير: خرج عن البلد، و نهب السواد ..

نهب الشعب ... هذا هو شعار العصر السلجوقى و منهجه و عمله.

أهل السواد الوادعين الآمنين المطمئنين، يفاجئهم القائد المنتدب لإنقاذ القدس بالنهب و الترويع ..

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٢

أما زوجته القائمة مقامه فى الموصل فقد رأت أن زوجها قد اكتفى باضطهاد الرجال، فرأت هى أن تساوى فى الاضطهاد بين الرجال و النساء، و أن تبرهن بأن المرأة ليست أقل كفاءة من الرجل ... يقول ابن الأثير: (و صادرت زوجته من بقى بالبلد و عسفت نساء

الخارجين عنه ..).

لقد عمدت إلى أمرين: استولت على أموال من بقى في البلد من الرجال، و عسفت النساء اللواتى لم ينضو رجالهن تحت إمرة جاولى. يقول ابن الأثير واصفا حالة الموصل: (فتمادى الحصار بأهلها من الخارج، و الظلم من الداخل)، هذه الشدة التى كانت فيها الموصل و وصفها ابن الأثير بهذا الوصف أدت إلى ثورة داخل الموصل يمكن أن نسميها ثورة الجصاصين، و لم يكن من الممكن أن تقوم ثورة أوسع منها، و مع أن الجصاصين محدود و العدد فقد استطاعوا إحكام أمرهم فنجحوا.

لم يكن بالإمكان قيام ثورة عامة ففقد الشعب فى السجون، و أحداثه مصادر و نساؤه مضطهدون. و لكن نفرا من الجصاصين يصفهم ابن الأثير بهذا الوصف: فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين، و مقدمهم جصاص يعرف بسعدى على تسليم البلد.

و نفر فى اللغة: من هم دون العشرة، أى: أن الذين صمموا و نجحوا كانوا أقل من عشرة، و هكذا بتدبير هؤلاء نفر دخل عسكر السلطان البلد.

أما زوجة جاولى فتحصنت بالقلعة، ثم راسلت الأمير مودود قائد الحملة السلطانية فى أن يفرج لها عن طريقها.

و يبدو أن الأمير مودود أنف من أن يتصدى لامرأة و يقاتلها، فأفرج لها و خرجت من الموصل.

و يقول ابن الأثير: إنها خرجت بأموالها و ما استولت عليه. و بهذا أصبح مودود حاكما على الموصل و ما ينضاف إليها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٣

أما جاولى الذى ذكرنا أنه ترك الموصل و مضى ينهب السواد، فقد أخذ معه (القمص بردويل) صاحب الرها و سروج و غيرها، و هو الذى كان قد أسره سقمان و أخذه منه جكرمش، و بقى فى الموصل مسجوناً خمس سنين، و بذل الأموال الكثيرة فلم يطلق. و حاول جاولى أن يتحالف على السلطان مع بعض الأمراء السلاجقة فلم يوفق إلى ذلك. و هنا اتجه إلى القمص بردويل فأطلقه و خلع عليه، و قرر عليه أن يفدى نفسه بمال و أن يطلق أسرى المسلمين الذين فى سجنه، و أن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه و عسكره و ماله.

إن الشرط الأخير هو الهدف من إطلاق القمص، و الشرطان الأولان شرطان ثانويان. الهدف من إطلاق القمص هو أن يذهب إلى مملكته و يجمع جيوشها و يجعلها على استعداد تلبية لنداء جاولى حين يناديها لنصرته على قومه، و أن يكون القمص نفسه على رأسها فلا يقودها غيره.

و هكذا فإن القائد السلجوقى الذى انتدب لإنجاد المسلمين على الإفرنج، يستنجد بالإفرنج على المسلمين! ..

و تتشابك الأمور بعد ذلك و ينتهى الأمر إلى أن يغرى الملك رضوان بن تتش صاحب حلب - يغرى (طنكرى) الصليبيى صاحب إنطاكية بجاولى فيتحالفا عليه، و يتحالف جاولى مع القمص و جوسلين و تقع حرب من أعجب الحروب:

تحالف إسلامى صليبيى على تحالف إسلامى صليبيى، و تنتهى الحرب بهزيمة جاولى و حلفائه. و يقول ابن الأثير: و قتل من المسلمين خلق كثير و نهب صاحب إنطاكية أموالهم و أئقألهم و عظم البلاء عليهم من الإفرنج، و حدثت فى هذه السنة معركة جانبية بين طغتكين و الفرنج أدت إلى هزيمة الإفرنج أولاً ثم عقد هدنة بين الفريقين، تخللتها معركة، يقول ابن الأثير عن نتيجتها: بأن عسكر طغتكين انهزموا و خلوا ثقلهم و رحالهم و دوابهم للإفرنج و وصل المسلمون على أقبح حال من التقطع.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٤

## الحال فى غرب العالم الإسلامى

رأينا ما يجرى فى شرق العالم الإسلامى وصولاً إلى أطراف غربه. و سنرى هنا ما كان يجرى فى الوقت نفسه فى غرب هذا العالم.

لقد ذكرنا من قبل أنه بينما كان السلاجقة يتناحرون في الشرق كان الصليبيون يستولون في الغرب على يافا، و أرسوف، و قيسارية و حيفا، و طبرية، و اللاذقية، و إنطاكية بعد أن كانوا استولوا على القدس و الرها، و سروج. و كانوا يحاصرون طرابلس. أما الآن في سنة ٥٠٣ هـ فإن الصليبيين كانوا يشددون الحصار على طرابلس و يرسلون من أوروبا أسطولا كبيرا لإحكام حصارها، كما وقوا قواهم البرية المحاصرة.

و كان فخر الملك أبو علي بن عمار لما رأى قبل ذلك اشتداد الحال على بلده طرابلس و ضاقت عليه الأقوات و قلت و اشتد الأمر عليه و على أهل البلد، و علم أن الأمور قد استتبت للسلطان محمد كما مر في الأبحاث السابقة عزم على الذهاب إلى بغداد للاستنجاد بالسلطان محمد، بعد أن رتب في طرابلس الأجناد برا و بحرا، و جعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه، و دفع للأجناد راتب ستة أشهر مقدما.

ثم مضى إلى بغداد فاستقبل فيها بحفاوة بالغه سواء من الخليفة أو من السلطان السلجوقي محمد. و يقول ابن الأثير: إن السلطان سأله عن حاله و ما يعانیه في مجاهدة الكفار و يقاسيه من ركوب الخطوب في قتالهم، فذكر حاله و قوة عدوه و طول حصره، و طلب النجدة، و ضمن أنه إذا سيرت العساكر معه أوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. فوعده السلطان بذلك. و حضر دار الخلافة، و ذكر أيضا نحوه مما ذكره عند السلطان.

فكان من أمر السلطان أن طلب من الأمير حسين بن أتابك قتل تكين ليسير معه العساكر التي سيرها إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال جاولي سقاوو ليمضوا معه. ثم ترك السلطان بغداد قاصدا أصفهان.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٥

يقول ابن الأثير: فلم يجد ذلك نفعاً ..

أما العساكر الذي تظاهر السلطان بأنه طلب إرسالها مع ابن عمار بقيادة الأمير مودود، فقد كانت لها مهمة أخرى لاستنقاذ طرابلس من الصليبيين، بل استنقاذ الموصل من جاولي.

يقول ابن الأثير: في هذه السنة استولى مودود و العسكر الذي أرسله معه السلطان على مدينة الموصل و أخذوها من أصحاب جاولي سقاوو.

في الوقت الذي كانت عساكر السلطان السلجوقي تهب بقيادة الأمير مودود لاستنقاذ الموصل من جاولي. و في الوقت الذي كان الأمير مودود ينجح في الاستيلاء على الموصل.

في هذا الوقت بالذات كان أسطول صليبي كبير مشحون بالرجال و السلاح و المياه يهب من أوروبا بقيادة ريموند بن صنجيل لاستنقاذ طرابلس من المسلمين.

و في الوقت الذي كان القائد السلجوقي مودود يستولى على الموصل كان الملك الصليبي بغدوين ملك القدس و معه ريموند بن صنجيل و غيره من القادة الصليبيين يستولى على طرابلس.

يقول ابن الأثير واصفا الحال:

(و مد الإفرنج القتال عليها (طرابلس) من الأبراج و الزحف، فهجموا على البلد و ملكوه عنوه و قهرا و نهبوا ما فيه و أسروا الرجال و سبوا النساء و الأطفال و نهبوا الأموال. و غنموا من أهلها من الأموال و الأمتعة و كتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد و لا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا و تجارة.

و عاقب الإفرنج أهلها بأنواع العقوبات، و أخذت دقاتهم و ذخائرهم من مكانهم).

و أغرى سقوط طرابلس الإفرنج فساروا إلى بانياس ففتحوها، و إلى جبيل ففتحوها أيضا. ثم واصلوا زحوفهم فامتدوا إلى صيدا فضايقوها برا و بحرا فاضطرت

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٦

لطلب الأمان فدخلوها و هجرها قسم من أهلها و بقي آخرون ففرضوا عليهم الأموال حتى أفقروهم و استغرقوا أموالهم فأخذوا يهاجرون من مدينتهم.

و امتد الصليبيون من الجانب الآخر فملكوا حصن (الأثارب) بالقرب من مدينة حلب و قتلوا من أهله ألفى رجل و سبوا و أسروا الباقين. و منه مضوا إلى حصن (زردنا) ففتحوه و فعلوا بأهله مثل الأثارب.

فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفا منهم و كذلك أهل بالس. و قصد الإفرنج البلدين فرأهما و ليس بهما أنيس فعادوا عنهما. و دب الذعر في بلاد الشام كلها.

يقول ابن الأثير:

(فعظم خوف المسلمين منهم و بلغت القلوب الحناجر، و أيقنوا باستيلاء الإفرنج على سائر الشام لعدم الحامى له و المانع عنه، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الإفرنج من الإجابة إلا على قطعة يأخذونها إلى مدة يسيرة.

فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين و ثلاثين ألف دينار و غيرها من الخيول و الثياب، و صالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، و صالحهم على الكردي صاحب حماة على ألفى دينار).

فلما بلغ الأمر إلى هذا الحد لم يعد الشعب يحتمل ما صار إليه من الهوان و من توقع الشر الأكبر. فقرر جماعة من أهل حلب و هي المدينة التي وصل الإفرنج إلى حصن الأثارب الذي لا يبعد عنها إلا ثلاثة فراسخ قرر جماعة من أهل حلب الذهاب إلى بغداد حيث السلطان السلجوقي و الخليفة لإثارة القضية و الاستنجد بالمصدر الأساسي للقوة، فلما وصلوا كان أول من تعاطف معهم خلق كثير من الفقهاء، و غيرهم من طبقات الشعب، فكان أن سارت يوم الجمعة مظاهرة كبرى إلى جامع السلطان و استغاثوا و منعوا من الصلاة و كسروا المنبر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٧

لقد كانوا في تصرفهم هذا يقصدون إلى أن الدين ليس صلاة فقط و لا خطبة الجمعة و حدها، و ماذا تفيد صلواتكم و خطبكم إذا كان الإسلام يباد و يهان في الجانب الآخر و إذا كنتم لا تنفرون لإنفاذ الركن الأهم من الإسلام و هو الجهاد ..

و أمام هذه المظاهرة الصاخبة اضطر السلطان السلجوقي لأن يعدهم بإنفاذ العساكر للجهاد.

و في يوم الجمعة الثاني جدد الحلبيون مظاهرتهم فمشوا و مشى معهم أهل بغداد إلى جامع القصر بدار الخلافة، فلما وصلوه منعهم حاجب الباب من الدخول فأزاحوه من طريقهم و دخلوا الجامع و كسروا شباك المقصورة و هجموا على المنبر فكسروه، و بطلت الجمعة أيضا.

فلما رأى الخليفة تفاقم الأمور و ليس في يده شيء يستطيعه أرسل إلى السلطان السلجوقي و هو صاحب الحل و العقد يطلب إليه الاهتمام بالموضوع و تصريف أمر هذا الفتق و رتقه، على حد تعبير ابن الأثير.

فالخليفة هنا يرى أن الأمر عاد نعمة شعبية عارمة على الدولة كلها، و هو فتق انفتق عليها لا بد من رتقه خوف تماديه و اتساعه، فهو بذلك ينصح السلطان بالتلافي قبل اتساع الخطر.

و هنا قرر السلطان أن يفعل شيئا، فجمع من في بغداد من الأمراء و طلب إليهم العودة إلى بلادهم و التجهز للجهاد. و زاد على ذلك فضم ولده مسعود إليهم و أرسله مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلتحق بهما الأمراء و يسيروا مجتمعين لقتال الإفرنج.

و هنا حدث حادث فريد نجعل الآن تفاصيله، فيبدو جليا أن الصراع بين البيزنطيين و الصليبيين قد بلغ أقصى مداه بحيث أدى ذلك إلى أن يرسل إمبراطور القسطنطينية رسولا إلى السلطان السلجوقي في بغداد يستنفره على الصليبيين و يحثه على قتالهم و دفعهم عن البلاد. و كان وصول هذا الرسول إلى بغداد قبل وصول الحلبيين إليها، فعلموا و هم في بغداد بمهمة الرسول البيزنطي، فكانوا يقولون

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٨

للسلطان: أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم!.  
و إذا كان الأمر على غير ما تصور الحلييون من أن استنفار الملك البيزنطي للسلطان السلجوقي هو حمية منه للإسلام، و إنما هو مصلحة مشتركة بين الاثنين تقضى بالقضاء على الصليبيين الذين باتوا ينازعون ملك القسطنطينية ملكه، و يهددونه في بلاده.  
فإنه كان يمكن للسلاجقة أن يغتموا هذا الغضب البيزنطي فيتحالفوا مع صاحبه للتخلص من الصليبيين. و لكن السلاجقة كانوا في هم آخر غير همّ تخلص الأرض الإسلامية من الصليبيين، هو تخلص بعضهم من بعض.  
و في خلال هذا التجهم الإسلامي الذي أصبح يعم العالم الإسلامي تزف ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة، فلا يكتفى بأدنى حد من الابتهاج احتراماً لأحزان المسلمين العالمية، بل زينت بغداد و غلقت، و كان بها فرحة عظيمة لم يشاهد الناس مثلها كما يقول عنها ابن الأثير.

التقى أمراء السلاجقة في الموصل إنفاذاً لما تقرر في بغداد نتيجةً للمظاهرات الحلبية التي استجاب لها البغداديون فضغطوا على الخليفة و السلطان، فدعا السلطان إلى الجهاد.

و الأمراء الذين التقوا هم: الأمير مودود صاحب الموصل، الأمير سكرمان القطبي صاحب تبريز و بعض ديار بكر، و الأميران الأخوان إيلبكي و زنكي ابنا برسق، و لهما همذان و ما جاورها، و الأمير أحمدل صاحب مراغة.  
و كوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب إربل، و الأمير إيلغازي صاحب ماردین، و الأمراء البكجية باللحاق بالأمير مودود.  
لقد كان ملتقى عسكرياً ضخماً يمكن ربط الأمل الكبير به. و لا أخال إلا أن الناس كانوا و هم يتسامعون بهذا الحشد الكبير من الأمراء و المقاتلين أيقنوا بالخلاص ..

و نحن لا ندرى أين كان الوفد الحلبي في هذه الأثناء، هل كان قد عاد إلى حلب

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٢٩

حاملًا- البشري لا- إلى حلب وحدها، بل إلى بلاد الشام كلها بنجاح مساعيه، و استجابةً أولى الأمر إلى صوت الاستغاثة المنبعث من أعماق القلوب .. أم أن الوفد قد ظل في بغداد يراقب و ينتظر؟ أغلب الظن أنه كان قد عاد إلى حلب بعد أن لمس اليد أن ما يشبه النفير العام قد أعلن بين الأمراء.

و الذي يلفت النظر هو اتساع الرقعة التي يسيطر عليها هؤلاء الأمراء و ما يمكن أن يحشد منها من مقاتلين فمن تبريز إلى ديار بكر من جانب، و من مراغة إلى همذان و ما جاورها من جانب آخر، و من إربل إلى الموصل إلى ماردین ...

هذه الأرض الواسعة إذا أهيب بها بندا: الله أكبر، نداء منبث من قلوب مخلصه، و ضمائر حيه، و حناجر متحمسة إذا أهيب بها ستتدفق منها الجماهير تدفق أمواج البحر الهائج صارخة: الله أكبر، فتكتسح كل شيء ..  
و لكن لا القلوب كانت مخلصه، و لا الضمائر كانت حيه، و لا الحناجر كانت متحمسة! ..

مشت جموع الأمراء إلى سنجار، ففتحت عدة حصون للإفرنج، حتى انتهت إلى حصار مدينة (الرها)، و لكن الحصار لم يلبث أن فك عن الرها، و عاد عنها الأمراء دون أن يفتحوها.

فقد قابل هذا التجمع الإسلامي تجمع صليبي استعد لمقابلته، على أن لم يتعد مناوشات و مناورات و تبادل أمكنة استطاع معها الإفرنج إحكام أمر الرها، فاستعاض الأمراء عن حصارها بحصار قلعة تل باشر فلم ينجحوا في فتحها فرحلوا عنها.

و تخلوا نهائياً عن قضيه الجهاد، و عادوا إلى التآمر بعضهم على بعض، و عوضاً عن أن يتوجهوا إلى الأرض المحتلة، توجهوا إلى حلب فاستراب بهم صاحبها الملك رضوان فحال بينهم و بين دخولها و لم يجتمع بهم.

و مرض أحدهم الأمير سكرمان القطبي، و مات في بالس، فجعله أصحابه في تابوت، و حملوه عائدين إلى بلاده. فاغتنم هذه الفرصة

رفيق سكرمان فى الجهاد!!

تارىخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٠

إيلغازى، و استضعف جماعته بعد موته، فقصدهم ليأخذهم و يغنم ما معهم، فحزموا أمرهم و جعلوا تابوت أميرهم فى القلب و قاتلوا بين يديه، فانهمز إيلغازى و غنموا ما معه، و مضوا إلى بلادهم! ..

هكذا عاد مصير حملة الجهاد، و إنقاذ المسلمين فى بلاد الشام! و لم ينته الأمر، فإن الجيش السلطانى كما يسميه ابن الأثير بعد أن حيل بينه و بين دخول حلب، و رفض صاحبها رضوان لقاءهم تركوا حلب و مضوا إلى معرة النعمان، و اجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق فاطلع منهم على نيات فاسدة فى حق رفيقهم الأمير مودود، فنزل عليه و أطلعه على أمرهم.

و لما رأى طغتكين ما رأى و علم من نياتهم الفاسدة ما علم خاف أن يقصدوه إلى دمشق فيأخذونها منه فاتصل سرا بالإفرنج و أحكم أمره معهم و هادتهم.

ثم تفرقت العساكر و عاد كل أمير إلى حيث جاء!!.

النهاية التى صار إليها حملة الجهاد السلطانى جرأت الإفرنج على الانتشار فى بلاد المسلمين و استصفائها بلدا بعد بلد، فكان أن بدأوا بمدينة صور، و سار إليها بغدوين صاحب القدس يقود حشودا صليبية لحصارها، فلما وصلها تفنن فى الحصار فأعد ثلاثة أبراج خشب علو البرج سبعون ذراعا و فى كل برج ألف رجل، و نصبوا عليها المجانيق، و ألصقوا أحدها إلى سور البلد و أخلوه من الرجال.

فأحضر الوالى أهل البلد و استشارهم فى حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم، فقام شيخ من أهل طرابلس، يبدو أنه ممن كان لجأ إلى صور بعد احتلال طرابلس، و ضمن على نفسه إحراقها، و أخذ معه ألف رجل بالسلح التام، و مع كل رجل منهم حزمة حطب، فقاتلوا الإفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة، فألقى الحطب من جهاته، و ألقى فيه النار، ثم خاف أن يشتغل الإفرنج الذين فى البرج بإطفاء النار و يتخلصوا، فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها و بما نالهم من سوء الرائحة و التلويث فتمكنت النار من البرج، فهلك كل من فيه إلا القليل. و أخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلايب،

تارىخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣١

ثم أخذ سلال العنب الكبار، و ترك فيها الحطب بعد أن سقاه بالنفط و الزيت و الكتان و الكبريت، و رماهم بسبعين سلة، و أحرق البرجين الآخرين.

و علم الصوريون أنهم و حدهم غير مستطيعين الصمود أمام الحملة الصليبية الكبيرة فاستنجدوا بطغتكين صاحب دمشق، و وعدوه بأن يسلموا البلد إليه.

و إذا كان طغتكين هذا قد أقام علاقات مع الإفرنج و سالمهم و هادتهم كما ذكرنا فيما تقدم من القول؛ فإنه اليوم قد نقض هدينتهم و قرر إنجاز الصوريين. و نريد أن نحسن الظن به، فلا نقول إن الطمع بتملك صور و امتداد سلطته إليها هو الذى حمله على ذلك، بل إن النخوة الإسلامية هى التى دفعته، و ربما السببان معا ...

و سار حتى بلغ باناس، و سير إلى صور نجدة مثنى فارس، فدخلوا البلد، فاشتدت عزائم من فيه، و استبسلا فى قتال الإفرنج. و قابل الإفرنج استبسالهم بمثله، خوفا من تتابع النجدة.

و راح طغتكين يغير على أعمال الإفرنج حول دمشق، ثم واصل السير باتجاه صور، فقطع المياه عن الإفرنج، فاستقدموها بحرا.

و هو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر. تارىخ دولة آل سلجوق ١٣١ الحال فى غرب العالم الإسلامى ..... ص: ١٢٤

ى أن موضع التساؤل هنا: لماذا لم يقدم هو نفسه بعسكره على إنجازهم و قد رأينا ما فعل و وصول المآتى فارس إليهم!؟.

كان أهل صور يقاتلون قتال من أيس من الحياة، كما يصفهم ابن الأثير، و ذلك لأنهم يعلمون المصير الفظيع الذى سيصيرون إليه إذا انتصر الإفرنج و دخلوا عليهم البلد. و أخيرا يئس الإفرنج من النصر فانسحبوا من صور إلى عكا.

هذا الذي مر ذكره كان من أحداث سنة ٥٠٦ هـ، و في مطلع السنة ٥٠٧ هـ، في شهر المحرم منها كان بغدوين ملك القدس يواصل غاراته على دمشق نفسها و ينهب و يخرب، حتى إن دمشق أصبحت في شبه حصار اقتصادي انقطعت فيه المواد عنها فعم الغلاء و قلت الأوقات، فرأى حاكمها طغتكين أن يستعين بصديقه الأمير تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٢

مودود صاحب الموصل، فأرسل إليه يصف له ما هو فيه من الضيق، و العجز عن دفع شر الإفرنج، و يطلب إليه إنجاده بقوات بأسرع ما يستطيع من الوقت.

فاستجاب الأمير مودود للاستنجاد و سار بعساكره من الموصل عابرا بهم الفرات، فمضى طغتكين لملاقاته فالتقيا في مدينة سلمية و قررا مهاجمة طغتكين، فاصطدما به عند مدينة طبريا في معركة انهزم فيها بغدوين و وقع أسيرا، و لكن أسريه لم يعرفوه، و كل ما فعلوه أن أخذوا سلاحه و تركوه.

و كان لهذه المعركة ذيول كانت كلها في صالح المسلمين فساروا إلى بيسان و نهبوا البلاد المحتلة بين عكا إلى القدس و خربوها. و بعد هذا النصر صرف الأمير مودود عساكره فعادوا إلى بلادهم على أمل العودة في الربيع لمعاودة الغزو، و بقي هو في خواصه بضيافة طغتكين في دمشق منتظرين الربيع. على أن الأقدار لم تمهله إلى الربيع فقد اغتيل في يوم جمعة في المسجد بعد أداء الصلاة برفقة طغتكين ..

و هنا تشعب الآراء في تحديد القاتل، فالذين يعرفون دخائل هؤلاء الأمراء و ما تطوى عليه نفوسهم من الغدر بعضهم ببعض طمعا من كل واحد منهم بما في يد الآخر، يوجهون التهمة إلى طغتكين، و يقولون: إنه دبر له من اغتاله بعد أن رآه منه بقاؤه في دمشق. و يؤكدون اتهامهم بأن القاتل قتل في الحال، و احتز رأسه، و أخفى ثم أحرق لئلا تكشف حقيقته. و طغتكين و جماعته يوجهون التهمة إلى من سموهم الباطنية، و يبدو أن اتهام طغتكين كان هو السائد بين الناس على اختلاف مواقعهم، حتى إن السلطان كان يوجه إليه التهمة علانية، كما سنرى.

و هكذا فإن ذاك الاستنفار انتهى إلى لا شيء سوى النهب و التخريب و اغتيال من لبي الاستنفار!.

و طغتكين هذا الذي يضح اليوم من الإفرنج و يستنصر المسلمين عليهم، ألم يسبق له بالأمس أن استنصر بهم على المسلمين؟! و هل ترجو ممن لا يرى بالاستنصار على المسلمين بالإفرنج إثما أن يخلص في قتال الإفرنج؟! و أن يتورع عن اغتيال ضيفه تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٣

و منجده إذا رآه أمره و لو في الخيال؟! و توالى الأيام حتى سنة ٥٠٨ هـ فعاد السلطان محمد يتذكر الإفرنج، و كان حين علم بمقتل مودود أرسل واليا على الموصل و أعمالها: الأمير آق سنقر البرسقي، و سير معه ولده الملك مسعود في جيش ليذهب بهذا الجيش لقتال الصليبيين، و كذلك أرسل إلى جميع الأمراء في تلك المناطق لينضموا إلى آق سنقر و يسيروا جميعا للجهاد. و سنرى أن ذلك كله كان عملا استعراضيا بحتا لم يحقق أي نتيجة!.

فإن البرسقي سار إلى جزيرة ابن عمر فسلمها إليه نائب مودود بها، و منها سار إلى ماردين، فلما تمرد عليه صاحبها إيلغازي نازله فأذن له و سير معه عسكرا مع ولده آياز، فاتجه إلى الرها على رأس خمسة عشر ألف فارس فنازلها على غير جدوى، فاتجه منها إلى سميساط و سروج، فلم يكن منه سوى التخريب فيها، ثم نهب سواد ماردين.

و نسي الجهاد فقبض على رفيقه آياز بن إيلغازي، لأن أباه لم يحضر بنفسه، بل أرسل ولده آياز مكانه. و بلغ إيلغازي خبر القبض على ولده، فسار إلى حصن كيفا، و صاحبها الأمير ركن الدولة ابن أخيه سقمان فاستنجده، فسار معه في عسكره و جمع جمعا من التركمان، و مضيا لاستنقاذ آياز من البرسقي.

و التقى الجمعان في معركة ضارية، انتهت بانهزام البرسقي، و تخلص آياز بن إيلغازي.

هذا هو الجهاد الذي نادى به السلطان السلجوقي محمد .. و هذه معارك قائده و مبعوثه لقتال الصليبيين: آق سنقر البرسقى! على أن الأمر لم يتم فصولا بعد، فسئرى ما هو أدهى و أمر ...

السلطان محمد هذا لم يغضبه على قائده أن حول جهاده للتخريب و النهب ثم لقتال المسلمين، بل أغضبه أن إيلغازى هزم آق سنقر، فأرسل إليه يتهدده، فرأى إيلغازى أن يلجأ إلى حمية طغتكين صاحب دمشق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٤

و كان طغتكين هذا متهما عند السلطان بأنه غدر بالأمير مودود و قتله، فاتفق رأى الاثنيين: إيلغازى و طغتكين على الاستنصار بالصليبيين، فراسلا صاحب إنطاكية و حالفاه، ثم رأوا جميعا أن يمتنوا الحلف بينهم، فالتقى الثلاثة على بحيرة قدس عند حمص، فأحكما أمر التحالف، و وضعوا خطط تنفيذه.

و عاد صاحب إنطاكية إلى بلده، و عاد طغتكين إلى دمشق. أما إيلغازى فاتجه إلى ديار بكر مارا بالرستن فنزل بها ليستريح، فعلم به قرجان بن قراجه صاحب حمص، و قد تفرق عن إيلغازى أصحابه، فقبض عليه قرجان و معه جماعة من خواصه، و أرسل إلى السلطان محمد يعرفه ذلك و يطلب إليه الإسراع بإرسال نجدة يقاوم بها طغتكين إذا حاول إنقاذ إيلغازى.

و لما عرف طغتكين بما جرى على إيلغازى عاد إلى حمص و أرسل يطلب من قرجان إطلاق إيلغازى، فرفض قرجان ذلك و هدد بقتل إيلغازى إن لم يرجع طغتكين إلى دمشق. و علم إيلغازى بذلك فأرسل يلح على طغتكين بالعودة إلى دمشق.

و هنا تشابكت المصالح، فلم تصل لقرجان نجدة من السلطان، فخاف أن يستضعفه أصحابه فيسلموا حمص لطغتكين، فقرر مصالحة إيلغازى فيطلقه و يأخذ ابنه آياز رهينة و يصاهره، و يحول بينه و بين طغتكين و غير طغتكين، فوافق إيلغازى على ذلك فأطلقه قرجان و ترك عنده ابنه آياز، ثم عقدا حلفا بينهما.

و سار إيلغازى من حمص إلى حلب، و جمع التركمان، و عاد إلى حمص مطالبا بولده آياز، و ضايق قرجان و حصره.

و اتصل الخبر بالسلطان فأرسل عسكريا كثيرا و أمرهم أن يقاتلوا إيلغازى و طغتكين أولا- فإذا فرغوا منهما مضوا إلى قتال الإفرنج، فكانت نتيجة ذلك أن إيلغازى و طغتكين ذهبا إلى إنطاكية و استنجدا بصاحبها الصليبي (روجيل).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٥

و بعد أحداث تفرقت عساكر السلطان، و عادت إلى بلادها الحملة الجهادية السلجوقية التي أرسلها السلطان محمد لمكافحة الصليبيين انتهى أمرها إلى تقاتل المسلمين، و التحالف مع الصليبيين.

و الجيوش التي قال السلطان أنها موجهة إلى حرب الإفرنج رأينا إلى من عادت توجه في حين كان الصليبيون يتمددون في البلاد و يتحكمون بالعباد ..

و فى سنة ٥١١ هـ توفى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، هذا الذى رأينا من جهاده ما رأينا! .. و تولى بعده ابنه محمود.

و ظل السلاجقة على تشاحنهم، فإن مسعود بن السلطان، أراد الاستيلاء على بغداد و العراق و حقق ذلك، فمشى عماد الدين منكبرس ليخرجه منها، فمشى مسعود للقائه، فكان من نتيجة ذلك أن الفريقين نهبا السواد نهبا فاحشا، على حد تعبير ابن الأثير.

و انتهت المفاوضات بين الفريقين إلى أن صار منكبرس صاحب (شحنكية) بغداد، و هى مديرية الشرطة العامة.

و يقول ابن الأثير عن عهد منكبرس فى بغداد: و أقام منكبرس ببغداد يظلم و يعسف الرعية و يصادرهم، فاخفى أرباب الأموال، و بطلت معاش الناس، و أكثر أصحابه الفساد، حتى إن بعض أهل بغداد زفت إليه امرأة تزوجها، فعلم بعض أصحاب منكبرس، فأتاه و كسر الباب، و جرح الزوج عدة جراحات، و ابنتى بزوجته، و استغاث الناس لهذه الحال، و أغلقوا الأسواق، فأخذ الجندى إلى دار الخلافة فاعتقل أياما ثم أطلق.

و قد ظل الصليبيون فى تماديهم و امتدادهم، فإذا بإيلغازى صاحب حلب و ماردين، الذى ذكرنا من قبل استنجاده هو و صاحبه



طغتكين بالصلبيين، إذا بإلغازى هذا يعود فيرسل رسولا إلى بغداد يستنفر على الصليبيين، و يذكر ما فعلوا بالمسلمين بالديار الجزرية، و أنهم ملكوا قلعة الرها، و قتلوا أميرها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٦

و من يأمن لمن استنجد بالصلبيين أن لا يعود فيغدر بالمسلمين و ينضم إلى الصليبيين، و هل يمكن أن يؤتمن من خان المسلمين، و هل يمكن أن يخلص فى الجهاد من نكث بالمجاهدين؟! و كل ما كان من الأثر لاستنجد بإلغازى أن أرسلت الكتب بذلك إلى السلطان محمود! ..

أما السلطان محمود فقد كان مشغولا عن ذلك بالشقاق بينه و بين أخيه طغرل، و بالحرب بينه و بين عمه سنجر، عمه أخى أبيه و هو فى الوقت نفسه أبو زوجته، فقد التقى الاثنان فى معركة كان فيها مع سنجر عشرون ألف مقاتل و مع محمود ثلاثون ألفا. خمسون ألف مقاتل كان يمكن أن يسير بهم محمود و عمه سنجر السلجوقيان لإنقاذ الديار الجزرية من الصليبيين، و لكنهما بدلا من ذلك تقاتلا بها و سفكا دماءها بأيديهما! ..

لقد انتصر سنجر .. و لكن على ابن أخيه لا على الصليبيين!.

و ظل الإفرنج يستضعفون المسلمين فامتدوا حتى بلغوا نواحي حلب فملكوا بزاعة و غيرها، و خربوا ما قدروا على تخريبه من حلب و نازلوها، و قاسموا أهلها على أملاكهم التى بباب حلب.

فأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون، و يطلبون النجدة، فلم يغاثوا.

و بإلغازى الذى حالف الصليبيين فى وقت من الأوقات هو اليوم صاحب حلب، يتلقى بلده الضربات من حلفائه السابقين، فمضى إلى ماردين يجمع العساكر و المتطوعة، فاجتمع له نحو عشرين ألف مقاتل قاتل بهم هذه المرة الإفرنج و انتصر عليهم. و فى سنة ٥١٤ ه قام الصراع بين السلطان محمود و أخيه مسعود، و قامت المعارك الدامية بينهما، ثم انتهت بهزيمة مسعود.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٧

و لكى نعرف رأى الشعب بحكامه، نشير إلى أنه فى هذه السنة نزل فى العراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير و بقى مغطيا الأرض خمسة عشر يوما فقال بعض الشعراء:

يا صدور الزمان ليس بوفرما رأينا فى نواحي العراق

إنما عم ظلمكم سائر الخلق فشابت ذوائب الآفاق و كان من تقدم الصليبيين هذه السنة أن أكثروا من الإغارة على حلب و أعمالها، و أعملوا هناك التخريب و التحريق حتى أدى الأمر إلى أن سلمهم صاحب حلب حصن الأثارب القريب من حلب.

و عوضا عن أن يثير هذا التسليم الحمية فى نفوس المتسلطين، أثار أطماعهم فى صاحب حلب، فإن بلوك بن بهرام بن أرتق صاحب حران اعتقد ضعف صاحب حلب فلم يندب نفسه لتقويته و التقدم معه لاسترجاع حصن الأثارب، بل تقدم لأخذ حلب منه، فنازلها و ضايقها و منع الميرة عنها و أحرق زروعها، فاستسلمت حلب له.

و طغتكين صاحب دمشق الذى رأينا فيما مضى يستنجد بالصلبيين نراه اليوم يهاجم مدينة حمص و ينهبها و يحرق كثيرا منها، ثم يهاجم مدينة حماة و يستولى عليها.

كان كل ذلك يجرى بين حكام السلاجقة غير معينين بأمر الصليبيين و تمددهم فى البلاد. و كان الصليبيون يعدون العدة لاستصفاء بلاد الشام و كبريات مدنها، فقرروا الاستيلاء على مدينة صور.

فاستنجدت بطغتكين بعد أن أشرف أهلها على الهلاك، فسار طغتكين حتى نزل بانياس ليقرب من صور لعل الصليبيين إذا رأوا ذلك يرحلون عن صور، و لكنهم لم يفعلوا، و انتهى الأمر باستيلاء الصليبيين على صور و خروج أهلها منها و تفرقوا فى البلاد.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٨

يقول ابن الأثير: (كان فتح صور و هنا عظيما على المسلمين فإنها من أحصن البلاد و أمنعها ..) و نقول: إن سقوط صور بقدر ما أوهن المسلمين قوى الصليبيين و شدد عزمهم فى الاستيلاء على بلاد الشام، فكان أن قرروا التقدم إلى حلب، و كانت حلب فى ذلك الوقت شيعية، و هنا تبرز خيانه من نوع آخر، فإن ديبس بن صدقة و كان عربيا شيعيا يحكم منطقة الحلة فى العراق، فأغرتة المطامع فاتصل بالصليبيين و أطمعهم بحلب، و قال لهم: إن أهلها شيعه، و هم يميلون إلى من أجل المذهب، فمتى رأونى سلموا البلد إلى، و إننى أكون هنا نائبا عنكم و مطيعا لكم ..

لقد طمع هذا النذل بتوسيع حكمه بخيانه أمته، و التعاون مع أعدائها، فسار مع الصليبيين لفتح حلب، و لكن شيعه حلب نبذوه و احتقروه، و قرروا الاستماتة فى الدفاع عن مدينتهم، و طال القتال، و اشتد الحصار، و قلت الأقوات، فقرر الحليون الاستنجاد بأق سنقر البرسقى صاحب الموصل، فأرسلوا إليه يسألونه المجيء إليهم ليسلموا إليه البلد، فاستجاب لذلك و قدم بقواته، فرأى الإفرنج أنهم سيقعون بين القوات الحلبية و القوات الموصلية فرحلوا عن حلب.

### بين السلاجقة و الخوارزميين مؤسس الدولة الخوارزمية

محمد بن أنوشتكين هو الذى نعتبه مؤسس الدولة الخوارزمية، أما أنوشتكين أبوه فقد كان مملوك أمير من أمراء السلاجقة اسمه (بلكبك) اشتراه من بائع من (غرستان) فقيل له: أنوشتكين غر شحه.

و كأمثاله من المماليك فى كل مكان و زمان لا تحول صفته المملوكية دون بروز مواهبه إن كانت له مواهب برزت مواهبه و كان لها من التقدير ما تستحقه، حتى لقد وصفه ابن الأثير: بقوله: فكبر و علا أمره، و كان حسن الطريقة، كامل الأوصاف، و كان مقدا مرجوعا إليه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٣٩

لأنوشتكين هذا الموصوف بهذه الصفات ولد سماه محمدا، و محمد هذا هو الذى قلنا: إنه يعتبر مؤسس الدولة الخوارزمية، و قد عيى أنوشتكين بابنه هذا، فعلمه و خرج و أحسن تأديبه. و يضيف ابن الأثير على ذلك فى حديثه عن محمد بن أنوشتكين: و تقدم بنفسه و بالعناية الأزلية. و قد صدق ابن الأثير بهذا القول، فالصفات الشخصية و حدها لا تكفى للنجاح و التقدم إذا لم ترافقها العناية الأزلية. و المر كما قال الوزير المغربى: و الفضل ليس بنافع أربابه إلا بمسعة من الأقدار، كان السلطان السلجوقى بركيارق قد ولى سنة ٤٩٠ هـ على خوارزم من اسمه (أكنجى) و لقبه خوارزم شاه فجمع عساكره ليلحق السلطان إلى مرو، و لكن أميرين آخرين تأمرا عليه و قتلاه، و سارا إلى خوارزم، و أظهر أن السلطان قد ولاهما فسيطرا عليها.

و بلغ ذلك إلى السلطان و كان فى طريقه إلى العراق لإخماد تمرد عليه، فأرسل أمير زاد حبشى فى جيش للقضاء عليهما، فانتهى أمرهما فى تفاصيل لا- شأن لنا بها فى موضوعنا هذا، ثم ولى السلطان على خراسان (أمير زاد حبشى)، فكان أن ولى على خوارزم محمد بن أنوشتكين و لقبه خوارزم شاه.

و سار محمد هذا فى ولايته سيرة حسنة فساد فيها العدل، و قرب أهل العلم و الدين، و اشتهر أمره بكل خير. و ظل محمد فى منصبه بتولى السلطان سنجر خراسان، و برزت كفايته، فقدرة سنجر أحسن تقدير، و حاول بعض ملوك الأتراك مهاجمة خوارزم و محمد غائب عنها عند السلطان سنجر، فأسرع محمد إلى خوارزم، و أرسل إلى سنجر يستمده و كان بنيسابور فسار لإنجاده بجيشه، و لكن محمدا كان قد استطاع إخماد الفتنة قبل وصول سنجر.

و لما توفى محمد خوارزم شاه، تولى بعده ابنه أئسز الذى كان قد تدرّب على يدى أبيه فقاد الجيوش و باشر الحروب، فسار سيرة أبيه. فقربه السلطان سنجر، و رفع من شأنه، و جعله من أركان حكمه معتمدا عليه و استصحبه معه سلما و حربا، فبرزت كفاءته و ازداد عند سنجر تقدما و منزلة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٠

و إذا كنا قد قلنا من قبل بأننا نعتبر محمد بن أنوشتكين مؤسس الدولة الخوارزمية، فلأنه هو أول من حمل لقب (خوارزم شاه) و أول من تولى سلطة فعلية، و إن كان توليه هذا لم يعد كونه واليا تابعا لغيره. و نقول هنا: إن أتسز في الحقيقة هو الذي ابتدئ به قيام ملك بيته الخوارزمشاهي مستقلا مقاتلا عن هذا الاستقلال، مناهضا للسلطان سنجر نفسه.

### فساد ما بين سنجر و أتسز

أتسز الذي تقدم عند السلطان سنجر لكفاءته، و الذي أصبح من قواعد ملك سنجر التي يعتمد عليها في مسار هذا الملك، أتسز هذا، وجد أنه في مواهبه ما يدفعه إلى تسنم أعلى المناصب، و ما يجعله في منزلة لا تقل، لا عن سنجر، و لا غير سنجر من المعاصرين الذين يتصارعون على الملك و الاستقلال به فيما تحت أيديهم من بلاد.

و إذا كان أتسز لم يفصح عما في نفسه من الطموح، و لم يتصرف تصرفا انفصاليا عمليا، فإن كوامن نفسه لم تكن لتخفى على سنجر، و ربما تسرب إليه شيء من هذه الكوامن، مما يفيض به في خلواته لخاصته من إشارات و تعابير، تتم عما في نفسه، فأبلغها بعض المخلصين لسنجر محذرين له عما قد يفاجؤه به أتسز من وثوب متوقع.

لذلك رأينا سنجر لا يترك للأيام أن تفعل فعلها، بل رأى أن يستبق هو الأيام فيفعل فعله قبلها، ففي سنة ٥٣٣ هـ سار السلطان سنجر بحملة عسكرية قاصدا خوارزم لانتزاعها من أتسز و القضاء عليه ..

فلما قرب من خوارزم و علم به أتسز خرج بما لديه من قوات لقتاله، و صده عن خوارزم، و لم تكن القوات متكافئتين، و لم يكن أتسز قد أعد للثورة، بل فوجئ بزحف سنجر بجيوشه عليه، لذلك لم يلبث أتسز أن انهزم و قتل العدد الكثير من رجاله و بينهم ابنه الذي حزن عليه حزنا عظيما.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤١

و استولى سنجر على خوارزم، و ملكها لابن أخيه غياث الدين سليمان شاه بن محمد، و نظم له حكومته من تعيين أتابك، و وزير و حاجب و ما إلى ذلك من مقومات السلطة، و عاد إلى مرو.

و الكراهية المتأصلة في نفوس الشعوب المحكومة من السلاجقة، كانت متأصلة في الشعب الخوارزمي، و كان أتسز يعرف ذلك، فلهذا لم يكد سنجر يغادر خوارزم حتى أسرع أتسز إلى العودة إلى خوارزم، فأعانه شعبها على التخلص من سليمان شاه الذي ترك خوارزم عائدا إلى عمه السلطان سنجر.

و هكذا حل العداء بين الاثنين بعد ذاك الولاء، و كانت فجيعة أتسز بابنه فجيعة ملأت قلبه حقدا على السلطان سنجر.

### بين الخطا و سنجر

قبل أن ندخل في التفاصيل لا بد لنا من أن نعرف من هم الخطا:

يقول ابن خلدون عن الخطا: (هم أعظم الترك فيما وراء النهر) و أنهم: (أمة بادية يسكنون الخيام و هم على دين المجوسية) و أنهم: (كانوا موطنين بنواحي أوزكندة و بلاد ساغون و كاشغر).

و هم كذلك أتراك في رأى ابن الأثير إذ يعبر عنهم: (بالأتراك الخطا) و لكنه و هو يصف وقعة لهم يقول: (و كانوا قد خرجوا قبله من الصين و هم في خدمة الخانية أصحاب تركستان).

و عندما يسترسل في الحديث يقول: (و عنده جنود الترك و الصين، و الخطا).

و يقول أيضا: (و استقرت دولة الخطا و الترك الكفار بما وراء النهر).

و الخطا فيما يقول الدكتور حسين مؤنس: (إن العرب سموا التتار: الخطا، و هي تسمية خاطئة؛ لأن الخطا أو الخطاى فى الحق هم أهل الصين).

يتهم خوارزم شاه أئسز بأنه بعد أن ناله ما ناله من هزيمته أمام السلطان سنجر و قتل ابنه، حرض الخطا على غزو سنجر، و أرسل إليهم يطعمهم فى بلاده، و يحثهم على قصده فى عقر داره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٢

هذه رواية، و فى رواية أخرى أسباب غير هذا السبب هى التى دفعت الخطا على غزو مملكة السلطان سنجر. و مهما يكن من أمر، فإن الذى وقع هو أن الخطا تقدموا مهاجمين بلاد سنجر بجيش يقدر ابن الأثير عدده بثلاث مئة ألف فارس، فالتقوا بجيش سنجر فيما وراء النهر، و اقتتلوا أشد قتال، فحاققت الهزيمة بجيش سنجر و قتل منه على تقدير ابن الأثير مئة ألف قتيل. و يقول ابن الأثير: أن بين القتلى أحد عشر ألفا كلهم صاحب عمامة و لم اهتمد لما يقصده ابن الأثير بقوله: صاحب عمامة.

و من هم الذين كانوا يتميزون يومذاك بأنهم أصحاب عمائم؟ ..

إذا أردنا أن نطبق الوصف على ما هو متعارف عليه فى هذا العصر، فإن أصحاب العمائم تعنى الفقهاء، فهل كان الفقهاء فى ذلك العصر يتميزون باعتماد العمائم؟ الذى نعرفه أن العمائم لم تكن ميزة الفقهاء، بل كانت لباس الرأس للناس كلهم ابتداء من أفقر فقير حتى رأس الدولة: السلطان.

و إن التخلى عن العمائم لباسا للرأس ابتداء فى عصر السلطان محمود الثانى العثمانى فى أواسط القرن التاسع عشر، فقد خلعتها السلطان فمن دونه إلى أن غدت عمرة للرأس للفقهاء بشكل غير شكلها الأول.

فهل كانت العمامة ميزة الفقهاء وحدهم فى عهد السلاجقة، قبل أن تكون كذلك فى البلاد العثمانية و منها الوطن العربى؟ ..

ثم هل كان الجيش السلجوقى يضم هذا العدد الكبير من الفقهاء ليكون من قتل منهم فقط أحد عشر ألفا؟ و إذا كان هذا عدد القتلى فكم كان عدد مجموعهم فى الجيش؟ الواقع أن هذا الذى ذكره ابن الأثير عن أصحاب العمائم القتلى يثير الكثير من التساؤلات التى أعترف بأنى لا أجد جوابا لها ..

ثم يقول ابن الأثير: إن بين القتلى أربعة آلاف امرأة. و هذا أيضا موضع الغرابة و التساؤل، فهل كانت نساء السلاجقة تقاتل ليكون بين القتلى هذا العدد منهن؟! و إذا لم يكن يقاتلن فلماذا هذا القتل فيهن، فى حين أنهن إذا لم يقتلن يسيبن، و فى هذا كل المصلحة للمتصيرين؟! ثم لماذا هذا العدد الكبير منهن مع الجيش بحيث يبلغ عدد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٣

قتلاهن أربعة آلاف امرأة!! و قد كانت زوجة السلطان سنجر نفسه مع الجيش، فلما انهزم الجيش أسرت ... على أن الخطا أطلقوها. و يقول ابن الأثير: و لم يكن فى الإسلام وقعة أعظم من هذه، و لا أكثر ممن قتل فيها. ثم يقول: و استقرت دولة الخطا و الترك الكفار بما وراء النهر.

### توسع ملك خوارزم شاه

أما خوارزم شاه أئسز فقد أخذ يوسع ملكه فسار إلى خراسان فاحتل سرخس، و اتجه منها إلى مرو الشاهجان، فلقبه الإمام أحمد الباخري، و شفع فى أهل مرو، و سأل أن لا يتعرض لهم الجنود فأجابه إلى ذلك، و لم يدخل البلد بل ظل فى ظاهرها، و استدعى إليه أعيانها و أحد فقهاءها.

و لكن أهل مرو ثاروا و قتلوا بعض أهل خوارزم شاه، و أخرجوا أصحابه من مرو، و أغلقوا أبوابها، و استعدادوا لمواجهة خوارزم شاه،

فعند ذلك هاجمهم، و دخل مرو فاتحا، و قتل كثيرا من أهلها و فيهم فقهاء و علماء، و قتل من الأعيان كثيرين. ثم غادرها مستصحباً معه عددا من علمائها.

و بعد مرو اتجه إلى نيسابور، و خشى من في نيسابور أن يجري عليها ما جرى على مرو، فتوجه إلى خوارزم شاه جماعة من فقهاءها و علمائها و زهادها طالبين إليه أن لا ينفذ في نيسابور ما نفذ في مرو من الإباحة للدماء، فوعدهم خيراً.

و تتبع أموال أصحاب السلطان فصادرها، ثم أمر بقطع خطبة السلطان سنجر، و أن يخطب باسمه هو، فلما نفذ ذلك و لم يذكر الخطيب اسم سنجر و ذكر بدلا منه اسم خوارزم شاه صاح الناس و ثاروا، و كاد الأمر أن يؤدي إلى تمرد عام، و لكن تدارك الأمر ذوو الرأي و العقل خوفا مما يجر ذلك من البلاء على الناس.

ثم سير خوارزم شاه جيشا إلى أعمال بيهق، و لكن أهلها صمدوا للجيش يقاتلونه خمسة أيام فعاد عنها. يقول ابن الأثير: (ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، و عملوا بخراسان أعمالا عظيمة).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٤

ثم يقول ابن الأثير: (و منع السلطان سنجر من مقاتلة أتسز خوارزم شاه خوفا من قوة الخطا بما وراء النهر، و مجاورتهم خوارزم و غيرها من بلاد خراسان).

هذه الوقائع التي عرضنا أحداثها موجزة لا يمكن أن نمر بها مجرد مرور دون التمعن بما فيها من دلالات تستوقف المؤرخ للنظر فيها طويلا.

لماذا يثور أهل مرو على خوارزم شاه فيمعن فيهم و في علمائهم قتلا؟! و لماذا يرفض أهل نيسابور قطع الخطبة للسلطان سنجر و إبدالها بالخطبة لخوارزم شاه، و يثرون من أجل ذلك؟! لم يكن في حكم السلاجقة للشعوب التي حكموها ما يجعل تلك الشعوب تأسف على زوال حكمهم و تنقم على من يحل محلهم، فما الذي حدث فجعل أهل مرو و أهل نيسابور يقفون هذا الموقف الغاضب لسنجر الناقم على خوارزم شاه؟! ليس في النصوص التي يقدمها لنا مؤرخو تلك الأحداث ما يوضح لنا العوامل التي أدت إلى هذا التحول من النعمة على حكم السلاجقة إلى النعمة على من جاء يحل محلهم فبقى علينا نحن أن نستخلص الأسباب مما لدينا من وقائع.

الذي يخيّل إلى أن النعمة على خوارزم شاه سببها ما اشتهر عنه من أنه هو الذي حث الخطا على غزو البلاد الإسلامية و ما جره هذا الغزو من سفك دماء عشرات الألوف من المسلمين بما فيهم النساء، و ما ألحقه بالمسلمين من الذل و الفجائع.

فلم يغفر الناس لخوارزم شاه هذه الخيانة، و ظلت تملأ نفوسهم حقدا عليه، فكان من مظاهر هذا الحقد رفض حكمه لهم و الثورة على هذا الحكم ..

ثم إن ما أحاق بسنجر من الهوان على أيدي الخطا أكسبه عطف المسلمين فرفضوا أن يكونوا عليه مع الخطا فيلغوا اسمه من الخطبة و يحلوا محله اسم الخائن محرض الأعداء على احتلال الوطن ..

و الذي يثير الاهتمام هو قول ابن الأثير: و منع السلطان سنجر من مقاتلة أتسز خوارزم شاه خوفا من قوة الخطا بما وراء النهر، و مجاورتهم خوارزم و غيرها من بلاد خراسان.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٥

ليس المقصود بهذه الجملة و اضحا كل الوضوح، و ليس المراد بها صريحا كل الصراحة. و لكن لها عندى تفسيرا واحدا أعتقد أنه الصواب:

أن سنجر بعد أن رأى القوة العسكرية الكبرى التي يستند إليها الخطا، و أنهم بذلك يهددون البلاد الإسلامية التي أمامهم، أغضى عما جناه عليه خوارزم شاه، و لم يعد يهمله إلا مصير الوطن الإسلامي، و رأى أن في تقايل المسلمين زيادة في إضعافهم و تقوية للخطا عليهم، لذلك منع من مقاومة خوارزم شاه فيما يسعى لاحتلاله من بلاد، لأن الخطا إذا سالموا خوارزم شاه اليوم فسيتقوضون عليه في

الغد عندما يصبح في مواجهتهم. لذلك منع سنجر من مقاتلة خوارزم شاه إبقاء على القوى الإسلامية متماسكة.

و كما ذكر ابن الأثير: فإن وجود الخطا فيما وراء النهر يجعلهم على حدود خوارزم نفسها و خراسان كلها.

و إننى و أنا الذى لم أرحم السلاجقة فى تاريخهم حين لا يستحقون الرحمة، و إننى و أنا الذى أدنت مساوى السلاجقة فيما دونت من قبل لأنها تقتضى الإدانة، إننى هنا أنحنى إجلالا لهذا السلجوقى الكريم، و أبعث إليه من وراء العصور بأسنى التحية، و أكبره أسمى الإكبار ...

و يبدو أن سنجر ظل يخشى فساد خوارزم شاه، و يخشى معاودة اتصاله بالخطا، و رأى أن الأفضل القضاء عليه، فجمع قوة مضى بها لقتاله فتحصن خوارزم شاه فى المدينة و لم يخرج للقتال، و بالرغم من فشل الاستيلاء على المدينة، فإن خوارزم شاه أرسل رسلا إلى سنجر (يبدل المال و الطاعة و الخدمة و يعود إلى ما كان عليه من الانقياد).

فرأى سنجر أن من الحكمة أن يقبل منه ذلك، و سار سنجر إلى مرو و أقام خوارزم شاه بخوارزم. و لا بد لنا من أن نعرف مصير هذا السلطان السلجوقى و إن كان ذلك لا يرتبط بما نحن فيه من الحديث عن الخوارزميين:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٦

كان من إجراءات الخطا أن طردوا الأتراك الغز من منازلهم فيما وراء النهر فقصدوا خراسان و كانوا خلقا كثيرا فأقاموا بنواحي بلخ يرعون فى مراعيها، فأراد أميرها إبعادهم فجمعوا جموعهم و انضم إليهم غيرهم من الأتراك فقاتلوا أمير بلخ فهزموه و انتهى فى هزيمته إلى مرو حيث السلطان سنجر، فراسلهم سنجر مهددا لهم فلم يستمعوا إليه، فهاجمهم بجيشه فهزموا الجيش و وقع سنجر فى أسرهم، و استولى الغز على البلاد، مكثرين فى قتل الناس مسترقين النساء و الأطفال موغلين فى النهب جاعلين من بعض المدن قاعا صاففا.

و يقول ابن الأثير: (و يتعذر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها) فى تفاصيل لا مجال لذكرها هنا.

و يقول أيضا: (و كان السلطان سنجر له اسم السلطنة، و هو معتقل لا يلتفت إليه، حتى إنه أراد كثيرا من الأيام أن يركب، فلم يكن له من يحمل سلاحه، فشدته على وسطه و ركب. و كان إذا قدم إليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر، خوفا من انقطاعه عنه، لتقصيرهم فى واجبه، و لأنهم ليس هذا مما يعرفونه).

ثم استطاع أن يهرب من الأسر و يسير إلى قلعة ترمذ، و أن يصل بعد أحداث إلى قاعدته (مرو) قويا بعد أسر امتد من سادس جماد الأول سنة ٥٤٨ هـ إلى رمضان سنة ٥٥١ هـ توفى.

و تلخص حياته بما يلى:

هو سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان، أبو الحارث. ولد فى سنجار، من ديار الجزيرة سنة ٤٧٩ هـ، و سكن خراسان، و استوطن مدينة مرو، و دخل بغداد مع أخيه السلطان محمد، فعهد الخليفة المستظهر بالله بالسلطنة إلى أخيه و جعل سنجر ولى عهده. فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان و استقام أمره، و أطاعه السلاطين، و خطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، و ظل رفيع المكانة حتى أسره الأتراك الغز، و بعد أن تخلص منهم و بدأ يستجمع أمره حتى ليكاد يعود إلى شأنه جاءه قضاء الله.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٧

### العودة إلى الخوارزميين

فى سنة ٥٥١ هـ توفى خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين، فتولى بعده ولده أرسلان و افتتح ملكه بقتل أعمامه، و سمل أخيه، فمات أخوه المسمول بعد ثلاثة أيام، و قيل: إنه قتل نفسه بعد أن أصابه ما أصابه.

و كان ذلك بعد خلاص السلطان سنجر من أسر الغز، فأرسل إليه أرسلان يذكر طاعته له، و انقياده لسلطته، فكتب له سنجر منشورا

بولاية خوارزم مصحوبا بخلع. فبقى أرسلان ساكنا مطمئنا.

و يرثى ابن الأثير أئسز قائلا: كان حسن السيرة، كافا عن أموال رعيته، منصفا لهم محبوبا إليهم، مؤثرا للإحسان و الخير إليهم، و كانت الرعية معه بين أمن غامر و عدل شامل.

و لا ندرى كيف نوفق بين هذه الصفات التي يغدقها ابن الأثير على أئسز و بين ما ذكره هو نفسه عن مجازره فى مرو، و عن فظاعة النهب فى بلاد بيهق و عظم الأهوال فى خراسان؟! ..

## الخطا و الخوارزميون

قلنا فيما تقدم: إن سنجر بعد هزيمته أمام الخطا، و أخذ خوارزم شاه فى الانتشار، منع من قتال خوارزم شاه، و قلنا: إنه يرى أن الخطا إذا سالموا خوارزم شاه اليوم فسيتقضون عليه فى الغد.

و قد جاء الغد الذى ينقضون فيه على خوارزم.

ففى سنة ٥٦٧ هـ عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم، و كان يحكمها يومذاك أرسلان بن أئسز، فجمع عساكره، و سار لصد هجومهم، فمرض فى الطريق، فتابع الجيش سيره بقيادة أمير اختاره أرسلان، فلما تقابل الجيشان انهزم الخوارزميون، و أسر قائدهم، فاقتاده الخطا معهم إلى ما وراء النهر، دون أن يتابع سيره إلى خوارزم، و عاد أرسلان إلى خوارزم مريضا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٨

و فى سنة ٥٦٨ هـ توفى خوارزم شاه أرسلان و ملك بعده سلطان شاه محمود، و دبرت والدته أمور الملك، و كان ولده الأكبر علاء الدين تكش مقيما فى الجند قد أقطعه إياها أبوه فلما علم بتولى أخيه الأصغر رفض ذلك و راح يستنجد ملك الخطا على أخيه. و نسى علاء الدين أن الخطا هم الأعداء الذين يستنجد عليهم لا بهم.

و قد لى ملك الخطا استنجاهه فسير معه جيشا كثيفا فساروا حتى قاربوا خوارزم، فسار إليهم سلطان شاه، فلما تراءى الجمعان انتصر علاء الدين بمن معه، و فر سلطان شاه إلى دهستان فسار إليه علاء الدين تكش، و اقتحم المدينة فهرب سلطان شاه و قبض على أمه فقتلها تكش و عاد إلى خوارزم يثبت قدمه فيها ..

و ملك الخطا الذى أنجده عاد يطالب بالثمن، فتوالت رسله، فحاول التحكم و تبدى المطالب فنفر من ذلك و أنف. و جاءه أحد أقارب الملك مع جماعة موفدين من الملك مطالبين بالمال، فثارت به الحمية فقتل هو قريب الملك، و أمر أعيان خوارزم أن يقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا، فقتلوا جميعا.

فلما بلغ هذا الأمر إلى سلطان شاه هب بدوره يستنجد ملك الخطا و يستنجد على أخيه علاء الدين تكش زاعما له أن أهل خوارزم يؤيدونه.

فاستجاب له ملك الخطا، و بعث معه جيشا كثير العدد، فوصل به إلى خوارزم و حاصرها، فاستطاع علاء الدين تكش أن يحول عليهم مياه نهر جيحون حتى كاد يفرقهم، فاضطروا لفك الحصار و الرحيل عن خوارزم.

و تروى روايات آخر عن هذه الوقائع، و مهما كان الأمر فالذى يهمننا معرفته، هو أن سلطان شاه قد توفى خلال هذا الصراع، و أن خوارزم شاه تكش لما بلغه خبر وفاة أخيه عاد إلى خوارزم، و كان قد خرج منها لقتاله، ثم قام صراع بينه و بين المؤيد صاحب نيسابور؛ لأنه حاول التعرض لطوس التى هى للمؤيد، بعد أن سيطر على مرو، و سرخس، و نساوبور و غيرها فانتهى الأمر، بأسر المؤيد ثم قتله، و استيلاء خوارزم شاه على نيسابور، و كل ما كان للمؤيد و لولده الذى خلفه ظعان شاه. و بذلك قوى أمر خوارزم شاه علاء الدين. تكش، و عظم شأنه، باستيلائه على

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٤٩

مملكة المؤيد، و مملكة أخيه سلطان شاه و خزائنه. و استدعى ابنه علاء محمد، و كان بخوارزم فولاه نيسابور، و ولي ابنه الأكبر ملك شاه (مرو).

### الصدام الأول: خوارزمية، سلجوقيا، عباسيا

سنة ٥٨٨ هـ سار السلطان السلجوقي طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان فملكهمذان، و غيرها، و انهزم صاحبها قتلغ أينانج بن البهلوان و تحصن بالرى، فأرسل قتلغ إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستجده فأجده، و لكن عاد فندم على هذا الاستنجد، و خاف على نفسه، فمضى متباعدة عن خوارزم شاه، و تحصن فى قلعة له، و وصل خوارزم شاه إلى الرى، و ملكها و ملك قلعة طبرك.

و فى سنة ٥٩٠ هـ أغار السلطان طغرل، على من بالرى من أصحاب خوارزم شاه، و فر قتلغ أينانج بن البهلوان، فيمن فر من طغرل، و أرسل إلى خوارزم شاه، يعتذر، و يسأل إنجاده مرة ثانية.

و كان الخليفة العباسى الناصر لدين الله، قد بدأ بالإعداد للتخلص من السلاجقة، و كانت قد سبقت لجنده وقعة مع طغرل سنة ٥٨٤ هـ، حين أرسل الجنيد بقيادة وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، لمساعدة أحد المتمردين على طغرل، فالتقوا بالقرب من همذان، و انهزم عسكر الخليفة.

أما اليوم فقد وصل رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل، و يطلب منه مهاجمة بلاده، و معه منشور يقطعاه البلاد. فسار خوارزم شاه من نيسابور إلى الرى، فتلقا قتلغ أينانج، و انضم إليه و سارا معا. فالتقوا بطغرل بالقرب من الرى فدارت الدائرة على طغرل و قتل فى المعركة، فأرسل خوارزم شاه رأسه إلى بغداد.

و سار خوارزم شاه إلى همذان و ضم تلك المناطق إلى مملكته، و سلمها إلى قتلغ أينانج، و أقطع كثيرا منها لمماليكه و عاد إلى خوارزم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٠

### صدام المتحالفين

و إذا كانت قد تمت سيطرة الخوارزميين على ما سيطروا عليه و انتهى أمر السلاجقة، و استراح الخليفة العباسى الناصر منهم بمعونته الخوارزميين، فلم يكن لتخفى عليه تطلعات هؤلاء إلى الحلول محل السلاجقة فى بغداد، و العودة بالخلافة إلى الخضوع للمسيطرين لذلك كان حذرا من الخوارزميين كل الحذر.

فعندما أرسل إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل و يطلب منه قصد بلاده و أقطعه البلاد و انتهى الأمر بقتل طغرل بك كما مر. كان الناصر قد أرسل نجده لخوارزم شاه تعيينه فى مقاتلة طغرل، و بعث إليه بالخلع مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، فنزل الوزير على فرسخ من همذان.

و رأى الوزير نفسه ممثل الخليفة و أن خوارزم شاه مهما كان شأنه يظل تابعا من أتباع الخليفة لذلك رفض طلب خوارزم شاه بأن يحضر إليه، و أجابه: ينبغى أن تحضر أنت و تلبس الخلعة فى خيمتى.

و ترددت الرسل بينهما فى ذلك، و استراب كل واحد منهما بالآخر.

لذلك صمم خوارزم شاه على قصد الوزير مؤيد الدين ليعتقله و سار إليه، و لكن الوزير أسرع فى الابتعاد عنه و اللجوء إلى الجبال و الاحتماء بها، فرجع خوارزم شاه إلى همذان.

و هكذا فإن الصدام بين الخوارزميين و الناصر قد وقع منذ اليوم الأول الذى انتصرا به معا على السلاجقة. ثم أخذ الناصر سنة ٥٩١ هـ



يتوسع في سيطرته فأرسل نائب الوزارة مؤيد الدين محمد بن عليّ المعروف بابن القصاب إلى خوزستان فملك مدينته تستر وغيرها من البلاد، و سيطر على القلاع و الحصون. ثم اتجه من تستر إلى ميسان.

و هنا برز من جديد قتلغ أينانج بن البهلوان هذا الذي كان لا يستقر على ولاء؛ بل يتقلب حسب الأهواء، و مرت بنا أحواله من قبل، و نراه هنا مقبلا على الوزير ابن القصاب فأكرمه الوزير، و كان سبب قدومه أنه كان قد انقلب على

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥١

خوارزم شاه و جرت بين جيشيهما معركة عند زنجان انهزم فيها قتلغ أينانج و عسكره، فالتجأ هذا إلى وزير الخليفة فأعطاه الوزير الخيل و الخيام و كل ما يحتاج إليه و اتجها إلى كرمشاه.

ثم تركها إلى همذان، و كان فيها أولاد خوارزم شاه مع عساكرهم، فلما دنا عسكر الخليفة منها جلا عنها الخوارزميون و توجهوا إلى الرى.

و بعد استيلاء الوزير على همذان رحل عنها و خلفه فيها قتلغ أينانج، فاستولى الوزير على كل ما مر به من بلاد منها: خرقان و مزدغان و ساوه و آوه، و مضى إلى الرى، فجلا عنها الخوارزميون إلى (خوار الرى) فسير الوزير خلفهم عسكرا يطاردهم، فتركها إلى دامغان و بسطام و جرجان، فعاد عسكر الخليفة إلى الرى و أقاموا بها.

و عاد قتلغ أينانج إلى طبيعته، فلما رأى رحيل الخوارزميين طمع بالتغلب على الوزير فدخل الرى محاربا، و لكن الوزير سارع و حصره فيها فاضطر قتلغ أينانج إلى مفارقتها فدخلها فكانت عرضة للنهب.

و مضى قتلغ أينانج و من معه من الأمراء إلى مدينة آوه فحال بينهم و بينها عامل الوزير فتركها و الوزير يطاردهم نحو همذان، ثم التقوا و اقتتلوا قتالا شديدا فانهم قتلغ أينانج و نجا بنفسه، و تقدم الوزير إلى همذان و نزل بظاها فأقام نحو ثلاثة أشهر. فوصله رسول خوارزم شاه منكرأ أخذه البلاد و يطلب أعادتها، فأعرض الوزير عن ذلك، فسار خوارزم شاه مجدا إلى همذان.

و كان الوزير قد توفى، فالتقى خوارزم شاه بعسكر الخليفة فانهم عسكر الخليفة و ملك خوارزم شاه همذان، فكان أول ما فعله أن نبش قبر الوزير و قطع رأسه و أرسله إلى خوارزم و أظهر أنه قتله في المعركة. ثم عاد إلى خراسان.

و أرسل الخليفة الناصر جيشا إلى أصفهان، و كان فيها عسكر لخوارزم شاه مع ولده، و كان أهل أصفهان يكرهونهم، فنزل عسكر الخليفة بظاهر البلد، فترك الخوارزميون البلد عائدين إلى خراسان، فدخله عسكر الخليفة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٢

## عود إلى الخطا

سنة ٥٩٤ هـ جاهر خوارزم شاه تكش بالحلول محل السلاجقة في بغداد بأن يكون سلطانا يخطب باسمه على منابرها، و ذلك بعد أن سيطر على الرى و همذان و أصفهان و ما بينها من بلاد ثم عاد إلى خوارزم، فطلب الخليفة الناصر إلى غياث الدين ملك الغور و غزنه (أفغانستان اليوم) أن يهاجم خوارزم شاه في بلاده لإشغاله عن التوجه إلى بغداد، فبادر غياث الدين إلى مراسلة خوارزم شاه مؤنبا متوعدا مهددا بغزوه في عقر داره و الاستيلاء على بلاده.

فالتجأ خوارزم شاه إلى الخطا منذرا لهم بأن غياث الدين إذا انتصر عليه فسيستولى بعد ذلك على بلخ و يتجه إليهم في بلادهم فلا يستطيعون مدافعتة و رده عن بلاد ما وراء النهر.

فاقتنع ملك الخطا بهذا القول و أرسل جيشا كثيفا عبر نهر جيحون مفاجئا غياث الدين الذى كان مريضا بالقرس، و كان أخوه شهاب الدين قد سار بالعساكر الغورية إلى الهند فلم يكن لغياث الدين المريض من القوة العسكرية ما يعتد به، و واصل الخطا زحفهم في بلاد الغور فاستولوا على مناطق فيها و قتلوا و أسروا و نهبوا و سبوا كثيرا لا يحصى.

فالتجأ الناس إلى غياث الدين مستنجدين فلم يكن لديه من الجند ما يمكن أن يقاتل به، و اشتد الحال على المسلمين، فتحرك أحد الأمراء الغوريين الأمير حروش و كاتب غيره من الأمراء فاجتمعوا جميعا و اتجهوا إلى الخطا فبيتوهم ليلا مفاجئين لهم و أكثروا القتل فيهم و لم يكن لهم سبيل إلى الفرار، فالغوريون وراءهم و نهر جيحون أمامهم فعظم القتل فيهم. و لكنهم عادوا في الصباح فتجمعوا أو ثبتوا و ثبت المسلمون فدارت الدائرة على الخطا فمن ثبت منهم قتل و من ألقى نفسه في الماء غرق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٣

كانت الصدمة مروعة لملك الخطا و اعتبر خوارزم شاه مسئولاً عما جرى لجنده فأرسل إليه يطالبه عن كل قتيل بعشرة آلاف دينار، و كان عدد القتلى اثني عشر ألف قتيل.

فعاد خوارزم شاه إلى غياث الدين يستعطفه، فرد عليه غياث الدين بلزوم طاعة الخليفة. و من جهة ثانية فقد رد على ملك الخطا بأنك في الحقيقة لم ترسل جيشك مناصرة لى و إنما أرسلته للفتح و دخول بلخ، و لست أنا الذى أمرت الجيش بعبور النهر لأكون مسئولاً عن هزيمته. و أنا الآن فى صلح و حسن حال مع الغوريين و طاعة لهم.

فأغضب هذا الجواب ملك الخطا و صمم على قتال خوارزم شاه و أرسل جيشا للاستيلاء على خوارزم فحصرها الجيش فكانت تدور مناوشات بينه و بين من يخرجهم خوارزم شاه لقتاله، و تطوع كثير من المسلمين لنصرة خوارزم شاه فاستطاع رد جيش الخطا عن خوارزم، و لم يكتف بذلك؛ بل سار وراءهم إلى بخارى فحصرها فقاتله أهلها المسلمون مع الخطا و امتنعوا عليه، و لكنه تغلب على بخارى فلم يسى معاملة أهلها و تجاوز عما فعلوه فى قتاله.

و فى سنة ٥٩٦ هـ توفى خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان فى بلده (شهرستانه) بين نيسابور و خوارزم و كان فى طريقه من خوارزم إلى خراسان، فتولى بعده ابنه قطب الدين محمد الذى لم يلبث أن ترك لقبه (قطب الدين) و اتخذ لقب أبيه (علاء الدين).

و بعد صراعات طويلة مع الغوريين و الخطا و غيرهم استقر ملكه و اتسع. و كان الخطا قد تمكنوا من تركستان و ما وراء النهر و طالت أيامهم بها و ثقلت و طأتهم على أهلها ما حمل سلطان بخارى و سمرقند سنة ٦٠٤ هـ على مراسلة خوارزم شاه فى وجوب التحالف للتخلص من الخطا و شدتهم على المسلمين، و وعده بأن يذكر اسمه فى الخطبة و على النقود، و أن يحمل إليه ما يحمل إليهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٤

فلم يطمئن خوارزم شاه إلى الوفاء بوعود السلطان، فسير إليه السلطان وفدا من البخاريين و السمرقنديين يطمئنه، فعزم على المسير إلى الخطا بعد أن دبر أمور بلاده و أوكلها إلى من يحفظها. و مضى بجيشه عابرا نهر جيحون و التقى بسلطان سمرقند فثبنا حلفهما.

فحشد له الخطا جيشا كبيرا سنة ٦٠٦ هـ فالتقى الجيشان فى حروب طاحنة انتهت بهزيمة الخطا هزيمة منكرة قتل فيها منهم و أسر العدد الكثير. و مضى خوارزم شاه متوغلا فى بلاد ما وراء النهر يفتحها مدينة مدينة و منطقة منطقة، و عين فيها نوابا له و عاد إلى خوارزم و معه سلطان سمرقند، فزوجه خوارزم شاه ابنته ورده إلى سمرقند، و معه ممثل له و هو ما اصطلاح على تسميته (شحنة).

و ظل الأمر هادئا قارا حوالى سنة، و يبدو جليا أن الخوارزميين خلال هذه السنة قد أساءوا السيرة فى سمرقند و تصرفوا تصرف السادة الحاكمين، و عاملوا السمرقنديين معاملة أغضبت صاحب سمرقند، ما عبر عنه ابن الأثير بقوله: (رأى من سوء سيرة الخوارزميين و قبح معاملتهم ما ندم معه على مفارقة الخطا) ا. ه. و لا شك أنه قد ناله هو نفسه الشىء الكثير من سوء السيرة و قبح المعاملة، و يترأى لنا أن (الشحنة) الذى أرسله خوارزم شاه إلى سمرقند ممثلا سلطته فيها قد تصرف تصرف السيد المطلق متجاوزا صاحب سمرقند الذى يعتبر نفسه صاحب الكلمة العليا فيها مما أحق السيد السمرقندى رب السلطة الشرعية الحاكمة.

لذلك رأينا ابن الأثير يقول: (إنه على مفارقة الخطا...).

و ندمه هذا لم يبق مجرد ندم نفسى مكتوم، بل تحول إلى فعل عنيف بلغ الغاية فى نقمته و شراسته و فظاعته! فأول ما فعله أنه أرسل

إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه و يعود إلى طاعته فهو بهذا يتنازل عن استقلال بلاده و يسلمها إلى الأجنبي! .. ونحن ندرك أنه من أجل أن يصل الأمر بصاحب سمرقند إلى هذا الحد، يجب أن تكون أفعال الخوارزميين في سمرقند قد وصلت إلى شرحها!.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٥

و مع ذلك فإننا لا نستطيع أن نستطيع أن نسليح تسليم سمرقند إلى الخطا.

لقد كان الداعي لصاحب سمرقند إلى طلب تدخل خوارزم شاه هو النقمه على ما أصاب المسلمين فيما وراء النهر و غيره من طغيان الخطا، و الغيرة على المسلمين هي التي دفعت صاحب سمرقند إلى الاستنجد بخوارزم شاه على الخطا.

و ابن الأثير يصف الوضع بهذه الجملة: (... فاتفق أن سلطان سمرقند و بخارى، و يلقب بخان خانان، يعنى سلطان السلاطين، و هو من أولاد الخانيه، عريق النسب فى الإسلام و الملك، أنف و ضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: إن الله عز و جل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك، و كثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين و بلادهم من أيدي الكفار، و تخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم فى الأموال و الأبخار، و نحن نتفق معك على محاربة الخطا و نحمل إليك ما نحمله إليهم. و نذكر اسمك فى الخطبة و على السكه).

و نحن لنا أن نستنتج من هذا القول:

١- أن صاحب سمرقند مسلم عريق فى الإسلام، سليل مسلمين عريقين كذلك فى الإسلام.

٢- بالرغم من قول ابن الأثير من أنه أنف و ضجر من تحكم الكفار على المسلمين، فإننا نستنتج مما جاء فى آخر كلام ابن الأثير أن هذا الضجر كان من تحكم هؤلاء به هو نفسه، إذ كان خاضعا لسيطرته. و هذا لا يمنع من أنفه و ضجره من تحكم الخطا بعموم المسلمين.

٣- كان يحسب أن إرضاء خوارزم يكفى فيه أن يحمل إليه المال و أن يخطب باسمه فى بلاده و يذكره على السكه، و بذلك يتخلص من نفوذ الخطا المتحكم به و بأمواله و يعود مستقلا كامل الاستقلال. و لكن آماله خابت فبعد أن كانت سيطرة الخطا على بلاده سيطرة غير مباشرة عادت سيطرة الخوارزميين سيطرة مباشرة.

و لكى يستدعى هذا (الخان خانان) المسلم العريق فى الإسلام سليل المسلمين العريقين فى الإسلام من أجل أن يستدعى الخطا الكفار لتسلم بلاده الإسلامية، يجب أن

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٦

تكون سيرة الخوارزميين فى بلاده قد بلغت الغاية فى الظلم و التعسف و القهر و الإذلال.

و لم يكتف صاحب سمرقند باستدعاء الخطا لتسليمهم البلاد، بل عمد إلى الانتقام من الخوارزميين الموجودين فى سمرقند انتقاما بلغ أقصى الوحشية.

و كان قد سكن سمرقند الكثيرون بعد التحالف الخوارزمى السمرقندى، كما كان يسكنها غيرهم من قبل، فأمر صاحب سمرقند بقتل الجميع قتلا- عاما، أما من كانوا منهم منتسبين شخصيا إلى خوارزم شاه فكان يقطع الواحد منهم قطعتين و يعلقهم فى الأسواق (كما يعلق القصاب اللحم).

و بلغ حقه حتى إلى زوجته الخوارزميه ابنة خوارزم شاه، فمضى إليها ليقتلها، فأغلقت الأبواب، و وقفت بجوارها تمنعه، و أرسلت إليه تقول له: أنا امرأة و قتل مثلى قبيح، و لم يكن منى إليك ما أستوجب به هذا منك، و لعل تركى أحمد عاقبه، فاتق الله فى ..

فتركها و وكل بها من يمنعها من التحرك بحرية.

و وصلت أخبار ما جرى إلى خوارزم شاه فأقامته و لم تقعه و كان رد فعله يكاد يكون أفظع من فعل صاحب سمرقند، فإذا كان هذا

قد قتل الخوارزميين وحدهم، فإن خوارزم شاه صمم على قتل كل من في خوارزم من الغرباء! .. ولكن أمه حالت بينه وبين ذلك، و قالت له: إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض، و لم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل. فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى.

و انصرف إلى إعداد جيش لإرساله إلى ما وراء النهر، فكلما أعد جماعة سيرها فعبرت جيحون، و تتابع التسيير حتى عبرت جموع غفيرة، ثم عبر هو وراءهم زاحفا بهم إلى سمرقند، فلما وصلها بعث إلى صاحبها قائلاً: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، و استحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم و لا كافر. و قد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد و امض حيث شئت .. و لكن صاحب سمرقند رفض ذلك و بعث إليه: لا أخرج و افعل ما بدا لك.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٧

و يبدو لى أن رفضه هذا مع علمه بكثافة القوى التي يقودها خوارزم شاه كان اعتمادا على قوى الخطا التي كان يأمل أن تأتي لإنجاده بعد أن استنهض ملكها لهذه المهمة، و أنه كان يحسب أنه يستطيع بقواه الذاتية مصاوله خوارزم شاه إلى أن تصل قوى الخطا. و لكن خوارزم شاه عاجل سمرقند و أمر بالزحف إليها. و هنا بدرت من بعض أصحابه بادرة إنسانية كريمة استجاب لها خوارزم شاه. فقد كان التجار الغرباء يسكنون دربا خاصا بهم، فطلب إليه صاحبه أن يأمر بعض الأمراء إذا فتحو البلد أن يقصدوا الدرب الذي يقيم فيه هؤلاء التجار فيمنع من نهبه و الإساءة إليهم، فإنهم غرباء و كلهم كارهون لهذا الفعل، فأمر بعض الأمراء بذلك. و نادى بالهجوم العام فكان أن نصبت السلالم على السور و صعد عليها المقاتلون و بادروا سمرقند من كل ناحية، فلم يكن أسرع من أن اقتحموها، فأبيحت ثلاثة أيام نهبا و قتلا و يقول ابن الأثير: إنه يقال إنهم قتلوا مئتي ألف إنسان. و سلم ذلك الدرب بأهله و أموالهم.

و هنا نتساءل عن شيئين اثنين: عن صاحب سمرقند أين هو في هذا المعمعان الدموي، ثم عن الخطا الذين كان اعتماد صاحب سمرقند عليهم؟ .. أما صاحب سمرقند الذي هو وحده المسئول عن كل ما جرى، منذ استدعائه خوارزم شاه، إلى رفضه طلب خوارزم شاه الرحيل عن البلاد.

أما صاحب سمرقند و صاحب هذه المسئولية الكبرى فإننا نفتش عليه في قيادة معركة الدفاع عن عاصمته سمرقند فلا نجد، و نفتش عليه في كل ما جرى بعد رفضه الرحيل، و رفضه أن يكون ثمن رحيله سلامة الناس و البلاد، و رده على خوارزم شاه: لا أخرج و افعل ما بدا لك! ..

و من يرد هذا الرد و يقول هذا القول كنا سنجد حيث نفتش عليه على رأس قيادة الجموع المدافعة عن سمرقند؛ لأن خوارزم شاه قد فعل ما بدا له و هو الهجوم على سمرقند، في مقابل رفضه هو الخروج و ترك البلاد!

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٨

لم يكن صاحب هذا الرد الاستفزازي العنيف لا على رأس القيادة، و لا حتى على ذيلها! ..

إن اسمه يختفى نهائيا ... لم يكن في القيادة، و لم يكن في القتلى و لا الجرحى و لا الأسرى! ..

يروى ابن الأثير قائلاً في متابعة الأحداث: ثم أمر (خوارزم شاه) بالكف عن النهب و القتل، ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبه و خوفا فأرسل بطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي، فزحفوا عليها فملكوها و أسروا صاحبها و أحضروه عند خوارزم شاه، فقبل الأرض و طلب العفو، فلم يعف عنه و أمر بقتله، فقتل صبورا، و قتل معه جماعة من أقاربه، و لم يترك أحدا ممن ينسب إلى الخانية.

و رتب فيها و في سائر البلاد نوابه، و لم يبق لأحد معه في البلاد حكم.

من يقصد ابن الأثير بصاحب القلعة؟ إنه لم يشر إليه من قبل أبدا، مع أن ذكره هنا بالشكل الذي ذكره يوهم بأنه معروف من القارئ،

و ما من أحد معروف من القارئ في هذه الأحداث إلا صاحب سمرقند، فهل يقصد ابن الأثير بصاحب القلعة صاحب سمرقند، و سماه هنا صاحب القلعة لالتجائه إلى القلعة بعد سقوط المدينة؟.

قد يكون هذا مستبعدا ... على أنه قد يقربه قول ابن الأثير في آخر الكلام:

و قتل معه جماعة من أقاربه، و لم يترك أحدا ينسب إلى الخانية.

فالمفروض أن من ينسبون إلى الخانية هم أقرباء (خان خانان) صاحب سمرقند ..

إن كلام ابن الأثير المتشابك الموجز تركنا نجهل حقيقة مصير هذه الحرب الفظيعة بما جرى فيها. هذا عن صاحب سمرقند فماذا عن الخطا الذين استنجد بهم صاحب سمرقند و كان اعتماده عليهم في رده الحاسم على عرض خوارزم شاه؟ لا يذكر عنهم ابن الأثير خلال حديثه عن المعركة شيئا، و لكنه يعود فيقول و هو

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٥٩

يتحدث عما بعد المعركة (لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم فإنه لم يحضر الحرب فاجتمعوا عنده).

في حين أنه لم يذكر شيئا عما فعله خوارزم شاه بالخطا، و لم يشر أدنى إشارة إلى جماعة الخطا في الدفاع عن سمرقند، و ما ذكره عن المذابح فيها، كانت عبارته صريحة، بأن هذه المذابح نالت السمرقنديين و حدهم، فهو يقول عن خوارزم شاه: (و أذن لعسكره بالنهب و قتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنهب البلد و قتل أهله ثلاثة أيام فيقال إنهم قتلوا منهم مئتي ألف إنسان). الذي يلوح لنا أن ملك الخطا اكتفى بأن أرسل إلى سمرقند نجدة ساهمت بالدفاع القصير الأمد عن سمرقند فأصيب بما أصيب به أهل سمرقند.

## التتر و المغول

مؤرخو العرب القدامى يعتبرون التتر و المغول اسمين لمسمى واحد، فهم يعبرون مثلا عن جنكيز خان و قومه بالمغول تارة و بالتتر تارة أخرى.

و ابن الأثير يقول عن أحداث خوارزم شاه و الخطا و التتر و المغول: إن التتر بقيادة ملكهم كشلى كانوا أعداء الخطا. ثم لا يلبث أن يقول ما نصه: (ثم اتفق خروج التتر الآخر الذين خربوا الدنيا و ملكهم جنكيز خان النهرجى على كشلى خان التترى الأول).

فهم كلهم عنده تتر، و للتمييز بينهم يصنفهم: بالأول و الآخر.

و فيما نرى: أن التتر في الأصل فرع من المغول خرجوا منهم، ثم انفصلوا عنهم مع الزمن انفصالا تاما جعلهم شعبا مستقلا لا تربطه بالمغول إلا رابطة الأصل الواحد البعيد، و إن ظل يجمعه به تشابه الملامح و تقارب بعض الخصائص. و بذلك يكون كشلى ملك التتر. و لا حاجة لابن الأثير لأن يعبر عنه بقوله: (التتر الأول)، و يعبر عن قوم جنكيز خان: (بالتتر الآخر). فكما أن كشلى ملك التتر، فإن جنكيز خان ملك المغول.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٠

## التتر يتحركون

التتر الذين كان قد نرح فريق كبير منهم إلى تركستان و استقروا فيها كان بينهم و بين الخطا عداة متأصل و حروب متتابعة، فانتهزوا فرصة التقاتل بين خوارزم شاه و الخطا، و الهزيمة التي منى بها الخطا في سمرقند، فمشى ملكهم كشلى للانقضاض على الخطا في حالة ضعف.

و عرف ملك الخطا عجزه عن صد التتر المتدققين عليه كالسيول، فأغض عما بينه و بين خوارزم شاه من الشحاء، و عما أنزله خوارزم شاه بجيشه، فأرسل إليه يعرض التحالف معه على التتر الذين يشكلون خطرا عليهما معا، قائلا: (أما ما كان منك من أخذ بلادنا و قتل رجالنا فغفونا عنه. و قد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به، و إنهم إن انتصروا علينا و ملكونا، فلا دافع لهم عنك. و المصلحة أن تسير إلينا بعساكرك و تنصرنا على قتالهم، و نحن نحلف لك إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من بلاد و نقنع بما فى أيدينا).

و إذا كان ملك الخطا قد رأى نفسه بحاجة إلى خوارزم شاه فى الخطر المحقق به مما أدى به إلى أن يطلب نصرته فى حال هى فى حقيقتها توسل، فإن كشلى ملك التتر لم يكن بغافل عما يمكن أن يتأثر به موقف أحد الفريقين فى حالة انضمام خوارزم شاه إلى الفريق الآخر، لذلك سارع هو الآخر إلى خطب و د خوارزم شاه طالبا إليه التحالف معه على الخطا قائلا: (إن هؤلاء الخطا أعداؤك و أعداء آبائك و أعداؤنا، فساعدنا عليهم، و نحلف لك إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك، و نقنع بالمواضع التى ينزلونها).

هكذا وجد خوارزم شاه نفسه موضع تجاذب عدوين شرسين، يسعى كل منهما إلى كسب رضاه و استعطافه، فرأى أن يرضيهما و يمنيهما معا، فأجاب كلا منهما: إننى معك و معاضدك على خصمك! ..

و مضى بجيشه فتزل قريبا من مكان تواجهما، بحيث يظن كل فريق أنه جاء لمناصرته، و وقعت المعركة فكانت هزيمة الخطا هزيمة كاسحة، فأسرع خوارزم شاه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦١

عند ذلك إليهم و جعل يقتل فيهم و يأسر و يتهب، قاطعا عليهم بجيشه الكبير طريق الهروب فأوقع فيهم مذبحه مروعة بحيث لم يكذب ينجو منهم أحد إلا عدد قليل مضوا مع ملكهم إلى بعض الجبال المنيعة، كما انضم إلى جيش خوارزم شاه منهم جماعة ... و راح خوارزم شاه يمنن على كشلى بما فعل، قائلا: إنه قدم لمساعدته و لولاه لما انتصر على الخطا، فلم ينكر كشلى عليه ذلك و اعترف به. و لكن خوارزم شاه عاد بعد حين يطلب ثمن ما فعل، و كان ثمنا باهظا، إذ طلب من كشلى أن يتقاسم بلاد الخطا. فرد كشلى عليه ردا عنيفا قائلا: ليس لك عندى إلا السيف، و أنت و قومك لستم أمنع من الخطا، فإن سكت، و إلا كان مصيركم مصيرهم.

و اتبع قوله بالعمل و تقدم بجيشه حتى كان قريبا منهم، فراغ منه خوارزم شاه لأنه كان يعلم أنه لا يستطيع لقاءه بجيشه و وجهه، فراح يحاربه حرب العصابات، و كذلك أرغم أهل الشاش و فرغانة و غيرها من مثيلاتها و ما جاورها أن ينزحوا عنها و يلتحقوا بالبلاد الإسلامية الأخرى، و كانت بلادا زاهرة زاهية فراح يخربها لئلا يستولى عليها التتر، حتى عمها الخراب.

و شاءت الأقدار أن تكون فى صف خوارزم شاه، فإذا بالمغول يتجهون إلى غزو بلاد التتر، فأصبح النصر على الخوارزميين لا يعنى لكشلى شيئا، فاتجه بقوته لمجابهة المغول، و عاد خوارزم شاه إلى الاستقرار.

ثم يمضى حوالى سبع سنوات لا- يبرز لنا فيها شىء من أخبار خوارزم شاه حتى تكون سنة ٦١١ هـ فإذا بأخباره تتابع ممتدا سلطانه امتدادا واسعا، مسيرا جيشه لفتح كرمان ثم مكران واصل سلطانه إلى السند من حدود كابل.

و خطب له فى هرمز و قلهاة و بعض عمان.

و فى سنة ٦١٢ هـ يكون قد استولى على خراسان كلها و ملك باميان. و فى سنة ٦١٤ هـ ملك بلاد الجبل، و يصف ابن الأثير جيشه فى تلك الفترة قائلا: (فسار مجدا فى عساكر تطبق الأرض)، و بعد ما ملكه: ساوه، و قزوین، و زنجان، و أبهر،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٢

و همدان، و أصفهان، و قم، و قاشان. و يقول: و استوعب ملك جميع البلاد، و استقرت القاعدة بينه و بين أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان و أران بأن يخطب له أوزبك فى بلاده و يدخل فى طاعته.

هذه السطوة التى بلغها خوارزم شاه، و هذا الملك العريض الذى صار إليه، أطمعه بأن يسيطر على الخلافة فى بغداد و أن يحل فيها

محل السلاجقة و من قبلهم البويهيين، و أن يخطب له فيها و يلقب بالسلطان. و لكن خلافة بغداد كانت معرضة عنه محاذرة منه لا تريد لأحد أن يعود فيحد من سلطتها و يجعلها رهينة قصرها.

و كما يقول ابن الأثير: (كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا، و كان سبيله إذا ورد إلى بغداد أن يقدم غيره عليه، و لعل في عسكره مئة مثل الذي يقدم سبيله عليه، فكان إذا سمع ذلك يغضبه).

و إذا كان قد استطاع حتى الآن أن يكبت غضبه في نفسه و أن لا يجاهد الخلافة بالعداء، فقد رأى الآن أن يضع لصبره حدا و أن يفرض نفسه على الخليفة الناصر بحد السيف.

فأعد جيشا ليسير به إلى بغداد فاتحا، و قدم طليعة لهذا الجيش مؤلفة من خمسة عشر ألف فارس يقودها أحد كبار أمرائه فمضى بها الأمير متجها صوب العراق حتى بلغ حلوان على حدود العراق، ثم أتبعها بقطعة أخرى من الجيش واصلته سيرها حتى همذان، فلما تجاوزتها فاجأتها العواصف الثلجية التي يقل مثلها، فهلك الكثير من الجنود و الكثير من الدواب، و قضى على من سلم بنو برجم الأتراك و بنو هكار الأكراد و لم يصل إلى خوارزم منهم إلا أقل من القليل.

كانت الصدمة شديدة على خوارزم شاه فهدت عزيمته، و صمم على الرجوع إلى خراسان خوفا من التتر، فقد كان يحسب أنه يستطيع إنهاء أمر السيطرة على بغداد بسرعة، ثم يتفرغ للتتر فلما حل بجيشه ما حل يئس و قرر إلغاء مشروع احتلال بغداد، و عاد إلى خراسان، و من مرو توجه إلى ما وراء النهر، فلما وصل إلى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٣

نيسابور في يوم جمعة جلس عند المنبر و أمر الخطيب بأن لا يخطب للخليفة الناصر. و كذلك فعل بلخ و بخارى و سرخس.

و من سنة ٦١٤ هـ حتى سنة ٦١٦ هـ تختفى أخبار خوارزم شاه حتى كانت هذه السنة، و هي السنة التي زحف بها المغول بقيادة جنكيز خان على العالم الإسلامي قاصدين أول ما قصدوا خوارزم شاه الذي كان من أمره معهم ما ليس هنا مكان تفصيله، و قد كنا فصلناه في كتابنا: (المغول بين الوثنية و النصرانية و الإسلام) و طوى أمر خوارزم شاه ..

## دولة بني عمار في طرابلس

بنو عمار أسرة تعود أصولها إلى قبيلة كتامة المغربية الأفريقية. و عند قيام الدولة الفاطمية كان شيوخ هذه القبيلة ممن لهم الصدارة في مؤسساتها الإدارية و العسكرية، نذكر منهم الحسن بن عمار الذي كان من أبرز رجال الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

ثم كان بنو عمار قضاء طرابلس، ثم أصبحوا أمراءها فمنهم أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، المتوفى سنة ٤٦٤ هـ، ثم جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار المتوفى سنة ٤٩٢ هـ، ثم فخر الملك عمار بن محمد بن عمار المتوفى حوالي سنة ٥١٤ هـ، و أبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج محمد بن عمار المتوفى سنة ٥٠١ هـ.

كان استقلال بني عمار بطرابلس سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م). و كانت إمارتهم تمتد حتى تخوم بيروت من جهة و حتى أرباض إنطاكية من جهة ثانية. و تمتد من نواحي جبله في سوريا إلى قلعة صافيتا و حصن الأكراد و البقية. و في لبنان حتى الهرمل و الضنية و جبة بشرى و بلاد العاقورة شرقي بلاد جبيل.

و كانت جونية من أعمال طرابلس في عصر الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، و الذي زار طرابلس سنة ٣٦٢ هـ.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٤

## تأسيس الدولة و ازدهارها

وقد نمت إمارتهم نموا عظيما حتى أصبحت طرابلس، في القرن الحادي عشر، أعظم مدينة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانت أساطيلها تنتقل في أنحاء هذا البحر، فهي المنفذ البحري الرئيسي لبلاد الشام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، و تنقل منتجات الشام و المشرق إلى أوروبا، و إليه تفد من الخارج لتحمل منه إلى سائر بلاد الشام. و كان بنو عمار، و هم مثقلون برد الهجمات الصليبية عليهم من البر و البحر يسرون أسطولهم التجارى إلى ثغور البحر المتوسط. و ظلت طرابلس، و معها دمشق، تمونان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك و كان التاجر الأوروبى القادم من البندقية أو جنوى يعود إلى بلاده و هو يحمل سلال السكر و أكياسه من طرابلس. و جمع بنو عمار زراعة قصب السكر الذى كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر (أبو على) و فى بساتين طرابلس.

و أقاموا المصانع داخل المدينة لعصره و تجفيفه و تصنيعه، بشكل رقائق أو ناعم أو بشكل حلوى، و كان من حسن سياسة بنى عمار و صلاح حكمهم أن أثرت المدينة و كانت على أحسن حال اقتصادى حتى خلال الحصار الصليبي لها برا و بحرا، إذ ظلت صامدة تقا تلهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية و حسن إدارة اقتصادها.

و عندما أوفد القائد الصليبي ريموند خلال الحصار، وفدا لمفاوضة فخر الملك، و مر الوفد بأسواق طرابلس أدهشه ما رأى من تنوع البضائع و رواج التجارة و عظيم الثروة و الرخاء الذى تنعم به المدينة. و قد دفع فخر الملك أثناء الحصار الصليبي إلى جميع المدافعين عن المدينة من الأجناد برا و بحرا رواتب ستة أشهر مقدما، كما كان أثرياء المدينة يشاركون بأموالهم فى مقاومة الحصار الاقتصادى الذى فرضه الصليبيون على المدينة.

و كان فخر الملك عمار بن عمار يلقب بملك الساحل.

و إذا كنا نعلم أن الحسن بن عمار هو الذى أرسل، فى عهد العزيز بالله، أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى إلى دمشق، و أن أبا تميم هذا أرسل أخاه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٥

على بن جعفر بن فلاح واليا على طرابلس سنة ٣٨٦ هـ، إذا كنا نعلم ذلك، فإننا لا نعلم شيئا عن عوامل وصول بنى عمار إلى طرابلس: قضاء ثم حكاما، فليس فى المصادر التاريخية التى فى أيدينا ما يدل على بدء قيامهم فيها. فبعد وفاة جد الأسرة الحسن بن عمار سنة ٣٨٦ هـ، لا نرى أمانا شيئا من أخبارها، و يمتد ذلك حوالى ثلاثة أرباع القرن حتى يبرز لنا اسم أبى الكتائب عمار صاحب أبى الفتح الكراجكى، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ و الذى ألف له الكراجكى كتاب (عدة البصير فى حج يوم الغدير).

أما أول من استقل بطرابلس من بنى عمار فهو أبو طالب الحسن بن عمار المشهور بأمين الدولة، و قد ظل يعد نفسه تابعا للدولة الفاطمية حتى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م)، حيث استقبل بطرابلس فقامت بذلك إمارة بنى عمار.

و مات أمين الدولة سنة ٤٦٤ هـ. (١٠٧٢ م). فتولى بعده ابن أخيه على بن محمد بن عمار المعروف بجلال الدولة الذى استمر حكمه حتى سنة ٤٩٢ هـ. و تولى بعده أخوه عمار بن محمد بن عمار ذو السعدين المعروف بفخر الملك و بقى حتى سنة ٥٠١ هـ، حيث ذهب إلى بغداد مستنجدا بالسلاجقة على الصليبيين. و فى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م). احتل الصليبيون طرابلس بعد نضال طويل.

### منقبة مؤسس الإمارة، أمين الدولة الحسن بن عمار

كان أمين الدولة كبير العقل سديد الرأى، عالما، فقيها، كاتباً مجيدا، ألف كثيرا من الكتب النفيسة. أما منقبته الكبرى فهي تأسيسه (دار العلم) التى جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب. و كان يبعث، فى التفتيش عن الكتب، إلى جميع الأقطار و يبذل فى شرائها باهظ الأثمان، و يجلب لها الكتب النادرة.

و استمر الأمر بعده فى عهد خلفائه، هذا فضلا عن عنايته بالعلم و طلابه فيها و تشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدراسة.



و إلى جانب دار العلم قامت (دار الحكمة) التي قدم إليها العدد الكثير من طلاب العلم، حتى لقد أصبحت طرابلس كعبة علم و مركزا من أعظم المراكز العلمية  
تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٦

في العصر الوسيط يفد إليها طلاب العلوم و الفنون من فقه و حديث و لغه و أدب و فلسفه و هندسه و طب.  
و عدا طلاب العلم فقد كان يفد إليها العلماء لمراجعة المؤلفات لأشهر المؤلفين في العلوم و المعارف. كما كانت تعقد حلقات علمية لكبار العلماء ينضم إليها العلماء الوافدون إلى طرابلس للاستزادة من العلم. و قد جدد (دار العلم) التي أنشأها أمين الدولة ابن أخيه و خليفته جلال الدولة سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٢ م)، إذ كانت الظروف مواتية لجلال الدولة أكثر مما كانت مواتية لعمه و سلفه أمين الدولة. ففي عهد الأول كانت الإمارة في دور التأسيس، كما أن عمر حكمه كان قصيرا. أما جلال الدولة فقد استمر في الحكم زهاء ثمانية و عشرين عاما اتسعت فيها أطراف الإمارة و عظم شأنها و نشطت تجارتها.

### دار العلم في طرابلس

و قد عنى جلال الدولة بدار العلم عناية فائقة، و جعل لطلاب العلم فيها رواتب، و فرق على أهلها ذهبا، و جعل لها نظارا يتولون القيام بذلك.

و كان شعراء الشام يفدون لمدح أمراء بني عمار و نيل جوائزهم فيلقون الترحيب و التكريم. و كثرت حلقات التدريس و ازدحمت المدينة بأشهر الأعلام، من أدباء و فقهاء و شعراء و لغويين، من الذين يفدون إليها من كل مكان، و قصدها الناس على اختلاف أجناسهم و أديانهم و مذاهبهم كما كان يفد إليها التجار و الرحالة و طلبة العلم و العلماء من كل البلاد.  
كما ازدهرت فيها ترجمة العلوم و الآداب عن اللاتينية و الفارسية و غيرها إلى اللغة العربية، و منها إلى اللغات الأخرى، و لدينا شهادة بذلك من المستشرق (دي لاسي أوليري)، في كتابه: (علوم اليونان و سبل انتقالها إلى العرب)، و ساوت في ذلك كبريات الحواضر العربية، فكثر فيها المترجمون و النساخون و الكتاب و الخطاطون.

و يقول (ستيفن نسيمان) في كتاب (تاريخ الحروب الصليبية) عن المكتبة:  
إنها أصبحت أروع مكتبة في العالم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٧

و عندما سقطت طليطلة، في الأندلس، في أيدي القشتاليين، سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م). يبدو أنه هاجر فريق من علمائها إلى طرابلس، و كان منهم: أحمد بن محمد أبو عبد الله الطليطلي، فاحتضنه بنو عمار و جعلوه متوليا لدار العلم. إذ كانوا يختارون للنظر في أمورها كبار رجال العلم، من أمثال: الحسين بن بشر بن علي بن بشر و أسعد بن أبي روح ..... و غيرها من أمثالهما.

و كان في المكتبة مئة و ثمانون ناسخا عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجود منها نسخ في المكتبة و إضافتها إلى الكتب الموجودة فيها. و لم يقتصر الأمر على الكتب العربية، بل ضمت المكتبة الكثير من كتب اليونان و الرومان و الفرس، و بين الكتب العربية عدد كبير منها بخطوط مؤلفيها. و مكتبة كهذه تحتاج إلى الإنفاق الكثير عليها لما تضمنه من عاملين فيها و مشرفين عليها و نساخين و خطاطين و مترجمين و مجلدين و وراقين و باعة يحملون إليها نوادر الكتب مهما غلا ثمنها. أما عدد الكتب التي احتوتها مكتبة بنو عمار فقد تعددت الأقوال في شأنه:

فابن أبي طي يقول: إن العدد كان ثلاثة ملايين كتاب، و يؤيد ذلك ابن الفرات. و على هذا القول كثيرون من المؤرخين العرب و المستشرقين منهم: أرنولد و غروهمان و غييون و شوشتري الذي يقول، في كتابه (مختصر تاريخ الثقافة الإسلامية): إن مكتبة طرابلس كانت تحتوى أكبر عدد من الكتب عرف أن مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن، ألا و هو ثلاثة ملايين كتاب. و المستشرق الفرنسي

كاترمير لم يخالجه شك في تقدير العدد بثلاثة ملايين كتاب.

و يبدو أن المكتبة بدأت، في عهد منشئها الأول، أمين الدولة بمئة ألف كتاب، و أن العدد ارتفع في عهد خليفته جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين.

و كان في المكتبة، قاعة خاصة للنساح و الخطاطين مزودة بكل ما يحتاجونه من الأوراق و المحابر و الأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يفدون إليها.

و هؤلاء الوافدون لم يكونوا من أبناء طرابلس فقط، فقد كان العلماء و طلاب العلم

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٨

يفدون إليها من كل مكان للإفادة مما تحويه في كل فن من فنون العلم. فاكتملت طرابلس بالعلماء و الأدباء و الشعراء و المحدثين و الفقهاء و بالطلاب الآخذين عنهم.

حتى صارت مدينة طرابلس تسمى دار العلم، قد وردت هذه التسمية في عدة مصادر تاريخية. و في ذلك يقول الشاعر شهاب الدين محمود: (و هي أيضا بدار علم تسمى).

و أسهم عدم بعد طرابلس عن دمشق في ازدهار الثقافة في طرابلس، إذ كان ينتقل إليها، في كل عام، زائرون من دمشق ليشاركوها الحياة العلمية ثم يعودوا إلى بلدهم.

و عندما حاصر (أتسز الخوارزمي) دمشق سنة ٤٦٨ هـ. و اعتقل عددا من رجالها و غلت الأسعار و ضاق أمر الناس، قامت هجرة جماعية لوجوه دمشق إلى طرابلس، و ممن هاجر الشاعر ابن الخياط صاحب الديوان المطبوع في دمشق، سنة ١٩٥٨.

و من المقرر، عند جميع من كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية و وصولها إلى أوروبا، أن من عوامل هذا الوصول كان عامل الاتصالات التجارية بقوافلها المتنقلة بين الشرق و الغرب.

و قد كان لطرابلس بنى عمار الأثر الفعال في ذلك، فإليها كانت تفد القوافل التجارية البرية من بلاد الشام، ثم ينقلها إلى مرفئ أوروبا أسطول بنى عمار التجارى الذى أعدوه أحسن إعداد، ناقلا معها جذور الحضارة الإسلامية العربية.

و ليس كالعلاقات التجارية بين الأمم ما يدانى في التقدم الحضارى.

و قال ناصر خسرو (القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى) عن طرابلس: (و للسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم و صقلية و المغرب للتجارة).

و قد ذكر المؤرخ (الإسلامى)، في كتابه، إن مدينة طرابلس كانت مملوءة بالعلماء حين دهمها الصليبيون، و إن من يتصفح كتب التاريخ و التراجم ليقف على هذه الحقيقة، و سيجد أن طلاب العلم و رجالته جاءوا إلى طرابلس من الأندلس و بلاد المغرب و مصر

و الحجاز و العراق و بلاد فارس و أنحاء بلاد الشام و آسيا الصغرى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٦٩

و غيرها. و نذكر هنا نماذج من أسماء الوافدين إليها، فمنهم الشاعر الشهير (ابن حيوس) و سديد الملك بن منقذ الأمير الشاعر، و ابن السراج العالم المؤلف المقرئ، و ابن النقار القاضى الذى درس بطرابلس و تولى الخطابة بجلبة، ثم تولى كتابة الديوان بدمشق، و له

ديوان شعر، و شاعر الشام ابن القيسرانى، إلى عشرات من أمثال هؤلاء.

و من أشهر الوافدين على طرابلس للإفادة من (دار العلم) أبو العلاء المعرى.

و قد شكك المؤرخ ابن العديم بذلك و تابعه آخرون. قال ابن العديم: (... و قد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء المعرى رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر فى كتبها، و اشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. و لم يكن بطرابلس دار علم فى أيام أبى العلاء، و إنما جدد

دار العلم بها القاضى جلال الملك أبو الحسن على بن أحمد بن عمار فى اثنتين و أربعمئة.

و كان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك سنة تسع و أربعين و أربعمئة).

على أن الدكتور مصطفى جواد قد فند هذا القول قائلاً:

و من الحق أن في النفس ما فيها من قول ابن العديم: (و إنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك) فالتجديد عند أهل العربية: إعادة شيء عتيق إلى حاله حسنة مستأنفة فليس هو بتأسيس و لا بناء. و لو كان هذا العالم الكبير مثبتاً في قوله لقال:

(و إنما أنشأ دار العلم) أو (إنما أسس دار العلم) فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس و الإنشاء، و بذلك تسقط دعوى من أنكر دراسته أبي العلاء المعري بدار علم طرابلس، لأن التجديد يدل على أن دار العلم كانت منشأة قبل ذلك فأصابها تلف أو حريق استوجب تجديدها.

ثم يذكر الدكتور مصطفى جواد إنشاء أمين الدولة الحسن بن عمار، المعاصر لأبي العلاء المعري، لدار العلم، و لا يتعارض هو و قول ابن العديم من تجديد جلال الملك لها.

و ممن نبغ، من الطرابلسيين، في عهد بني عمار، نذكر أمثال:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٠

ابن خرسان الأديب الشاعر المتوفى سنة ٤٩٧ هـ، و ابن زريق المهندس العالم الفلكي المتوفى سنة ٥١٦ هـ، نذكرهما مثالين لنشير إلى تنوع الثقافات التي لم تنحصر في علوم اللغة و علوم الدين.

و من الحلقات العلمية، في عهد بني عمار في طرابلس، حلقة أبي عبد الله الطليطلي الذي مر ذكره، و كانت حلقاته تخرج الأدباء و الشعراء و اللغويين و النحويين، و منها تخرج الشاعر الفارس أسامة بن منقذ و الشاعر ابن الخياط.

و عدا الحلقات العلمية فقد كانت هناك لقاءات شعبية تقوم أحياناً في حوانيت صغار الباعة و كبارهم، و منها لقاءات العطار أبي المفضل و لقاءات المنتزهات و الأسواق و ينابيع المياه خارج طرابلس، حيث يتطرح الملتقون الأشعار، و نذكر مثلاً على ذلك أن أحمد بن محمد، أبا عبد الله المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي، خرج مع بعض خلانه إلى ضفاف غدير في ظاهر طرابلس فقال ابن الخياط:

أو ما ترى هذا الغدير كأنه يبدو لعينك منه حلى مناطق

مترقق لعب الشعاع بمائه فارتج يخفق مثل قلب العاشق

فإذا نظرت إليه راعك لمعه و عللت طرفك من سراب صادق فقال أحد رفاقه:

قد كنت آمل أن أجيء مصليحتي رأيتك سابقاً للسابق و سبب مجيء ابن الخياط إلى طرابلس يدل على الشهرة التي كانت لبني عمار في حماية الأدب و الأدباء و تشجيعهم، فقد خرج هذا الشاعر من دمشق، في الحقبة الممتدة ما بين سنة ٤٦٣ و ٤٦٩ هـ، إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن و الجوع و الفاقة، و هو لا يزال في صباه، فقصد حماة و اتصل هناك بالأمير أبي الفوارس محمد بن مالك. ثم ذهب إلى حلب فالتقى بالشاعر ابن حيوس فشكا له حاله و أنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لم يبق عندي ما يباع بدرهم و كفاك منى منظر عن مخبر

إلا صباة ماء وجه صنتها عن أن تباع و أين، أين المشتري؟

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧١

فقال ابن حيوس: لو قلت: (و أنت نعم المشتري). لكان أحسن، ثم قال:

كرمت عندي و نعت إلى نفسي، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد، فأنت وارثي، فاقصد بني عمار بطرابلس، فإنهم يحبون هذا الفن. و بحدود سنة ٤٧٦ هـ. جاء ابن الخياط طرابلس و هو ابن ٢٦ سنة. و كان صاحب طرابلس يومها جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار فاتصل به و مدحه، كما مدح فخر الملك و غيره من بني عمار. كما كان يتردد على دار العلم و يحضر الدروس فيها،

و تدفع له الجرايات التي كان بنو عمار يصرفونها للطلبة في الدار.

و تقدر المدة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.

و في قصور بني عمار كانت تقام حلقات المناظرة بين الفقهاء و الشعراء، و كان بنو عمار يقيمون مسابقات للشعراء يتبارى فيها هؤلاء بنظم القصائد.

### أمراء الدولة علماء مؤلفون

و من الكتب التي صدرت، يومذاك، نذكر هذه النماذج. شرح الإيضاح، و شرح ديوان الحماسة لزيد بن علي الفارسي المتوفى سنة ٤٦٧هـ.

و كتاب (جرباب الدولة) لأبي طالب أمين الدولة الحسن بن عمار. و قد وقع بعض المؤلفين في خطأ كبير، حين قالوا إن اسم الكتاب هو: (ترويح الأرواح و مفتاح السرور و الأفراح المنعوت بجرباب الدولة)، و نسبوه إلى أمين الدولة الحسن بن عمار.

و قد علق الدكتور مصطفى جواد على هذه النسبة التي أخطأ فيها (ابن الفرات)، و تابعه غيره من المؤلفين على هذا الخطأ.

علق الدكتور مصطفى جواد بما نأخذه هنا لأهميته في التاريخ الفكري الثقافي لتلك الحقبة:

لقد وجدنا من الغريب قول المؤلف المصري، ناصر الدين بن الفرات، في ذكر أمين الدولة أبي طالب الحسن بن عمار: (و هو الذي صنف كتاب ترويح الأرواح و مفتاح السرور و الأفراح المنعوت بجرباب الدولة).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٢

أما أولاً: فلأن كتاب (ترويح الأرواح) من كتب الفكاهة و الهزل و الباطل، و هذا قاض و أمير ذو ديانة متينة.

و أما ثانياً: فلأن (جرباب الدولة)، عند المطلعين على التاريخ الإسلامي، جاء في حالتين: أولاًهما كونه لقباً للإنسان الذي ألف (ترويح الأرواح) و الأخرى كونه اسماً لكتاب ألفه ابن عمار المذكور في اقتصاديات الدولة الإسلامية و شئونها الأخرى.

و قد أخذ ابن الفرات المصري اسم الكتاب الهزلي و لقب مؤلفه فجعلهما اسماً لكتاب ابن عمار، و هذا من أشنع الغلط و أفضعه، و جل من لا يسهو و لا يغلط.

قال ياقوت الحموي في ترجمته الهازل الملقب (جرباب الدولة):

(أحمد بن محمد جرباب الدولة: هو أحمد بن محمد بن علوية من أهل سجستان و يكنى أبا العباس، و كان طنبورياً، أحد الظرفاء و الطيِّاب. كان في أيام المقتدر و أدرك دولة بني بويه فلذلك سمي نفسه بجرباب الدولة، لأنهم كانوا يفتخرون بالتسمية في الدولة و كان يلقب بالريح و له أيضاً كتاب (ترويح الأرواح و مفتاح السرور و الأفراح) لم يصنف في فنه مثله اشتمالاً على فنون الهزل و المضاحك).

أما (جرباب الدولة) الذي ألفه أبو طالب الحسن بن عمار فهو من أجل الكتب و أجز لها فوائد و أشرفها موضعاً، قال القاضي ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون في فصل: (إن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها). (و كذلك وجد بخط أحمد محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، نقلته من جرباب الدولة: غلات السواد ... كسكر .. كورد جله ...

حلوان ... الأهواز ... فارس). و ذكر الارتفاع أي: الواردات لمملكة المأمون بأسرها.

فأين موضوع هذا الكتاب من موضوع الكتاب الباطل العاطل؟ (انتهى).

و هكذا نرى أمراء بني عمار كانوا في الوقت نفسه علماء مؤلفين، يؤلفون في ما يسمى اليوم بالاقتصاد السياسي. و من المؤلفات التي صدرت في ظل حكم بني عمار، مؤلفات أسعد بن أحمد بن أبي روح التي مر ذكر بعضها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٣

و ديوان ابن خراسان المتوفى سنة ٤٩٧ هـ، و ديوان أحمد بن منير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ، و روضة النفس لابن البراج المتوفى سنة ٥٨١ هـ، و ديوان ابن النقار المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، و ديوان ابن هبة الله العلوي الحسيني المتوفى بعد سنة ٥١٥ هـ، و التصريح في شرح قصيدة كثير، و ابن ذريح للراشدي بن بركات المتوفى سنة ٥٤٠ هـ، و غير ذلك.

### حركة شعرية ناشطة

و كان بنو عمار من المقصودين بالمدح من شعراء عصرهم، فمن الشعراء الذين مدحهم: ابن الخياط، و ابن النقار، و أبو المواهب المعري، و ابن العلاني المعري، و أبو الفتان بن حيوس.

فمن مدائح أبي المواهب المعري قوله، في ذى السعدين، فخر الملك عمار بن محمد بن عمار من قصيدة جاء فيها:

أحبابنا جرتم مع البين فاعدلواو جزتم مدى هجرانكم فترفقوا

و رب فلاة جبتها و هو مؤنسى و خيفانه تجرى مرارا و تعنق

و ظلت أخطيها البلاد و دونها طرابلس حيث الأمانى و جلق

و رجحت ما بين الملوك فما بى رجا بى بذى السعد بن أوفى و أوفق

مليك به الآمال ألفت عصا النوى فقرت و فى أوصافه المدح يصدق

و عرض لى غيث على الشيم مرعد من الشام نجاح السحائب مغدق

هو البحر إلا أنه غير مالح هو البدر إلا أنه ليس بمحق

حمى الثغر من رشف المواضى فقد كفى تأشب ما يحميه سور و خندق

لكم آل عمار على الجود مسحة سحاب الندى فيها من التبر مغدق

و فيك أطاعنى القوا فى كأنها المدحك تهوى أو لنظمى تعشق

و قد كسدت هذى البضاعة برهه و لم تك إلا فى زمانك تنفق

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٤

و يقول فيه من قصيدة أخرى:

عزت طرابلس فى لك بلدة طالت بمالكها على البلدان

موج بظاها و موج باطن سبحان محرزها من الطوفان

يفديك قوم ضاع شعري فيهم و غدوت جارهم فضع زمان

آنست طرابلس بما أوليت للمملوك طيب معرة النعمان و فى أحد المجالس الشعرية التى كان يلتقى فيها الشعراء بفخر الملك اقترح

عليهم أن يعارضوا قصيدة محمد بن هانىء الأندلسى الرائية الشهيرة التى مطلعها:

فتقت لكم ريح الجلال بعنبرو أمدكم فلق الصباح المسفر بأن ينظم كل واحد منهم قصيدة على وزنها و قافيتها، فسبقهم فى ذلك أبو

الحسن على بن إبراهيم، المعروف بابن العلاني، بقصيدة أعجبت فخر الملك فأجازه عليها و استغنى بها عن قصائد بقية الشعراء.

و كان فخر الملك يقود، يومذاك، الكفاح الإسلامى على الصليبيين، و يتحمل حصارهم لمدينته و يدافعهم عن وطنه، و إلى ذلك

يشير الشاعر فى بعض أبيات القصيدة، كما أشار أبو المواهب المعري فى قصيدته المتقدمة بقوله:

حمى الثغر من رشف المواضى فقد كفى تأشب ما يحميه سور و خندق قال ابن العلاني فى بعض ما قال:

حمى الثغر من رشف المواضى فقد كفى تأشب ما يحميه سور و خندق و لرواج سوق الشعر، يومذاك، أولع متداولوه باستكتاب

الخطاطين للقائد بخطوطهم الجميلة، فيدفع أحدهم للخطاط أكثر من سبعة دنانير لكتابة القصيدة الواحدة. ولقد قبض الشاعر أحمد بن حمزة، المعروف بابن الخيشي الحلبي، نحو مئتي دينار في شهر رمضان لكتابته سبعا وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين. تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٥

### بنو عمار من الكتاب إلى السيف

عندما وصل القائد الصليبي (صنجيل) (ريموند دي سان جيل) إلى مشارف الشام كان أول من أدرك الخطر الصليبي فخر الملك بن عمار، فصمم على الإعداد لهذا الخطر قبل أن يتغلغل في البلاد الشامية، وذلك بالدعوة إلى حلف إسلامي يقف في وجهه، فراسل الأمير (ياخز) في حمص و الملك (دقاق بن تتش) في دمشق يقول لهما على ما يروي ابن الأثير: من الصواب أن يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة.

فاستجابا له، فخرج الأمير (ياخز) بنفسه و سير (دقاق) ألقى مقاتل، و خرجت الإمدادات الطرابلسية فاجتمعوا على باب طرابلس و صادفوا (صنجيل) هناك.

يقول ابن الأثير: فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة و لولا منهزمين، و تبعهم عسكر دمشق، و حمل (صنجيل) بمن معه فكسروا أهل طرابلس و قتلوا منهم سبعة آلاف رجل، و نازل (صنجيل) طرابلس و حصرها.

إلى هنا، و الأمر طبيعي، فالحروب سجال: ينتصر هذا الفريق و ينهزم ذاك الفريق ... و لكن غير الطبيعي و الذي يجعلنا نكثر من التساؤل و الاستغراب هو المقدمة التي قدم بها ابن الأثير لهذه الحرب و هزائمها، فهو يقول عن أحداث سنة ٤٩٥ هـ، بعد أن يتحدث عن هزيمة (صنجيل) أمام (قلج أرسلان): و مضى (صنجيل) مهزوما في ثلاث مئة فوصل إلى الشام فأرسل فخر الملك بن عمار إلى الأمير ياخز و إلى الملك دقاق ... إلى آخر القول الذي تقدم ... ثم يقول: فأخرج (صنجيل) مئة من عسكره إلى أهل طرابلس و مئة إلى عسكر دمشق و خمسين إلى عسكر حمص، و بقي هو في خمسين. فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة و لولا منهزمين و تبعهم عسكر دمشق.

و أما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المئة الذين قاتلوهم، فلما شاهد ذلك (صنجيل) حمل في المئتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس و قتلوا منهم سبعة آلاف رجل، و نازل (صنجيل) طرابلس و حصرها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٦

يستطيع الإنسان أن يقول: إن في كلام ابن الأثير هذا تخليطا لا نعرف عوامله! ...

و الذي يهمنا الآن هو أن حصار الصليبيين لطرابلس برا و بحرا قد بدا و أنه سيستمر عشر سنوات أصبح خلالها شعار بني عمار: السيف، بعد أن كان شعارهم الكتاب، و إن ظل للكتاب عندهم مكانه الرفيع و منزلته الكبرى.

يقول المؤرخون: اجتمع على منازل طرابلس كل من (برتران) الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، و دوليم غوردان، ابن أخت ريموند المذكور، و (تانكريد) أمير إنطاكية و اللاذقية، و (بلدوين) ملك بيت المقدس، و (بلدوين) كونت الرها و (غوسلين) أمير قلعة تل باشر.

و كانت القوى المهاجمة للمدينة تتألف من ٤٠٠٠ فارس بروفنسي قدموا مع برتران، و عدد كبير من الجنوية جاءوا بعشرين سفينة، إلى جانب سفن برتران و عددها أربعون، و ٥٠٠ فارس أتى بهم بلدوين ملك القدس إلى جانب عدد كبير من الرجال و ٧٠٠ فارس من خيرة فرسان تانكريد، بالإضافة إلى بلدوين كونت الرها، و جوسلين و حرسهما، ثم جموع المردة و من أتى من جبل لبنان.

كان هذا الجمع قد تجمع على طرابلس بعد أن كلت قواها بعد عشر سنوات من الحصار المضروب و القتال الدائم، و كان هو الذي دخل طرابلس.

يقول ابن الأثير، فى أحداث سنة ٥٩٦ هـ و كان صنجيل يحاصر مدينة طرابلس الشام، و المواد تأتيها، و بها فخر الملك بن عمار، و كان يرسل أصحابه فى المراكب يغيرون على البلاد التى بيد الإفرنج و يقتلون من وجدوا. و يقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لتقل المواد من الإفرنج فيرحلوا عنه.

سنة كاملة مرت على الحصار كانت مهمة فخر الملك فيها مزدوجة ذات شقين: شق دفاعى و شق هجومى، فهو يقف فى وجه اقتحام الصليبيين لمدينته

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٧

فيقاتلهم دفاعا عنها، ثم هو ينفذ بمراكبه من بين سفن الصليبيين المحاصرة له، فيهاجم الصليبيين فى ما يحتلونه من بقاع. كان فخر الملك هنا بطل الدفاع و الهجوم معا، و كان (العماريون) أهله يشدون من أزره، و شعبه الطرابلسى بصبر و يصابر معه. و تأتي سنة ٥٩٧ هـ فيقول ابن الأثير: فى هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الإفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجار و الأجناد و الحجاج و غير ذلك، و استعان بهم صنجيل الإفرنجى على حصار طرابلس، فحصرها معه برا و بحرا و ضايقوها و قاتلها أياما، فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل ...

سنتان مرتا و فخر الملك محصور فى مدينته، و هو صامد يدافع عنها دفاع الأبطال، و يستعين الأعداء بقوى جديدة فلا ينالون من صموده منالا ...

و فى سنة ٤٩٩ هـ يقول ابن الأثير: كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة، و أقام على طرابلس يحصرها حيث لم يقدر أن يملكها، بنى بالقرب منها حصنا و بنى تحته ربضا، و أقام مراصدا لها و منتظرا وجود فرصة فيها، فخرج فخر الملك أبو على بن عمار صاحب طرابلس، فأحرق ربضه و وقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة و معه جماعة من القمامصة و الفرسان فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام و مات، و حمل إلى القدس فدفن فيها.

ثم إن ملك الروم أمر أصحابه باللادقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الإفرنج الذين على طرابلس فحملوها فى البحر، فأخرج إليها فخر الملك بن عمار أسطولا فجرى بينهم و بين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها و أسروا من كان بها و عادوا. و يتابع ابن الأثير كلامه:

و لم تزل الحرب بين أهل طرابلس و الإفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت، فعدمت الأقوات به، و خاف أهله على نفوسهم و أولادهم و حرمهم، فجلا الفقراء، و افتقر الأغنياء، و ظهر من ابن عمار صبر عظيم، و شجاعته، و رأى سديد. (انتهى).

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٨

هذا الكلام الذى نأخذه بنصه عن ابن الأثير يغنى عن كل تعليق.

و يواصل ابن الأثير قائلا:

و أجرى ابن عمار الجرايات على الجند و الضعفى، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجهم فى باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالا مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الإفرنج و قالوا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لتكون معكم، و ذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من (عرقه) و الجبل.

فجعل الإفرنج جمعا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شىء إلى البلد.

فأرسل ابن عمار و بذل للإفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين إليه فلم يفعلوا.

فوضع عليهما من قتلتهما غيلة. لم يكن ابن عمارا بطلا- شجاعا فقط، بل كان إلى ذلك حازما بعيد النظر محكم التدبير جلدا أمام الأهوال .. فى كل شعوب الأرض يوجد ضعاف النفوس خواری العزائم، و يوجد حريصون على المال لا يباليون فى هذا الحرص أن يخونوا أوطانهم.

فلا يضير الشعب الطرابلسي أن يوجد في صفوفه مثل هذين الخائنين الذين لا نشك في أنهما جمعا مالهما من الحرام و من كل مصدر غير شريف؛ لأن من يقدم على ما أقدم عليه يكون قد أقدم على كل رذيلة في جمع المال!.  
كان ابن عمار كما قلنا حازما بعيد النظر محكم التدبير جلدا أمام الأهوال، فلم يشغله ما هو فيه عن التفكير في أمر هذين الخائنين. إن تركهما سليمان يشجع أمثالهما على الخيانة فأحكم تدبير أمر اغتيالهما، واستطاع اختراق صفوف أعدائه و الوصول إلى اغتيالهما، و في هذا ما فيه من قوة العزم و سداد الرأي و إحكام الأمر ..

### ابن عمار و السلاجقة

و في أحداث سنة ٥٠١ هـ. يقول ابن الأثير: ورد فخر الملك أبو علي بن عمار، إلى بغداد قاصدا باب السلطان محمد (السلجوقي)، مستنقرا على الإفرنج، طالبا تسيير العساكر لإزاحتهم، و الذي حثه على ذلك أنه لما طال حصر الإفرنج لمدينة طرابلس، ضاقت عليه الأقوات و قلت، و اشتد الأمر عليه و على أهل البلد.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٧٩

و يتابع القول: فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد و زوال كل مخالف رأى لنفسه و للمسلمين قصده و الانتصار به .هـ. لقد استقبل فخر الملك في بغداد من السلطان و من الخليفة بحفاوة بالغة، فطالب بالنجدة و تعهد أنه إذا أوجب استنجاده و أرسلت معه العساكر يوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. قال ذلك للخليفة و للسلطان، فلم ينل غير الوعود، فعاد إلى دمشق خائبا! ..

و قد حدثت في غيابه مؤامرات عليه ساهم فيها نائبه، ما أخرج الأمر من يده و حيل بينه و بين العودة إلى طرابلس. و في سنة ٥٠٣ هـ. كان الصليبيون يدخلون طرابلس. و يوجز ابن الأثير ذلك بهذه الجملة:

و مد الإفرنج القتال عليها من الأبراج و الزحف، فهجموا على البلد و ملكوه عنوة و قهرا و نهبوا ما فيها و أسروا الرجال و سبوا النساء و الأطفال، و نهبوا الأموال و غنموا من أهلها من الأموال و الأمتعة و كتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد و لا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر بلاد الله أموالا و تجارة. و عاقب الإفرنج أهلها بأنواع العقوبات و أخذت دوائهم و ذخائرهم في مكانهم. و كانت المكتبة الكبرى من ضحاياهم إذ أحرقوها بكل ما فيها.

### بنو عمار و العمران

لم يغفل بنو عمار النواحي العمرانية في إمارتهم، فمن أهم ما عنوا به المشاريع المائية، فأمنوا لطرابلس ريا منظما من النهر الذي عرف بعد ذلك باسم نهر (أبو علي)، و لا يزال حتى اليوم يعرف بهذا الاسم، فقد كان نهر قاديشا يفيض فيحدث أضرارا و لا ينتفع منه، فوضع فخر الملك أبو علي ابن عمار خطة إنمائية تنظم أمور النهر و تمنع فيضانه، و تجريه في أقينية للرّي، فعاد على المدينة و منطقتها بالخير العميم، و نمت المزروعات و البساتين و الحدائق، و تشكل من ذلك ثروة زراعية ساعدت على رقي المجتمع، و ازدهرت الحقول و الأرضين المحيطة بالمدينة بوفرة مزروعاتها و تنوعها

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٠

و فاضت عن حاجاتها فاحتفظت بأموالها و استدرت أموالا- من الخارج ما كان عاملا في نهوض الحركة الصناعية و الاقتصادية و الثقافية.

و عرفت طرابلس، في كتب المؤرخين و الرحالين، بكثرة ما تنتجه من الفواكه و الثمار، حتى لقد قالوا: (إن فيها ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلا، إذ لا يكاد يوجد دار بغير شجر لكثرة تحرق أرضها بالمياه، فهي تجمع بين ثمار الشام و مصر). و الفرنج عرفوا قصب السكر، لأول مرة، في بساتين طرابلس، فنقلوا غروسه إلى جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا.



و من إنجازات بنى عمار إنشاء مصانع للورق، فقد كان الورق السمرقندى هو المشهور فى العالم الإسلامى بوجودته، فإذا بالورق الطرابلسى يفوقه جودة.

وقد كان لوجود مصانع الورق أثر كبير فى رواج العلم و التدوين و التأليف فى طرابلس و ساعد على نهضتها الثقافية العلمية الأدبية، فكثرت الوراقون، و نشأت للتجديد صناعة فنية على الطريقة الصينية من زخرفة و توشيح بالخطوط الملونة.

و من الصناعات التى نهضت فى طرابلس صناعة الحرير التى امتدت مصانعها على ضفاف النهر، بما فيها من ألوف الأنوال و المغازل ما أدهش الفرنج و أثار عجبهم.

وقد عنى بنو عمار بالملاحة البحرية فأنشأوا أساطيل تجارية كانت تجوب البحر حاملة من طرابلس أو ناقلة إليها حاجات الناس هنا و هناك ما أشرنا إلى بعضه فيما تقدم من القول، هذا عدا عن أسطولهم الحربى الذى تولى قتال أساطيل الصليبيين طوال عشر سنوات.

و من طرابلس عرف الأوروبيون (البوصله) و كيفية استعمالها، عرفوا ذلك من البحارة الطرابلسيين.

وقد امتدت آثار بنى عمار إلى خارج إمارتهم، فهم الذين بنوا الجهة الشرقية من الجامع الكبير فى مدينة حلب، كما يثبت ذلك المؤرخ ابن الشحنة الحلبي فى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨١

كتابه (الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب). كما كانوا يعثون القضاء و الخطباء إلى المدن الشامية، و من ذلك ما ذكره (ابن تغرى بردى) فى كتابه (النجوم الزاهرة) عن ابن قلمش أنه عندما فتح حصن أنطربوس من الروم سنة ٤٧٥ هـ، بعث إلى صاحب طرابلس جلال الملك يطلب منه قاضيا و خطيبا ليقم بها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٣

## [تاريخ دولة آل سلجوق]

### مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد حمد الله على نعمه الجسام، و مننه العظام، و الصلاة و السلام على خير الأنام، سيدنا نبيه محمد و على آله البررة الكرام. فأنى لما فرغت من انتخاب الكتاب الموسوم بالبرق الشامى من إنشاء الإمام السعيد عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى الكاتب، - رحمه الله -، طالعت كتابه الموسوم «بنصرة الفترة و عصرة الفترة، فى أخبار الوزراء السلجقية» فصادفته قد سلك فيه منهجه المعروف فى إطلاق أعنة أقلامه فى مضمار بيانه، و إسباغ أزيال القرائن المترادفة من و شائع ما يحبره راقم بنانه، بحيث صار المقصود مغمورا فى تضاعيف ضمائر الأسجاع، و ربما كان. لا يرفع للإصغاء إلى بدائعها حجاب بعض الأسماع. فانتخبت منه هذا المختصر الذى هو بعد اشتماله على جميع مقاصد الكتاب محتو على عيون قرائنه البديعة، و زواهر ألفاظه الفصيحة، خدمة لملك اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق فى جميع سلاطين الأمم، و صار نظاما لمحاسن يتزين بأفرادها سائر ملوك العرب و العجم .. مولانا السلطان الملك المعظم أبى الفتح عيسى ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب، لا زالت معارج دولته راقية فى مدارج الإقبال، و عتبات مجده مطمحا لعيون الإعظام و الإجلال، و مصابيح علومه متوقدة يهتدى بها الشاردون فيخرجون من ظلم الزيغ و الضلال و ينابيع أياديه متفجرة يكرع فيها الهائمون فينقعون غلل الآمال.

وقد افتتحت به فى شهر ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ مستعينا بالله تعالى و مستمدا من حوله و قوته و مبتهلا إليه، و سائلا إياه أن يوفقنى فى ذلك و فى جميع أمورى بفضلته و رحمته، و هو حسبى و كفى.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٤

## ذكر نبذة من بداية حال السلجقية

قال - رحمه الله - «١» كانت السلجقية ذوى عدد و عدد، و أيد و يد، لا يدينون لأحد و لا يدينون من بلد، و ميكائيل بن سلجق زعيمهم المبجل، و عظيمهم المفضل. و قد سكنوا من أعمال بخارى موضعاً يقال له نور بخارى، و ما زالوا فى أنصر شيعه، و أنصر عيشه. و هم فى الرعى يكلثون الكلاً، و فى الربيع يملأون الملاً. لا يذعرهم ذاعر، و لا يردعهم داعر. و السلاطين يرونهم للملمات و لا يرونهم، و يدعونهم للمهمات و لا يدعونهم. حتى عبر السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى بخارى لمساعدة قدر خان فرأى مكيال فرغب فى استرغابه، و انجذب إلى اجتذابه، و أراد أن يعبر إلى خراسان به و بأهله، و بكنف أكنافها الذى الحفظ و الحفيظة بنبله و نبه. و امتنع ميكائيل عليه، و مال عنه و لم يمل إليه، فغاض السلطان تمنعه، فقبضه و اعتقله، و عبر به و بأصحابه إلى خراسان و نقله. و قال له أرسالن الحاجب إنى أرى فى أعين هؤلاء عين الهول، و إنهم لمعرفون بالجراءة و القوة و الحول. و الرأى عندى أن تقطع إبهام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره، و لا يخاف شره. فما قبل خطابه فى هذا الخطب، و قال له إنك لقاسى القلب.

فلما أقاموا بخراسان، تقربوا إلى عميدها أبى سهل أحمد بن الحسن الحمدونى، و أهدوا إليه ثلاثة أفراس ختليه، و سبعة أجمال بختية، و ثلاثمائة رأس غنم تركية. و هداه إقبالهم إلى قبول الهدية. و كانوا سألوه أن يمرجهم فى المروج، و يسد بمواشيهم مخارم تلك الفروج. فعين لهم مروج دندانقان ففروا بها و بما قاربها، و تحامها عن عداها و جانبها.

و توفى محمود بن سبكتكين و هو كاره لأمرهم، مشفق من وميض جمرهم، مستشف ستر القضاء فى قضية شرهم. و عد أبو سهل الصعب فيهم سهلاً، و اتخذهم لارتفاقه بهم صحبا و أهلاً. و نفذ مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكراً من غزنة إلى خراسان، فواقعهم و قتل منهم عدة، و أسر منهم جماعة، حملهم إلى غزنة، منهم بيغو أرسالن، فاستعطفوه فلم يعطف، و استعفوه فلم يعف. و لما غلق رهنهم و توثق

(١) المقصود عماد الدين الكاتب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٥

سجنهم، شربوا كأس اليأس، و أبدلوا إيناس الناس بإيحاش الحاشية. و مشى شحنة طوس لاستياق ما لهم من الماشية، و استلان خشونتهم، و استسهل صعوبتهم، و لما ظن أنه آب بالغنم و الغنيمه، و باء بعز العزيمة، ركبوا إليه صهوات الحقن، و صرفوا نحوه أعنة الخب و العنق. حتى لقوه فتركوه لقى، و تبعوا المنهزمين و دخلوا إلى طوس فملكوها، و جاسوا خلال ديارها و سلكوها، و تشاوروا فيما بينهم و قالوا: هذا بحر خضناه، و فتح ابتكرناه، و طوس مدينتنا التى تؤوينا، و حصننا الذى يحميننا، فلا نفرج عنها، و لا نخرج منها. و شرع أبو سهل الحمدونى فى استدراك ما فرط، و استمساك ما اختبط. و كادوا يجيبونه بالجمل و يحملون فى الجواب، و يميلون بممالاته إلى صوب الصواب. فتسرع شحنة نيسابور و تعسّر، و جنّد و عسكر. و شن على سرحهم غارة على غرة، و نهض لمنفعة نهضت بمضرة. فركبت السلجقية إليه و إلى جماعته أرسالا، و نشبوا معهم و شبوا قتالا، و هزموهم و كسروهم و قتلوهم و أسروهم. و امتدوا إلى نيسابور فدخلوها، و وجدوا فى خلوها فرصة فاهتبلوها. و ذلك فى شهر رمضان سنة ٤٢٩ هـ. و عزموا على مد اليد، و نهب البلد. فمنعهم طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق و هو أميرهم و كبيرهم، و قال لهم نحن فى شهر حرام نهتك حرمته، و لا نهتك عصمته، و لا- يحصل من النهب أرب، و إنما تسوء به السمعة و يشيع الشنعة. فنفرت جماعته من مقاله و سخفوا رأيه فى تبين حرام الفعل و حلاله. فما زال بهم طغرلبك يقول لهم: أمهلوا بقية هذا الشهر، و اعملوا ما شئتم بعد الفطر. و فى أثناء ذلك وصل إليهم كتاب القائم بأمر الله أمير المؤمنين، يخوفهم و يذكرهم بالله، و يحملهم على رعاية عباده و عمارة بلاده، فخلعوا على الرسول المعروف بأبى بكر الطوسى ثلاث عشرة خلعة. و تباها برسالة الخليفة و ازدادوا بها قوة و رفعة.

و لما كان يوم العيد اجتمعوا من القريب و البعيد و هموا بالنهب، فركب طغرلبك لمنعهم، وجد فى ردعهم. و قال: الآن و قد جاء

كتاب الخليفة المفترض الطاعة على الخليفة. وقد خصنا من توليته إيانا بالحق والحقيقة. فليح عليه أخوه جفري بك داود وأخرج سكينه وقال: إن تركتني وإلا- قتلت نفسي بيدي. فرق له وسكنه، وأراه أنه مكنه، وأرضاه بمبلغ أربعين ألف دينار قسطه، ووزن أهل البلد معظمه، وأدى هو من

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٦

ماله الباقي وغرمه. و جلس على سرير الملك الذي كان لمحمود بن سبكتكين في نيسابور، ونهى وأمر، وأعطى وأخذ، وأبرم و نقض، وأحكم وقوض. و جلس يومى الأحد والأربعاء لكشف المظالم. و بسط المعدلة و بث المكارم. و سير أخاه داود إلى سرخس فملكها، و نهج له طريقة في العدل فسلكها، و سیر إلى دار الخلافة المعظمة رسولا- يعرف بأبي إسحاق الفقاعي، صييح البهجة، فصيح اللهجة، بكتاب مضمونه أنهم لما وجدوا ابن يمين الدولة مائلا عن الخير والسمو، مشتغلا بالشر والعتو، غاروا للمسلمين و البلاد. و هم عبيد أمير المؤمنين في حفظ البلاد والعباد. و قد سنّوا سنة العدل، و أسنوا سنة الفضل. و بطلوا مراسم العسف، و عطلوا مواسم الحيف.

و مضى رسولهم، و قضى سؤلهم. و تواصلت مع مسعود بن محمود بن سبكتكين حروبهم، و هزموه في سنة ٤٣٠ هـ. و اشتدت منعتهم، و قويت شوكتهم و استولوا على خراسان و تجاوزوها إلى العراق. و طرأوا على ملك الديلم، و رموه بالصيلم «١». و غلبوا الأملاك، و بلغوا الأفلاك، و اقتسموا البلاد، و طرفوا طرفها و التلاد.

قال: و للسلطان طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق، و لأخيه جفري بك أبى سليمان داود بن ميكائيل بن سلجق، من نهر جيحون إلى نيسابور، و لأخيه من أمه، و هو ابن عمه، إبراهيم بن ينال بن سلجق، قهستان و جرجان، و لابن عمه أبى عليّ الحسن بن موسى بن سلجق، هراة و بوشنج و سجستان و بلاد الغور.

و قال: و امتد طغرلبك إلى الرى، و قد كانوا جعلوا له جميع ما يفتحه من هذا الصوب، فحمد الرأى بالرئى، و نجزت عدة جدته بعد اللئى. و وجد في دور الديلم دفائن و خزائن، سمرت بها أيامه عن أيامن. فتأثل و تأث، و ورئى زند سعده بما ورث.

و قدّم قدامه إبراهيم بن ينال فقر بقرميسين و انتزعها من الأمير أبى الشوك فارس بن محمد بن عنّاز، و حل بجلوان. و توفي أبو الشوك في شهر رمضان، و ذلك سنة ٤٣٧ هـ. و في هذه السنة وزرّ رئيس الرؤساء أبو القاسم عليّ بن الحسن بن مسلمة للقائم بأمر الله و هى أول سنة ورد فيها الأتراك إلى العراق، و انتشروا منها في الآفاق.

قال: و كان عند طغرلبك رسول الخليفة، و هو أبو محمد هبة الله بن محمد ابن

(١) الصيلم: السيف.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٧

الحسن بن المأمون مقيما يدعوه إلى بغداد و لا يدعه يقيم، و يروم منه صدق القصد و لا يريم. و طال بالحضرة حضوره، حتى حرك عزمه، فعزم على الحركة و اندفع كالسيل، و كسا العلق عجاج فيلقه صبغة الليل، و لم يترك الترك وردا إلا شفوه، و لا حسنا إلا شوّه، و لا- نارا إلا- أرشوها، و لا دارا إلا شعثوها، و لا عصمة إلا رفعوها، و لا وصمة إلا وضعوها، و أجفل الملوك من الخوف أقدامهم، و تنحوا من طريق ضرامهم. فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكها، و ملأوا مسالكها، و أربوا ساكنيها و أسكنوها الرعب، و غلبوا ولاتها و ولوها الغلب. و أزوروا إلى الزوراء، و أشاعوا مد اليد بالغايرة الشعواء.

**ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرلبك أبى شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجق إلى بغداد في ٢٥ من رمضان سنة ٤٤٧ هـ و معه الوزير عميد الملك أبو نصر محمد ابن منصور الكندريّ و هو أول وزراء السلجقية**

قال: كان حصيفا فصيحا رجيجا نجيجا، متسلطا بمكانه، متمكنا من سلطانه، يرجى و يخشى، و يقصد و يغشى. و السلطان، بأذنه و ناظره يسمع و يبصر، و بإذنه و نظره يرفع و يضع. و له البهجة المهيبة، و اللهجة المصيبة. و كان مع السلطان طغرلبك يوم وصوله إلى بغداد، و قد خرج رئيس الرؤساء وزير الإمام القائم لاستقبال السلطان، و معه أرباب المناصب و أصحاب المراتب. و قاضى القضاء و الشهود، و الجنود و البنود.

فلما وصل إلى نهر بين، لقيه صاحب للسلطان من المقربين. و قدّم للوزير فرسا و قال:  
هذا مركوب السلطان و قربه، فنزل عن بغلته و ركبته. و جاءه بعد ذلك عميد الملك أبو نصر الكندري في موكب ضخيم، و فخر فخيم. و قد وقف يتوقع مطلعته. فلما بصر به قصد عميد الملك أبو نصر أن يترجل فمنعه، و تعانقا راكبين و خلطا الموكبين.  
و وصل السلطان إلى بغداد و نزل على دجلة، عند مسناة عز الدولة رائق الهيبة، رائق الهيبة، قد ضاقت الأرض بجنوده، و ضاقت السماء عذبات بنوده. فقبض على

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٨

الملك الرحيم أبو نصر الديلمي من نسل عضد الدولة، و سيره إلى الري فقطع عليه الأجل الطريق في طريقها، و آذنت جموع ممالك الديلم بتفريقها. و قبض عميد الملك أبو نصر الكندري الوزير الأعز أبا سعد وزير الملك الرحيم، ثم استدام صحته حين ألفاه في الكفاية صحيح الأديم، و أطلقه و أطلق يده في الحل و العقد و الحبس و الإطلاق.  
و عول عليه و فرض إليه النظر في العراق.

قال: و توفي هذه السنة قاضى القضاء الحسين بن علي بن ماکولة، فخاطب عميد الملك في توليه قاضى القضاء أبي عبد الله محمد بن الدمغانى، فتسنت قاعدته في ذى القعدة من السنة. و أحسن العناية به لمعانيه الحسنه. قال: هو قدوتنا بخراسان الموصوف بجميع الألسنة. و حضر عميد الملك الكندري في بيت النوبة الشريفه، و خص من دار الخلافة بالمتزلة اللطيفة. و انفذت معه برسم السلطان خلع سنیه، و تشریفات سریه.

قال: و تقدم طغرلبك ببناء مدينة على دجلة، و هى التى جامعها اليوم باق، و كانت حينئذ ذات أسوار و أسواق.  
قال: و دخلت سنة ٤٤٨ هـ، و فى المحرم منها عقد الخليفة على ابنه أخی طغرلبك أرسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل، و قصد بذلك تعظيمه و التبجيل، و لثلا يجد الأعداء بهذه الوصلة إلى قطع سبيل المودة بينهما.

## ذكر الحال فى ذلك

قال: فى المحرم جلس الإمام القائم بأمر الله، أمير المؤمنين. و أحضر عميد الملك الكندري و قدمه على المقدمين و تقدم إليه بإحضار من يجوز إحضاره، و يقع عليه إشاره. فشد وسطه و أخذ دبوسا فى يده، و جرى فى حفظ آداب الخدمة على جده، و استدعى أمائل دولة السلطان فخدموا الخليفة، و شاهدوا السدة الشريفة. ثم شرع رئيس الرؤساء فى خطبة النكاح، و جاء بها على وفق الاقتراح، و استوعب شرائط الإيجاب بالذكر، من تسمية المخطوبة و المهر. ثم قال: إن رأى سيدنا و مولانا أن ينعم بالقبول. فقال الخليفة: قد قبلنا هذا العقد بهذا الصداق. فامتزجت الدولتان بالاستحقاق و استمرت البركة، و استقرت المملكة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٨٩

قال: و فى هذه السنة كانت ولادة المقتدى سحره الأربعة، ثامن جماد الأول، و سمي: عبد الله، و كنى: أبا القاسم و أمه جارية لذخيرة الدين أبي العباس بن القائم بأمر الله. و كانت وفاة الذخيرة فى ذى القعدة سنة ٤٤٧ هـ و عمره ١٤ سنة. و بوفاته قامت قيامة القائم، فإنه كان ولى عهد و لم يكن له ولد سواه، فلما ولدت جاريته ابنا استجدد به جدا و بهاء و يمنا و أمنا. و جلس رئيس الرؤساء ثلاثة أيام للهناء. و حضر عميد الملك و جماعة الأمراء.

قال: و توفي في هذه السنة عميد الرؤساء أبو طالب بن أيوب عن ٧٠ سنة، و قد كتب للخليفة ١٦ سنة، و كانت حسناته سائرة، و سيرته حسنة.

### ذكر عوارض عرضت و حوادث حدثت

قال: كان ابن عم طغرلبك بالموصل و ديار بكر، و هو قتلش بن إسرائيل بن سلجق، متسق الأمر، متسع الصدر. فاجتمع البساسيري، و هو أبو الحارث أرسلان، و قريش بن بدران العقيلي، و نور الدولة ديبس بن علي بن يزيد الأسدي على حربه، و أوقعوا به و بحزبه. و كانت الوقعة بسنجار. و مضى قتلش إلى همذان موليا. فانتحى طغرلبك من ذلك و توجه إلى الموصل، فأجفل البساسيري إلى الرحبة. فأذعنط لطرلبك البلاد، و واتاه الأدب، و وافاه العرب، و أطاعه الأميران ديبس و قريش. و اتصل به أخوه ياقوتى بن داود، فزادت قوته، و أرعبت بالناس صولته. و كان على أهل سنجان حاقدا، فإنهم مثلوا بقتلى قتلش، و تركوهم بالعراء. و أظهروا الرؤوس على القصب، و أخذوا النفوس بالوصب. فسار طغرلبك إلى سنجان و اجتاحتها و استباحها، و سلب أرواحها و أشباحها، إلى أن شفع فيهم إبراهيم بن ينال فعفا بعد أن عفى.

و كف بعد ما اكتفى.

قال: و في هذه السنة مات أبو العلاء المعري.

### ذكر عودة السلطان إلى بغداد و حضوره بين يدي الخليفة

قال: و عاد إلى بغداد ظافر اليد وافر الأيادي، و جلس له الخليفة يوم السبت ٢٥ من ذى القعدة، فركب دجلة مجريا تياره في تيارها، حتى وصل إلى باب الرقة من السدة الشريفة و دارها. و قدم له فرس فركبها و دخل راكبا إلى دهليز صحن السلام، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٠

و حصن الإسلام. ثم نزل و مشى، و الأمراء بين يديه بغير سلاح يمشون، إلى حيث الجلالة مقيمة، و الدلالة بالقائم قائمة، و الرسالة ملائمة، و الإمامة دائمة، و النبوة مستمرة الإرث، و المروءة مستقرة البعث. و ستارة البهاء مسدولة على البهو، و طهارة الانتماء مجبولة بالزهو. و القائم بأمر الله جالس من وراء الستر، على سدة مشرفة مشرقة، في إيوان منه للجلال إيواء، و دار أرضها للإقبال سماء. و على كتفه و بيده البردة و القضيب النويان، و هما بماء الطهر المحمدي روّيان.

و لما قرب طغرلبك من المقر الأشرف، و المرقى المسجف، و رفعت ستارة البهو، و أنار وجه الخليفة، كالقمر في سدفه السدة الشريفة، أذى الفرض، و قبل الأرض. ثم مثل قائما للقائم، و وقف لترقب ما يقف عليه من المراسم. و صعد رئيس الرؤساء إلى سرير لطيف فقال له الخليفة: أصعد ركن الدولة إليك و معه محمد بن المنصور الكندري مفسرا و مترجما، و معربا عنه ما كان معجما. ثم وضع لطرلبك كرسي جلس عليه.

و فسر عميد الملك له تفويض الخليفة إليه. ثم قام طغرلبك إلى مقام الرفعة، و مكان الخلعة، و احتبى بعز الاحتباء، و اجتاب خلع الاجتباء. و توج و طوق و سور، و أبيضت عليه سبع خلع سود في زيق واحد، و اتخذت له مملكة الأقاليم السبعة، و شرف بعمامة سمكية مذهبة، فجمع له بين تاجي العرب و العجم. و سما بهما و تسمى بالمتوج و المعمم، و قلد سيفا محلي بالذهب. فخرج في أحلى الحلى و أهيب الأهب. و عاد و جلس على الكرسي، و رام تقبيل الأرض، و لم يتمكن لموضع التاج الخسروي. و سأل مصافحة الخليفة فأعطاه يده دفعتين، فقلبها و وضعها على العين. و قلده سيفا آخر كان بين يديه، فتم له بتقليد السيفين تقلد ولاية الدولتين. فخاطبه بملك المشرق و المغرب، و أحضر عهده و قال: هذا عهدنا يقرأ عليك، محمد بن منصور بن محمد، صاحبنا و وديعتنا عندك، فاحفظه و احرسه، فإنه الثقة المأمون، و انهض في دعة الله محفوظا، و بعين الكلائة ملحوظا.

قال: ولأبي الفضل صردّر في عميد الملك من قصيدة:

ملك إذا ما العزم حثّ جياده مرحت بأزهر شامخ العرنين

بأغز، ما أبصرت نور جبينه إلا اقتضاني بالسجود جيبني

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩١ عمّت فواضله البرية فالتقى شكر الغنى و دعوة المسكين

لو كان في الزمن القديم تظلمت منه الكنوز إلى يدى قارون قال: وفي سنة ٤٥٠ هـ انتقض على طغرلبك أمر الموصل، فقد كان استخلف بها الأميرين آدم و باتكين. فقصدتهما البساسيري و قريش بن بدران و حاصراهما أربعة أشهر، و اخرجاهما بأمان، فعاد طغرلبك الخروج إلى الموصل لطلب الداء المعضل، و نصب بنصيين مضاربه، فخالفه إبراهيم بن ينال خالعا للطاعة، و مضى إلى همذان ناويا للمناوأة. فسار السلطان و رأوه من نصيين إلى همذان في سبعة أيام، و نفذّ وزيره عميد الملك و زوجته خاتون إلى مدينة السلام. ثم كتب إليهما يستدعيهما، فتمسك بهما الخليفة، و تواترت الأراجيف المخيفة، فتارة بوصول البساسيري، و تارة بانهبام السلطان من أخيه.

قال: و شرع عميد الملك الكندري في أخذ العهد بالمملكة لأنوشروان ابن خاتون، و أنفق من ماله الظاهر و المخزون. فما وفقا و لا استوثقا. و أرادت خاتون القبض عليهما فهربا. فأما عميد الملك فإنه انحدر إلى الأهواز، و أمن عند هزار سب بن بنكير بن عياض من الإعواز. و سارت خاتون تطلب السلطان، و لحق بها ولدها أنوشروان، و ذلك في سنة ٤٥١ هـ. و في هذه الفترة تمت فتنة البساسيري، و دخل إلى بغداد سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ و خرج سادس عشر ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ، و كانت سنة سيئة كادت تكون لنور الله مطفئة. فإنه دعى إلى الدعى بمصر مصرًا، و لم يجد الخليفة بمقره من دار الإمامة مقرا. و حصل من تلك الحادثة بالحديث، و تواتر منه إلى طغرلبك إمداد كتبه و رسله المستصرخة المستغيثة. و هو مشغول بحرب أخيه، مهموم بما هو فيه، مغلوب الجند مسلوب الجدل. قال: و صلب البساسيري رئيس الرؤساء و أبا محمد بنّ المأمون رسول الخليفة في استدعاء السلطان طغرلبك و قتل أصحاب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر أحمد ابن عليّ و اختل نظام الإسلام، و اعتلت دار السلام، و طالت غربة الإمام، و هالت كربة الأنام. إلى أن استنجد السلطان أولاد أخيه ألب أرسلان و ياقوتى و قاورد بنى داود و هو بالرّى، فأنجدوه و أسعفوه و أسعدوه، فخرج بهم إلى إبراهيم بن ينال بهفتان بولان

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٢

فكسره، ثم وجده و قد وقف به فرسه فأسره، و خنقه بوتر لوتره، و خنقه بوتر لوتره، و استراح من حثّ زميله إليه عميد الملك و جهز هزار سب جهاز مثله، و أفضل عليه لفضله. و لم يبق لطغرلبك بعدها سوى رد الخليفة إلى داره، و إظهار قمره من سراره. و رحل نحو بغداد فأحس البساسيري بريحه، و أيقن بتيابه و وقع في تباريحه. و لما قربت العساكر السلجقية من بغداد بعد، و قامت قيامته و ما قعد، و كان الخليفة بحديثه عانة فطلبه قريش بن بدران من ابن عمه مهارش بن مجلىّ فحماه، و ما أباح حماه.

قال: و خرج مهارش بالخليفة إلى تلعفر، فقصد بدر بن مهلهل و معه الفقيه ابن فورك و قد تيمن به و تبرك، و هناك فاز من وحد، و هلك من أشرك. و لما وصل السلطان إلى بغداد سير إلى الخليفة عظماء مملكته، و صدر وزارته عميد الملك و أنوشروان ابن خاتون و معهم المهد و السرادق، و الخيل السوابق. و لما مثلوا بالحضرة الشريفة، و شاهدوا أحوال الخليفة، أراد عميد الملك أن يكتب إلى السلطان كتابا بشرح الحال، و بوصف ما اجتلاه من المهابة و الجلال. و لم يكن بين يدى الخليفة دواء، و لا أداة للكتابة مسوأة.

فأحضر من خيمته دواء عليها من الذهب ألف و سبعمائة مثقال و أضاف إليها سيفا ذا فرند و صقال، و قال: هذه خدمة محمد بن منصور أصغر الخدم، و قد جمع في هذه الدولة بين السيف و القلم. و أحسن الخليفة قبوله و خطابه، و توج بخطه الشريف كتابه. و لما وصل الخليفة إلى النهروان، وصل إليه السلطان، و تباشرت بقدمه الأوطار و الأوطان، و استأذنه عميد الملك في حضور

السلطان، فأذن و دخل، و قبل الأرض سبع مرات، و أتى من أدب الخدمة الممكن. و قدم له الخليفة مخدّة من دسته و قال: اجلس. فقبلها و جلس، و آنسه فأنس. و جعل عميد الملك يفسر لهما و يترجم، و يعرب و يعجم.

و السلطان يعتذر عن تأخره و تراخيه، بما شغله من وتر أخيه. فمهد عذره، و همد ذعره، و قلده الخليفة سيفاً تبرك به. و كان قد خرج معه من الدار و ذلك يوم الأحد الرابع و العشرين من ذى القعدة، و استقر أن يدخل إلى الدار غداً، و يعيد بعودة عيش الإسلام رغداً. فلما أصبح السلطان تقدم إلى باب النبوي و جلس مكان الحاجب. فلما قرب الخليفة، قام و أخذ بلجام بغلته، و مشى في خدمته إلى باب حجرته، و ذلك يوم الإثنين الخامس و العشرين من ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ، فعادت الأنوار إلى الطلوع،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٣

و الأنوار «١» إلى الهموع، و حلّ الشرف في موطنه، و فاض الكرم من معدنه.

قال: و هرب البساسيري إلى حلة ديبس بن علي بن مزيد، و قد ولت سعادته فهو مطلق في زى مقتيد. فسير السلطان وراءه عسكرياً، مقدموه: سرهنك ساوتكين و أنوشروان و خمارتكين الطغرائي و أردم، و أنفذ معهم ابن منيع الخفاجي، فواقعا البساسيري و أوقعوه، و وقع في فرسه سهم رميت به فرمته، و حام حوله حماته فما حتمته. و صادفت وجهه ضربة أدمته. و كمش كمشكين العميدى فأسرته، ثم احتز رأسه، و حمل إلى بغداد، و علق قبالة باب النبوي، و زالت بزواله نوبة النبوة الحائلة بالمحل النبوي، و استقام الأمر، و أرجّ النسر، و تولت الغماء، و توالى النعماء. و كان طغرلبيك بواسط فقدم بغداد في صفر سنة ٤٥٢ هـ، فعمل له الخليفة في روشن التاج سماطاً، و أحضر عليه من أكابر دولته رؤساء و أوساطاً. ثم عمل للسلطان في ثاني ربيع الأول سماطاً آخر، فاضل به من قبله من الملوك و فاخر. و توجه في خامس الشهر إلى الجبل.

و دخل عميد الملك إلى الخليفة فأقامه في موضع الاصطفاء، و لقبه سيد الوزراء.

قال: و في سنة ٤٥١ هـ احترقت ببغداد دار الكتب التي وقفها الوزير شابور ابن أردشين بين السورين، و أخذ عميد الملك ما سلم من النار و كان أحد الحريقين.

و توفيت في ذى القعدة سنة ٤٥٢ هـ خاتون زوجة السلطان بزنجان.

قال: و لما رحل السلطان استصحب معه أرسلان خاتون ابنة أخيه زوجة الخليفة.

فلما استقر الرأي، عزم على نشر ما كان من رغبته في الطي. و سير قاضي الري أبا ساعد صاعداً إلى دار الخلافة رسولاً، و ضمن رسالته في خطبة السيدة ابنة القائم سؤالاً و سؤالاً، و ذلك في سنة ٤٥٣ هـ. فندب الخليفة للجواب أبا محمد بن التميمي للاستعفاء، و أنه لم تجر بهذا سنة الخلفاء. ثم قيل له: إن عدمت في الاستعفاء الوسائط، فاطلب صدقاً ثلثمائة ألف دينار و أعمال واسط. فلما وصل ابن التميمي، أعلم عميد الملك بالحال، فقال: أما الاستعفاء فلا. يحسن مع رغبة السلطان و ضراسته في السؤال، و أما طلب المال و الأعمال، فيقبح لأنه يفعل أكثر ما يدور في خواطر الآمال، و الصمت

(١) هكذا في الأصل و لعله تصحيف من الناسخ و هو يريد أن يقول: "و الأمطار إلى هموع" أي: إلى النزول.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٤

أولى من هذا المقال. فخلني أخل سررك من هذا السر، و دعني أتول هذا الأمر. فقال ابن التميمي: الأمر إليك، و الاعتماد عليك، و الصواب ما تدبره، و التدبير ما تستصبيه، و أنت أعرف بما تخاطب به صاحبك و بما تجيبه. فقال عميد الملك للسلطان: إن القضية قد تسهلت، و إن العقدة قد تحللت، و إن المنية قد أمكنت، و إن البغية قد تمكنت.

فأشاع السلطان خطبته، و أذاع رغبته. و تقدم إلى عميد الملك بالمسير مع أرسلان خاتون بنت أخيه زوجة الخليفة إلى دار الخلافة، و استصحب ما جاوز حد الكثرة من الدنانير المبدرة و الجواهر المثلثة، و سير معها عدة من الأكابر و ذوى العلى، و من عظماء الديلم:

فرامر بن كاكويه و سرخاب بن كامروا. و كان قد وزر للخليفة في تلك السنة مجد الوزراء أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، فخرج لتلقى الواصلين إلى قرب النهروان، و التقى هو و عميد الملك و هما راكبان، و دخل عميد الملك بغداد و جلس على باب النوبى. فلما وصلت خاتون، سار في خدمتها إلى دارها، ثم حضر بيت النبوة و أخذ دواة الوزير ابن دارست. و أنهى حضوره و حضور الأمراء الذين معه، و أدى من الرسالة ما أودعه. فنفر الخليفة و غضب، و غاض ماء بشره و نصب، و قصد الامتناع و منع المقصود و سد الباب و لم يفتح الباب المسدود. فشرع عميد الملك يتكلم بكل فن، و يقعق بكل شن، و يقول: ما بالكم افترحتم، ثم امتنعتم؟ و فيم ذهبتم إلى أبعد غاية في الطلب ثم رجعتم؟ و قد خاطرتم عند السلطان بدمى، و أزلتم بما قدمتم من التقدم قدمى. فأخرج إلى النهروان مضاربه، و خلع الأهبة السوداء و لبس البياض، فاستوقفه ابن يوسف و قاضى القضاء ليستنزله من المضارة إلى المراضة. و ما زال يتلطفان به، حتى حضر بعد ذلك عند الخليفة دفعتين، و معه جماعة من الأمراء و الحجاب و القضاء و الشهود، و بلغ في الخطاب و بذل المجهود. و ذلك في جماد الآخر سنة ٤٥٣ هـ.

و قال الخليفة: «نحن بنو العباس، خير الناس. فينا الإمامة و الزعامة، إلى يوم القيامة. من تمسك بنا رشد و هدى، و من ناوأنا ضل و غوى».

و كان الخليفة قد كتب إلى عميد الملك: أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به الخادم الناصح شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه، و سمت نفسه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٥

إليه. و أراد أن يقول الخليفة ما يلزمه من الإجابة، ففطن لذلك و غالطه و قال: قد سطر في الجواب ما فيه كفاية. فانصرف عاتبا، و ذهب مغاضبا. و راح راحلا و رد المال إلى همذان، و أخبر بالحال السلطان.

و كان الخليفة قد كتب إلى خمارتكين الطغرائى يشكو من عميد الملك و إلحاحه.

فكتب في جوابه يشير بالرفق و التطفل، و ينص على التثبيت و التوقف. فنسب عميد الملك قطع الحديث في الوصلة إلى مخامرة خمارتكين فتغير، السلطان عليه فرب و هرب، و تسرع و تسرب. و كتب السلطان إلى قاضى القضاء و الشيخ أبى منصور يوسف بالعتب الممض، و الخطب المقض، و قال: هذا جزائى من الإمام القائم و قد قتلت أخى فى طاعته، و وهبت عمرى لساعته، و أنفقت أموالى فى خدمته، و طلبت فقرى لثروته! فما باله ما بالى بردّ قولى، و قال بردى، و صدّ قصدى، و قصد صدى! و كتب إلى عميد الملك بأن يقبض الإقطاعات و لا يترك للخليفة إلا ما كان باسم الإمام القادر قديما، و أن يكون لمعارضه أسبابه مستديما. فحضر العبيد رئيس العراقيين بيت النبوة و عرض الكتب، و أعاد العتب. فخرج جواب الخليفة: ما رجونا من ركن الدين ما صنع، و ما توقعنا ما وقع، و بين يديك الإقطاعات فاقطعها، و قد ارتفعت الموانع فامنعها.

قال: و خرجت السنة، و الوحشة القائمية قائمة، و عين التأسيس عن إزالة أسبابها نائمة. فلما دخلت سنة ٤٥٤ هـ أجاب الخليفة فى المحرم منها إلى الوصلة، و كتب و كالة باسم عميد الملك شهد فيها قاضى القضاء و ابن يوسف بما سمعاه من تلفظه بالإجابة، و ضبطت الشهادات بالكتابة. و سير أبو الغنائم بن المحلبان فى الرسالة، و استصحب كتابة الوكالة: فسر السلطان و احتفل، و وفى له القدر بما كفل. و عقد العقد فى ظاهر تبريز بالمخيم. و كان رئيس العراقيين بالمعسكر فأعيد إلى بغداد فى صحبة ابن المحلبان، و سيرت على يده الهدايا، و أصحبه برسم الخليفة ثلاثين غلاما و جارية أتراكا، على ثلاثين فرسا و خادمين، و فرسا بمركب ذهب و سرج مرصع بالجواهر الثمينه، و عشرة آلاف دينار، و برسم السيدة عشرة آلاف دينار، و توقيعاً ببعقوبا و ما كان لخاتون المتوفاة بالعراق، و عقدا فيه ثلاثون حبة، كل لؤلؤة مثقال، و برسم عدة الدين خمسة آلاف دينار، و برسم السيدة والدة المخطوبة ثلاثة آلاف دينار، و ذلك فى شوال من السنة. فلما قرب رئيس العراقيين من بغداد، تلقاه الناس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٦



و استبشروا بانتظام الألفه بين الإمامة و السلطه، فلما وصل إلى باب النبى نزل و قبل الأرض، ثم وصل إلى باب أرسلان خاتون زوجة الخليفة، و أدى من خدمتها الفرض، و أوصل إليها ما حملة. فتولت تسليمه، و باشرت عرضه بالمقام النبوى و تقديمه.

### ذكر سبب تولى ابن دارست وزارة الخليفة إلى حين انصرافه

قال: كانت وزارته فى سنة ٤٥٣ هـ و سبب ذلك أن الخليفة لما عاد إلى الدار عدم الوزير، و فقد من يتولى التدبير. فحدث رأيه بأنه يستخدم رجلا خدمه بالحديثه، و هو أبو تراب الأثيرى، و قد وجده أثير الأثر فلقبه حاجب الحجاب عزّ الأمه، و استخدمه فى الإنهاء و حضور المواكب و تنفيذ الأوامر المهمه.

قال: و كانت بين ابن يوسف و بين الأثيرى وحشه، حملت ابن يوسف على أن ذكر ابن دارست و قرّظه، و قال: إنه مع أمانته يخدم بغير إقطاع و يؤدى مالا. فمضت الكتب إليه و هو فى شيراز باستدعائه، فقدم الجواب باستعفائه. فخرج إليه ابن رضوان و معه ظفر الخادم لاستقدمه، و قوى عزمه أبو القاسم صهر ابن يوسف، فورد بقوة اعتزامه. و كتب عميد الملك عن السلطان إلى الخليفة بأنه كاره لاستقدمه و استخدامه، لا ملاقة مع ثروة المال من الكفاية و إعدامه. فأجاب الخليفة: أنه مع وصوله إلى واسط و مفارقتة وطنه، لا يجوز رده، و لا يخلف وعده. و قدم بغداد ثامن ربيع الأول سنة ٤٥٣ هـ، و وصل إلى الخليفة فى منتصف شهر ربيع الآخر، و أفيضت خلع الوزارة عليه، و أفضت مع الوزارة الأمور إليه. و بقى فى المنصب منتصبا إلى رابع ذى الحجة سنة ٤٥٤ هـ، فإنه صرف من تلك المراتب بل ترك الخدمة مستعفيا، و لرقه جاهه مستجفيا. قال: و كانت وفاته بالأهواز حادى عشر شعبان سنة ٤٦٧ هـ.

### ذكر حوادث فى هذه السنين

قال: فى سنة ٤٥٠ هـ توفى القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبرى ببغداد، عن مائة سنة و سنتين. و كان صحيح السمع و البصر، سليم الأعضاء يناظر و يفتى، و يستدرك على الفقهاء. و حضر عميد الملك الكندرى جنازته، و دفن بالجانب الغربى عند قبر الإمام أحمد بن حنبل.

قال: و فى آخر هذه السنة توفى أفضى القضاة أبو الحسن على بن محمد ابن تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٧

حبيب الماوردى، و قد كان فى العلم بحرا زاخرا، و فى الشرع بدرا زاهرا.

قال: «بسطة الفقه فى أربعة آلاف ورقه (يعنى الحاوى) و اختصرته فى أربعين» (يعنى الإقناع)، فى لهما من بحرین نضبا، و بدرين غربا، و طودين وقعا، و جودين أقلعا.

قال: و فى سنة ٤٥٣ هـ توفى قريش بن بدران، و تولى ولده مسلم إمارة بنى عقيل. و توفى فى شوالها نصر الدولة أبو نصر بن مروان بميفارقين، عن نيف و ثمانين سنة. و فى يوم عرفة من سنة ٤٥٤ هـ وزر فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير للخليفة. و سبب ذلك أنه كان مقيما بميفارقين عند ابن مروان فى جاه و عز، أمرناه فسمت همته و علت سعادتة. و كتب إلى الخليفة يرغب فى زيارته لوزارته، و أنه يبذل بذلا، و يحمل حمولا. فندب إليه من دار الخلافة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبى، و قرر ما أراد تقريره و دبر ما شاء تدبيره. فخرج من ميفارقين عند انفصال نقيب النقباء ليودعه، و سار معه، وفات ابن مروان و لم يلحقه لما تبعه.

و خرج الناس عند وصوله إلى بغداد لاستقباله، و نزل بالحريم الطاهرى، و مكث ثمانية أيام حتى جاوز الكسوف، و نشق نشر العز المشوف. و تيمن بيوم عرفة فحضر بيت النبوة و قد أسعدته السعادة، و اجتمع هناك من طبقات الناس من جرت به العادة. و احتفل له الخليفة بالجلوس، و طلع نور اليمن من أفضه، و قرأ أمين الدولة أبو سعيد بن الموصلايا توقيعا خرج فى حقه.

## ذكر وصول السلطان طغرلبيك إلى بغداد

قال- رحمه الله:- في محرم سنة ٤٥٥ هـ توجه السلطان إلى بغداد من أرمية بعزم الدخول على الزوجة، و خرج فخر الدولة بن جهير و تلقاه بالقفص في الموكب الأعظم و الأبهة الباهرة و الأبهة الزاهرة. و نزل عسكره بالجانب الغربي فزادت به الأزية «١»، و ارتاعت الرعية، و وصل عميد الملك إلى السدة الشريفة مطالباً بالشريفة السيدة فوقت الإجابة في نقل الجهة إلى دار المملكة، و نزلت منها في الهجرة الشرقية باليمن و البركة: و زفت في ليلة النصف من صفر و جلس على سرير ملبس بالذهب، يخطف

(١) كذا في الأصل و لعله يريد "الأذية" أي الضرر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٨

النواظر منه أشعة الذهب. و دخل إليها و قبل الأرض و خدمها، و جلس بإزائها على سرير ملبس بالفضة، و قد كان أنفذ لها مع بنت أخيه زوجة الخليفة، عقدين نفيسين ثمينين، و جاما خسروانيا من إبريز العين، و فرجية من نسيج الذهب مكللة بالحب. و صارت نفسه لها موكلة بالحب، و ظهر منه بها سرور، و سره منها لشرفه ظهور. و بقي مدة أسبوع يهب و يخلع، و يمنح و لا يمنح، و خلع على عبيد الملك و على الأمراء، و أفاض التشريفات على الأكابر و العظماء. فقد كان ورد معه إلى بغداد أبو علي ابن الملك أبي كالجار. و هزار سب. و فرامر بن كاكويه، و سرحاب بن بدر بن مهلهل. فما منهم إلا من أفضيت عليه الخلع الرائقة، و أضيفت له العطايا اللائقة.

قال: و حضر عميد الملك في تاسع شهر ربيع الأول بيت النبوة، و استأذن للسلطان في الأوبة، و أن يستصحب السيدة و الخاتون، و ذكر أنهم بعد مضيهم عن قريب آتون، فأذن في ذلك الخليفة. و كانت إرسال خاتون قد حملت من أطراح الخليفة لها غما. و أما السيدة فقد كره الخليفة مسيرها. فلما مضت أمضت بألم فراقها، و ومضت لأمل رفاقها. و لما انفصل السلطان عن بغداد أذن لهزار سب في المضى إلى الأهواز، مرعياً بالإعزاز. فإنه مكث على بابه ثلاث سنين لا يؤذن له في الانفصال، و لا يؤذن إربه المفارق بالوصال. و عقد ضمان بغداد على أبي سعد القايني بثمانية و خمسين ألف دينار، فأعاد كل ما أبطله رئيس العراقيين من ضر الضرائب، و شر النوائب. و قد كان هذا يتولى مطبخ عميد الملك، و هو أستاذ داره، فجرى المقدور برفع مقداره.

## ذكر وفاة السلطان طغرلبيك بالرئى

قال: و في يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ توفي طغرلبيك بالرئى فاضطرب بهلكه الملك. و بلغ عميد الملك نعيه و هو على سبعين فرسخاً من الرئى فقطعها في يومين إشفاقاً من تشويش يتم، و تشوير «١» يتم. فوصل و هو بحاله لم يدفن و لم يقبر، فتولى دفنه، و توخى سكون الخلق و أمنه. و منع الغلمان من شق الثياب، و أخرج جميع ما كان يملكه على العسكر حتى الدواب. و أجلس سليمان بن داود ابن أخى السلطان.

(١) التشوير: الفتنة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ١٩٩

و كانت أمه عنده، و نص عليه، و قرر الأمر له و فوضه إليه. فسكنت الممالك، و أمنت المسالك.

## ذكر سيره طغرلبيك - رحمه الله -

قال: كان كريما حليما محافظا على الطاعة، و صلاة الجماعة، و صوم الاثنين و الخميس. و كان يلبس الواذاري و البياض، و أشبهت أيامه بمحاسن سيرة الرياض.

و كان لا يرى القتل و لا يسفك دما، و لا يهتك محرما. و كان شديد الاحتمال، شديد الأفعال. حكى عنه أفضى القضاة الماوردي أنه توجه في رسالته القائم إليه في سنة ٤٢٣ هـ، فكتب فيه كتابا «ضمته الطعن عليه و القدح فيه، و غمط محاسنه و بسط مساويه. و وقع الكتاب من غلامى فحل إليه، فوقف عليه، ثم ختمه و كتبه، و لم يتغير عن عادة إكرامى و شيمه احترامى» قال: و كذلك ذكر أن بعض خواصه كتب ملطفات إلى أبى كالجار، يطلعه فيها على بعض الأسرار. فوعدت في يده فأخفاها، و داوى هفوته بحلمه و شفاها. و كان كثير الصدقات حريصا على بناء المساجد، متعبدا متهجدا. و يقول: أستحي من الله أن أبني دارا و لا ابني بجنبها مسجدا. قال: و حكى عميد الملك، أنه لما مرض قال: إنما مثلى في مرضى مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف. فظن أنها تذبح فتضطرب، حتى إذ أطلقت تفرح، ثم تشد قوائمها للذبح، فظن أنها لجز الصوف. و تسكن فتذبح. و هذا المرض شد القوائم للذبح، و كان كما قال. قال: و توفى و عمره سبعون. قال: و حكى عميد الملك أن طغلبك قال له: رأيت منامى في مبتدأ أمرى بخراسان كأنى رفعت إلى السماء، و قيل لى: سل حاجتك تقض، فقلت: ما شىء أحب إلى من طول العمر. فقيل: عمرك سبعون. قال: قال عميد الملك: و كنت سألته عن السنه التي ولد فيها، فقال: السنه التي خرج فيها الخان الفلاني بما وراء النهر. فلما، توفى حسب المده فكانت سبعين سنه كامله. و لما وصل خبر وفاته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدوله ابن جهير للجزاء به في صحن السلام في السادس و العشرين من شهر رمضان.

### ذكر جلوس السلطان عضد الدوله ألب أرسلان أبى شجاع محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجق

قال: توفى أبوه داود ببلخ سنه ٤٥٠ هـ، و قام مقامه. و لما خطب لأخيه سليمان

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٠

بالرى بعد وفاة طغلبك، مضى أرسعن و أردم إلى قزوین، و خطب لألب أرسلان.

و بلغ عميد الملك ذلك، فأقام الخطبه بالرى لألب أرسلان، و بعده لسليمان. و أقبل إقبال الضيغم الضارى. و أقدم إقدام الخضم الجارى. و كان ابن عم أبيه قتلش بن إسرائيل في كردكوه، و قد طمع في الملك، و لم يعلم أن ذلك يورطه في الهلك. فعارضه في جموعه فتقابلوا و تقاتلا و انجلت المعركه عن قتل قتلش و كانت منيته في عثور الفرس به. و قتل ألب أرسلان من التركمان عدده وافر، و حاز من أموالهم غنيمه ظاهره. و ساق حتى وصل إلى خوار الرى ظافر الجند، ظاهر الجند و معه وزيره نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى. فتلقاه عميد الملك في حشمه و خدمه و كوسه و علمه، و عربه و عجمه. و أجلسه على السرير، و جرى على عادته معه في التدبير. فغار نظام الملك من استقلاله، و احتال مده في قبضه و اعتقاله. فلما كان في محرم سنه ٣٥٩ هـ زار عميد الملك نظام الملك زيارة إيناس و اعتذار، و ترك بين يديه منديلا فيه خمسمائة دينار. فلما انصرف من حضرته، سار أكثر العسكر في خدمته. فتخوف السلطان من عاقبه ذلك و مغبته، فأمر بقبضه و أنفذه إلى مرو الروز و مكث سنه في الاعتقال بها. ثم سير إليه غلامين فدخلا عليه و هو محموم، و أخبراه بأن قتله أمر محتوم. و أنظراه حتى اغتسل و توضأ و تاب، و دخل لوداع أهله، و خرج إلى مسجد فضلى ركعتين، و استسلم للقضاء المقدر بالحين، و وجد الغلظه من الغلامين، و ضرباه بالسيف و أخذوا رأسه و حملاه إلى السلطان بكرمان. و أما جثته فإنها لفت في خرقة كانت لفافه البرده النبويه كان استهداها من الخليفه، و في قميص ديبقى من ملابس القائم الشريفة. و قبر في أبيه بكندر.

و كانت مدته وزارته ثمانى سنين و شهورا. و لم يزل موسم جاهه فيها مشهودا مشهورا. و كان عمره نيفا و أربعين سنه. و كانت محاسنه مفضله، و فضائله محسنه. لكنه لكنه تهوره و تهوينه، و غاية غيه في سوء التدبير و توهينه، قصرت يده الطولى عن استماله القلوب

الجافية، واستلانة الخطوب الآبية. قال: و كان يرجع إلى حسب و نبل و أدب و فضل. و هو الذى يقول:  
الموت مر و لكنى إذا ظمئت نفسى إلى المجد مستحل لمشربه  
رئاسة باض فى رأسى وساوسها تدور فيه و أخشى أن تدور به  
تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠١

قال: و كان خصيا. و سبب ذلك أن طغرلبك أنفذه فى ابتداء حاله، و ريعان إقباله، ليخطب امرأه فزوجها لنفسه و عصاه، و لما ظفر به  
أقره على خدمته بعد أن خصاه. و كان حنفى المذهب كثير التعصب لمذهبه، و الذهاب مع عصبته. ثم فارق التعصب و جمع بنى  
العصابتين، و حسن رأى اجتهاده فى الإصابتين. و كان سبب معرفته بطغرلبك، أنه لما ورد نيسابور افتقر إلى كاتب يجمع فى العريية و  
الفارسية بين الفصاحتين، فدلّه عليه الموفق والد أبى سهل، فظفر منه بشاب فى رأى كهل.

### ذكر نظام الملك

قال: و لما صرف عميد الملك و عزل، و نقل إلى حيث اعتقل. استوى أمر نظام الملك و بزغت بالسنة شمسه، و بلغت المنى نفسه، و  
علا علمه، و جرى قلمه. و ترفعت و سادته، و تفرعت سيادته. و مضت مضاربه، و مضت سحائبه.

### \*\*\* ذكر ما جرى لألب أرسلان بعد ملكه

قال- رحمه الله:- كان قاورد بن داود أخوه، قد استولى على كرمان فى زمان عمه طغرلبك فى سنة ٤٤٧ هـ، و ملك شيراز فى سنة  
٤٥٥ هـ، و قتل كل ديلمى بها و سفك و هتك، و بطش و أوحش. و خالف أخاه ألب أرسلان، و اعتمص منه بمدينة بردشير بكرمان.  
فسار إليه ألب أرسلان و آمنه، و أخذ قلعة اصطخر، و أتاه مستحفظها بتحف فيروزج، و كأس زمرد لم ير مثلها. و شمل بلاد فارس  
إحسان الدولة و عدلها.

قال: و وصل إليه شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش فى سنة ٤٥٧ هـ، فأكرم وفادته، و أكثر إفادته، و أجرى فى إقطاعه هيت و  
الأنبار و حربى و السن و البوازيج. و وصل شرف الدولة هذا إلى بغداد فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٧ هـ، فتلقيه الوزير، فخر الدولة ابن  
جهير، و ألقى من إقباله عليه خير ظهير. قال: و أوغل السلطان فى بلاد الخزر من طريق نخجوان، و كثر لإعانة الإيمان و نصره الأنصار  
و الأعوان.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٢

و ألبأ ملك الأبخاز بقراط بن كيوركى إلى طلب هديته، و عرض ابنته. فتزوج بها و هادنه، و قبل بذله و آمنه. ثم طلق الملكة الكرجية  
و زوجها لنظام الملك وزيره، و سار و فتح بلد آنى، و عنت له البلاد، و أذعنت العباد، و سرى البأس و سر الناس.

### ذكر وصول شرف الملك أبى سعد محمد ابن منصور بن محمد مستوفى المملكة إلى بغداد

قال: و كان وصوله إلى بغداد فى صفر سنة ٤٥٩ هـ، و قد كان جليل النسب، جلى الحسب. و ما تولى للسلاجقية مثله كرما و خيرا، و  
فضلا كثيرا، و غنى و غناء، و سنا و سناء. قال عماد الدين- رحمه الله:- و كان جدى لأمى أمين الدين على المستوفى- رحمه الله-  
كاتباً له فى ريعان عمره، و عنفوان أمره. إلى أن صار بعد كاتباً لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه. و كان يحدثنى فى صغرى و هو  
شيخ كبير عن شرف الملك بكل ما يدل على سيادة نفسه، و نفاسة سؤدده. و ذكر أنه كان مع فضله ذا تفضل، و مع إجماله ذا تجمل.  
و حكى أنه كانت له ثلثمائة و ستون كسوة مكملة. مفضلة معزلة على عدد أيام السنة، من الملابس الفاخرة، فيلبس كل يوم ما يناسبه  
من أيام الفصول الأربعة. فإذا خلع منها أو وهب، أعاد خازنه إلى الخزانة عوض ما ذهب.

فلما وصل إلى بغداد، حضر بيت النوبة في ثاني عشر صفر، فبشر بإقباله سفيرا وجه القبول، و سفر و خدم الخليفة بمصحف جليل، و قطعة بلخش في منديل. و أوصل كتاب السلطان في خريطة سوداء، و سر الأوداء، و ساء الأعداء.

قال: و وجد نواب نظام الملك الوزير قد شرعوا في بناء المدرسة، فاعتنم إقداره على الاقتداء، و بنى على ضريح أبي حنيفة- رحمه الله- باب الطاق مشهدا و مدرسة لأصحابه، و أعلم بمعلمها ثوب ثوابه. قال: و كتب الشريف أبو جعفر البياضى على القبة:

ألم تر هذا العلم كان مشتتافجمعه هذا المعيب في اللحد

كذلك كانت هذه الأرض ميته فأنشرها فضل العميد أبي سعد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٣

قال: و وصلت أرسلان خاتون زوجة الخليفة إلى بغداد في مستهل جماد الأول سنة ٤٥٩ هـ، و استقبلها الوزير فخر الدولة على فراسخ، و جلا- فجر فخره السافر و طود و قاره الراسخ، و وقفت موكبا له عند القرب من الالتقاء، و خدمها على ظهر فرسه بالدعاء. و أقبلت و قبلت، و دخلت و حلت و عادت إلى عادة السعادة، و وافت للزيادة، للإيفاء على الزيادة.

### ذكر حوادث طواري و طوارق و اتفاقات و موافقات

قال: في شهر رمضان سنة ٤٥٨ هـ توفي محمد بن الحسين بن الفراء شيخ الحنابلة، و ناهج طريقهم السابلة. و في هذه السنة استتم بناء المدرسة النظامية ببغداد، و انتظمت أحوالها، و سكنها من حملة الشريعة رجالها. و درس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي،- رحمه الله-، فأحيا من العلم ما درس، و كشف من الحق ما التبس. و شرح الأصول و فرعها، و أوضح الأدلة و نوعها. و في سنة ٤٦٠ هـ توفي الشيخ عبد الله أبو منصور بن يوسف، و كان من أمثال بغداد و أعيانها، و المرجوع إليه في نوائب الليالي و حدثانها. و كان قد أجمع الناس على صلاحه، و استجادة رأيه و استرجاحه. و من جملة خيراته، أنه تسلم اليمارستان العضدى و قد استولى عليه الخراب، و ناب أوقافه بالنوائب الثواب. فعمره و طبقه و أحسن في أحواله ترتيبا، و أقام فيه ثلاثة خزان و ثمانية و عشرين طيبا. قال: و رثاه أبو الفضل صردر بقصيدته التي أولها:

لا- قبلنا في ذا المصاب عزاء أحسن الدهر بعده أم أساء قال: و في هذه السنة توفي أبو الجوائز الواسطي، و كان شاعر زمانه، و فارس ميدانه. و في هذه السنة توفي أيضا أبو جعفر الطوسي بمشهد أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، و كان إمام الشيعة، و هو الذي صنف التفسير، و يسر من أمورهم العسير، و في جماد الأول من هذه السنة كانت زلزلة بأرض فلسطين أهلكت الديار و أتلفتها، و خربت مبانيها و نسفتها. و فيه توفي صاحب ديوان الزمام أبو نصر محمد بن أحمد المعروف بابن جميلة، و رثاه أبو الفضل بقصيدته منها:

إن يكن للحياء ماء فما كان له غير ذلك الوجه مزنا

لهف نفسى على حسام صقيل كيف صارت له الجنادل جفنا

و نفيس من الذخائر لم يؤمن عليه فاستودع الأرض حزنا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٤

قال: فرتب في ديوان الزمام أبو القاسم بن فخر الدولة بن جهير، و لقب عميد الرؤساء، و اجتاب خلعة الاجتباء. و مدحه أبو الفضل بقصيدته التي أولها:

صبحها الدمع و مساهما الأبرق كم بين هذين بقاء للحدق و في ثاني عشر رجب ورد إلى بغداد أبو العباس الخوافي عميدا، و قدم بخوافي جاهه و قوادمه حميدا. قال: و عزل الوزير فخر الدولة بن جهير ليلة المهرجان في ذى القعدة بالتوقيع الإمامي بمحضر من قاضى القضاة أبي عبد الله الدامغانى، فسار إلى نور الدولة ديبس و هو بالفلوجة فأواه و أكرم مثواه. و قد كانت الوزارة تقررت لأبى يعلى والد الوزير أبى شجاع، و هو كاتب " هزارسب " بن بنكير فكوتب للزيارة، و خوطب بالوزارة فورده الخبر بمرضه يوم صرف ابن

جهير، و بوفاته يوم وصوله إلى الفلوجة كما جرى به قلم التقدير.

و في سنة ٤٦١ هـ عول الخليفة في الوزارة على أبي الحسن بن عبد الرحيم، فثار العوام وقالوا: لا طاقة لنا من ظلمة بورود الجحيم، فهو الذي أتى بالبساسيري و أعلن أحداث الليالي، و قالت خاتون: هو الذي نهب مالي. فصرف قبل التصريف، و نكر قبل التعريف. و لم يزل الخليفة فيمن يستوزره يفكر، حتى كاتب نور الدولة الخليفة في معنى ابن جهير، و ذكر أنه خير وزير و ظهير. فأجاب إلى إعادته إلى عادته.

و وصل في ثاني عشر صفر و جلس له في التاج، و وحد أمله بالنجح مفتوح الرتاج.

و قال له: «الحمد لله جامع الشمل بعد شتاته و واصل الحبل بعد بتاته». و في تلك النبوة مدحه صردر أبو الفضل بقصيدته التي مطلعها: قد رجع الحق إلى نصابه و أنت من دون الوري أولى به و ركب هو و ولداه في موكب، و اجتاز في جميع محال الجانب الغربي و نثر عليه أهل الكرخ أكياس الدراهم و الدنانير، و خرج إليه توقيع من إنشاء ابن الموصلايا، و تسنت له المراتب السنايا. قال: و في النصف من شعبان هذه السنة احترق جامع دمشق، ففجع الإسلام بمصابه، وصلت النيران في محرابه و اشتعل رأس القبة شيئا بما سبت، و أكلت أم الليالي منها ما ربت. و طار النسر بجناح الضرام، و كاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٥

و كأن الجحيم استجارت به فتمسكت بذيله، أو كأن النهار ذكر ثأرا عنده فعطف على ليله .. فواها له من مسجد أحرقتة نفحات أنفاس الساجدين، و علفت فيه لفحات قلوب الواجدين. و قيل: أصابت حسنها العيون، و اتهم بذلك الولاة المصريون. ثم تداركه الله بالأطاف و الإطفاء، و أتاه بالشفاء بعد الإشفاء. و قال: حسبه اصطلاء و اصطلاما، و حقق فيه قوله: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا.

قال: و في سنة ٤٦٢ هـ أقبل كلب الروم في جموعه، و أخنى على من بمنبج و اجتاحتها، و استبى حاميتها و استباحها. و عاد إلى قسطنطينيته و قد ساءت آثاره، و الدين قد ثار ثاره. و في هذه السنة زوج نظام الملك بنته لعميد الدولة أبي منصور محمد بن فخر الدولة الوزير بن جهير، و صارت له مصاهرته خير ظهير. و كان عميد الدولة قد توجه إلى السلطان بالرى في رسالته، فتلقى بكرامة و جلالته. و استتمت له هذه المصاهرة، و استتبت المظاهرة. و وصل في رجب، و في صحبته رسل محمد بن أبي هاشم، و قد كان بعثهم إلى السلطان، و ضمن لهم إقامة الخطبة له بمكة، حرسها الله تعالى. و خلع الخليفة على عميد الدولة في بيت النبوة، فرفل في ملابس الاصطناع، و جعل إليه الإنهاء و المطالعة و مراعاة الإقطاع. و قرئ له توقيع من إنشاء ابن الموصلايا تمكن به من افتراع عذرة الارتفاع، و تصدر في الوسادة، و تصدى للسيادة.

و في هذه السنة توفي تاج الملوك هزار سب بن بنكير بن عياض منصرفا من باب السلطان ألب أرسلان و هو خارج من أصفهان على قصد خوزستان. و كان قد علا أمره و عرض جاهه، و تزوج بأخت السلطان، و استظهر منه بالمكانة و الإمكان. و تزوج بعده مسلم بن قريش بأخت السلطان زوجته، و تدرج إلى درجته. و في هذه السنة ورد أمير الحرمين محمد بن أبي هاشم الحسنى إلى بغداد على قصد الوفادة إلى السلطان، فكتب الخليفة معه بعد أن شرفه و رفعه، و عاد في محرم سنة ٤٦٣ هـ من المعسكر السلطاني على باب آمد، و قد استفاد الفوائد، و أفاد المحامد.

### ذكر أحوال ألب أرسلان بديار بكر و الشام

قال- رحمه الله-: و لما توجه ألب أرسلان إلى ديار بكر، خرج إليه نصر ابن مروان و تلقاه، و حمل له مائة ألف دينار، فقبل إحسانه و أحسن قبوله، و سأل عن

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٦

قضاياه وقضى سؤله. وقيل: إنه قيل له إن هذا المال قد قسطه على البلاد فأمر برده، وعف عنه وعاف و بيل وردة، وانتهى إلى آمد آمد من قصده. فوجد ثغرها ممتعا، وسورها مرتفعا. فمسح السلطان للتبرك به يده على سورها وأمرها على صدره. ثم توجه منها إلى الشام وعبر بالرها، وتعذر عليه أمرها. فحل بحلب و شرع في حصارها، وأحاط بأسوارها، وصاحبها حينئذ محمود بن صالح بن مرداس و كان قد خطب في تلك السنة لبنى العباس. و قد وجد لتشيريف الخليفة خلف سروره جافلا، وأصبح في ملابس الجلال و خلع الجمال رافلا، و عنده من جانب الخليفة نقيب النقباء الكامل أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي، فضايقه ألب أرسلان و أخذ بمخنقه، و وقف على طرقة. و خرج نقيب النقباء و سأل أن ظل الإكرام عنه لا يقلص، و أن ورد الأنعام عليه لا ينغص. فأبى الرضى عن محمود إلا بدوس بساطه حامدا راضيا، و لعفوه عافيا، و لحق طاعته و ضراعتة متقاضيا. فلم يخرج إليه، فاحتد القتال، و احتدم النزال. و طال الحصار، و طارت الأحجار. و وقع في فرس السلطان حجر استشاط من وقعته، فخرج ليلا إلى السلطان و معه والدته منيعة بنت و ثاب النميرى يخضعان و يضرعان، و قالت للسلطان: «هذا ولدى قد جتتك به فافعل ما تحب. و قد اعترفنا و عرفنا أن سلامتنا إلا بسلمك لا تستتب». قال: فعفا السلطان و صفح، و أعاد محمودا إلى مكانه محمود المكانة، و قد ارتفع بالتواضع و تسامى بالاستكانة، و أمنت الشهباء، و سكنت الدهماء.

### ذكر خروج ملك الروم و كسره و قسره و أسره

قال: و بلغ السلطان خروج أرمانوس ملك الروم في جمع لا يحصى عدده، و لا يحصر مدده. فلما سمع هذا الخبر أخذ السير إلى أذربيجان، إذ سمع أن متملك الروم أخذ على سمت خلاط (١). و كان السلطان في خواص جنده، فلم ير أن يعود إلى بلاده ليجمع عساكره، و يستدعى من الجهات للجهاد قبائل الدين و عشائره. فسير نظام الملك وزيره و خاتون زوجته إلى تبريز مع أثقاله، و بقى في خمسة عشر ألف فارس من نخب رجاله، و مع كل واحد فرس يركبه و آخر يجنبه، و الروم في ثلاثمائة ألف و يزيدون، ما بين رومى و روسى و غزى و قفجاقى و كرجى و أبخابى و خزرى و فرنجى

(١) سمت: طريق، و خلاط: اسم المقاطعة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٧

و أرمنى. و رأى السلطان أنه إن تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت و عظم بلاء البلاد، و ثقلت أعباء العباد. فركب في نخبته و توجه في عصبته و قال: «أنا أحتسب عن الله نفسى، و إن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النور الغبر رمسى، و إن نصرت فما أسعدنى و أنا أمسى، و يومى خير من أمسى».

ثم توكل على الله و سار بهذه العزيمة الماضية القوية، و الصريمة الصارمة الرؤية.

و كان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من الروس في عشرين ألف فرس، و معهم عظيمهم الأصلب، و صليهم الأعظم، و خالطوا بلاد خلاط بالبلاء و السلب و السباء.

فخرج إليهم عسكر خلاط و مقدمهم صنداق التركى فصب صبح البيض على ليل النقع المظلم، و خاض إلى العز مشمرا نار الحريق المتضرم، و قتل منهم خلقا كثيرا، و قاد قائدهم في القيد أسيفا أسيرا. فأمر السلطان بجذع أنفه، و إرجاء حتفه، و ذلك يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ. و عجل الصليب السليب إلى نظام الملك ليجعل إنقاذه إلى دار السلام، مبشرا بسلامة الإسلام. و تلاحق عسكر الروم و نزل على خلاط محاصرا، و أهلها واثقون بالله الذى لم يزل لدينه ناصرا. و نزل متملك الروم على مناز كرد فى أنصار نصرانيتها، و عمداء معموديته. فانزعج سكانها و تزعزت أركانها، و علموا أنه ليست لهم بما نزل بهم طاقة، و أن دماءهم لا شك بسيوف الكفر مهراقة، فخرجوا بأمان، و سلموا البلد، فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه تحت احتياطه. تاريخ دولة آل سلجوق ٢٠٧ ذكر

خروج ملك الروم و كسره و قسره و أسره ..... ص : ٢٠٦

ما بكر يوم الأربعاء، سيرهم بأسرهم في أسر، و أردفهم بعسكر مجر، و خرج ليشيعهم بنفسه، و هو في جماعة حماته و حمسه. و وافق ذلك وصول أوائل العسكر السلطاني و وقعت العين في العين، و اجتمعت على المجالدة أجادل الجمعين. و جرى الخيل، و جرف السيل، و انجر من الأرض على السماء الذيل. و صحت على الروم كسرة أردتهم، و صدفتهم عن مقصدهم و صدتهم. فانعكسوا إلى مجثمهم في مخيمهم، و انكشفوا بما تم من عرس الإسلام بمأتمهم. و شرعت المناز كرده يتسللون، فقتل الروم منهم من أدركه أجله و نجا الباقون، و عرف الروم أنهم للموت ملاقون، و عاد متملكهم إلى مضاربه و بات تلك الليلة و الكوسان تصرخ، و البوقات تنفخ. و لما أصبحوا بكره يوم الخميس وصل السلطان ألب أرسلان و نزل على النهر،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٨

و معه من المقاتلة الأتراك خمسة عشر ألف فارس لا يعرفون سوى القتل و القهر. و كلب الروم نازل بين خلاط و مناكرد في موضع يعرف بالزهره، و هو في مائتي ألف فارس من ذوى القلوب المدلهمة، و الوجوه المكفهرة، و بين العسكرين فرسخ، و بين مجرى التوحيد و التثليث برزخ. فأرسل ألب أرسلان رسولا، و حمله سؤالا و سؤالا. و مقصوده أن يكشف سرهم، و يتعرف أمرهم، و يقول للملك: إن كنت ترغب في هدنة أتمناها، و إن كنت ترهد فيها توكلنا على الله في العزيمة و صمناها. فظن أنه إنما راسله عن خور، فأبى و استكبر، و نبا و تعسر، و أجاب بأنى سوف أجيب عن هذا الرأى بالرأى.

و انتهى عن النهى إلى غاية الغى. فاغتاظ السلطان و ارتفعت بينهما المخاطبة، و انقطعت المواصله. و لبث يوم الخميس الخميسان (١) يعبيان، و لداعى المنون يلبيان. و الشمس تشكو حر ما تصاعد إليها من زفرات الأحقاد، و كأنما شعاعها دم أراقته على الآفاق و خزانات تلك الصعاد. و الطلائع على المطالع، و المنايا على الثنايا. و العزم السلطاني إلى اللقاء مشرب، و للمضاء مستتب، فقال له فقيهه و إمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى: «إنك تقاتل عن دين الله الذى وعد بإظهاره، فألقهم يوم الجمعة بعد الزوال، و الناس يدعون لك على المنابر».

فلما أصبحوا يوم الجمعة ارتجت الأرض بالضجاج، و ارتجت السماء بالعجاج، و قد لقت الحرب العوان بالمهندة الذكور، و المسومة الفحول، و الكماء الحماء يحمون حمى الحمام و يحومون حول الدحول. و وقعت الطواع فى الطواع، و قرعت القواطع بالقواطع. و غنت الطبى و رقصت المران، و مال القنا و جالت الفرسان، و دارت الكؤوس و طارت الرؤوس. و ما فتئت الفتیان تجور «٢» و تجول، و الخرسان تصوب و تصول. إلى أن دنا وقت الزوال، و دان لمقت الدين مقت النزال، و صدحت أعواد المنابر بالخطباء، و صدقت نيات أهل الجمعة للمجاهدين فى إخلاص الدعاء، فنزل ألب أرسلان عن فرسه و شد للحزم حزامه، و أحكم سرجه و لجامه، ثم ركب جواده، و ثبت فؤاده، و قوى قلبه، و سوى قلبه، و فرق أصحابه أربع فرق كل فرقة منهم فى كمين،

(١) الخميسان: الجيشان.

(٢) تجور: تصرع.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٠٩

و راح و له من الروح الأمين مجير أمين.

و لما علم أن الكمين مكين، و أن الضمير شاهد بما يشهده من النصر ضميين، تلقى بوجه الحرّ حرّ الحرب، و استحلى طعم الطعن و ضرب الضرب. و حمل متملك الروم بجمعه، و أخذ يبصر الدهر و سمعه، و أقبل كالسيل يطلب القرار، و الليل يسلب النهار. و ثبت لهم خيل الإسلام ثم و ثبت، و جالت و ما وجلت، و استجرت الروم إلى أن صار الكمين من ورائها، و وقفت المنون بإزائها. ثم خرج من خلفها و ذوو الأقدام من قدامها، و وقعت نار البيض فى حلفاء هامها، فأذنت بانهزامها و انكسرت كسرة لا تقبل جبرا، فطائفه لم



ثبتت للقتال و لم تصبر، و طائفة ثبتت فقتلت صبيرا، فما نجت من أولئك الألوف آحاد، و ما سلمت من أعداء الإسلام أعداد. و ملك الملك و قيد و قيذا «١»، و أسر و لم يجد له معينا و لا معيدا. و ركب المسلمون أكتافهم، و قتل الآحاد آلافهم و طهرت الأرض من خبثهم، و فرشت بجثثهم. و صارت الوهاد بأشلاء القتلى أكماء و المروت «٢» من قصد القنا أجما.

قال: و كانت مع الروم ثلاثة آلاف عجل تنقل الأحمال، و تحمل الأثقال، و من المنجنقات التي تحملها منجنق هو أعظمها و أثقلها، له ثمانية أسهم، و يمد فيها ألف و مائتا رجل، و يحمله مائة عجل. يرمى حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قنطار، و كأنه جبل له فى الجو مطار.

قال: و شملهم بأسرهم القتل و الأسر. و بقيت أموالهم منبوذة بالعراء لا ترام، و معروضة لا تسام. و سقطت قيم الدواب و الكراع، و السلاح و المتاع. حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوذة، و بدينار ثلاث دراع «٣».

و من عجب ما حكى فى أسر الملك، أنه كان لسعد الدولة كوهرائين، مملوك أهدها لنظام الملك فرده عليه، و لم ينظر إليه، فرغبه فيه كثيرا. فقال نظام الملك: و ما يراد منه، عسى أن تأتينا بملك الروم أسيرا! و ذكر ذلك استهزاء به و استصغارا لقدره

(١) الوقيذ: المشرف على الموت.

(٢) المروت: المفازة بلا نبات.

(٣) جمع درع.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٠

و احتقارا لأمره. فاتفق وقوع متملك الروم يوم المصاف فى أسر ذلك الغلام، و وافق تصديق قول النظام. و خلع السلطان عليه و قال: «اقترح من العطاء ما أعطيك» فطلب بشاره غزنة.

قال: و دخل السلطان إلى أذربيجان بملكه و أيده «١»، و الملك فى قيده و صيده، و هو أسير جهله، و لا يحق المكر السيئ إلا بأهله. فإنه خرج و فى نيته فتح الدنيا و حتف الدين، و قهر السلاطين، و نصر الشياطين. ثم ذل بعد العز و هان، و تعرض للابتدال كل ما صان. ثم تعطف عليه السلطان و أحضره بين يديه و قال:

«أخبرنى بصدقك فى قصدك، و ما الذى قدرت لو قدرت». فقال: «كنت أحسب أنى أحبس من أسرته منكم مع الكلاب، و أجعله فى السبايا و الأسلاب، و إن أخذتك مأسورا، اتخذت لك و قد ساء جورى ساجورا» «٢». فقال السلطان:

«قد عثرت على سر شرك، فماذا بك الآن نضع، و نحن منك بما نويته فىنا لا نقتنع».

فقال: «انظر عاقبة فساد نيتى، و العقوبة التى جرتها إلى جريرتى». فرق له قلب ألب أرسلان و أرسله، و فك قيده و وصله، و أفرج عنه معجلا، و سرحه مبيجلا. و لما انصرف الملك أرمانيوس مأنوسا رمى ناسه اسمه، و محوا من الملك رسمه. و قالوا هذا من عداد الملوكة ساقط و زعموا أن المسيح عليه ساخط.

### ذكر أحداث حدثت فى هذه السنين

قال: فى آخر سنة ٤٦٣ هـ توفى أبو بكر أحمد بن على بن ثابت المحدث الخطيب مؤلف تاريخ بغداد، و كان علامة دهره و عالم عصره. و فى سنة ٤٦٤ هـ كان السلطان رتب لبغداد شحنة يقال له آيتكين السليمانى، و وردها فى شهر ربيع الأول، فلم يرض الخليفة بتوليته، و ذلك لأن ابنه قتل أحد الغلمان الدارية فصرفه السلطان بسعد الدولة كوهرائين، و وصل إلى بغداد فى شهر ربيع الآخر، فى جمع كالبحر الزاخر، و وقع بإقباله الاحتفال، و رتب لحفلة الاستقبال. و خرج الناس على طبقاتهم لتلقيه، و جرى القدر بترقيه. و جلس له الخليفة فى دار أرسلان خاتون، و تهب

(١) الأيد: القوة.

(٢) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١١

البلد بسياسته، و تمت الحماية بحميته. و ورد في آخر شهر ربيع الأول الوزير أبو العلاء محمد بن الحسين، و عليه خلع سلطانية، و كان قد نبه السلطان إلى خدمة الخليفة لتقوية ما توهمه من الأسباب الضعيفة. و خصه بالحب و الحباء، و لقبه بوزير الوزراء، و أقطعه النصف من إقطاع الوزير فخر الدولة ابن جهير.

فلما وصل تقدم الخليفة بأن لا يستقبل، و لا يحتفل به إذا أقبل و لا يقبل، فلما انتهى إلى باب النوبى، نزل و قبل الأرض و انصرف. و لم يرض للقبول و ما تصرف.

و أقام ببغداد أياما ثم رحل، و حل بالحلة المزيدية مستريدا، و صرف أخوه أبو المعانى عن الحجية، فعاد بعد أن كان حاجبا قريبا محجوبا بعيدا. و فى صفر من هذه السنة توجه عميد الدولة أبو منصور ابن الوزير بخلع أمامية إلى ألب أرسلان بنيسابور، و وكل فى تزويج المقتدى بنت ألب أرسلان المنعوتة بخاتون السفرية. فسفر وجه و جاهته بهذه السفرة الصفرية. فلما وصل تلقى بالعظماء و استقبال و تقدم بإنزاله فى المرتبة الكبيرة، و ترتيب الأتزال الكثيرة، و عقد العقد للمقتدى على بنت السلطان فى أسعد ساعة، و أحسن عادة. و كان يوما مشهودا أزهر، قد نثر فيه الملوك الجواهر. و لما عاد عميد الدولة جعل على أصفهان العبور، فلقى من ملكشاه ولد السلطان الحب و الحباء و الحبور. و أفاض عليه الخلع الإمامية فلبسها، و أحكم عنده قواعد الأمور فى العواقب و أسسها. و كان ملكشاه قد عاد من شيراز و هو سائر إلى والده، و ورد المملكة منه ظمآن إلى وارده. و عاد عميد الدولة إلى بغداد فى ثامن عشر ذى الحجة، بادى الحجة، هادى المحجة.

### ذكر وفاة ألب أرسلان فى سنة خمس و ستين و أربعمائه

قال: فى أول هذه السنة توجه السلطان ألب أرسلان لقصد بلاد الترك، و قد كملت له أسباب الملك، فى أكثر من مائتى ألف فارس، و مد على جيحون «١» جسرا، كما خط الكاتب على الطرس سطرا، و كانت مدة عبور العسكر عليه شهرا. و كان قد قصده شمس الملك تكين بن طفجاج، و الإقبال قد بلغ الكمال و أوضح المنهاج. و أنه فى سادس شهر ربيع الأول، بكر و هو فى الصدر الأرحب و الباع الأطول و الكمال

(١) جيحون: اسم نهر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٢

الأبهى و البهاء الأكمل. و هو جالس على سرير سروره، لابس حبير جبوره. و سمطا سماطيه الممدودين من فرائد مفرديه منظومان، و البأس و النائل لأولياته و أعدائه مقسومان. و العظماء واقفون و الموقف عظيم، و الكرماء قائمون و المقام كريم، و الهيبة مالكة. فحمل إليه أصحابه مستحفظ قلعة يقال له يوسف الخوارزمى، و هو يرسف فى قيده، و لم يدر أنه يسرف فى كيده- و حمل إلى قرب سريره و هو مع غلامين، و قد شدا بيده اليدين.

فتقدم بأن يضرب له أربعة أوتاد لتشد إليها أطرافه، و يعجل على تلك الهيئة إتلافه. فقال: «مثلى يقتل هذه القتل و يلقى هذه المثلة». فحسى السلطان و احتد و أخذ قوسه و سهمه، و ترك رأيه و حزمه. و أمر بحل رباطه، و أن يخلى عن احتياطه.

و قال للغلامين خلياها، و ربما فأخطأه. و كان على تخت، فوثب و نزل، فوقع على وجهه فى عثرة، فجاءه يوسف فجاءة و فاجأه بسكين

في خاصرته. و كان سعد الدولة كوهرائين واقفا، فجرحه يوسف جراحات و نهض السلطان إلى خيمة أخرى مجروحا. فأما يوسف الخوارزمي فإنه ضربه فراش أرمني بمرزبية «١» على أم رأسه، فوفت الضربة بقطع أنفاسه. و أما ألب أرسلان فإنه أحضر وزيره نظام الملك فأوصى به واليه، و عول في كفاية المهمات و كف الملمات عليه، و جعل ولده ملكشاه ولي عهده، و فوض إليه الملك من بعده. و خص ابنه آياز بما كان لأبيه داود ببلخ و عين له خمسمائة ألف دينار، و قال له: اقصد نصرة أخيك. و جعل القلعة بها لملكشاه، و قال له: إن لم يرض فضيق عليه و استعن على قتاله، بما عين له من ماله. و وصى لأخيه قاورد بك بن داود بأعمال فارس و كرمان، و أجرى له بتعيين شيء من المال و الإحسان، و انتقل إلى جوار ربه فائزا بالشهادة، حائزا للسعادة. و كان مولده في سنة ٤٣٤ هـ، و استشهد و قد بلغ من العمر أربعين سنة، و ملك تسع سنين و شهورا. و قال: و حكى أنه قال حين حينه، و قد عاين الموت بعينه: ما كنت قط في وجه قصدته، و لا عدو أردته، إلا توكلت على الله في أمري، و طلبت منه نصري، و أما في هذه النبوة، فإني أشرفت من تل عال، فرأيت عسكري في أجمل حال. فقلت أين من

(١) المرزبة: عصا من حديد أو هي المطرقة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٣

له قدر مصارعتي، و قدرة معارضتي، و إنى أصل بهذا العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت على منيتي من الكمين. قال: و كان ألب أرسلان بالبرية بارا، و لم يزل إحسانه عليهم من داره دارا. و كان يطبخ كل يوم خمسين رأسا من الغنم في مطبخه للفقراء، و ذلك سوى الراتب المعين للسماط برسم العسكر و الأمراء. و كان إذا أمر ببناء، أو عز بأن يكون أسمى ببيان و أسمقه، و أشرف مكان و أشرقه و يقول: «آثارنا هذه تدل على علو همتنا و وفور نعمتنا» و خلف عدة من البنين، و هم ملكشاه و تكش، و آياز، و تتش، و أرسلان أرغون، و بوري برس.

### ذكر جلوس السلطان جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان على سرير الملك

قال: و لما دفن ألب أرسلان عند قبر أبيه بمرو، و أقام ابنه آياز ببلخ، و عاد ملكشاه بالعساكر، و سمع قاورد بوفاة أخيه ألب أرسلان فسار للمرى طالبا، و في الملك راغبا. فسبقه إليها ملكشاه، و أمن ما كان يخشاه. و صار منها قاصدا للقاء قاورد و رده، و فل حده. فالتقوا بقرب همذان، رابع شعبان. و كان عسكر ملكشاه إلى عمه مائلا. و بقوله قائلا. فلما تلاطم البحران، و التقى الجمعان، حمل قاورد على ميمنة ملكشاه و جعلها دكا، و أوسعها فتكا. و حمل شرف الدولة مسلم بن قريش و بهاء الدولة منصور بن ديبس و من معهما من العرب و الأكراد على ميمنة قاورد فدكوها و خرقوها. و غاظ أصحاب ملكشاه ما صح من كسر عمه و قالوا: ما عرتنا هذه الأكراد إلا. من الأعراب و الأكراد، و صدونا بقصدتهم عن مراد المراد. فمضى المنهزمون من أصحاب ملكشاه إلى حلل العرب و نهبوا، و شنوا عليها الغارة و سلبوها.

و جاء رجل من أهل القرى إلى ملكشاه و أخبره بأن عمه في قرية بقبره، و قد انفرد عن حزبه. فسار إليه و أخذه، و أمضى فيه حكم بأسه و أنفذه. و تقدم إلى كوهرائين بخنقه و هو يتضرع و يتضور، فخنقه غلام أرمني أعور.

قال: و ملك ملكشاه، و جاءه الجاه. و حمل أمر أمرائه بحلمه، و حكم برضاهم و أرضاهم بحكمه. و خلع على نظام الملك، ورد به الملك إلى النظام. و عول عليه في تولى وزارته و مناصبه العظام. و أعطى سرهنك ساوتكين أعمال قاورد عمه، و لقبه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٤

بلقبه عماد الدولة، و ولاءه ولاياته و خصه بمناجيقه و كوساته. و أجزل لأمرء العرب و الأكراد نصيب الاضطفاء و الاضطناع، و وفر حظه من التشريف و الإطلاق و الإقطاع.

و دخلت سنة ٤٦٦ هـ و ورد في صفر منها سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد و جلس له الخليفة القائم بأمر الله في ثاني صفر. و قام عدة الدين المقتدى على رأسه و هو ابن ثمانى عشرة سنة، و سلم الخليفة إلى كوهرائين عهد الخلافة بعد أن قرأ أوله، و متضمنه أنه جعل عليه في الملك معوله. و كان إذنا عاما للخاصة و العامة في الوصول، و لم يمنع في ذلك اليوم أحد من الدخول. و ورد الخبر بوفاة آياز أخى السلطان و كفى أمره كما كفى أمر عمه، قلبه من شغله و استراح من همه.

قال: و في هذه السنة غرقت بغداد و لم يسلم سوى دار الخليفة، و ما في جوار سدها الشريفه. و غرق مشهد باب التبن و انهدم سور، و خرب معموره. فأطلق له شرف الدولة مسلم بن قريش ألف دينار، و أعيدت عمارته، و أمكنت زيارته. و ورد مؤيد الملك أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك و الماء طام، و غارب دجلة ذو سنام سام.

و قد انسدت أفواه الطرق، فترك استقباله للضرورة العائقة، و دخل على غير الصورة اللائقة. فإنه ركب في سفينة و انحدر إلى باب المراتب، و لما حاذى التاج قام أداء للموجب و لما قر في منزله، ظن أن الخليفة ما نبأ باستقباله، إلا و قد نبا عن تقبله. و مضى إليه النقيبان و قاضى القضاة و لم يوصلهم بل ردهم، و صدفهم و صداهم. و قال: «جرى بى تهاون و على تعاون».

فأنفذ الخليفة إليه من أوضح له العذر، و استخلص منه بإنفاذ الخلع إليه الحمد و الشكر. و استأذن الخليفة في الركوب بباب المراتب فأذن له، و أملى له في كل نجح أملة. قال: و ورد عميد الدولة أبو منصور بن الوزير فخر الدولة من الرى مشمولاً من جلال الدولة ملكشاه بالإجلال، و ترك استقباله لما اتفق في حق مؤيد الملك من ترك الاستقبال. و في آخر هذه السنة، توفي زعيم الملك أبو الحسن بن عبد الرحيم في الحلة المزيديه، و كان مرشحا للمناصب السامية السنية.

### ذكر وفاة القائم بأمر الله، و تولى المقتدى بأمر الله

قال: و كانت وفاته ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ هـ، و قد كان

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٥

زرع عمره استحصد فما اقتصد، و فى ألم ألم و افتصد. و نام منفرداً فانفجر فصاده، لما غلبه رقاده. و خرج منه جم كثير أقوت منه قواه، و انتبه و الضعف قد تضاعف، و الحمام قد شارف. فطلب ثقاته و استحضر عدة الدين و أودعه وصايا يكون بها عن القائم القائم «١». و أحضر النقيبين و قاضى القضاة و القاضى أبا الحسن بن البيضاوى و القاضى أبا محمد بن طلحة الدامغاتي، و الوزير قائم، و القائم مستند فى شباك، و هو فى سكون يشعر بما ليس بعده من حراك. و قال لهم: «اشهدوا على ما تضمنته هذه الرقعة كتبت فيها سطرين بخطى» ثم قضى نحب. و تولى أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم، و بويح يوم وفاة جده، و جلس فى دار الشجرة على كرسى، بقميص أبيض، و عمامة بيضاء لطيفة، و فوقها طراحة قصب درى. و دخل الوزير فخر الدولة أبو نصر، و ولده عميد الدولة أبو منصور، و استدعى مؤيد الملك بن نظام الملك و النقيبان و قاضى القضاة و حضر أعيان الدولة من ذوى المراتب و الكفاءة، و هناك نور الدولة ديبس بن على المزيدي و ولده بهاء الدولة و أبو عبد الله محمد بن حماد الأسدى و بايعوه، و عاقده على الطاعة و شايعوه. و صلى بناس فى صحن السلام و أتموا به، و صلى على القائم و أغلقت الأبواب ببغداد ثلاثة أيام لعقد المأتم، و جلس فخر الدولة الوزير و ابنه عميد الدولة للجزاء ثلاثة أيام، و مضى عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة عليه، و حمل عهده إليه. و عاد إلى بغداد فى سنة ٤٦٨ هـ و أوصله الخليفة إلى مجلسه الأشرف، و خصه بإكرامه الألف. و كان قد سير من الديوان القاضى أبو عبد الله محمد بن محمد البيضاوى فى صحبة مؤيد الملك إلى والده نظام الملك ليسير منه إلى غزنه، و يأخذ البيعة على صاحبها، فعاد مصحوباً بالجدة قد أترب و فرع الرتب. و لما سكن إلى الشراء سكن إلى الثرى. و توفي فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٧٠ هـ و كان فاضلاً على مذهب الشافعى ذكياً.

قال: وفي سنة ٤٦٨ هـ جد الجذب وحل المحل، وحط للقحط الرحل.

(١) القائم القائم: القائم الأولى تعود إلى القائم بأمر الله، وتعني الثانية أن يكون قيما على تنفيذ الوصايا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٦

وأقوت «١» القوة و عدم القوت، حتى كفى الله الغمة، وكشف الملمة. قال: وفي هذه السنة تسلم نصر بن محمود صاحب حلب قلعة منبج من الروم، وخلصها من أيديهم، وأنقذها من تعديهم. وفي سنة ٤٦٩ هـ تزوج علي بن أبي منصور فرامر بن علاء الدولة ابن جعفر بن كاكويه بأرسلان خاتون بنت داود، التي كانت زوجة القائم وكانت فارقت بغداد حين عرفت بوفاء أخيها ألب أرسلان، وخرج عنها، وتوفي بعد ذلك القائم عنها، فاستبدلت عن القرشي ديلميا، وعن الإمام أميا. وفي هذه السنة ورد إلى بغداد الشيخ الإمام أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري - رحمه الله - حاجا، وأوضح بعلمه منهاجا. وجلس للوعظ في النظامية، وفي رباط الصوفية، وأبدى شعار الأشعرية. يزعم أنه يحقق أدلة الموحدة المنزهة. ويبطل شبه المجسمة. فثارت الفتنة من العامة وقصدت الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة، وأظهروا شناعة. وكان قد ورد مؤيد الملك بن نظام الملك من المعسكر فلم يطلق دفعا، لم يستطع منعا. فنسب نظام الملك إلى بني جهير الجهر بتلك الفتنة. و حنا أحناءه «٢» لهم على الإحنة «٣».

و اتفق وفاة ابن نظام الملك زوجة عميد الدولة في شعبان سنة ٤٧٠ هـ و دفنت بدار الخلافة إكراما لأبيها، ولم تجر العادة بالدفن فيها. وانقطع ما بين النظام وبينهم من النظام، و آذنت عرى النسب بالانفصام. و وصل في المحرم سنة ٤٧١ هـ بشحنة بغداد سعد الدولة كوهرايين و ضرب على بابيه في أوقات الصلاة الثلاث الطبل، و كان قد منع من ذلك وقيل لم تجر به عادة من قبل. و أعقب ذلك عزل الوزير ابن جهير، و ذلك أن كوهرايين أوصل عند وصوله كتابا من السلطان إلى الخليفة يتضمن عزل الوزير، فقيل في جوابه إنه ليس بوزير، وإنما الوزير ولده عميد الدولة، و قد قصد نحوكم بالمعسكر، و والده ينوب عنه إلى أن يحضر. و كان عميد الدولة بعد وفاة زوجته خرج إلى المعسكر و عرف أن كوهرايين إن صادفه في الطريق صدفه و صرفه. فخرج بالجمال، و أتبع الترحال بالترحال. و جاء كوهرايين في النصف من صفر إلى باب

(١) أقوت: ضعفت.

(٢) الأحناء: جمع حنو، و هو كل ما فيه اعوجاج من البدن كالضلع.

(٣) الإحنة: الحقد.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٧

الفردوس، و هو على حالة من السكر، فغلق دونه الباب، و ربط هناك خيله، و أقام هناك يومه و ليله. و قال: «لابد لي من الوزير. و لا مهلة في التأخير».

فلما عرف فخر الدولة الحال، قدم السؤال و طلب الاعتزال. فأذن له أن يعتزل، و يلزم المنزل. و خرج إلى كوهرايين توقيع فيه لما عرف محمد بن محمد بن جهير ما عليه جلال الدولة و نظام الملك من المطالبة بصرفه، سأل الإذن في ملازمة داره، إلى أن يكتابا في أمره، و لم يزل عميد الدولة يستعطف نظام الملك حتى عطف، و يتألف قلبه حتى انقلب إلى ما ألف. و ألزمه تقلد منه، و زوج بنته بابنه. و كتب إلى كوهرايين بإعادته إلى الخدمة، و زيادته في الحرمة. و سأل الخليفة الإغضاء عن ذلته، و لما وصل إلى بغداد عزله الخليفة عن خدمته، و نقله إلى منزله عن منزلته. و رتب الوزير أبا شجاع محمد بن الحسين نائبا في الديوان و جلس بغير مخدة، ثم توزر عميد الدولة ابن جهير للخليفة المقتدى في سنة ٤٧٢ هـ و أفضيت عليه خلع آذنت بتبجيله، و تولى أمين الدولة و ابن الموصليا قراءة توقيع خرج في حقه بتجميله.

قال الإمام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني - رحمه الله -: ولما كان الكتاب الذي صنفه أنوشروان الوزير عربته وهدبته، وقد انتهت في هذا الموضوع إلى مفتتحه، وصلت هذه الجملة التي ذكرتها به وجعلتها طريقاً إلى دخول بابه، لكنني عند انقضاء أيام كل سلطان، أوردت حوادث تجددت في عصره، وأحل أنوشروان بنشر حديثها و ذكره. ومن هاهنا يقع بما بدأ به البداية، و تكمل بتعريبه و الإعراب عنه العناية.

### أيام السلطان جلال الدنيا و الدين أبي الفتح ملكشاه ابن ألب أرسلان يمين أمير المؤمنين

قال: عقد لواء سلطنته في أيام أمير المؤمنين القائم بأمر الله - رضى الله عنه - و عصر خلافته قد قارب انتهاءه، و شارف انقضاءه. و لهج عند وفاته بهذين البيتين:

سلاّم عمرو كيف بات أسيرها تفك الأسارى حوله و هو موثق  
فإن كان مقتولا ففي القتل راحة و إن كان ممنونا عليه فمطلق

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٨

و تولى بعده الخلافة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله - أنار الله برهانه - و بايعه هذا السلطان. قال: و كان ملكشاه ملكاً سيرته العدل، و سريره الإنصاف و الفضل.

شجاعاً مقداماً صائب الرأى و التدبير. حقيقاً بالتاج و الخاتم و السرير. أيامه في أيام آل سلجوق كالواسطة في العقد، قد تناسبت في الحسن بدايته و نهايته. و تناسبت في الإقبال فاتحته و خاتمه. و لم يتوجه إلى إقليم قسطنطينية، و قرر ألف دينار أحمر يحمل إلى خزائنه من تلك الولاية، و وضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً، و عاد إلى الرى، و قصد فتح سمرقند، و لم تزد مدة هذه الأعمال على شهرين.

و لما وصل سمرقند نزل عليها و حاصرها فظفر بخانها و هو في موضع سلطانها، و جرت له حروب عظيمة هزمه فيها و كسره، و ظفر به و أسره. فحمل غاشية السلطان على كتفه و سار في ركابه من موضع سرير أفراسياب، الذي كان ملك ملوك الترك، إلى موضع سرير ملكه، و حمله أسيراً إلى العراق تحت الوثاق، ثم من عليه بالإطلاق.

و أنعم عليه بإعادته إلى ملكه. و إعادة نظمها إلى سلطانه. و توجه السلطان في السنة الأخرى إلى أوزكند، و وصل حمل إنطاكية إليها، و انقاد له ملك الترك، و وصل به إلى أصفهان، ثم أكرمه و شرفه، و أعاده إلى مقره من بلاد الترك، و هذه السعادة كلها إنما تسرت بسعادة الوزير الكبير، خواجه بزرگ قوام الدين نظام الملك أبى على الحسن ابن على بن إسحاق رضى أمير المؤمنين، الوارف الظل الوافر الفضل. و كانت وزارته للدولة حلية، و بهجته للمملكة زينة. كأنما خلقه الله للملك و الجلالة مصورا. و كان الإقبال له معلماً، و الظفر مسخراً. قد مشى في ركابه سلطان العرب مسلم بن قريش و قبل حافر مركوبه، و كانت ملوك الروم و غزنه و ما وراء النهر في ظل حمايته، و كنف رعايته. و كانت ملوك الأطراف يقبلون كتفه إجلالاً و تشريفاً، و يتشرفون بلبس خلعه. و كانوا أنجاداً له على أعدائه و جر الجحافل الثقيلة، و العساكر الكثيفة. و بقى في صدر الوزارة ثلاثين سنة.

قال: كنت في مبتدأ أمرى في خدمة الأمير بيجير أسفهلار خراسان، فأشخصني إليه من موضع كنت متولياً له تحت التوكيل، و أنا متوجه نحوه خائب الأمل، منكسر القلب، على فرس حرون هزيل، يتعبنى سيره و أنا في ضر شديد من ركوبه. فبيناً أنا سائر، إذ ظهر من صدر البرية تركمانى على فرس يجرى جرى الماء

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢١٩

رهوان، فتمنيت مما كنت فيه من ألم القلب أن أكون راكباً مثل ذلك الفرس، فتقرب التركمانى منى و اختلط بالموكلين بى و كلمهم ثم التفت إلى و قال: هل لك أن تقايض فرسك بفرسى؟ فحسبت أنه يهزأ بى، و قلت له يجوز مما أنا فيه من هذه المحنة أن لا

تستهزئ بي، فنزل في الحال عن فرسه و أعطانيه و أخذ فرسى. و اليوم منذ ثلاثين سنة أتمنى لقاء ذلك التركمانى و أسأل عنه و لا أجده.

قال: و كانت علامة نظام الملك «الحمد لله على نعمه». و كان مؤيدا موقفا من جملة البشر، مخصوصا من الله بالنصر و الفتح و الظفر. و الدهماء ساكنة في أيامه، و أهل الدين و العلم و الفضائل راتعون في أنعامه.

قال: و في أيامه نشأ للناس أولاد نجباء، و توفر على تهذيب الأبناء الآباء، ليحضرهم في مجلسه و يحظوا بتقريبه، فإنه، كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له، بمقدار ما يرى فيه من الرشد و الفضل، و من وجد في بلدة قد تميز و تبحر في العلم، بنى له مدرسة و وقف عليها وقفا، و جعل فيها دار كتب. قال: و كأنما عناه أبو الضياء الحمصى بقوله:

و ما خلقت كفاك إلا الأربع و ما في عباد الله مثلك ثانى

لتجريد هندی و إسداء نائل و تقبيل أفواه و أخذ عنان قال: و ظهر من تدبيره في سياسة الممالك ما قاله سليمان بن عبد الملك: عجبت لهؤلاء الأعاجم ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة. و ملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة. قال: و في عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد. و فرّعوا المناصب، و ولوا المراتب. و لم يزل بابهم مجمع الفضلاء، و ملجأ العلماء، و كان نافذا بصيرا، ينقب عن أحوال كل منهم، و يسأل عن تصرفاته و خبرته و معرفته، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية و لاه، و من رآه مستحقا لرفع قدره رفعه و أعلاه. و من رأى الانتفاع بعلمه أعناه، و رتب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفادة العلم و نشره، و تدريس الفضل و ذكره و ربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله، و يحيى به حقه و يميت باطله.

تولى الوزارة، و الملك قد اختل نظامه، و الدين قد تبدلت أحكامه، في أواخر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٠

دولة الديلم، و أوائل دولة الترك، و قد خربت الممالك بين إقبال هذه و إدبار تلك، و قد أفقرت البلاد و أقوت، و استولت الأيدي العادية عليها و تقوت. و قامت النوائح على النواحي، و النوادب على النوادي. فأعاد الملك إلى النظام، و الدين إلى القوام. و عمر الولايات، و ولى العمارات. و كانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد، و صرفها إلى الأجناد، و لم يكن لأحد من قبل إقطاع، فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها، و لا يصح منها ارتفاع لاعتلالها. ففرقها على الأجناد إقطاعا، و جعلها لهم حصلا و ارتفاعا. فتوفرت دواعيهم على عمارتها و عادت في أقصر مدة إلى أحسن حالة من حليتها.

و كان للسلطان نساء يدلون بنسبه، و يدلون بسببه، و يستطيون بأنهم ذو قرابته فقصر أيديهم، و منع تعديهم. و ساس جمهورهم بتدبيره، و نظم أمورهم بسياسته. و ربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة، فوجه نصفه على بلد من الروم، و نصفه على وجه في أقصى خراسان، و صاحب القرار راض، و ليقينه بحصول ماله غير متقاض.

و توقيعه مأمون التعويق، و تفويقه لسهم السداد مقرون بالتوفيق. فقسم الملك الذي حازه السيف بقلمه أحسن تقسيم، و قومه أحسن تقويم. و كان ينظر في الأوقاف و المصالح و يرتب عليها الأمناء، و يشدد في أمرها، و يخوف من وزرها. و يرغب في أجرها، و يكلها إلى الأمناء، و لا يدعها مأكلة للخونة.

و وظيف على ملوك الأطراف و على أقاليم الممالك و الأمصار حمولا- لخزانة السلطان يحملونها، و خدما عن عصمة ولايتهم يوصلونها. و قرر معهم الحضور إلى الخدمة و موالات الخدمات للحضرة، و الوصول بالعساكر الجمه. حتى ملأ الخزائن بالدخائر، و الملاء بالعساكر. و نشأ له أولاد كبروا في دولته، فأوطأ عقبهم، و أعلى رتبهم. ثم إنه لما وفر الأموال على الخزانة و العسكر، جعل فيها لأرباب العلوم و أصحاب الحقوق حقوقا لا تؤخر، و رسوما لا تغير. و صير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثا يأخذونه بقدر الفرائض، و يأمنون بها من النوائب و العوارض. فلا جرم تذلت له المصاعب، و تيسرت له المطالب، و دانت له المشارق و المغارب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢١

## ذكر الأكابر والكتاب في زمانه وهم الكمال والشرف وسيد الرؤساء وابن بهمنيار و تاج الملك

قال: كان نظام الملك مؤيدا بقرينيين، مؤيدين لدولته أمينين. و هما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء. و شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء. و كلاهما صاحب الرأى والتدبير والجاه والمال والدهاء، و معدن الفضل والعطاء. و كان لهذين الكبيرين نائبان.

والكمال ولده سيد الرؤساء أبو المحاسن محمد، و كان مقبلا مقبولا، قد اختصه السلطان بخدمته، و اختاره لخدمته، و استأمنه على سره. و بلغت مرتبته من اصطفاء السلطان إلى غاية لم يبلغها أنيس و لم يصل إلى رتبها جليس. و قد كتب إليه السلطان يستبطنه بخط يده بيتا بالفارسية معناه، أنك لا تتأثر بالغيبه عنى، فإنك تجد من تأنس به غيرى. و أنا أتأثر بغيبتك فإنى لا أجد الأانس بغيرك.

قال: فصار ختنا لنظام الملك و تزوج بابنته، و زاد ذلك فى منزلته. و ضرب له سرادق، و له الكوس والعلم، و الخيل والحشم. و أما النائب عن شرف الملك فقد كان الأستاذ أبا غالب البراوستانى من أهل قم و النجيب الجرباذقانى. ثم انصرف أبو غالب، و تولى مكانه فى النيابة الأعز الكامل، أبو الفضل أسعد بن محمد بن موسى البراوستانى، فلم يزل نائبا إلى أن صار أستاذا، و لقب بمحمد الملك، بعد شرف الملك، و لم يكن لأحد من السلاطين مستوف كأبى الفضل فى الضبط و التحفظ، و الذكر و التيقظ، و حفظ القوانين، و تدبير الدواوين.

و كان أيضا ملجأ لفضلاء الزمان، و موسعا عليهم بالإحسان. و كان على باب السلطان و فى ديوانه كتاب فضلاء، و كفاءة كبراء، و نواب علماء أذكيا.

و كان لمتولى فارس وزير يقال له: ابن بهمنيار، و يلقب بعميد الدولة. و هو رجل بصير بالأعمال، ذو هممة عالية. فاتصل بخدمة السلطان و علت مكانته، و سمت منزلته.

و صار بينه و بين سيد الرؤساء اتحاد، و صداقة و وداد. و جمعت بينهما عاهة عداوة نظام الملك و مخالفته و تصادقا على عداوته. و كيف تكون عاقبة حال المدير، و إذا عادى المقبل. فلم يزالا حتى نكبا و أهينا، و طردا و هجرا بعد ذلك القرب، و أبغضا بعد ذلك تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٢

الجب. و سجننا و اعتقلا، و حبسا و سلا «١». و سقطت منزلة كمال الدولة أيضا بسقوط منزلة ولده و أدركته حرفته، و نكبته نكبته. و خدم من ماله الخزانة السلطانية بثلاثمائة ألف دينار، و زادت جلالة نظام الملك بعداوة المذكورين. و تولى مؤيد الملك ابن نظام الملك مكان كمال الدولة، من ديوان الإنشاء و الطغراء و أقام مدة. و استتاب أبا المختار الزرنجى، ثم استغفى فتولى أبو المختار بحكم الأصاله، و نعت بكامل الملك.

و كان من نواب كمال الدولة أبى الرضى و أتباعه، فبلغ إلى منصبه، ثم انتقل إلى جوار ربه. و كان الرئيس تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز من أولاد الوزير بفارس، و قد خدم السرهنك ساوتكين مدة. و هذا الأمير كبير الدولة، و المتحكم فيها، و كان قد أثنى على تاج الملك عند السلطان و شكره، و ذكر أنه يصلح لخدمته و قال:

إنه معتمده من خزانته و أمواله، و كان رجلا سريا بهيا، فصيح اللهجة، حسن البهجة.

له همم لا منتهى لكبارها و همته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودهاعلا- البركان البر أندى من البحر قبله السلطان و أقبل عليه و ولاه وزارة أولاده الملوك، و سلم إليه خزانته، و ولاه النظر فى أمور دوره و حرمه، و عول عليه فى بعض الولايات، و فوض إليه أمر بعض العساكر، و جعل له مع ذلك كله ديوان الطغراء و الإنشاء:

ألبيه الله ثياب العلى فلم تطل عنه و لم تقصر فاستتاب عنه الكيا مجير الدولة أبا الفتح على بن الحسين الأردستانى، و صار كاتب



الرسائل، و كان أوحد عصره، و نسيح وحده. و كان رجلا سكيئا، حسن السميت، كثير الأدوات، موصوفا بالثبات. فغير تاج الملك- ببهجته المقبولة، و إصغاء السلطان إليه- أوضاع المملكة جميعها، و بدد نظامها النظامي، و بدد إحسانها الحسى. و أذهب حلاوة قبول الوزير من قلب السلطان، و ظهرت عليه آثار الملال. و نظقت أساريه بأسراره، كالماء ييوح بأسراره صفاؤه، و تلوح فى قراره حصباؤه. و مع ذلك، كلما زاد تقرب السلطان لتاج الملك، ازداد تقربه إلى الوزير، بالتوقير و التوفير. فقد

(١) سمل: فقئت عينه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٣

كانت هذبتة نكبة عميد الدولة و سيد الرؤساء. فلم يغتر من السلطان بذلك الإدناء.

لكنه تحيل عليه، و دبت فى الباطن عقاربه إليه. و كان يكرم مجد الملك المستوفى و يثنى عليه عند السلطان. و كان سديد الملك أبو المعالى المفضل بن عبد الرزاق بن عمر عارض الجند فقربه أيضا تاج الملك، و جعله من حزبه، و استولى بهما على حيازة الأموال و الأعمال، و أنفقوا على حل نظام الملك و مخالفته، و غيروا رأى السلطان فى وزارته، و راموا إزالة ذلك الطود العظيم، و نثر ذلك السلك العظيم. و هو شيخ قد طعن فى سنه، و بلغ بقوته أمد وهنه، و أيس من نجابه أولاده. و طال عمره حتى سئمه، و أنس بالملامات فلن تؤلمه، فلم يكثر بهم، و لم يلتفت إليهم و لا تأثر بكيدهم، و لم يقيم وزنا لعمرهم و زيدهم، فقتل يوما غيلة بسكين ملحد، و دفن بدفنه الجود و الفضل و الدين فى ملحد. و ذلك فى سنة ٤٨٥ هـ.

و توفى السلطان بعد قتل الوزير بثلاثة و ثلاثين يوما. و لم يعيش تاج الملك بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر على الخوف و الخطر، ثم قتل قتلا ذريعا. و بضع بالسيوف تبضيعا. و سبب ذلك، أن المماليك النظامية اتهموه بقتله، فأجمعوا على عداوته، و فتكوا له، فعلم الناس أن سلامة تلك الدولة و أربابها، و سلامة سلطانها، كانت بسلامة ذلك الشيخ منوطه، و بحياطته محوطة.

قال: و لما مل السلطان طول مدته، و استطالة مكنته، و أنفذ إليه يوما تاج الملك برسالة، و وكل على لفظه بعين من أكابر خواصه، حتى يبالغ فى إبلاغها، و لا يراقبه فى أداؤها. و كان مضمون الرسالة، أنك استوليت على ملكي، و قسمت ممالكي على أولادك و أصهارك و المماليك، فكأنك لى فى الملك شريك. أتريد أن أمر برفع دواة الوزارة من بين يديك، و أخلص الناس من استطالتك؟ فأجاب جواب مثبت رابط القلب، حاضر اللب غير مرتاع و لا مرتاب، و قال: «قولوا للسلطان: كأنك اليوم عرفت أنى فى الملك مساهمك، و فى الدولة مقاسمك. و أن دواتي مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع، و متى سلبتها سلب». فلما سمع جواب الرسالة، ازداد فى غيظه عليه، و استشاطته، و كأن ما جرى على نظام الملك من الاغتيال تجوزا من السلطان مضمرا.

و أمرا ميئا مدبرا.

قال: و نظم أبو المعالى النحاس أبياتا بالفارسية يخاطب فيها السلطان فقال ما

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٤

معناه: كان ملكك من أبى على و أبى سعد و أبى الرضى بالعلو و السعد مرضيا. فلما آل إلى أبى الفضل و أبى المعالى عاد من كسوة جمالها عريا. عنى بالأولين: نظام الملك الوزير، و شرف الملك المستوفى، و كمال الدولة المشرف المنشئ، و عنى بالآخرين: تاج الملك الوزير، و مجد الملك، و سديد الملك المنشئ مع أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، و كان تاج الملك يظهر أنه صائم الدهر. قال: و رأيت صلة تاج الملك خمسة عشر ألف دينار فى أكياسها.

قال: و مع خلالهم الرياضية، و الخصال الزكية. لم يخلصوا من أبناء الزمان، و نشبت فيهم مخالب الهجاء، و عثرت بهم السنة الشعراء. و قد جمعهم أبو يعلى ابن الهبارية فى قصيدته التى يقول فيها:

لو أن لى نفسا هربت لما ألقى و لكن لى نفس

ما لى أقيم لدى زعانفة شم القرون أنوفهم فطس  
لى ماتم من سوء فعلهم و لهم بحسن مدائحى عرس  
و لقد غرست المدح عندهم طعما فحنظل ذلك الغرس  
الشيخ عينهم و سيدهم حرف لعمرك بارد جبس «١»  
كالجائليق على عصيته يعدو و دار خلفه القس «٢»  
و الناصح الغندور حتى إلى جنب الوزير كأنه جعس «٣»  
و أبو الفتوح أنت تعرفه و سهيل مثل الكلب يندس  
و خليفه الرى الخبيث له بالتييس فرط القرب و الأانس  
و أبو الغنائم فى تبظرمه يعلو و ليس ليومه أمس  
و الزورنى فبارد سمح كالموت فيه البرد و اليبس  
لو أن نور الشمس فى يده من بخله لم تطلع الشمس

(١) الجبس: الجبان أو اللئيم.

(٢) الجائليق أو الجثليق: كلمة يونانية معناها رئيس الأساقفة. و العصية: تصغير عصا.

(٣) جعس: غائظ، قذر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٥.....

.....

قد صار مال الأرض فى يده عفوا و قيمه رأسه فلس  
هذى أمور الملك أجمعها فسعودها من أجلهم نحس  
و لقد هممت بأن أفارقهم و تجدبى عيرانة عنس «١»  
لكن ثنانى عن فراقهم علمى بأن الناس قد خسوا  
من ذا أروم و أجتديه لقدعم البلاء و أشكل اللبس  
المقتدى المسكين ليس له عقل و لا رأى و لا جس «٢»

.....

هذا و كهرائين شحنته كالكلب خب بارد نمس

.....

و أبو شجاع فى وزارته كالخرس لا بل دونه الخرس  
ابنى جهير أرتجى و هم بالأمس أقرب سوقة غبس  
أعلى أمورهم إذا نفق الطريخ عنهم أو غلا الدبس «٣»  
و الله لو ملكوا السماء لماعرفوا و لا اهتروا و لا انجسوا  
أم باب إبراهيم أفصده هيهات خاب الظن و الحدس  
قد كان محبوسا و كان له جود فزال الجود و الحبس

.....

.....

(١) غيرائه عنس: ناقة قوية.

(٢) جس: معرفة.

(٣) الطريح: سمك صغير يملح و يحفظ.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٦

**ذكر ظهور الإسماعيلية**

قال: فنبات النوايب. و ظهرت العجائب. و فارق الجمهور من بيننا، جماعة نشأوا على طباعنا، و كالوا بصاعنا. و كانوا معنا فى المكتب، و أخذوا حظا وافرا من الفقه و الأدب. و كان منهم رجل من أهل الرى، و ساح فى العالم، و كانت صناعته الكتابة، فحفى أمره، حتى ظهر و قام، فأقام من الفتنة كل قيامه، و استولى فى مدة قريبة على حصون و قلاع منيعة. و بدأ من القتل و الفتك بأمر شنيعة. و خفيت عن الناس أحوالهم، و دامت حتى استتبت على استتار، بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار.

و كان الرسم فى أيام الديلم و من قبلهم من الملوك، إنهم لم يخلو جانبا من صاحب خبر و يريد فلم يخف عندهم أخبار الأذاني و الأقصى، و حال الطائع و العاصى. حتى و لا فى الدولة السلجقية ألب أرسلان محمد بن داود، ففاوضه نظام الملك فى هذا الأمر، فأجابه أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر، فإن الدنيا لا تخلوا كل بلد فيها من أصدقاء لنا و أعداء. فإذا نقل إلينا صاحب الخبر، و كان له غرض، أخرج الصديق فى صورة العدو، و العدو فى صورة الصديق. فأسقط السلطان هذا الرسم لأجل ما وقع له من الوهم، فلم يشعر إلا بظهور القوم، و قد استحكمت قواعدهم، و استوثقت معادهم، و خافوا السبل، و أجالوا على الأكابر الأجل. و كان الواحد منهم يهجم على كثير، و هو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة، و لم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة.

فصار الناس فيهم فريقين، و فمنهم من جاهرهم بالعداوة و المقارعة، و منهم من عاهدهم على المسالمة و المودعة. فمن عاداهم، خاف من فتكهم، و من سالمهم، نسب إلى شركهم فى شركهم.

و كان الناس منهم على خطر عظيم من الجبهتين. فأول ما بدأوا بقتل نظام الملك، ثم اتسع الخرق، و تفاقم الفتق. و لما كانوا قد تجمعوا من كل صنف، تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم، و دب إلى البرى السقم. و توفرت على التوقى الهمم، و تعين على السلطان أن يكشفهم مدافعا، لثلا- ينسبه العوام و أهل الدين إلى الإلحاد و فساد الاعتقاد. كما جرى على ملك كرمان، فإن الرعية اتهموه بالميل إلى القوم، فبطشوا به و قتلوه، و أقاموا ملكا آخر مقامه، و سيأتى بعض الأحوال فى أيام السلاطين الذين ولّوا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٧

و ما كان سلطان يلى يثق بخواصه و سعى ذوو الأغراض فى ذوى اختصاصه. و لما عرفوا جد السلطان فى إبادة القوم، سعى بعض الناس ببعض. و أحب و صمه بالإلحاد لسابق عداوة و بغض. و وسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف، و لم يحد محيدا عن التزام الحيف.

و بقى فى هذه الاصطكاكات و الاصطدامات خلق كثير و جم غفير. و لم يبق للأكابر فى دفع ما عرا رأى و لا تدبير.

قال: و توفى أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله بعد سنة، و كان فى سنة واحدة موت السلطان و الوزير و جميع أركان الدولة «كل شىء هالك إلا وجهه».

قال الإمام السعد عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني الكاتب، -رحمه الله- و قدس روحه.

## ذكر نبذ من حوادث و أخبار في أيام ملكشاه أغفها الوزير أنوشروان

قال- رحمه الله:- ولد ملكشاه في التاسع عشر من جماد الأول سنة ٤٤٧ هـ و توفي في السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥ هـ و عمره ٣٨ سنة و أشهر، و كان يعرف بالسلطان العادل. و من جملة عدله أنه رأى شاكيًا باكيًا فسأله عن موجب اشتكائه، و سبب بكائه. فقال: اشترت بطيخًا بدرهيمات لأعود بربحها على عيالي، و أعيد منها رأس مالي. فأخذها مني من يده قوى أضعف عن الأخذ على يده. و تركني التركي و هو يضحك من بليتي، و أنا أبكي من نكده. فقال له السلطان طب نفسا، أو استبدل من الوحشة أنسا. فهل تعرفه؟ فأنكر معرفته، و كان البطيخ في أول باكورته و لا يكاد يصاب منه شيء في البلد. فقال: السلطان لبعض خواصه، قد اشتريت بطيخًا فاجتهد في تحصيله و لو واحدة، فما زال يطلبه حتى قال له بعض الأمراء: عندي و قد أحضره عبدي، فلما علم ملكشاه أحضر المتظلم و قال: خذ بيد هذا الأمير فإنه مملوكي و قد وهبته لك ففدى نفسه عنه بثلاثمائة دينار، و أثرى صاحب البطيخ بعد إقتار.

و كان مجبا للصيد. و قيل: إنه كان حصر عدد كل ما اصطاده بيده، فبلغت عدته عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار. و كان بالعمارات ذا اهتمام، و بالغرامات فيها ذا غرام. فحفر أنهارا، و أوثق على المدن أسوارا. و أنشأ رباطات في

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٨

المفاوز، و قناطر للجائز. و من جملة جميل صنعه في العمارة، عمارة مصانع طريق مكة و منازلها، و تسهيل ما توعر من مسالك قوافلها. و خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب و بلغ السبيعة بقرب الواقعة، و بنى هنالك منارة، ترك في أثنائها قرون الظبي و حوافر الحمر الوحشية التي اصطادها في طريقه، و المنارة باقية إلى الآن، تعرف بمنارة القرون. و كان قد خرج إلى الصيد و عاد في ثالث شوال، فابتدأت به حمى محرقة من إمعانه في أكل لحم الصيد، فتوفي في سادس عشر الشهر. و عاد الملك بظهور وفاته منقسم الظهر. و كانت قد جرت بينه و بين الخليفة في تلك الأيام وحشة أساءت الظنون، و نسبت إلى عوارضها المنون. و من أسباب الوحشة اقتراحه على الإمام المقتدى انتقاله عن بغداد إلى حيث يختاره من دمشق أو الحجاز. و عدم من جانبه الإمام ما يجب من الإكرام و الإعزاز فطلب منه المهلة، ثم كفى أمره و لم يخف النقلة.

قال: و قد كان قرر فتح أقاليم الدنيا، فجعل الأمير برسق للروم فضايقها حتى قرر على قسطنطينية له في كل سنة حمل ثلثمائة ألف دينار للسلطان. و ثلاثين ألف دينار له جزية يؤديها الرومي بالصغار و الهوان. و سير أخاه تاج الدولة تتش إلى الشام، و قرر معه فتح ديار مصر و بلاد المغرب، و أمر مملوكيه بزبان، صاحب الرها، و أق سنقر صاحب حلب، أن يطيعاه على هذا الغرض، و يساعده على أداء هذا المفترض. و أمر سعد الدولة كهرايين بفتح بلاد اليمن، و استخلاص زبيد و عدن. فسير إليها جيشا قدم عليه ترشك، فمضى إليها و استولى و استعلى، و مات بها و عمره ٧٠ سنة و هو مجذور.

و تولى مكانه يرناقش صاحب قتلغ أمير الحاج. و جرى في الاستيلاء على ذلك المنهاج.

و أوغل ملكشاه في بلاد الترك، حتى أطاعه صاحب طراز، و كانت حلة الدولة بجلالة جلالها ذات طراز.

و في سنة ٤٧٣ هـ عرض العسكر، و أسقط منه سبعة آلاف رجل من الأرمن المتشبهة بالترك، فمضوا إلى أخيه تكش بقلعة ونج، فقوى بهم جانبه، و شق عصاه بالعصيان و الشقاق، و ما زال السلطان ملكشاه يقصده، فتارة يصلحه و تارة يكافحه، حتى ظفر به في سنة ٤٧٧ هـ و قد كان عاهده أن لا يؤذيه. ففوض السلطان أمره إلى ولده أحمد فأخذه و سمله. و في سنة ٤٧١ هـ دعا الإقسيس تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان إلى دمشق واثقا به، خارجا عن خلافه، و خرج إليه من دمشق مسلما،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٢٩

و لحكمه مستسلما. فضرب رقبتة صبرا، و غادره عاريا بالعراء غدرا. و دخل إلى البلد مستبدا، و أصبح الملك به مستجدا. في هذه السنة، استولى شرف الدولة مسلم بن قريش على حلب. و في المحرم من سنة ٤٧٣ هـ عاد السلطان ملكشاه من كرمان إلى أصفهان و كان قد ورد إليها عام أول، و خرج إليه ابن عمه سلطان شاه بن قاورد، و عاهده و عاقده، و أخذ على العهد يده. و في صفر، تسلم

مؤيد الملك من المهرياط تكريت و قلعتها، و أحكمها و وفر عدتها. و في ليلة الأحد عاشر شوال، توفي ديبس بن علي بن مزيد، و كانت إمارته سبعا و ستين سنة، و قام بالأمر بعد بهاء الدولة منصور و مضى إلى السلطان، و عاد في ثاني عشر صفر سنة ٤٧٤ هـ بمكنة قوية، و قوة متمكنة. و قد تفررت عليه أربعون ألف دينار في كل سنة.

و في شوال ٤٧٤ هـ، خلع المقتدى على الوزير فخر الدولة ابن جهير و توجه ليخطب للخليفة من السلطان ابنته، و سار بعده أبو شجاع محمد بن الحسين إلى المعسكر، فإن نظام الملك كان يكتب في إبعاده، و كان الخليفة راغبا فيه لسداده.

فكتب بخطه إلى نظام الملك يأمره بالعود إلى المعهود في حق أبي شجاع، و أنفذ معه مختصا الخادم، فعاد إلى بغداد في رجب سنة ٤٧٥ هـ في حرمة وافر، و حشمة ظاهرة. و أما الوزير فخر الدولة ابن جهير، فإنه لما وصل إلى المعسكر يحل و عظم، و مضى نظام الملك معه إلى ترکان خاتون، و خاطبها في معنى الوصلة بابنتها. فقالت:

إن ملك غزنة و ملوك الخانية، قد أرسلوا في خطبتها، و بذل كل منهم عن ولده لها أربعمئة ألف دينار. فإن بذلها الخليفة فإنني أختار شرفه و هو أشرف مختار.

فعرفتها أرسلان خاتون زوجة القائم ما يصير إليها من الجلال و الجمال. و بين لها الفقيه المشطب جليئة الحق و حقيقة الحال. و قال: هؤلاء عبيد الخليفة، و مثله لا يقابل بطلب المال. فحينئذ أجابت و سددت إلى الغرض و أصابت. و أخذ فخر الدولة يد السلطان على العقد، و عاد في صفر سنة ٤٧٥ هـ إلى بغداد. في جماد الأول ورد مؤيد الملك من أصفهان إلى بغداد و نزل في داره، و ضربت على بابها الطبول في أوقات الصلوات الثلاث. و عد ذلك من منكرات الأحداث وصل بعباءة رضية، و قطع به ضرب الطبل. و آذنت الحياء بوضع الجبل. و في شعبان من السنة، جلس مؤيد الملك للجزاء بأخيه جمال الملك و ركب إليه فخر الدولة و عميد الدولة، و أقامه فخر الدولة من

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٠

الجزاء في اليوم الثالث و معه الموكب.

### ذكر جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك

قال: كان كبير أولاد نظام الملك، و فيه دهاء و جرأة، و عزة و نخوة. و خاطبه أبوه في أيام ألب أرسلان أن يوزر لولده ملكشاه، فأظهر امتناع أبي، و قال: «مثلي لا يكون وزيرا لصبي»، ثم أقام ببلخ متوليا، و على تلك الممالك مستوليا. فسمع أن جعفر ك مسخرة السلطان، تكلم على والده نظام الملك بأصفهان. و قرر الوزارة لابن بهمنيار، فهاج و تغيظ و ثار، و أغذ السير من بلخ، حتى وصل إلى الحضرة، و أخذ جعفر ك من بين يدي سلطانه، و تقدم بشق قفاه و إخراج لسانه، ففضى في مكانه. ثم أوقع التدبير في حق بن بهمنيار حتى أخذه و سلمه. ثم توجه مع والده في خدمة السلطان إلى خراسان و أقاموا بنيسابور، و دبروا الأمور. فلما أراد السلطان أن يرتحل، استدعى بعميد خراسان أبي علي و قال: أنا مفض إليك بسر خفي. فقال: أنا من كل ما تأمرني به على أقوم سنن فقال: رأسك أحب إليك أم رأس أبي منصور بن حسن، فقال: بل رأسي أحب، و أنا لما تستطبنى من دائه أطب. فقال له: إن لم تقتله قتلتك. و صرفتك عن ولاية الحياة و عزلتك.

فخرج من عنده، و لقي خادما بخدمة جمال الملك مختصا، و عرف في عقله نقصا.

فقال: إن السلطان قد عزم على أخذ صاحبكم و قتله غدا، و الصواب أن تصونوا بإبادته حرمتكم أبدا. فظن السخيف العقل، أن ذلك عن أصل، و جهل النظر و نظر عن جهل. و خاف على تشتت آل النظام بهذا الولد، فعمد إلى كوز فقاع فسمه، و لما انتبه صاحبه بالليل و طلب الفقاع أتاه بالكوز المسموم، فلما شربه أحس بالموت فاستدعى أخته ليوصي إليها، ففضى نحوه قبل أن تقع عليها عينه. و كان السلطان قد رحل، و نظام الملك قد سبقه، فسار مغذا أربع منازل، حتى لحقه، و دخل إلى الوزير و لم يعلم بوفاء ولده فعزاه و قال: أنا

ولذك و الخلف عمن ذهب، و أنت أولى من صبر و احتسب.

قال: و فى سنة ٤٧٥ هـ سار الشيخ الإمام أبو إسحق رسولا من المقتدى إلى السلطان بعد أن أوصله الخليفة إليه، و فاوضه شفاها، و شكها من العميد أبى الفتح بن أبى الليث شفاها. فوصل إلى خراسان، و ناظر مع الإمام أبى المعالى الجونى، و كان فى تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣١

صحبتة من أكابر تلامذته الشاشى، و ابن قنان، و الطبرى، و كان معه جمال الدولة عفيف الخادم. و عاد الشيخ أبو إسحق إلى بغداد، و القلوب إلى حضرته متعطشة، و العيون من غيبته مستوحشة. ثم توفى قدس الله روحه فى ليلة الأحد الحادى و العشرين من جماد الآخر سنة ٤٧٦ هـ. و رتب مؤيد الملك أبا سعد المتولى مدرسا فلم يرض نظام الملك به، و جعل التدريس للشيخ الإمام أبى نصر الصباغ صاحب الشامل. فاتفق خروج مؤيد الملك، و خرج معه المتولى فعاد متوليا، و فى رتب السمو متعليا. و قد لقب شرف الأمة و أبو نصر الصباغ مدرس. و توفى يوم الخميس النصف من شعبان و بقى المتولى مدرسا إلى أن توفى فى شوال سنة ٤٧٨ هـ.

و عزل عميد الدولة فى صفر سنة ٤٧٦ هـ بمكتوب خرج إليه من الخليفة، و اجتمع يارق الحاجب و الشحنة و العميد و أصحاب مؤيد الملك على باب عمورية حتى خرج بنو جهير بأهلهم و حواشيهم، و كهلهم و ناشيهم. و ساروا إلى المعسكر، و حصلوا على المنصب الأظهر. فإن السلطان عقد على فخر الدولة بن جهير ديار بكر، و خلع عليه و أعطاه الكوس و العلم، و آذن له فى الخطبة لنفسه، و فى السكة باسمه.

ثم أنفذ السلطان فى سنة ٤٧٧ هـ أرتق بن أكسب صاحب حلوان مع التركمان إلى فخر الدولة مددا، و توفى و تقوى بهم عددا و عددا. و كان ابن مروان صاحب ديار بكر، قد استجد شرف الدولة مسلم بن قريش، و أعطاه يده على أن يعطيه آمد إذا أمده و أيده. و قصد بن جهير الصلح و قال: «أكره أن يحل بالعرب مكروه و أنا سببه» و علم التركمان ما رآه، فخالفوا هواه. و ركبوا ليلا، و أحاطوا بالعرب فهربوا، و رهبوا و طلبوا فى كل واد و ناد و سلبوا و لم يحضر تلك الوقعة بن جهير و لا أرتق، و إنما اصطلى نارها الأمير جبق، و حقن دماء العرب و استولى على جميع جمالهم، و عامت أيدي العامة فى أموالهم. و ألجئ شرف الدولة مسلم إلى فصيل آمد، فعزت الحيلة، و أعوزت الوسيلة. و وصى فخر الدولة بن جهير الأمير أرتق بأن يأخذ عليه الطريق، و قال: إذا حصل شرف الدولة فى اليد فتحنا للسلطان البلاد، و حوينا الطراف و التلاد. فبذل شرف الدولة للأمير أرتق مالا ليفرج عنه فمال إلى المال، و أظهر الغضب عن تحكّم فخر الدولة، و نفس عن خناق مسلم فسار إلى الرقة، و ذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأول، و قصد فخر الدولة ميفارقين و معه الأمراء

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٢

الأكابر سيف الدولة صدقة بن بهاء الدولة، و آياز، و ترشك، و خمارتاش، فى عسكر كهرائين. و لما قصد خلاط، رجع هؤلاء عنه إلى العراق.

و فى سنة ٤٧٩ هـ خرجت ديار بكر عن نظره، و سلمها السلطان إلى العميد أبى على البلخى. فأما شرف الدولة فإنه لما وصل إلى الرقة، أحمد عاقبة المشقة، و عد ما بذله لأرتق من الحقوق المستحقة، فأنجز الوعد، و أرسل المال، و صدق المقال. و لم يشك السلطان لما نمى إليه الخبر، أن شرف الدولة قد قبض، و أن مبرم أمره قد نقض. فخلع على عميد الدولة بن جهير و أنفذه إلى ولايته، و كانت التركمان بطاعته. و أنفذ معه الأمير آق سنقر قبل أن يصير صاحب حلب و سار فى صحبته. و اتصل به الأمير أرتق و صار فى جملة. و وصل إلى الموصل فأطاعه أهلها، و تسهل له وعرها و سهلها. و توجه السلطان إلى بلاد مسلم بن قريش فى أقوى جأش و أقوى جيش. فلما علم سلامته و نجاته، و أنه بالمكر قد فاته، أرسل إليه مؤيد الملك بن نظام الملك و وثقه بالأيمان و آمنه بالمواثيق، و قدم به السلطان و هو بالبوازيج. فأحلى له جنا الجناب المريع و أسامه فى مراد المراد البهيج. و كانت أحواله قد ذهب، و أمواله قد نهبت. و استقرض ما خدم به و قدم خيله و فيها بشار، و كان فرسا سابقا مذكورا، و هو الذى نجا به يوم آمد، و سبق و وثب الخندق، و راهن

السلطان شرف الدولة على مسابقتها. فأجراه مع الخيل في حلبته، فجاء سابقا و لما طلع صبح غرته من ظلام قتامة، قام السلطان للإعجاب به و أظهر أنه لإكرامه. و في صفر سنة ٤٧٨ هـ تجرع شرف الدولة كأس الحمام. فإنه فتك به خادم له في الحمام. قال: و كان المظفر أبو الفتح ابن رئيس الرؤساء، قد رتب في ديوان الخليفة بعد خروج ابن جهير، و استقل بكل ترتيب و تدبير، إلى أن وزر أبو شجاع محمد ابن الحسين في سنة ٤٧٩ هـ لأمير المؤمنين، و خلع عليه خلعة الوزارة، و لقبه ظهير الدين مؤيد الدولة سيد الوزراء صفى أمير المؤمنين. و خرج في حقه توقيع من إنشاء أبي سعد بن الموصلايا، و وصل عماد الدولة سرهنك ساوتكين إلى واسط و منها إلى النيل في شهر رمضان، و زار المشهدين الشريفين، و أطلق بهما للأشراف مالا جزيلا، و أسقط خفارة الحاج، و حفر العلقمي و كان خرابا من دهر.

و قدم بغداد و تلقاه الوزير أبو شجاع، و وصل إلى حضرة الخليفة ليلة الأربعاء

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٣

ثامن ذى الحجة، و خلع عليه، و أحسن إليه. و كان قد علق به السل، فسار لوقته إلى أصفهان و توفي بها في سنة ٤٧٧ هـ. و كان قد توجه جمال الدولة عفيف إلى أصفهان في إتمام العقد للخليفة على بنت السلطان، فعاد إلى بغداد، فخلع الخليفة على ابن أبي شجاع و سنة يومئذ اثنتا عشرة سنة، و لقبه ريب الدولة، و أخرجه إلى استقبال عفيف. و استمر أبو شجاع في وزارته، جريئا في الشجاعة، شجاعا في الجرأة، أهلا لمحمود الذمام، ذاما لأهل الذمة. و أزم أكابرههم بلبس الغيار، و أداء الجزية على وجه الصغار.

حتى أسلم الرئيس أبو غالب بن الأصباغى غيرة من الغيار، و نفضا لما كان على صفحات أحواله بموضع النصرانية من الغبار. و أسلم الرئيسان أبو سعد بن العلا ابن الحسن بن وهب بن الموصلايا صاحب ديوان الإنشاء، و ابن أخيه أبو نصر بن صاحب الخبر و كان في رتبته في السماء، و ذلك في رابع عشر من صفر ٤٨٤ هـ. و ثقلت وطأة الوزير، على الصغير و الكبير، و ترك المحاباة في الدين، و وافق ذلك وصول كتاب من السلطان في عزله، و وقوع ضجر الخليفة من فعله. فخرج التوقيع بصرفه في تاسع عشر صفر، فانصرف و هو ينشد:

تولاها و ليس له عدوو فارقها و ليس له صديق قال: و كانت أيامه أنضر الأيام، و أعوامه أحسن الأعوام. فخرج ثاني يوم عزله يوم الجمعة ماشيا إلى الجامع من داره، في زى شاهد باستبصاره و اعتباره. و انتال الناس عليه يضافحونه، فأنكر ذلك عليه و أزم داره، و ضيق الخليفة أذكاره. ثم سافر في الموسم إلى الحج و توفي بالمدينة على ساكنيها السلام، في النصف من شهر جماد الآخر سنة ٤٨٨ هـ، فدفن بالبقيع عند قبر إبراهيم عليه السلام، و كان مولده بكنكور سنة ٤٣٧ هـ.

و لما عزل أبو شجاع، تولى أبو سعد بن الموصلايا النظر في الديوان. و كان كبير الشأن كثير الإحسان، تولى ديوان الإنشاء بعد سنة ٤٣٠ هـ و عاش إلى أن ناب عن الوزارة المقتدية و المستظهيرية، ثم أعيدت الوزارة إلى عميد الدولة ابن جهير في السابع و العشرين من ذى القعدة سنة ٤٨٤ هـ، و كان السلطان ببغداد، فركب نظام الملك و تاج الملك و أكابر الأمراء إلى دار عميد الدولة لإجلاله، و التثويه بمنصب إقباله. و في سنة ٤٨٢ هـ درس أبو بكر الشاشى في التاجية ثالث عشر المحرم. و في جماد الآخر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٤

توفي أبو القاسم الشريف الدبوسى مدرس النظامية. و في محرم سنة ٤٨٣ هـ قدم الشيخ أبو عبد الله الطبرى بمنشور نظام الملك متوليا للتدريس بالنظامية. ثم وصل بعده القاضى أبو محمد عبد الوهاب الشيرازى للتدريس بالنظامية أيضا، و تقرر أن يدرس هو يوما و الطبرى يوما. و في سنة ٤٨٤ هـ، قدم الشيخ أبو حامد الغزالي إلى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية، و كان في العلم بحرا زاخرا، و بدرا زاهرا. و أشرفت غرائبه في المشرقين و المغربين، و ملأت حقائق الملويين، و ثقلت غوارب الثقلين.

فأما في النوبة الأولى، فإنه دخل بغداد في رابع ذى الحجة سنة ٤٧٩ هـ، والوزير أبو شجاع خرج لاستقباله، و توفيه حق إعظامه و إجلاله. و ركب في اليوم الثالث إلى الحلب، و لعب بالأ-كرة، و أنفذ إليه الخليفة أفراسا و أطفافا، و تصافيا و تهاديا، و مضى نظام الملك إلى المدرسة و إلى دار الكتب بها، و قلبها و تصفحها، و رم أحوالها و أصلحها. و عاد إلى دار ولده مؤيد الملك، فأقام بها ليلتين. و في سابع عشر المحرم سنة ٤٨٠ هـ استدعى الخليفة السلطان إلى حضرته على لسان ظفر الخادم فبشر وجهه و سفر و نزل في الطائرة فلما وصل إلى باب الغربية قدم إليه فرس من مراكب الخليفة، حتى انتهى إلى السدة الشريفة. و أمره الخليفة بالجلوس فامتنع، و تواضع حتى ارتفع. ثم أقسم عليه حتى جلس، و زاد في إيناسه فأنس.

و لم يزل نظام الملك يأتي بأمر أمير إلى تجاه السدة، و يقول للأمير هذا أمير المؤمنين، ليعفر بتقريب الأرض الجبين. و يقول للخليفة هذا فلان، و عسكره كذا و ولايته كذا و كانوا فوق الأربعين، و كان فيهم آيتكين خال السلطان. فإنه استقبل القبلة و صلى ركعتين و مسح وجهه للتبرك بأركان الدار من الجانبين. و عاد السلطان و عليه الخلع السبع و الطوق و السوار، و قد ظهرت عليه من آثار الجلالة الأنوار. فمثل بين يدي السدة الشريفة، و قبل الأرض مرات و أمر الخليفة مختصا خادمه فقلده بسيفين، و قال الوزير أبو شجاع: «يا جلال الدين سيدنا أمير المؤمنين الذي اصطفاه الله لعز الخلافة، و اجتبه لشرف الإمامة، و استرعاه للأمة، و استخلفه للدين و الملة، و قد أوقع الوديعه عندك موقعها، و اصطفى الصنيعه عندك موضعها. و قلدك سيفين لتكون قويا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٥

على أعداء الله تجوس بلادهم و تذلل رقابهم. و لا تألو في مصلحة الرعية مقاما، و لا تدخر عنها اهتماما. فبطاعته، تقبل عليك الخيرات من جوانبها، و تدر البركات بسحائبها. و سأل السلطان في تقبيل يد الخليفة فلم يجب الخليفة إلى تقبيلها. فسأل في تقبيل خاتمه لترفيها و تجليلها».

قال: و في النصف من صفر خرج من بغداد إلى خراسان. و أما النوبة الثانية من دخوله إلى بغداد، فإنه دخل إليها في الثامن و العشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٤ هـ، و معه نظام الملك، و تاج الملك، و أكابر مملكته، و أرباب دولته. و برز أمين الدولة بن الموصلايا لاستقباله، و خرج خروج الوزير في جميع أحواله. و خرج السلطان منها و مضى إلى خوزستان في صفر سنة ٤٨٥ هـ، بعد أن سير قسيم الدولة آق سنقر إلى حلب، و الأمير بوزان إلى الرها و حران. و أما النوبة الثالثة، فإنه دخلها في الرابع و العشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ بعد قتله نظام الملك، و معه تاج الملك، و كانت وفاته بها في شوال.

## ذكر حوادث

قال: في ليلة السبت السادس و العشرين من شهر رجب سنة ٤٧٨ هـ توفي قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن على الدامغانى، و مولده سنة ٣٩٨ هـ، و دخل بغداد سنة ٤١٩ هـ. و ولى القاضى أبو بكر المظفر بن بكران الحموى الشامى قضاء بغداد. و توفي فخر الدولة أبو نصر محمد بن جهير بالموصل في سنة ٤٨٣ هـ و مولده بها سنة ٣٩٨ هـ.

قال الإمام عماد الدين - رحمه الله -: عاد الحديث إلى تعريب كتاب أنوشروان.

## ذكر حال ولاية السلطان أبى المظفر بركيارق بن ملكشاه برهان أمير المؤمنين

قال: كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين و هم: بركيارق، و محمد، و سنجر، و محمود. و كان محمود طفلا فبايعوه على السلطنة؛ لأن أمه تركان خاتون كانت مستولية في أيام ملكشاه. فلما درج، بقى بحكمها. و لأن الأمراء و الوزراء كانوا من

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٦



صنائعها فاختاروا ولدها، ولأن الخاتون المذكورة كانت من أولاد الملوك ففضلوا ابنها. على أن بركيارق كانت أمه سلجقية، ولكن لم يكن من بنى السلطان بغداد حاضرا إلا ولدها الطفل، فبايعوه، و ساروا إلى أصفهان و أجلسوه على سرير الملك، و أخرجوا تلك الأموال العتيده، و الذخائر الطارفة و التليده. ففرقوها بأمر خاتون. قال: و فى أول العهد، فتك بتاج الملك مماليك نظام الملك، فإنه كان وزيرا لخاتون و ولدها. و لما سمع مماليك نظام الملك أن خاتون و ولدها قد قصدا أصفهان خرجوا ببركيارق منها إلى الرى، و شرعوا فى جمع العساكر عليه، و حملهم على ذلك دخلهم القديم الذى فى قلوبهم من تاج الملك، و كانوا ينسبون إليه قتل نظام الملك. و فى مبادئ هذا الأمر، تولى المستظهر بالله الخلافة، و أخذوا منه بيعة محمود. ثم جاء بركيارق إلى أصفهان محاصرا، و لم يكن معه أحد من أرباب الدولة حاضرا. فإن الأكابر كانوا محصورين، و اجتمعت عليه جماعة من أبناء الدهر غير معروفين. و لما سمعت والدته بأصفهان- و اسمها زبيده خاتون- أنه على قصدها، سفر وجهها للسفر، و خفر ما كانت فيه من ذمام الخفر. و مات محمود و ماتت والدته، و لم تنقض سنه، و تم الملك لبركيارق.

### وزارة عز الملك أبى عبد الله الحسين بن نظام الملك

قال: كان شريبا خميرا. لا يصيب رأيا و لا يحسن تدبيرا. بعيدا من الكفاية، قريبا إلى الغواية. خاليا من المعانى، معروفا بالقصور و العجز و التوانى. فلما زاد اختلال الملك، بعدم نظام الملك، ظنوا أنه يرجع إلى نظامه بأحد أولاده، فاستوزروه و وقروه و عززوه. و كانت علامته: أحمد الله و أشكره. و كان له أخ صغير اسمه عبد الرحيم، فجعلوا إليه منصب الطغراء، و قالوا إن هذا المنصب لا يحتاج إلى فضل، و ليس إلا مجرد ذلك الخط القوسى. و كان الأستاذ على بن أبى على القمى وزير كمشتكين الذى كان قديما مريبا لبركيارق و أتاكبه. فحين ولى السلطنة نفذ أمره، و مضى حكمه، حتى كأنه فى الملك شاركه. و تولى الأستاذ على ديوان الاستيفاء، و جرت بإياله هؤلاء فى الدولة أمور شنيعة و أحوال فظيعة، و لو تمشى أمر من الأمور فإنما كان بكفاية الأستاذ على، فإنه كان يرجع تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٧

إلى نظر لودعى، و رأى ورى «١». و الباقيون كالأصنام لا يضررون و لا ينفعون. و أم السلطان قد خلعت عذارها، و وافقت كمشتكين الجاندار على المنكر، و معاقره المسكر، و السلطان مشغول باللعب و العشرة، مع عدة من الصبيان، و الوزير أيضا منهمك فى الشرب مع الأخدان، و المساخر و المجان. و وصلوا إلى بغداد و اختاروا المقام فيها، و ألهتهم مغانيها و غوانيتها. و صار الأمر مهملا، و العدل مغفلا. و كان من أكابر الأمراء فى ثغور مصر و الشام أميران كبيران فى الجاه و القدر، كافيان فى حفظ الثغر؛ و هما آق سنقر و بزاق. فتابعا الكتب و الرسل إلى السلطان، بخروج عمه الملك تتش بن ألب أرسلان، و أنه قد خرج من دمشق، و قد حشد جموع التركمان. فما قرأ لهما كتابا حتى يئس الأميران، و وقعا فى ورطة الشر، و ظنا أنهما يقومان تتش فى رده عن قصده، فوقعا فى طريقه، حتى حصلا فى قبضته، و قتلا- بسيف سياسته. و توجه تتش نحو الرى و همذان و قم و جرياذقان، و أمراء الدولة البركيارقية، كل متهم فى بلده مشغول بما هو فيه من القصف و العزف. قال: و مما قاله أبو منصور الآبى أحد فضلاء العصر بالفارسية فى قتل الأميرين ما معناه:

قد غرقنا فى الشرب و السكر حتى لم نفكر فى سنقر و بزاق

ما ظفرنا بالبيدق الفرد فى الدست و لكن قد أسلم الرحان قال: و الأجناد طلبوا إصلاح حالهم و تركوا بركيارق، و اتصلوا بعمه، و وقع هو إلى أصفهان و كان بها من بقايا الدولة الخاتونية جماعة أقوياء، فحبسوهم و أتبعوهم. فمنهم من مات فى اعتقاله، و منهم من فجع دون نفسه بماله. قال: و كانت خراسان أيضا مضطربة، و كانت بين ولدى ألب أرسلان: بورى برس و أرغو، مقارعات، هرب منها مؤيد الملك أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك إلى أصفهان، فأرؤه أهلا للوزارة فى ذلك الوقت، فخلعا عليه خلعة تامة للوزارة، و عاد

به الملك إلى النضارة. و كان مصرفا للسيف و القلم، عارفا بلغتي العرب و العجم.

(١) رأى ورى: رأى صائب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٨ له بين العوالى و المعالى و ما بين المهندة المذكور مقامات شرفن فما يبالي أمت على جواد أم سرير و لم يكن فى أولاد نظام الملك أكفى منه، و كان أوحد العصر، بليغا فى النظم و النشر. فتقدم و نظم تلك الأمور المنثورة، و طوى تلك السيئات المنثورة. و كانت "علامته الحمد لله على النعم." فتوجه إلى مصاف تتش، و قال لمجد الملك أبى الفضل و هو منزو بأصفهان "قم و صاحبنى." فأجابه "أذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون." فلما ضرب المصاف، كسر تتش و قتل فى المعركة، و توحد بر كيارق بالمملكة و استبرك بالوزير.

قال أنوشروان: كنت معه فى المصاف، و ذلك فى سابع عشر صفر سنة ٤٨٨ هـ عند قرية يقال لها داشلو، على اثنى عشر فرسخا من الرى فوصل مؤيد الملك إلى السلطان فى المعركة، و هنأه بالفتح، فابتسم سرورا بما آتاه الله من المنح. و قال له "كل هذا ببركتك و يمن نقيبتك" فأمن الناس من أنه معزول، و أنه وزير مقبول. و كانت وزارته فى ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ. و لما وصلوا إلى الرى بعد الوقعة، بادر مجد الملك أبو الفضل إلى الرى من أصفهان، و استمال قلب والده السلطان فى مبدأ الأمر، و تمكن من الدولة و قبض على الأستاذ على المستوفى، فسلم و أعمى. و بقى مؤيد الملك وحيدا يتوقع البلاء و يتعرض، و يتمثل "أكلت يوم أكل الثور الأبيض." و كان أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أكبر سنا منه، و هو حينئذ بالرى متعطش إلى الوزارة، فأطعمه مجد الملك فى موضع أخيه، و ساعده على توليه. و اعتقل مؤيد الملك و حبس، و رتب فخر الملك فى الدست و أجلس.

و لما كانت والده السلطان صاحبة العناية بمجد الملك، أعانت على مؤيد الملك؛ فكتب من الحبس إليها أبياتا بالفارسية يستعطفها و يتضرع إليها. و استقل مجد الملك بالاستيفاء، و غلب على الوزارة، و بقى فخر الملك صورة بلا معنى. و كان أيضا خاليا من الكفاية و الفضل و الأدب. و علاما لكل شىء غير النسب. و هو أسير تصرفات مجد الملك، و تابع رأيه، و ليس له من رسوم الوزارة إلا علامته و هى "الحمد لله على نعمائه." و قال مؤيد الملك فى بيتين بالفارسية عربهما عماد الدين و هما:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٣٩ ماذا أقول عن امرئ جمع المعايير و المعايير

عادت مناقب والدى من شؤم منصبه مثالب قال: و خلص مؤيد الملك من الاعتقال و أقام مدة مديدة فى حماية بعض الكبراء، تارة فى نهاوند، و تارة فى مشكان، مظهرا انقطاعه إلى العبادة، ثم إنه قصد سرير الملك المحمدى فى جزرة، و رأى أن إقبال محمد على إديبار بر كيارق غالب. و أنه لا محالة لملك أخيه وارث أو ثالب. و كان فى نفس محمد طلب السلطنة، فقواها مؤيد الملك، و حقق رجاءها فيها، فقبله الملك محمد، و اصطفاه و استأمنه لخلواته، و استشاره فى عزماته. ثم سلم إليه وزارته و شغف بقربه، و أسكنه صميم قلبه. و قلب مؤيد الملك موكل بالانتقام، و رأى معمل فى تسديد مرامى ذلك المرام. و لم يزل يقرب على السلطان محمد البعيد، و يلين عنده الشديد. و يجيب إليه الجسد و يبغض إليه اللهب، حتى حرك إليه ساكن إرادته.

و سار من أران به فى شردمة قليلة، و بلغ به فى مدة يسيرة إلى دار الملك بأصفهان فتبوا بها سرير سروره، و اجتاب حبير حبوره. و استمال إليه العساكر، و استفاد إلى بهجته و نهجته الأسماع و النواظر. و ألجأ بر كيارق من الأوساط إلى الأطراف. و منى بالاغتراب و الاعتساف. و قبض على الخاتون زبيدة و حبست فى قلعة الرى، ثم سعى مؤيد الملك فى خنقها فخنقت، و أحاطت به أوزار قتلها و أهدقت. و أما مجد الملك، فإنهم أفسدوا عليه قلوب العساكر و أضروها «١» بمضرتة. و أغروها بطلب غرته «٢». فبضعوا بين الجمهور بسيو فهم أعضائه، و وزعوا أشلائه. و ذلك فى سنة ٤٩٢ هـ، و له إحدى و خمسون سنة و كان رجلا مواظبا على الخيرات و الصيام و القيام، و إقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة. مديما للصلاة و الصدقات. لم يسع قط فى دم. و لم يخط إلى مضرة أحد بقدام.

(١) أضروها: أغروها.

(٢) غرته: غفلته.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٠

### ذكر خروج السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين من جنزة وارن إلى الري و أصفهان

قال: كان هذا السلطان مؤيدا موفقا. محققا للرجاء فيه مصدقا. ميمون النقيبة.

محافظا على تقواه مع الشيبية. يحب الاقتداء بآثار جده ألب أرسلان في سياسة المملكة و علو الهمة. و كان وقورا مهيبا، أريبا لبيبا. فلما جلس على سرير ملك أبيه وجده، و وجد قواعد الدولة بإيالة «١» أخيه مختلة، و عقودها منحلّة، ضم النشر «٢»، و نظم المنتشر. و أحكم القواعد، و أبرم المعاهد. و أعاد مؤيد الملك إلى منصب أبيه في الوزارة.

و ملأ بسناه أفق السيادة. فلا بس هذا الصدر الأمور بصدر واسع، و رأى رائع، و تدبير أشمل السداد جامع. فاستقلت الدولة باجتهاده عن كبوتها. و زالت نوبة نبوتها. و بقي سنين و قد انتقم من خصومه بأخذ الثأر، و شفاء غلل الأوتار. و حاز مال مجد الملك، و سعى في قتل زبيدة خاتون. فلا جرم عاد مرتها يحرمه، و عثرت قدمه في ظلمة ظلمه.

و أسره عسكر بريارق في مصاف جرى بين الأخوين على حد همدان، و أحضره بريارق بين يديه و أوثقه كتافا، و عصب للقتل عينيه، و هو قد رفع صوته بكلمة الشهادة، و لم يظهر منه جزع، و لا- خور و لا فزع. فضرب بريارق بيده عنقه. و كان قصد والده السلطان و السعى في دمها أوبقه. فأعدم مثل ذلك الشخص العديم النظر.

و أعنق ذلك الوزر في حز عنق ذلك الوزير. و هيئات أن يلد الزمان مثله في دهائه و زكائه «٣» و رأيه و حيائه و لطفه و ظرفه، و لينه و عطفه.

قال: و آلت وزارة بريارق إلى الأستاذ عبد الجليل الدهستاني، و لم يكن له أثر محمود، و لا يوم في الكفاية مشهود. بل تفاقم شره إلى أن خرج أملا-ك الناس في الإقطاع، و كان في الظلم مستطيل اليد طويل الباع. و لم تطل أيامه، فإنه بقر بطنه باطنى على باب أصفهان. قال: و بقيت حقوق مؤيد الملك عند السلطان محمد محفوظة. و بعين الرعاية ملحوظة. فاعتقد أن نصير الملك ولده النجيب و أنه إذا ولاه قضى حق أبيه. فولاه وزارة

(١) الإيالة: الولاية.

(٢) النشر: القوم المتفرقون.

(٣) الزكاء: الطيبة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤١

بنيه. و كان يأنف الكلب من لؤمه، و البوم من شؤمه. و معاييه لا تعد، و مخازيه لا تحد.

و عن له أن يشتغل بعلم الأوائل، فبلغ منه إلى حد التعطيل، و وقف عند محار الدليل. و قد صنّف أبو طاهر الخاتوني فيه كتابا سماه تنزير «١» الوزير. الوزير الخنزير. و بطل بعد مؤيد الملك ذلك الترتيب. و ظهر على وجوه الأيام التقطيب. و استمرت سنين بين محمد و بريارق مصافات. و تمت مخافات و آفات.

قال أنوشروان: و كنت قد فجعت بمصرع مؤيد الملك، و أثر في قلبى مؤلم ملمه «٢».

و أزعجنى عن المقام مقيم همّه. حتى حصلت بالبصرة، فأقمت بها مدة ثلاث سنين.

و صادفت إخوانا صادقين، من جملةهم الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن على الحريرى صاحب المقامات، يوافقنى فى الجد و الهزل

طائعا، فينظر من عيني و يسمع من سمعي.

و في هذه المدة التي أقمت فيها بالبصرة، درج بركيارق، و كانت وفاته بالسل و البواسير ببروجرد في ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ و بلغ من العمر خمسا و عشرين سنة، و وقع عليه اسم السلطنة و له اثنتا عشرة سنة و قاسى من الحروب و اختلاف الأمور ما لم يقاسه أحد، فتفرد بالسلطنة أخوه محمد، و دان له المشرقان. و تصرف بيده زمام الزمان.

قال أنوشروان: فجاءنى يوما توقيع سلطانى على يد أمير من بعض الخواص فاستدعانى و استدنانى، فوصلت إلى بغداد و السلطان محمد بها في وزارة سعد الملك أبى المحاسن سعد بن محمد الآبى، و كان وزيراً سعيداً حسن الطريقة، ذا هدو و هداية، و رأى و كفاية. فجمع العساكر على الطاعة السلطانية، و أطفأ نائرة الفتنة الشيطانية.

و كان الأمير الأسفهلار آياز مقدم العسكر البركيارقي، فلما توفى بركيارق صار أتابك ولده ملكشاه، فقام مقام والده. ورد ملكه به إلى قواعده. فاهتم سعد الملك باستماتته، و حلف على سلامته. فلما مكن من نفسه قتلوه. و أخذوا ملكشاه بن بركيارق فسلموه. و ذلك في سنة ٤٩٩ هـ، فزال الشعب و سكنت الدهماء. و كانت للوزير سعد الملك في هذه الحيل اليد البيضاء.

قال: و سرت في الخدمة لما ساروا إلى أصفهان. و ما دام هذا الوزير في ولاية

(١) التتير: من تنزر بمعنى أخذ القليل التافه.

(٢) الملم: ما ينزل بالإنسان من مصائب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٢

السلطان ظهرت له آثار حميدة و آراء سديدة. و كانت علامته "الحمد لله على نعمه." و كانت له في الباطنية نكايات، و رفعت له في فتح قلعة شاهدز رايات. و كانت قلعة منيعة على جبل أصفهان تناصى السماء «١»، و تناظر الأفلاك. و قد تحصن بها أحمد ابن الملك بن عطاش طاغية الباطنية في طائفته. و بليت أصفهان و ضياعها بيليته. فسما لها سعد الملك بالرأى الصائب و العزم الثاقب و تلتف في افتتاحها. و دبر في استتزال من فيها على إثار الملة الإسلامية و اقتراحها. فأنزلوه من معقل إلى عقال. و بدلوه آجالاً من آمال. و ألصقوا خد تلك القلعة بالترب. و وضع الهناء فيها مواضع النقب.

و كذلك افتتح قلعة خان لنجان، و هى أيضا بقرب أصفهان. و كانت قد خربت تلك الولاية بما لأهلها فيها من النكايه. و كانت بأصفهان رئيس يقال له عبد الله الخطيبى و هو حاكمها و المستولى على رئاستها، و هو رجل جاهل، من أنواع العلوم خال محتال، يبدى تنمسا بإظهار زهد و ورع محال على محال. و لم يكن له سوى ضخامة جثته، و فخامة لحيه كته. و كان لقاؤه الأمي مقبولا، و كلامه السمي معسولا.

و كان من هذا الوزير خائفا، بمعرفة الوزير بباطن شره عارفا. و طلب من السلطان خلوة غر السلطان فيها بتنميسه. و روج لديه سوق تليسه. و تم نفاق نفاقه و برز هلال محاله من محاقه. و جرى من مناصيبه على سعد الملك أنه حقق في اعتقاد السلطان أنه صديقه الصادق و رفيقه الموافق. إلا أن فيه عيبا واحدا و هو أنه إلى الباطنية مائل و بمذهبه قائل. و إنه مجتهد في إزالة هذا الاعتقاد من قلبه، و المبالغة في نصحه إشفاقا على ما أجد من حبه، فإنه يعز على فساد مثله مع فضله و نبله. و اعتقد السلطان صدق قول الخطيبى، و حسبه خاليا من الغرض، حالبا للنصح المفترض.

ثم أغفل مدة و عاد إليه و آسه من قبوله. و أسف على ما فاتته إليه من سوله «٢».

و صار يشفع إلى السلطان في تأجيل أمره، لأجل ما عنده من مودته و أن لا يعجل في عقوبته. و قد وضع من خواص السلطان صبيانا على الوقوع في الوزير، و أنه باطنى الضمير. و لم يزل به حتى أوقعه في الحبس. و لما قيد رتب جماعة من الأوغاد شنعوا على

(١) تناصى السماء: تعلقوا علوا شاهقا.

(٢) سوله: سؤله.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٣

الوزير فى دار السلطان فى مجمع من الأمراء والقاضى حاضر. وقال كل منهم هو ملحد وكافر. وما زالوا بالسلطان حتى صلب الوزير مع عدة من أكابر ديوانه بهت «١» عدوه وبهتانه. وذكر لما أطلع الوزير على مكيدة خصمه، دبر فى مكيدة عليه. فعاد على الوزير وبها وآل إلى إهلاكه مآلها. وذلك أنه كان عارفا بمكاتبات كانت بين الخطيبى ورئيس الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطاش فى مبادئ أمره. وكان مطلعاً على سره. فأراد أن يستدعى بعض تلك المكاتبات بخط الخطيبى، ويقول للسلطان:

هذا الرجل رمانى بما هو مذهبه وشأنه، وخطه هذا حجة قولى وبرهانه. وأرسل فى ثقافته فى هذا المهم من كتب على يده بخطه توقيعاً بالجواز. ولم يوصه بالاحتراز. فظفر بالرسول من كان مرتباً لحفظ طريق القلعة. ومنع الميرة عنها والطعمة «٢». فوجدوا خط الوزير معه بالجواز، فأخذوا الخط، وكان من أعظم أسباب ذلك الخطب، وذلك أن السلطان حفظ خطه إلى أن قبضه. ثم عرضه عليه فصرح له أن كتابه للتلف عرضه.

فلما أوتى كتابه لم يعد جوابه، وما نبس بكلمة ولا فاه بينت شفه. ولو قال لما سمع ولو اعتذر لدفع عذره ومنع. وكان من أمره ما كان ولقى الرحمن ولقد كان رجلاً خيراً نقى الأديم كريم الخيم «٣». جامعاً لآلات الوزارة وأسبابها، لاثقا بقلم السيادة ودواتها. قال: وكان المستوفى فى وزارته للسلطان زين الملك أبو سعد بن هندو، ولم يكن له أصل ثابت ولا فرع ثابت. ولما تولى خرج واستخرج. وأمر وأمرج. وأخذ الأموال جزافاً وأسرف فيها إسرافاً. ولما انقضى أمر سعد الملك، رفعت عليه رقائق، وأخذ وحبس، واستصفت أمواله ونهبت دوره، وتخبطت أموره، وبقي فى الحبس سنتين.

ولقى العذاب المهين. وكان صاحب ديوان الإنشاء فى وزارة سعد الملك نصير الملك محمد بن مؤيد الملك، وكان مع جهله وعدم فضله، للديوان به أبهة وجلالة وحلية وحالة. فزلت به قدمه ولم يأخذ أحد بيده. وبقي منشوءاً مهجوراً مهجوراً بكمدته.

(١) البهت: الافتراء على الناس بالكذب.

(٢) الطعمة: رزق الجنود.

(٣) الخيم: الطبيعة والسجية.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٤

وكان وكيل دار السلطان فى وزارة سعد الملك أميرى القزوينى المعروف بالزكى ذو كيسه من جملة التجار، وكان قد هرب من أبى مسلم رئيس الرى، والتجأ إلى سعد الملك. فأراد الوزير أن يكون بينه وبين السلطان من يتردد فى المهمات ويأتيه بجواب المؤامرات والرسالات. والذى يتولى أخص من منزلة الحجاب، ويجب أن يكون بلغياً منطقياً. متجرعاً فى مضائق الكلام الغصص مسيغاً. مستقلاً بإقامة الحجة عند الحاجة متجنباً للسماجة بقول ينسب إلى السماحة عارفاً بأخلاق السلطان فى أوقات رضاه وسخطه، وقبضه وبسطه. فإذا وجده منقبضاً تلتطف فى تنشيطه مما ينفق عليه من الحديث الرائق، والقول النافق. حتى إذا رأى منه سيماء القبول حدثه بمقصوده، وإلا جرى فى الإمساك على معهوده. فإن السلطان لا يثبت خلقه على حالة ولا بد له من ضجر وملاة.

وكان هذا القزوينى خالياً من هذه المعانى كلها، لكنه التمس إلى سعد الملك هذه الولاية، فأجابه إلى ملتسمه، ووافقته على هوسه لسلامة نفسه. وذهب عنه أنه سوقى قفز من الدكان إلى باركاه السلطان، فزاحم أركان الدولة بالمكانة والمكان، وكان إذا خاطب السلطان وشافهه، حدث له عجب فانخرج وانخلع. وخرع عما فيه شرع، وجمع بين الأروى والنعام والضباح والبغام. ثم لا يتكلم إلا بكل ما يضر ويسوء ولا يسر. واستنصر سعد الملك من جانب ذلك العاجز بغير قصد منه فى حقه، وأى ضرر أقوى وأمكن من

كونه قتل في حبل خنقه. و كان عارض الجيش في وزارته أيضا أبو المفاخر القمي، و كان قد غلب عليه في اصطلاح الخاصة و العامة نعت طرطنيل، و ما عرفوه بغير هذا الاسم الثقيل. و صرف في وزارته و ولي عمله عز الملك بن الكافي الأصفهاني و بقي فيه أشهراً. فلما أخذ سعد الملك، اقترنت نكبته بنكبته و اتفقت صلبته مع صلبته. و استدعى مختص الملك أبو النصر القاشي في وزارة سعد الملك، و صرف به من ديوان الإنشاء محمد بن مؤيد الملك فقبل هذا و ذاك طرد. و أقيم ذلك و هذا أقعد.

قال: و خلا- الميدان للخطيبى فصار محكا للإسلام. و هو عند السلطان مقبول الكلام. و أصحاب السلطان عنه خاشون و إلى بابه غاشون. و كان إذا سأل السلطان عن واحد كيف تعرفه أجاب مرة بلا أدري و مرة بلا أعرفه و تارة أمهلني فإني أبحث عنه و أكشفه، و تارة يشهد عليه بما يهدر دمه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٥

قال: و حدثني ابن المطلب، و كان وزير الإمام المستظهر، قال: مازال هذا الخطيبى ببغداد يتوصل حتى أبصر قهرمانه لدار الخلافة، فقال لها: اليوم أجرى معى السلطان حديث هارون أخى الإمام المستظهر و سألتني عنه، فدخلت القهرمانه إلى الدار و أوصلت إلى سمع أخيه ما حدثها به الخطيبى. فقامت قيامه الخليفة و تمكن الاستشعار من نفسه الشريفة، فكتب إلى الوزير يأمره بالركوب إلى الخطيبى و يحمله على الإضراب عن ذكر أخيه، و يحمل إليه ستة آلاف دينار أميرية يدفع بها شره و يكفيه.

قال: فاستأذنته فى الركوب إليه فى الليل فإنه أخفى للويل. فما صبر و لا وجد القرار، حتى ركبت إليه و أرضيته بما حملته. و استعفيته عن حديث هارون و استنزله.

قال: و كذلك لم يترك من خواص السلطان أحدا إلا لوته و شوش عليه رأيه و خبته. و لم يغادر أحدا من الخاصة و العامة إلا طرق إليه ظنه أو قلده بسكوته عنه منه و قال له السلطان يوما: كيف كان أصحاب دواوين و الذى وجدى فى أديانهم. و أنهم كانوا لا قدح فى إيمانهم، فكيف اختص هذا اللوث بزمانى و بأصحاب ديوانى؟ فقال أولئك كانوا من أصحاب خراسان و هم أهل الدين و الإحسان. و هؤلاء أهل العراق أهل الإلحاد و النفاق. فتخيل السلطان صحة مقاله. و استحکم تقريب الخراسانيين و إبعاد العراقيين فى خياله. و اعتقد أنه ليس فى العراق مسلم، و أن أقق الملك بغير الشرفيين مظلّم. و كان بالعراق جماعة من أهل خراسان محرومون مهجورون من كل جاهل مجهول، و ساقط ذى خمول، و منزو إلى ناحية، و متنح إلى زاوية، و متمس بالرياء، و متهوس بالكيمياء، و بطل مرجف، و عمال محترف، فلما عرفوا ميل السلطان إليهم رفعوا رؤوسهم، و عرضوا نفوسهم. و خطبوا المراتب، و طلبوا المناصب. و غفلوا بل غفل السلطان عن هذه النكته أن خراسان عش مذهب الباطنية، و بها أفرخ و باض، و منها شاع و فاض، و فيها حصونه التى لم تفتح، و عيونه التى لم تمتح، و انقضى عصر سعد الملك سريعا و صار بالمكر الصريح صريعا، و عاد الملك المريع منه مروعا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٦

### وزارة الأمير ضياء الملك أبى نصر أحمد بن نظام الملك

قال: لما نكب سعد الملك طمح إلى الوزارة عمرو و زيد، و وصل يوم نكبته الأمير ضياء الملك، و خطير الملك أبو منصور محمد بن الحسين الميبدى، و كان قد استدعى من فارس. فاختلفت عليهما الآراء، فرأى السلطان حفظ الجانبين. و أمر بتولية الصاحبين، و جعل دست الوزارة للنظامى، و منصب الاستيفاء للميبدى. و ألف بتأليفهما قلوب خواصه، و خص كلا منهما باستخلاصه. و أعطى سياسة ملكه حقها.

و جلا بسناء إحسانه أفقها. قالت الحكماء: "منازل السياسة أربع: فالأولى سياسة الرجل نفسه، و الثانية سياسة أهله و ولده و من يضمه منزله، و الثالثة سياسة بلد واحد يتقلده، و الرابعة سياسة الملك كله. فمتى عجز عن منزله من هذه المنازل، فهو عن التى تليها أعجز." لا جرم ابتلى هذا الوزير بشفعة نسبه، و هو غير خبير بسلوك مذهبه و لم يكن من شغله و لا من أربه. و كانت علامته: "أحمد الله على

نعمه."

فقضى حقه بشغل عجزت اللقاة الدهاء عن القيام به، و وقع اسم الاستيفاء على الخطير كما يدعى بالجهل اسم النبوة أبو جهل. فلم يكن للمنصب المأهول دسسته بأهل.

و خواجه مختص الملك صاحب ديوان الرسائل، معدم من الفضائل. و هو عند أولئك أكتب الكتاب، و يعجز عن كتب خمسة أسطر بالفارسية، فضلا عن العربية.

قال أنوشروان: و أنا ولاني السلطان الخزانة، فإنه استدعاني إلى خلوته و خصني بكرامته. و سلم إلى خزائن ممالكه. و كان هؤلاء الأكابر إنما يصلون إلى السلطان في الباركة إذا جلس لعامته، و أنا أختص بخلواته، و استسعد بمحادثته. فعظمت و جاهتي بمواجهته، و حسدني أكابر الدولة على منزلتي. و انتظروا زلتي و مذلتى. و اتفق في ذلك الوقت، أن الأمير السيد أبا هاشم الحسنى - رحمه الله - رئيس همذان، قد تغير عليه رأى السلطان. و ذلك لأن قوما من أرباب الدولة تناصروا عليه، و أدبوا عقارب مكايدهم إليه. و أطمعوا المتوج ابن أبى سعد الهمذاني في إيالة همذان و رئاستها، و كان المتوج هذا من جهة الرئيس منكوبا و بيده مضروبا. فأوقعوه في معارضته. و عرضه لواقعة.

و أغلقوا على الأمير السيد و على أولاده باب داره و سدوا عليه طريق فراره. و قرروا عليه سبعمائة ألف دينار أحمر، سوى ما يلزمه من توابح و لوازم هي أكثر من أن

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٧

تحصر.

قال أنوشروان: فأمرني السلطان بالمسير إلى همذان لاستيفاء هذا المال، و عاد السيد أبو هاشم، و هو شيخ كبير قد ضعف بصره، و اختل نظره. فعظم عنده ما قرره عليه و استكثره. فمحضت له النصح، و ضمنت له النجاح. و عاقدته على مساعدته و عاهدته على معاضدته. و وعدته بالسعى في إصلاح حاله. و إنجاح آماله. و نقد سبعمائة ألف دينار عتيق في سبعة أيام من موجود خزانته. و لم يستعن بأحد من أهل مدينته. و حثنا على المسير و لم يأذن لنا في المقام اليسير. فحين أوصلت المال إلى خزانة أصفهان و لقيت السلطان شافهته بحقيقة أمره و عرفته اختلاف أصحاب الأغراض بالباطل في حقه. فأمر السلطان بإعادته إلى رئاسته. و منصب سيادته. و سير إليه الخلع السنية و التشريفات اللاتقة بشرفه، و أحيا متلد مجده بمطرفه.

قال: و لما حصل ذلك المبلغ في الخزانة، سلمها إلى و عول في دخلها و خرجها على. فتوليت الخزانة و الزكى ذو كيسه فيها، و كذخائيه الخزانة به منوطه، و أمورها بأمانته مربوطه و لما سار السلطان إلى بغداد فتك بالزكى هذا في سوقها، فقتل في الحال قاتله. و لم يعرف من أى وجه غالته غوائله. قال: و قد سبق القول بأنه لم يخلص من طعن الخطيبى سوى مختص الملك الكاشى. فلم يثبت على تلك الحالة، فإنه شرع عند السلطان يقدح في دينه و يجرى من الشرف في ميادينه. ثم إنه قد نقش في لوح خاطر السلطان، أن الباطنى لا يعرفه غير الباطنى. فاجتهد حتى دل على رجل من الباطنية من الخوف مخنف و فى بعض الزوايا مكتف. فأحضره و آمنه و قوى نفسه بما أمكنه. قال له:

"لا بأس عليك و لا سبيل للأذى إليك" و لقنه أسامى مائة نفس من خدام السلطان، و أعيان البلدان. و قال له "إذا سئلت عن تعرفه من الباطنية فاذكر هؤلاء وعدهم على الولاء." فرده إلى موضعه و قال "لا- تخف، فإنك إن أخذت أنجيتك، و إن أخذ منك أعطيتك." فلما عاد الرجل إلى مكمنه، حضر الخطيبى عند السلطان، و قال "قد دلت على رجل باطنى فى موضع كذا، و أرجو أن يقع، فلعله يفتح علينا بشىء من أمر الباطنية." فأمر الحاجب بإنفاذ من يأخذه فأخذ و أحضر، و سئل عن يعرفه من الباطنية فى البلاد و العسكر، فأعاد ما تلقنه من الخطيبى، و أجرى ذكر مختص الملك أبى نصر و الصفى القمى أبى الفضل نائب الخطير فى ديوان الاستيفاء، و كذلك عد قريبا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٨

من مائة من المعروفين، فأخذوا وسلموا إلى الأتراك. و تصرفوا منهم في الدور والأملاك. و تشتت أهلهم، و تفرق شملهم. و في أثناء هذه المكاييد و الحيل، نزل الخطب بالخطيبي، و ضرب بغته بسكين سكنت حركته و أسكنت نأمته، و أشممت به خاصة الزمان و عامته. و بقي المكذوب عليهم في السجن شهورا. و انتقم الله ممن جاء في أمرهم بهتاناً و زورا. ثم تبين للسلطان بعد قتل الخطيبي أنه كان ماحليا «١» مستحلا. مستبدا بالاحتيال و الاغتيال مستقلا. و عرف أن ذلك الباطني ذكر من ذكره بتلقينه، فندم السلطان و لات حين مندماً. و أمر بالإفراج عن أولئك المساكين. و لم يسمع السلطان بعد ذلك حديثاً في اعتقاد، و لم يصدق نسبة مسلم إلى إلحاد. و إذا جرى عنده حديث الباطنية قال: "إنهم في القلاع و هي موضعها، و نحن نقصدها و نقلعها." و شغف بحصار حصونهم و فتح قلاعاً لو بقيت إلى الآن في أيديهم لعم العالم الكفر.

قال: و كان شمس الملك و نظام الملك أخو الوزير حاضراً، و كنت متولياً لعرض الجيش، فنقل هذا المنصب مني إليه بعد أن أخذ ألفي دينار خدمة أوصلها إلى الخزانة، و بقي في قلب السلطان من مختص الملك شيء من الارتياب به لم يزل. و من يسمع يخل «٢». و لم يكن ظهرت بعد احتيالات القاضي، فأزال السلطان اختصاص المختص، و تعمد قوادم شغله بالحص. و كان الأمير العميد محمد الجوزقاني عميد بغداد فاستدعاه و نقل إليه منصب المذكور، و اعتمد عليه في تلك الأمور. و هو منصب الطغراء و ليس أكبر منه بعد الوزارة إلا- منصب الاستيفاء، ثم الطغراء. و من جملة ديوان الرسائل و الإنشاء، ثم الإشراف ثم عرض الجيش. و الطغرائي هو وزير السلطان في الصيد لغيبة الوزير و عليه المعول. فصار الأمير العميد طغرائياً. و كان من كسوة الفضائل عرياً.

و تولى أيضاً وزارة كوهر خاتون بنت الأمير إسماعيل بن ياقوتى زوجة السلطان.

و كانت وزارتها أيضاً منوطة بكفاية المختص، فصرف من الشغلين. و تسلم الأمير العميد المنصبين. و هذا محمد الجوزقاني كان ولد خطيب جوزقان، خرساني المولد

(١) محاليا: صاحب كيد و مكر.

(٢) يخل: يتوهم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٩

و الأصل، و إنما كانت الرغبة فيه لخرسانيته لا لإنسانيته. و تعرف إلى السلطان بالمذهب الحنفي و مشاغبه فيه. و إدلاله بالتعصب بين ذويه، إذا سلم عليه واحد لم يسمح له برد السلام. حتى يقول له ما مذهبك من أهل الإسلام؟ و كان قبيح الجبة «١»، شديد النجبة «٢»، صفيق الوجه. كأبي براقش في تلونه، و كالعقق في قلبه، و كالدئب في توثبه. و هو خارج عن الحد في تعصبه.

قال: و كان قد خلص زين الملك أبو سعد بن هندو من الحبس و نزل في المعسكر بغير شغل ثم دخل صدور الديوان، و استولى على المكانة و المكان. و كان خالياً من أدنى فهم. جاهلاً بكل علم. و من جملة ذلك أنه سلم إليه كتاب قرار ليكتب خطه بما جرى من قرار الديوان فكتب كذا "الاستقر" بالألف و اللام و كتب فلان بن فلان:

تعس الزمان لقد أتى بعجاب و محاصنوف العلم و الآداب

و أتى بكتاب لو انطلقت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب و كان الوزير ضياء الملك رجلاً سهلاً المحجج، صادق اللهجة. إذا جلس في صدر وزارته، و أحرق الصدور بوسادة سيادته أنار دسته و حسن سمته، و كان كل منهم إذا اجتمعوا سلقوه بألسنة حداد. و كدروا ورده فيما هو قانون الوزارة من الاستقلال و الاستبداد. قال: و لما لم يكن مباشرته للوزارة صائبة، و كانت الآمال في نجحه خائبة، لم تلق مدة ولايته تمكيناً، و بقي بعد صرفه اثنتي عشرة سنة مسجوناً. و لقي أضعاف كرامته هوناً. و لم يصادف من زمانه و إخوانه إلا خواناً.



قال: و توفي الأمير السيد أبو هاشم الحسنى رئيس همذان، فنقل من خزائنه إلى خزائنه السلطان بعد ما أداه مبلغ مائتين و خمسين ألف دينار، و ما أثر ذلك فى حال بيته. و قام حيه بتأثيل مجد ميته. و زاد تقرب السلطان لولده. و قوى يده على رئاسة بلده. و ظهرت مخايل عصيان ملك العرب صدقة بن منصور بن ديبس بن على من مزيد الأسدى و ذلك فى سنه ٥٠٠ هـ فتغير رأى السلطان فيه حتى جر إليه عسكره.

و كدر إليه مورده و مصدره. و جرت بينهما وقعة غلبه من ولايته. و حيز إقليمه بقلم

(١) الجبة: اتساع الجبهة.

(٢) النجة: استقبال الناس بما يكرهون.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٠

الحياسة الديوانية، و تصرف فيه كتاب الدولة السلطانية. و مزقوا بالتبذير تلك الأموال الجزيلة و خربوا بسوء التدبير تلك الأعمال الجليلة.

قال و قد كثر تعجبي من السلطان، يتأنق فى تخير كلاب الصيد و فهوده، و إنما يقتنى منها ما يراه موافقا لمقصوده. فيسأل عن فروعه و أصوله، و انقطاعه و وصوله. فما باله لا يتخير لديوانه، و مراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل، و الصدور الأمثال، من عرفه ذاك «١». و عرفه زاك «٢»، و عرفه كريم، و مجده قديم، و طريقه فى الكفاية مستقيم. لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار، و أجدر بالاختبار. فإنهم أمناؤه على مملكته، و كلاؤه على دولته، و سفراؤه فى خدمته.

### وزارة خطير الملك أبى منصور محمد بن الحسين المبيدى

قال الصادق عليه السلام: كل شىء يحتاج إلى العقل إلا الدولة. قال: و قد عرف أنه معدم من كل آلة و أداة. غير لائق برعاية يراعه، أو الآفة دواء. حمار رامج، جانح جامع. عضوض رفوس، حرون شמוש. معدن الغش و الدغل. منبع المكر و الحيل. و كان قد وزر مرة أولى، و عرفوا أن يده فى القصور طولى. لكنه توسل فى هذه المرة لعوده إلى الوزارة بجنس توصل ابن جهير فى الوصلة إلى نظام الملك بابنته. و هذا لم يكن له وصلة شرعية، و لكن تم له الأمر بمثل وسيلته. و إلى ذلك أشار ابن الهبارية فى وزارة ابن جهير.

قل للوزير و لا تفزعك هيبتة و إن تعاضم و استعلى بمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية فاشكر حرا صرت مولانا الوزير و كان رجلا جسيما ملء التابوت و عقله أوهن من بيت العنكبوت. فإذا استند إلى مسنده فى الديوان اعتقد أنهما مسندان محشوان.

(١) عرفه ذاك: العرف بمعنى المعروف أو الجود، و ذاك من ذكا يذكو بمعنى اشتعل و اتقد. أى رجلا معروفا عند الناس.

(٢) عرفه زاك: رائحته طيبة منتشرة. و زاك من زكا يزكو: نما و انتشر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥١ وزير غاص من شحم و لحم و لم ينسب إلى عقل و فهم

إذا لبس البياض فعدل فطن و إن لبس السواد فقتل فحم و كانت علامته "الحمد لله المنعم." و كانت له فى الجهل نوادر شوارد، و بوادر بوارد، و من جملة ذلك، أنه كان يوما ببغداد راكبا فى زى حسن، و موكب خشن، و جمع جم، و بهم ودهم. و جلال الدين عميد الدولة أبو على بن صدقة الذى وزر للمسترشد مسايه. و الجند قد عقدت بروايته و رويته أسماعه و نواظره. فالتفت الخطير الوزير قال "قد أشكلت على مسألة لابد من حل إشكالها، و إنشاط قلبى من عقالها.

هذه اللواطه سنة قديمه سبق إليها القدماء، أو رسم مستحدث أحدثه السفهاء؟ "فقال له بعضهم" هذا رسم قديم لقوم لوط. "فقال الخطير": "و من كان لوط ؟" فقالوا "نبي من أنبياء الله" فقال له "قد أنزل الله في قوم لوط: إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم تجهلون. "قال " ما معنى تجهلون "؟ و كان عجميا لا يعرف كلمة عربية، فقالوا له "أى لا تعلمون" فقال "هذا حسب، فالأمر إذا سهل، و عذر فاعله أنه ذو جهل، و أنا أعتقد أنه أعظم وزرا و أفضح أمرا. "فانظر إلى جهالته في ضلالته. و نزارته في وزارته. و كان مهذارا مكثارا لا يستر شوارا و لا يحذر عثارا.

و ما كفاه ذلك، حتى استتاب ابن الكافي الأصفهاني الناقص الملقب بالكامل. الطويل بغير طائل. و اللثيم الذي كان له عند الكرام طوائل. طناز «١» غماز، هماز لماز.

و كان من نواب الدهر كونه نائب الصدر. يَمَن بأن أخته تحت الوزير، و هو بذلك بالغ القدرة و القدر. و هو من الذين قال ابن الهبارية فيهم من أبيات في ذم أصفهان:

بلد أبو الفتح اللثيم عميده و القاسم بن الفضل قيل رئيسه

و طريفة الكافي الطويل و شيخه مع أنه دنس المحل خسيسه

و ابن الخطيبي الصغير محله قاض و جرو المندوى جليسه فاتفق جميعهم على الوقيعة في زين الملك أبي سعد بن هندو. حتى بلغوا في

(١) طناز: ساخر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٢

مكروهه ما ودوا. فباحوا بسر سرائره و حملوا السلطان على أخذه بجرائره. و إنما تمشى لهم السعى فيه بما كثروا عند السلطان من ثروته. و قالوا إننا ننقل مائتي ألف دينار إلى الخزانة من خزائنه. فأمر السلطان بأخذه و تسليمه إلى التونتاش، و أوقعه في مخلب ذلك البطاش. فحملة من أصفهان إلى مدينه ساوه و صلبه يوم الجمعة في شارعها. فلما قتل تصرفوا من ماله، و تدينوا باستحلاله. و أنسوا السلطان المائتي ألف دينار و تحكّم ابن الكافي في ذلك المال. و استوعبه الكامل على الكمال. و أعيد في وزارة الخطير ديوان الاستيفاء إلى معين الدين مختص الملك، فتولى بعد العزل، و تمكن من الشغل. و عبث بهم أبو طاهر الخاتوني في أبيات فارسيه، قال الإمام عماد الدين: و عربت بعضها و قلت:

صدور ما بهم للملك إيراد و إصدار

خفاف لو نفختهم و هم في دستهم طاروا

رأيتهم كما كانوا أعرفهم كما صاروا و كان الأستاذ الموفق أبو طاهر الخاتوني من صدور الدولة، و أعيان المملكة، و أفاضل العصر، و أمائل الدهر. ذا فصاحة و حصافة، و لطافة و ظرافة في النظم و النثر، جامعا لأدوات خدمة الملوك. خبيراً في مناهج السلوك، قد قلب الأمور ظهرا لبطن، و جرب الحالين من قوة و وهن. و لم يزل منذ نشأ و إلى آخر عمره صدرا كبيرا. و مشارا إلى صوابه و بالصواب مشيرا. و ما زال لخاتون مستوفيا. و ديوان السلطان بكفايته مكتفيا. فلما تولى هؤلاء عرفوا نقصانهم عند فضله، و انخفاض محلهم في البراعة عند ارتفاع محله، و علموا أنه لا يغضى عن عيبهم عينه و أنه لا يقضى إلا- من عروض عرضهم إن قارضوه أو عارضوه دينه. فتخلوا من تزيقه و انتقاده، و تحيلوا بكل طريق بعد تقريبه في إبعاده. فتمحلوا له من جرجان شغلا. و عدوه له أهلا. و جر إلى جرجان جرجان و نقل من أعز مكانة إلى أذل مكان. قال الإمام عماد الدين- رحمه الله-، و شكاً في أبيات عجمية أعجم حظه و اتهامه. و إقلال قلمه و إعدامه. فعربتها و قلت:

لمرتبة الكلب في عصرنا على رتبة نحن فيها شرف

و ما عاد ذو قلم مفلحافان الفلاح لطلب و دف قال: و كان مختص الملك قد شمر جفنه للشعر فيه، فعاد كأنه شكل مثلث في عين

رأسه. فقال فيه الموفق الخاتوني بيتا بالفارسية مشتقاً على معنى بديع، وهو أنه ينظر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٣

من مثلت عينه إلى الناس نظر تربع فقلت:

لصدر الصدر ضيق في اتساع ويطمع في كمال من قصور

على التثليث ناظره و لكن من التربع ينظر في الأمور قال: و مازال الوزير يصغى فيه إلى السعادة، و يسيم في مرعى سمعه سرح الوشاء، و نسبوا إليه التقصير و التخليط، و الإفراط و التفریط، و أحال الوزير عليه بمائة ألف دينار و انتهز في أمره الفرصة، و أخذ في استدعائه من جرجان الرخصة، فاستحضره و تشدد في إرهاقه، و استصغى ما له فعاد ذلك بإملاقه.

قال الفتح بن على البندارى الأصفهاني منتخب الكتاب: رأيت بخط جدى - رحمه الله - أن موفّق الدولة قال في تلك الحالة أبياتا مطبوعة بالعربية و من جملتها قوله:

نهبوا ما ملكت في بغدادى و استباحوا ذخائرى و عتادى

فأنا اليوم غير ذقنى و سنى مثلما كنت ساعة الميلاد

و هما الآن رهن قلع و نتف تحت هذا الإبراق و الإرعاد قال: فأحوجته الحوالات عليه إلى الاستقراض. و انضاف اشتغال ذمته إلى الإنفاض. و كان للأستاذ الموفق معرفة بالكمال السميرى و بينهما صداقة صادقة، و مودة صالحة من كأس الصفاء غابقة. و سيأتى ذكر الكمال عند انتهاء ديوان الإشراف إليه فى الأيام المحمدية. و عند استقلاله بالوزارة فى الأيام المحمدية، و لقد كان من أوسع الصدور صدرا، و أرفعهم قدرا، و أحسنهم تدبيراً، و أجملهم تأثيراً. و كان يلقب بعز الدين و هو فى منصب مشهور، و مذهب فى السماح مشكور. فلما ألقى الموفق، كتب إليه أبياتا ذكره فيها بحقوق خدمته، و عقوق حظوته و شكها فيها حاله. و هجا الوزير و أشكاله. قال عماد الدين، و لم يأت لى تعريبها، و لم يأنس بخاطرى غريبها فأضربت عن ضربها، لما عصانى ضربها. و له فى شكوى حاله ما عربت معناه نسجا على منواله.

و قلت:

و كم يبذق فى خدمة الشاه ساعة تفرز لما صار فى سابع الدست

ولى أخدم السلطان سبعين حجة و ها أنا حى للإضافة كالميت

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٤

قال: و ملاً هذا الوزير الخطير مخازن مخازيه، و الكامل بن الكافى موازنه و موازيه.

و لم يكن عنده من الله خبر، و لا فى قلبه من الدين أثر و كلما طال عليه الدهر تطاول على نبيه، حتى تأسست بالشر مبانيه، و حلت له مكاسب لا يرضى المجانين بها مجانيه.

و السلطان لهم كاره، و ضميره له بما هم فيه مشافه.

### ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان ابن خالد فى نيابة الوزارة

قال أنوشروان: فراسلنى السلطان بخادم من خواصه، و شكنا من الوزير اعتياد اعتياصه. و قال: "هذا الوزير قد أيسر من فلاحه، و لا مطمع لى فى إصلاحه. و فى كل وقت يحكم فى بيتى من أولاد الكافى غير كاف، و إذا رميت و فيا جاء فيه منهم بجاف.

و قد عرفت يا أنوشروان طريقتك، و علمت حقك و حقيقتك، و أنا أوثر أن تنوب من قبلى فى الوزارة، و تعمر ما بينى و بينك فى السفارة حق العمارة" فقبلت الأرض و أدت فى تولى خدمته شكر نعمة الفرض. و قدمت عذرا لاثقا بالحال. فلما أنكره سارعت إلى الامتثال. و كان السلطان كريما حلوما. لا يعجل مؤاخذه من يخونه و إن كان حاله عليما. فحفظ قلب الوزير فى نيابة ابن الكافى لما

عزله. و كان في نفسه مؤاخذه بالمال الذي اختزله مراعاة لقلب الوزير، و محافظة على خطر الخطير.

قال: و جلست في النيابة عنه، على الكره منه. و كان احترامه للوزير لا- تبجيلا، بل تدفيعا للوقت به و تأجيلا. فأجلسني في الديوان مكرما و على الصدور مقديما. لكن الوزير اعتقد أني للسلطان عليه عين، يستثقلني كأني ممن له قبله ثأر أو دين. و كانت صحبة لي على مضض، و صحة ملقاء لي عن مرض. و صدور الديوان عن يمينه و يساره مؤثرون لإيثاره. بيدون لي بشري و يضمرون لي شرا. و اتفقت كلمتهم مع افتراق طباعهم على مصادتي. و اعتقدوا حصول محابهم في محادتي. فما اشترت بشعيرتين سبالهم، و لا شغلت بالي بما شغلوا به بالهم. و لما عجزوا عن إيقاعي في مصايد المكاييد، شرعوا في تعويق الرسوم و الفوائد. و توقفوا في توجيه واجباتي من الديوان، و توافقوا على قطع ما أطلق لي من صلوات السلطان. فكنت أتسلى بقول القائل:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٥ إن لله غير مراعاك مرعى نرتعيه و غير مائك ماء

إن لله بالبرية لطفاسبق الأمهات و الآباء قال: و لم أحل من قصد الجماعة في نوبتي الوزارتين الضيائية و الخطيرية، و ما زالت تأتي منهم قوارض الأذية. و كان بين الوزير الخطير و بين المعين المختص مناوشة و مناواة، و مواحشة و منافاة. و ما كان يقدر أحدهما مع المبالغة في قصد صاحبه أن يبلغ فيه غرضه. و كأنما يخفي مرضه و مضضه. حتى مال الوزير إلى كمال الملك السميرمي فصار بينهما موازرة في أمير المعين، و مشورة في تكدير ذلك المعين، حتى بلغ فيه ما تمناه، و الخصى يفتخر بزب مولاه (و سيأتي شرح ذلك في موضعه). و توفي الأمير العميد الطغرائي في وزارة الخطير. و خمد شرر شره المستطير. و جلس مكانه في ديوان الطغراء، و صدر الإنشاء الأستاذ أبو إسماعيل الكاتب الأصفهاني، و كان ذا فضل عزيز، و أدب كثير. و كان في حياة الأمير العميد منشأ على سبيل النيابة عن الطغراء. ثم تولاه بالأصالة متصدرا في دست العلاء. و كان مع ذلك بطيء القلم كليله، ملتاث الخط عليه. و هتف به أبو طاهر الخاتوني في نظمه، و سلط سفه الهجاء على حلمه. و أشار إلى القلم في يده و قال: كأنه و هو يجره برجله، مذنب يعاقبه بجرمه. و كانت بديهته أبيض و رويته رويته محيية. فإذا أنشأ تروى بطيا و تفكر مليا. و غاص في بحر خاطره، ثم أتى بالمعاني البديعة، و الاستعارات الغريبة. و سذكر أحواله فيما بعد، و حال الوزير الخطير لما خاناه السعد.

### ذكر تولى كمال الملك علي السميرمي اشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه و ابتداء أمره

قال: كان كمال الملك علي بن أحمد من مدينة بقرب أصفهان يقال لها سميرم، أهلها ذوو فطرة زكية، و فطنة ذكية. و كانت هذه المدينة في معيشة كهر خاتون زوجة السلطان، و أبو كمال الملك زارع غلاتها، و قابض ارتفاعاتها. و وزيرها حينئذ الأمير العميد، الكمال، لسبب شغل والده و إنجاح مقاصده متردد إليه متودد، و متصد لأمواره مسدد، فاستجلاه و استجلده، و استكفاه و أحمدته. و استنابه في خاصه حين استبان نصحه. و استوضح في ليالي نوابه بالنجح صبحه. فوفر ماله، و ثمر حاله. و جعل

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٦

له في العيون هيبة و في الصدور رهبة. فبقى الأمير العميد لا يعتمد في أموره إلا عليه و لا يسكن إلا إليه. فلما اتفق مسير الأمير العميد إلى بغداد في تولى العمارة، لم يكن له بد من إقامة نائب في وزارة كهر خاتون يلازم الدرگاه، و يقيم له بخدمته عنه الاسم و الجاه. فرأى أن الكمال أوفق و أوثق، و أشقى لصدوره في التصدر و أشفق. فاستنابه على أنه لا يستعين فيما ينوبه إلا بالعزيز، و كان العزيز أبو نصر أحمد بن حامد- رحمه الله- عمي أول ما شب و مضى في البلاغة شباه. و عقد بحب العلي حباه. و صرف اليراعة بنانه و عرف البراعة بيانه. و هو في الديوان الخاتوني نائب على الأصل يحكم، و شاب عند مشايخ صدور مجهلون ما يعلم. فلما تولى الكمال نيابة وزارة كهر خاتون، انضم إليه العزيز فضم نشره، و حسن أثره، و أرسده و دبره.

و كان الديوان الخاتوني في الوزارة العميدية خاملا خامدا، ما له غير رواتب موظفة، و وظائف مرتبة، و معاش مرسوم، و عوائد معلومة. ليس لنوابه في غيرها أمر و لا نهى، و لا لوراده من سواها شرب و لا رى. و خاتون راضية بالهدو، متغاضية عن النمو. فعرفها

الكمال ما فى الخمول من ذهاب رونق السلطنة، و عزل ولاية القدرة المتمكنة. و كانت هى ابنة الملك إسماعيل البغانى من أذربيجان، و كان كبير الشأن.

فقال لها "قولى للسلطان إن أجناد أذربيجان من صنائع والدى و أشياعه، و هم صاروا متبوعين و قد كانوا أمس من أتباعه. و أريد أن تكتب منشورا بأنهم فى اهتمامى، و أن أمر معاشهم يبرم بإبرامى." فأجاب السلطان سؤالها، و كتب لها مثالها. فسيرت الكتب السلطانية، و أمر بخدمتها الأمراء الأذربيجانية، فتبادرا إلى بابها بتقيل العتبه و تأميل المرتبه. و وصلوا بالهدايا و التحف و الألفاف و الطرف. و ازدحمت على بابها وفود الملوكة، و اتسق إلى قصدها سلك الفج المسلوكة. فرأت من الدولة شيئا ما رأت، و رعت من الدولة روضا ما رعت. فتبركت بموضع كمال الملك. و سمع الأمير العميد بأن نائبه قد جاءه الجاه، و قبلت يديه الشفاه. فقام وقعد، و أبرق و أردد. و كتب بصرفه، و الغض من طرفه، و مطالبته بفرعه، و عمل الحساب و رفعه. فلم تلتفت الخاتون إلى قوله فى كتابه، و لم تكثر بخطابه. و كتبت "إن هذا النائب عندى مرضى و حقه مرعى. فما لك أن تصرفه؛ بل عليك أن تعرفه. و تعرف له حقه و تنصفه. و هو أن حاقفته فليس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٧

لك بنائب و إنما هو شريك، و أن أمرنا بالإنكار أن قصد منك أو شيك «١» و شيك، و أنت تعلم أيها العميد أن دور الحرم، مبرمه لها معاهد العصم، محكمة لها قواعد العظم.

فما يجوز أن يتولاها فى كل قريب غريب. و ما يحسن أن يتجدد فى كل حين لها مستتاب و مستتيب. و هذا عرفناه بك فالأولى أن تبقيه، و الأبقى لجاهك أن توليه."

فعرف الأمير العميد أن الأمر خرج عن يده، فجدد للكمال بشغله منشورا.

و طوى من شره فيه ما كان منشورا، و كتب إلى خاتون "أن الآن قد قوى أملى حيث مكنت نائبي، و عرفت صحبه صاحبي. و إنى ما أردت صرفه، و إنما أردت تهذيبه و رمت تجريبه، و قد وفرت عليه ثلث الرسوم، و أشركته معى فى أصل الفرع المعلوم" فاستقل الكمال و استمر مريه. و ثاب سروه «٢» و ثبت سريره. و بقى كذلك متوليا مستوليا، و متغلبا مستعليا إلى أن قضى الأمير العميد نجه، فسولته وزارتها بالأصالة و خصته بالإيالة. ثم تعصبت له عند السلطان، حتى ولته إشراف المملكة، فدانت له الأمم.

و أطاف به الحشم و الخدم، و صار السلطان يكتب إليه بخطه، و يطلع على حالته رضاه و سخطه. ثم شوش على أرباب المناصب قلب السلطان حتى تغير رأيه فى وزيره الخطير ورد ورده إلى التكدير. و نقله من بنى جنسه إلى بناء سجنه. و من مجلس عزه إلى محبس عزله. و سلمه إلى الأمير الحاجب عمر ابن قراتكين ليخرجه و يستخرجه. و ليروج ماله و يورجه قال: و نظم أبو طاهر الخاتونى بيتين فارسين عربتهما و قلت:

كان حمارا وزيرنا و مضى فما يملك السلطان من خلل

لكنما فى صدور دولتنا ليس لذاك الحمار من بدل و كان شمس الملك عثمان بن نظام الملك قد بقى فى حبس الوزير سبع سنين، فأفرج عنه ليوافق الوزير على أوزاره، و يقرب خطى الخطير إلى أخطاره. فكان حبس ذلك لهذا فرجا، و دخوله فى المحبس له مخرجا. و جمع السلطان أمراء دولته و أربا بدوانه و فاوضهم فى وزير يفوض إليه وزارته.

قال أنوشروان: فأجمعوا على أن أكون المتكلم عنهم بالصواب و المبلغ للخطاب.

(١) شيك: أصابه بالشوك.

(٢) السرو: الفصل.

و كان رأيي مائلا إلى مثل ما حكى عن المعتضد أنه كان قد حرض على عبيد الله بن سليمان و سعى عنده عليه. و كان يقول "إذا فكرت فيما ينتقض من التدبير، و يضع من الأمور بين صرف وزير و تقليد وزير، و إن كان المتقلد أكفى أضربت عن نكته،" فاتفقوا أن أكون الناظر في الأمور و متقلد مصالح الجمهور. و منفذ الأوامر و جامع شمل الأكاير و الأصاغر. و أن المنشئ و المشرف يكفیان بخطى و تمثلي. و يتأثران في شغلها بتأثلي. حتى يقضى كل مهم. و يقضى كل ملم، و بقيت الرعية مرعية. و السيرة رضية مرضية. و الدهماء ساكنة. و الغبراء آمنة. و طال حبس الوزير تلك المدة و لقي الشدة.

و كان خلف الزمان رجلين من أولاد الكافي من بقايا السيوف، و زوايا الحتوف. فحبسهما السلطان معه و أختهما التي كانت زوجة الوزير، على مائة و خمسين ألف دينار. و سامهم في تلك المصادرة كل خسار و صغار. و باح السلطان بما كان يضمه من أمر الوزير و لا يظهره. و كشف الغطاء عما كان يستره. و ألزمه بتطليق زوجته ابنة الكافي، و رماه من مفارقتها بثلاثة الأثافي.

قال: و كانت الدولة السلطانية قد شارفت انقضابها و انقضائها. و قارب خطو انتهاضها لما قاربت انتهائها. و بدأ بالسلطان مرض طويل أضناه و أنحله، و ألهاه عن المملكة و أشغله. و وقع الفناء في أمراء دولته، و أكابر مملكته. و بقي السلطان من مرضه في ذواب. و من عيشه في كدر و شوب «١» فأراد أن يولى وزيرا يوصى إليه بولى عهده، و يستكفى به مهام الدولة حيث علم أنه لا يستقل بها من يقوم من بعده.

### ذكر وزارة ريبب الدولة أبي منصور ابن الوزير أبي شجاع - رحمه الله -

قال عماد الدين - رحمه الله -: ذكر والدي أن أرباب المناصب لما عرفوا ميل السلطان إلى تولية وزير يكفى المهام و يحفظ النظام و يكفل الأمور العظام، خافوا من استناتمه إلى بطل بطاش. و مستجيش بثبات جاش. و أنهم يبلون إما بذى حنق عليه، و إما بذى فرق منهم فيدب كيده إليهم. فحسنوا للسلطان طلب وزير من تربية دار

(١) الشوب: ما خلطته بغيره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٥٩

الخلافة، فإنه ليس بالحضرة من يصلح لهذا المنصب. فاستدعى ريبب الدولة من بغداد إلى أصفهان. و سد به المكان. فصار له اسم الوزارة بالوراثه. و كان لاثقا بتلك الدولة المريضة الملتائة. و كانت علامته "الحمد لله على النعم." قال: قال أنوشروان: و كان قد بقي من أيام عمر السلطان مقدار أربعين أو خمسين يوما، و قد استحصد زرعه و انتسخ شرعه. فجاءوا بهذا الصنم و دسوه في الدست. و قصدوا بترتيبه شغل الوقت. و اتفق موت الكفاءة. و ضمهم جبل الوفاء.

و تناثروا تناثر ورق الخريف، و تفرقوا تفرق سحاب المصيف. و لم يبق في تلك المدة اليسيرة من المعروفين كبير موصوف. و لا من الأمراء الأكاير معروف. فصار الأتباع أصولا، و الأقطاع نصولا. و الدرارى شموسا، و الأذنان رؤوسا. و لم يبق في الدولة من القدماء إلا مختص الملك المستوفى، و الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي. فأما المختص، فإنهم عزلوه و اعتقلوه و قروا عليه خمسين ألف دينار للخزانة، ثم أخذوا خطه بأنه لا يخطب ما عاش عملا، و لا يستنجح ما طال أمد عمره أملا. و خلوا سبيله و ما خلوا له إلى ثروة سبيلا. و أخذوا ما كان له، فلم يتركوا له كثيرا و لا قليلا. فأفلت بجريعه الذقن.

وعد سلامته من المنح في تلك المحن. فتولى ديوان الاستيفاء كمال الملك السميرمي، و علا منه الأمر و حلاله المر. و استقل و استقام، و سما و سام، و رمى و رام. و الوزير هين لين، و عجزه عن البطش بين. و كمال الملك فارس ذلك الميدان و حاكم ذلك الديوان.

و أما الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فإنهم لما لم يروا في فضله مطعنا، و لا على عمله من القدح مكمنا، أشاعوا بينهم أنه ساحر و أنه في السحر عن ساعد الحدق حاسر. و أن مرض السلطان ربما كان بسحره. و إنه إن لم يصرف عن تصرفه فلا آمن من أمره، فبطووه و عطلوه، و اعتزلوه و عزلوه. و عاد الخطير الذي كان وزيرا يمد الطغراء خطه. و لم يضره عن درجة الوزارة حظه. و كان قد خلا دركاه السلطان من الأمراء و الكبراء، فإنه كان شغلهم بحصار قلعة الموت مع الأمير الكبير، أنوشتكين شركير. و لقد كان شهما شديدا، و سهما سديدا. و سما زعافا على العدو، و موتا زؤاما على أهل الإلحاد و العتو. و لولا موت السلطان لتسلط على الموت، و لم يترك فرصة فتحها أن تفوت. و هو في ذلك لها حاصر. و الله له ناصر. فصير السلطان على ابن عمر حاجبه الكبير، و أسمى مكانه الأثير. و كان أمير البار يعنى: أمير الإذن، و أمير البار هو

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٠

الآذن عن السلطان، إذا اجتمع الأكابر. و الأمير الحاجب الكبير هو الذي يسمع مشافهة السلطان و يؤديها إلى الوزير، فهو الناهي الأمر. قال: و لما مضى شهر، اشتد مرض السلطان و بلغ الرجاء فيه اليأس، و وجد بالعدم الإحساس، و أصبح يعد الأنفاس. و أمر بالحجاب و حجب عن الأمراء. و أيقن أن القدر لا- يرعى له زمام ما بقى من الدماء. و لم يكن يدخل إليه إلا- الأمير الحاجب على ابن عمر بن سمره، فهو الذي يسمع كلامه. و ينفذ بالتبليغ أحكامه. و سمى حديثه وصيه و جعل نفسه وصيا. و عد مصدقه مطيعا و المستريب برأيه الرائب عصيا. و لما قرب الأجل و حل الوجع، ذكر الأمير الحاجب أن السلطان أمر بإخراج مائتي ألف دينار من الخزانة لإرضاء الخصوم و إشكائهم «١». و الاستحلال من فقراء الرعايا و أغنيائهم. فتسلم ذلك المال و قبضه، و تصرف فيه على ما وافق غرضه. و كان وزير الأمير الحاجب الكبير حينئذ أبو القاسم الدرگزيني و يلقب بزین الدين، فمن ذلك المال تمول، و استكثر العبيد و الخول. و كان ذلك مبدأ غناه، و ريعان نجح مناه. و أمر العسكر بمبايعة ولي العهد و متابعتة، و طاعته و مشايعته. و إنه لا بد من جلوته على السرير و إجلاسه، و وقوف الأمراء على رأسه. و قيل للسلطان مرضك سحرى، و مضضك خفى. و إنما سحرتك زوجتك فأعضل دواءك. و حملوا السلطان على أن كحلها و سملها. و حبسها في بيت ضيق و اعتقلها. و أتلغ عدة من حواشيتها، و عصابة من جواربها. ثم أخرجوا خاتم السلطان و قالوا أنه أمر بخنقها، و دخل إليها من شد الوتر في حلقها. و من عجيب القدر و مقدر العجب أن الزوجين توافيا ساعة واحدة على العطب، فالخاتون في بيتها كانت أيامه أيامن للأيامى و مراحم لليتامى. و رسومه جائزة غير جائزة، و أحكامه راضية غير ضائرة. و حصاه رصينا و حجاه رزينا و دينه متينا و شرع علمه في العمل بالشرع مبينا. و كان رجل السلجقية الكامل و فحلهم البازل.

و له الآثار الحميدة و الآراء السديده. و لما حسنت سيرته، و كملت دولته، و أصحت سماؤه، و طاب هواؤه، و صفا ماؤه، و آلت آلاؤه أن يغنى الفقير و يجير الكسير، و يفك قلاع الأسير، و يكف العسير. و ينصر الإسلام، و يكشف الإظلام، و يقلع الملحدين،

(١) الإشكاء: قبول الشكوى.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦١

و يعلى أعلام الموحدين. قبض القضاء يده، و قصر أمله و أمده، و غيظ بحره، و غيب بدره.

بين الصفائح و الثرى ريحانة قد كان لى من قربها مستمتع

و إذا تذكرت الذى فعل البلى بجمال وجهك جاء ما لا يدفع قال: توفى أمير المؤمنين المستظهر بالله رضى الله عنه بعد وفاة السلطان محمد- رحمه الله- بمدة يسيرة و تحولت الدولتان، و تفصلت الجملتان. و خلف السلطان محمد خمسة بنين، و هم: محمود، و مسعود، و طغرل، و سليمان، و سلجق، و كل منهم تولى السلطنة، و سوى سلجق. و سيأتى ذكرهم فيما بعد إن شاء الله تعالى.

**ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا و الدين أبى القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين**

قال: فجلس على التخت مكان والده. واستقر من الملك في أعلى وسائده، وأحكم قواعده. وحضر الناس على طبقاتهم للهناء، و جلوه في دست السنا والسنا.

وقبلوا الأرض، وأدوا من إقامة الرسم الفرض. ووقف العظماء والكبراء سماطين على ترتيب أقدارهم، وقدر مراتبهم. و تناسقوا على درجاتهم في مراقى مراتبهم.

قال أنوشروان: و تقدم الوزير الريب، و صعد إلى السرير للتهنئة و تقبيل اليد و نزل، و تقدم الخطير بحكم أنه كان وزيرا يفعل مثل ما فعل. و كان على كل حال، للشيخوخة و التقدم، يستحق أن يقدم و يبجل. فزاحمه الكمال السميرمي و أخره و تقدمه، و لم يعرف سابقته و خدمته للدولة و قدمه. فأقام الخطير سم التهنئة بعده. و لزم كل منهم في ذلك المقام حده. و أنا أيضا أقمت رسم التهنئة، و وفيت حق التوفية.

و كان السلطان حينئذ في سن الحلم، متوقد الذكاء كالنار فوق العلم، مشرقا وجهه مع صغر سنه بسناء العظم.

و في ابتداء هذه الدولة انتقلت الخلافة إلى أمير المؤمنين المسترشد بالله ابن المستظهر بالله -رضى الله عنهما-، و بويع له و جدد تقليد السلطان على الشرائط المشروعة، و الرسوم الموضوعه. و اجتمع أرباب الدولة السلطانية و اصطلحوا على التحالف و تحالفوا على الصلاح. و أجالوا بينهم في مظاهرة البعض للبعض ضرب

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٤٢

القداح. و كان أبو القاسم الأنساباذي الدر كزيني وزير الأمير الحاجب على بار، فصار يلقين مخدومه و يفهده «١»، و يدلّه على طرق الضلال و يريه أنه يرشده. و يقول إن الوزير و المستوفى ينبغي أن يكونا بحكمك، و هذا السلطان صغير ينبغي أن يكون تحت حجر ك. و لا- يأمر إلا بأمر ك. فأدخل في رأسه ما لم يخرج منه في آخر الأمر إلا السيف، فأول ما دبر أنه ذكر للسلطان أن صلاح دولته في إفساد عمه، و أنه يغلب على دولته برغمه. و كان عمه سنجر السلطان الأعظم عماد آل سلجق، و سلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء النهر إلى غزنة و خوارزم و الترك، قد عمت و نمت، و دولته قد علت و سمت. و هو شيخ البيت و عظيمه، و حافظ عزه و مديمه.

فأحضروا الشهاب أسمد كاتب الإنشاء، و أمره أن يكتب إلى خان سمرقند، و قالوا له:

إننا نقصد السلطان سنجر، و هو لا- شك يتوجه إلينا إذا توجهنا للقائه، و الرأي أن تأتي أنت من ورائه. فيقع الخصم في الوسط، و يحصل في التورط. و كان هذا الرأي القائل:

أول ما أدب الأدبار و أهب دبوره، و محا من الإقبال حبره و أذهب حبوره.

و من جملة تدابيراتهم المدبرة أيضا، أن الأمير ملك العرب ديبس بن صدقة ابن منصور بن ديبس على بن مزيد الأسدي كان مقيما في خدمة السلطان منذ عشر سنين، و قد سلا عن بلده، و وقع بما في يده. و رضى من السلطان بالرضى، و انقضى طمعه في ملك أبيه الذي انقضى. و بلاد الحلّة و الولايات في تصرف نواب السلطان و الأمير المجاهد بهروز الخادم الخصى نائب السلطان ببغداد، و الرعايا آمنه و الأذايا مأمونه. و النعم رهنه، و الذمم بشكرها مرهونه، فبدلوا تلك القواعد و حللوا تلك المعاهد. و ارتشوا من الأمير ديبس و أعادوه إلى العراق. فقامت الحرب على ساق، و كتبوا ملطفة بالقبض على بهروز، و محاسبته و استخراج سر غناء المرموز. و كل هذا عاد بالفساد و فسد العوائد، و أفاد التمحيق و محق الفوائد.

و المفسدة الثالثة أن بلاد فارس كانت على أحسن نظام و أوفق مرام و طاعتها شائعة، و شيعتها طائعة. و البذول فيها حاصله، و الحمول منها متواصله. و اتفق في ذلك الوقت أن عاملها كان حاضرا بأصفهان، فأشار الدر كزيني على مخدومه بالقبض على



(١) تفهد: نام و غفل عما يجب تعهده.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٣

العامل، و مطالبته بالحاصل. فأخذه و عذبه، و ما صدقه أن المال بعد معدّ بفارس بل كذبه. فلما نمت الخبر إلى أمير فارس، طمع في المال، و كان مبلغا وافرا، و ضن برده و استوحش، و جاهر بالعصيان و أفحش. و كان للسلطان جشرا «١» بتلك البلاد فاستاقها. و أذخار فاعتاقها «٢». فاختل نظام الولايات الفارسية بتلك الآراب السيئة و الآراء المسيئة.

و المفسدة الرابعة، أن جماعة كانوا مقيمين في الخدمة من أمراء مازندران و أمراء الشبانكارية، و هم جيل من جنس الأكراد في جانب بلاد فارس، بلادهم ممتعة، و قلاعهم مرتفعة. و كان السلطان الماضي قد ألف قلوبهم بإحسانه، و قادمهم باليد إلى سلطانه. لأنه كانت الطرق منهم مخوفة، و الفرقه منهم مألوفة. فأساء الدر كزيني و صاحبه و من وازرهما إليهم، فاشتطوا عليهم، فنفروا و عادوا إلى حصونهم. فأظهروا من الشر ما كان كمن، و حركوا من الفتنة ما كان سكن.

و المفسدة الخامسة، إنه لم يخلف أحد من السلجقية ما خلفه السلطان محمد من العين و الأثاث، فتصرفوا فيه و تقاسموا به، و فرغوا الخزانة من العين في أقرب من شهرين. فلما ذهب الذهب فضوا ختم الفضة و فضوها، و استخرجوا وجوه المعاملات الرابحة و استنضوها. ثم تصرفوا في المصوغات من الحلوى و الأواني و الآلات، ثم في الجواهر ثم في الثياب، ثم في الخيل المسمومة العراب، ثم في الجمال و لم يبقوا شيئا حتى تفرقوا بأغنام النتائج، و تقاسموا بالكباش منها و النعاج. فصيروا الملك الأهل فقرا، و أضعفوا بعد الغنى فقاره فقرا.

و المفسدة السادسة، أنهم قالوا: إن هؤلاء مماليك السلطان لا يطيبون بطاعتنا نفسا، و لا يجدو بمتابعتنا أنسا. فاحتالوا في شت شملهم، و راموا كل سهم منهم إلى هدف، و كل سهم منهم إلى طرف.

و المفسدة السابعة، و هي المفسدة الكبرى، أن العساكر التي كانت مشغولة بحصار الموت و قد شارفت فتحها، و شاهدت نجاحها، شرع الدر كزيني في تفريقها لميله

(١) جشرا: الماشية.

(٢) أذخار: جمع ذخر و هو المال المدخر، و أعتاقها: أخرجها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٤

إلى الملاحدة، و وعده لهم بالمساعدة. و أخذ رخصة في قبض الأمير الكبير أنوشتكين شير كير، و هو أمير ذلك العسكر. فرحلوا عن الحصار بغير ترتيب، و تبعهم أهل أهلك الموت فقتلوا خلقا. و ذهب الباقون غربا و شرقا، و نقلوا إلى القلعة من العدد الكثيرة و الأزواد و الميرة، ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار. و وصل الأمير الكبير كندغدى إلى الباب.

و كان عظيما من أولى الألباب، فولوه أتابكية الملك طغرل أخى السلطان، ثم حذروا السلطان منه فخاف كندغدى على نفسه و على ملكه فأدلىج به ساريا، و ذهب متواريا.

فلم يحوهما بعد ذلك دار، و صار من ذلك للقلب اشتغال و لنار الفتنة اشتعال.

و المفسدة الثامنة، أن الأمير قراجه الساقى سلموا إليه الملك سلجق أخا السلطان و ولوه بلاد فارس، فلما سمع الأمير قيصر بقدمه و كانوا قد ولوه فارس من قبل هرب و حصل عند السلطان سنجر بخراسان و هو موتور. و نفث شكايه التي هو بها مصدر.

و المفسدة التاسعة، أنه كان للسلطان مماليك صغار، كأنهم أقمار. و كان عليهم من الخصيان الخواص رقباء. و على طوائفهم من جنسهم رقباء. فأخذ كل واحد منهم عدة، و اقتسموا بالغلما الزوق «١»، و أقاموا ألف سوق للفسوق.

و المفسدة العاشرة، أنهم أخرجوا الجوارى المطربات، و الإماء المغنيات من دور الحرم إلى دورهم، و آثروا حضورهن مجالس

حضورهم. و ركبوا في الفسق كل مركب، و ذهبوا في الخزي كل مذهب. و تسلطوا على السلطان و اجترأوا عليه بما اجترحوه، و تمشى لهم بصبوته كل ما اقترحوه.

قال أنوشروان: ذكر لي أنه لما توفي السلطان محمد دخل الأمير علي بار إلى خزائنه، فأخذ صناديق الجواهر النفيسة، و اليواقيت الثمينة فأودعها عند وزيره الدرگزيني، فلما قتل علي ما سنذكره، حصل بها و لم يسأل أحد عنها.

قال عماد الدين: و أذكر طرفا من هذا الأنساباذى، و أنسابذ ضيعه من إقليم الأعلم، قريبه من درگزين، فنسب نفسه إلى درگزين، لأنها أكبر قرى تلك الولاية.

و معظم أهلها أهل الإباحة و الغواية، و أكثرهم من المزدكية الخرمية، و شرهم شائع في البرية. و كان أبوه فلاحا منهم، فجاء به إلى أصفهان و علمه الخط، و الجرأة و الخبط.

(١) الروق: جمع رواق، و هو سقف في مقدمه البيت.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٥

و مازال مخالطا للمتصرفين غمرا ذا غمر. و ترا في الشر أبا و تر. ما أحسن إليه أحد إلا قتله، و ما آوى إلى جبل إلا زلله. و أول من استخدمه بين يديه كمال الملك السميرمي، و عمى العزيز، فلقى كلا منهما الأمرين. و قابل بالإساءة منهما الحسين.

قال: و جرى وزير الوقت على تلك القاعدة في الإفساد. و لم ير مخالفتهم على المراد. و كان من خرقه و خرق أصحابه، أنهم جعلوا خطاب الأمير علي بار بوصى السلطان، و سيروه أخص ألقابه، فإنه ألزمهم بذلك و قال: يجب أن ألقب به، و عزلوا الخطير من شغل الطغراء، و ناظوا به وزارة الملك سلجوق المندوب إلى فارس مع الأمير قراجه الساقى. و مقصودهم أن يبعده عن الدركاه فلا يقع منهم إلا- التلاقي. و في كل ما عملوه لم يستطلعوا رأى السلطان و لا استأذنه، و حقروه و استضعفوه. و تواترت أخبار هذه الفضائح، و تواصلت أثناء هذه القبائح. فانتحى السلطان سنجر لبيته الذى شرعوا فى هدمه، و تحركت على ابن الأخ الشفيق الشفيق شفقته عمه.

## ذكر وصول السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم معز الدنيا و الدين أبى الحرث سنجر بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين من خراسان إلى حدود العراق و ظفروه و عفوه و عودته

قال: فانتهى إلى هذا السلطان العادل، الكامل الشامل، المحبوب الشمانى أن أمر ابن أخيه محمود غير محمود، و أن ملكه إن لم يتلاف مؤد إلى التلاف مؤود. فصوب رايته صوب الرى، و نشر لواءه ليعيد الأواء إلى الطى. و كان كالشمس أضاءت من مشرقها و أنارت من أفقها. فلما أطل عسكره على العراق. و سد عثيره «١» جوانب الآفاق برز السلطان محمود سراقه، و عرض فيالقه و لم يرغب أحد فى تلك النبوة من العساكر. و تلاطمت أمواج بحارها الزواخر. و كان مقدّمى عسكر السلطان الأميران الأصفهسلاران على بار و منكوبرس، و بينهما تباين و تضاد و تضاعن. فلا جرم،

(١) العثير: الغبار الذى يثيره الجيش.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٦

لاختلاف رأيهما، و اختلاط أهوائهما، لم يستقم تدبير و لم يتدبر تقويم، و لم يتضح فى المصلحة تأخير و لا تقديم. و درج الوزير الريب فى تلك الأيام، و سكن فى حمى الحمام.

و تولى الوزارة كمال الملك أبو الحسن على بن أحمد السميرمي، و ذلك فى سنة ٥١٢هـ، و ذلك قبل المصاف بين السلطانين بثلاثة أيام و جرى أمره على نظام، فى غير وقت انتظام. و كان العسكران مشغولين بالتعبية. فلما التقى الجمعان، و اختلط النقعان انهزم عسكر

محمود و كسر جيشه، و انكسر جأشه. و لما ضل عن النار فراشه، ظل كأنما على النار فراشه. و قتل في المعركة جماعة مبرءون، و سلم المجرمون فلما أصبح السلطان سنجر، سأل عن ولد أخيه، و لم يحمد ما كان من تأخره عن حضرته و تراخيه. فأرسل إليه رسولا لقبض زعره، و بسط عذره، و إنه يؤثر حفظه في قلبه، و الأئس بقربه و تنفيس كربه. و إنه يتدارك ما فرط بالتلافي، و إنه يتم التقصى عن عهدة تلك الهنات بالتصافى. فاستخر الله و لا تستأخر، و استأثر لقاء من على لقائك لم يستأثر.

و كان أحاط أولئك المذمومون بالسلطان محمود لا يهدونه إلى الصواب و لا يصوبونه إلى الهدى. و يصدون عنه رى الرى، و لا يروون منه الصدى. و كان قد سبق أبو القاسم الدرگزىنى صاحب الأمير على بار الأعظمى، فحضر لإصلاح أمر صاحبه، و أحضر قدرا من المال الذى اختزله من الخزانة السلطانية فنثره و بذره. و قدم الرشى حتى أمن ما حذره. و أراد أن يكون هو المتوسط فى الصلح و الصلاح. و المتحدث فى الإنجاز و الإنجاح. و كان السلطان يؤثر أن لا يطول مقامه فثقل وطأته، و تكثر مضرتة.

و لم ير أن يترك البيت متداعى البنيان غير محمود. و يريد الانصراف راشدا و قد طالت عليه غيبة محمود. و ما صدق بحضور الدرگزىنى على بابه، و ظن أنه قد حصل من النجح على لبابه. فأمر بإحضاره، فلما بصر به قال "أين على بار، فإنه لأمر ولدى ضميرين" فتلا "أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك و إنى عليه لقوى أمين" قال "أين ولدى" قال "أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، و إنه يسعه عطفك و عرفك."

فندبه إلى أصفهان لإحضارهم. و أجرى الأمور على إيثارهم. فبلغ الوزير كمال الملك السمرمى أنس الدرگزىنى بالحضرة السنجرية، و أنه واصل بالجرأة. فسبق بالرأى و رأى السبق، و أن يكون هو الذى يتولى بالرتق و الفتق. فقال للسلطان "هذا عمك فى مقام والدك، و له عليك حقوق، و عصيانه عقوق. و من حسن الأدب استعطافه، و استجداد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٧

رضاه و استئنافه، و أنا أمضى إليه لإمضاء الألية. و إرضائه بالكلية" و خاف أنه إن وصل الدرگزىنى يصير الأمير على بار للأمر متوليا. و يبقى هو عن الشغل متخليا. و إنه يصير تابعا، و ماؤه غائضا و ماء جاه الدرگزىنى نابعا. فتوجه إلى الرى، و قطع الطريق بالنشر و الطى. و لقي الدرگزىنى فى طريقه، و أخبره بتوثقه من السلطان سنجر و توثيقه. فلم يعرج على تصديقه. و قال له "إنى قد قضيت الشغل فلا تتعب. و عرفتهم زهدنا فلا ترغب. فاجتهد بكل طريق فى إعادته عن طريقه. فما التفت و لا اكرث، و أغذ السير و ما لبث. فمضى الخبر إلى السلطان سنجر بأن الوزير كمال الملك قد قدم. و أن ابن أخيك أرسله إليك للعذر لما ندم. فسر بذلك، و أمر الأمراء باستقباله، و احتفل فى حفله لتوفير إقباله. و أبصر الوزير من تعظيم خطره ما لم يخطر بباله، فحبط عمل وزير على بار و بار. و انهدم كل ما كان بناه و انهار. و أخذ يد السلطان على شد أو اخيه لابن أخيه. و أعلمه بإرادة الوفاق و توخيه. و استوثق منه من كل ما استوثقه. و استدرك بالروية فى الرأى كل ما فاته و استحلقه. و أقام الوزير و سير إلى سلطانه من عنده رسولا يستدعيه و يستحثه. و يعلمه أن عمه لا ينتظاره طال مقامه و لبثه. فأقبل محمود إلى وزيره حامدا، و إلى عمه وافدا. فأكره وفادته، و أنجح إرادته. و لم يجد على بار بدا من الاتباع. و حضر ضيق الذرع قصير الباع. و خر لتقيل الترب، و اعترف بالذنب.

فأبدى له السلطان الرحيم صفحة الصفح، و منحه العفو و أعفاه عن المنح. ثم اجتمع كمال الملك و على بار و وزيره، على ما يتم به تقرير أمر السلطان محمود و تدبيره، و أنه يجب أن يترك رسم السلطنة احتراماً لعمه. و أن يكون مدة مقامه عنده بحكمه. و ذلك أنه إذا استقبل بجيب «١» السلطان يركبه ليحسن أدبه. و أنه ينتقل من نوبتيته الحمراء نوبتيه بيضاء فى سوداء. و أنه يأمر بإبطال ضرب طبله ما دام فى ظله. و أنه إذا دخل على عمه قبل الأرض، و أنه يقوم عنده على قدمه و أنه يمشى فى ركاب عمه راجلا من الباركاة إلى السرادق. و أنه لا ينفرد عن عمه بسرادق، بل ينزل فى جوار خيمه.

و فى موضع أولاده و حرمه و أن يبقى عشرين يوماً على هذه القاعدة، ليستعطف عمه فى عود مرضيه المتباعدة.

(١) الجنيب: الدابة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٨

قال: و كان من حلم سنجر، أنه يغضى عمن يغضب. و يحدى على من يجذب.

فصفح عن كبائر ذنوبهم. بعد ما تصفح سرائر قلوبهم. و أفاض عليهم الخلع. و اصطفى كلا و اصطنع. و كتب منشورا للوزير كمال الملك بتقريره على الوزارة. و منشورا لعلی بار بتمكينه فى الإمارة. و منشورا لأبى القاسم الدرکزىنى بمنصب الطغراء و الإنشاء. ثم إنهم طلبوا من السلطان سنجر خلوة حسنا له فيها من سفك الدماء كل قبيح، و أعلوا عنده كل صحيح. و كان من جملة من ضربت رقابهم الأمير منكوبرس و قرانكين القصاب. ثم قفل السلطان سنجر بعساكره إلى خراسان. و قرر عليهم أن يبسطوا العدل و الإحسان. و عاد الوزير الكمال، و له الأبهة و الجلال. و الدرکزىنى فى ديوان الطغراء. و شمس الملك بن نظام الملك فى ديوان الاستيفاء.

قال: و كان عمى العزيز فى ذلك الوقت، ينوب فى الوزارة و الاستيفاء، و الوزير كمال الملك لا يرجع إلا إلى كماله، و لا يعول إلا على اشتغاله. بل السلطان لا- يأنس إلا- به، و لا- يصغى إلا- لخطابه. قال: و لا شك أن أنوشروان صعب عليه انحطاط حظوظه إلى الحضيض. و انحراف مزاج شغله للحظ المريض.

و عرض للوزير كمال الملك بأبيات غير واقعة فى مواقعها. و تمثل بتمثيلات باردة ليست فى موضعها. و كأنه ما سمع للقاضى أبى بكر الأرجانى فيه قبل أن يلى الوزارة و هو مشرف المملكة قصيدته التى يقول فيها:

دع عنك يمنى و يسرى غير مجديئو اقصد أمامك و اطلب منتهى السبل

و اعلم إذا قلت رد بالعيس بحر ندى أنى على غير عز الدين لم أحل

البحر أسماؤه شتى و أشهرها على اصطلاح بنى الآمال كف على قال عماد الدين - رحمه الله -: سمعت من والدى رضى الله عنه أنه لم يكن فى وزراء الدولة السلجقية أكمل من كمال الملك حزامه، و صرامه و شهامة. و كتبه بالفارسية تدل منه على فضل عزيز، و علم كثير. و من معانيها تعرف قواعد الوزراء و قوانينها. و هى رياض ناضرة للناظرين، أزهاها فاعمة للمستنشقين بالريا رباحينها. قال: قال أنوشروان فأول ما شرع فيه الوزير كمال الملك من أمر وزارته، أنه لما وصل إلى أصفهان، تقدم بقراءة منشوره بوزارة العراق من خراسان، ثم دبر فى قتل الأمير أحمد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٦٩

ابن بغرا، و بعث السلطان على الفتك بالأمير على بار و أغرى. حتى أفلت منه هربا، و اتخذ الليل جملا و أدلج رهبا. فأركب وراءه من رجل نفسه عن بدنه. و أخرج روحه من جسده. و وكل بوزيره الدرکزىنى و اعتقله. و هم بأن يقتله. قال عماد الدين - رحمه الله -: قال و الذى: و كان الدرکزىنى حينئذ صديقى، فاستدعانى، و لما بصر بى دعا على نفسه بالويل، و استجاربى و أخذ منى بالذيل. فقال: "أسألك أن تتوسل لى فى أمانى من القتل، فقد أيقنت أنى مقتول، و إن لم تنصرنى فإنى لا شك مخذول. " فشفعت فى حقه إلى أخى عزيز الدين، فما زال بالوزير كمال الملك حتى خلصه. و فتح على ذلك الطائر المشوم قفصه. و كان محبوسا فى موضع سبيل الخلاء، فخلّى سبيله، فقدر الله أن الشافع فيه بعد عشر سنين كان قتيله. فما عرف والدى و لا عمى - رحمهما الله - أنهما يسعيان فى قلع البيت بخلاصه، و يحصلان بتيسير أمره على تعسير أمرهما و اعتيابه. فقد كان هذا أبو القاسم للدماء سفاكا. و بالكرام فتاكا. و تفرس فيه الوزير كمال الملك الشر، فأراد أن يريح الناس من غائلته، و أراد الصحيح فما صح له ما أراد. و ما بدا من الدرکزىنى ما بدا منه لو باد. و لكن القدر لا يطاق، و المقذور ما يعاق.

و أصلح الوزير بقتل على بار قلوب الجماعة، و استمالهم إلى الطاعة. فقد كانت فى نفوسهم منه إحن. و تمت عليهم باستيلائه محن. فوجدوا بانزعاجه الثبات، و بقتله الحياة. و تقدم الأمير قيصر و ترفت درجته. و قامت بالقيام فى الدولة حجته. و ارتفع شأن أمراء كانوا متضعين، و تحالفوا على طاعة السلطان و ترجيح جانبه. و الإضراب عن مقاصد عمه سنجر و مطالبه.

قال أنوشروان: فشرع الوزير في المصادرات، و سمي ديوانها ديوان المفردات. قال عماد الدين: و لم يكن كما ذكر، و لا على وفق ما أنكر. و إنما طالب أصحاب الأمير على بار بأمواله، و أمر بمحاسبة عماله، و البحث عن أسبابه و أحواله. و أعاد رونق سلطنة العراق غضا. و ضم من نشرها ما كان منفضا. و خرج في خدمة السلطان من أصفهان على عزم بغداد. و قد حكمه في الأمر و أعطى حكمه النفاذ. و لما قبض الدرگزيني و عزل ولي الوزير كمال الملك منصب الطغراء أخاه النصير، و ناط به ذلك المنصب الكبير. و كان النصير رصينا، ثقيل الطبع رزينا. و لم يكن فيه ما كان في أخيه الوزير من التلطف. و التطفل على المكارم و التعطف. و كانوا يقولون نعم المولى و بئس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٠

المصير.

قال: و في سنة ٥١٣ هـ جرى بين السلطان محمود و أخيه الملك مسعود مصاف بقرب همذان. و كان النصر فيه للسلطان. و ذلك أن الملك مسعود كان مسلما إلى الأمير جوشبک و هو أتابكه بالموصل و عسكر الشام و ديار بكر في خدمته. و هو ينعت في ملك الغرب لحد مملكته. فجمع آتابك جوشبک جيوشا كثيرة و جمعا جما غفيرا، و طمع في أخذ السلطنة، و جعل الأستاذ أبا إسماعيل و هو مؤيد الطغرائي وزير مسعود، و لم يعلم أنه لا- يتمكن فيها من مسعود. فعلم السلطان بحشده فجاء في حشره. و جاء جوشبک بمسعود تحت جتره «١». و لما اصطف الجمعان، و كاد يلتقى البهران، و يجتمع الصفان بصر مسعود بأخيه محمد فحن إليه. و ضبطه جوشبک فلم يعرج عليه، و صاح إيجي إيجي و هي كلمة بالتركية للأخ الكبير. فتشوش على جوشبک جميع ما قدمه من التدبير. و ساق محمود و وقف إلى جنب السلطان محمود أخيه. و أسلم للسلب و النهب جميع ما كان معه من جنوده و مواليه. فأول من أخذ وزيره الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فأخبر الوزير كمال الملك به، فقال للشهاب أسعد، و كان طغرائيا في ذلك الوقت نيابة عن النصير: "هذا الرجل ملحد" فقال الوزير "من يكون ملحدا يستحق أن يقتل ظلما" فقتل ظلما. و قتل من الفضلاء الأكابر الأستاذ زين الكفأ أبو الفتوح. و كان وزير البرسقي، فأحسن محمود إلى أخيه و أعاده إلى عظمته، و رتب آخر لأتابكته و خدمته.

قال: و كان من بقية أولاد ملوك الديلم في الخدمة السلطانية المغشية الملك عضد الدين علاء الدولة أبو كالجار كرشاسف بن مؤيد الدولة على بن شمس الملوك فرامرز ابن علاء الدولة، و كان من السلطان بمنزلة الأخ، و قد أنزله بالمحل الأشمخ. و كان مع ذلك محترزا من حاسديه. فلزم بيته في مدينة يزد فما زالوا يحسنون منابه بالباب.

و لا يصبون رأيه بالإغباب «٢». فلما ركن إلى ركنهم و ركب، و كرب «٣» أن يجلو

(١) هكذا في الأصل و لم نقف لها على معنى و لعلها جشرة، و هي الماشية التي ترعى في مكانها.

(٢) الإغباب: جمع غب و معناها العاقبة.

(٣) كرب: أو شك.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧١

بلقاء السلطان عنه الكرب، جردوا إليه ثلاثمائة فارس فاعترضوه، و أخذوه من طريقه و قبضوه. و كان الأمير قيصر تولى بإبداء الود إخفاء ختله و ختره، فحملة إلى قلعة يقال لها فزيرين فاعتقله. و أحكم قيده و ثقله، و هي قلعة منيعة، و تلع ربيعة. تعدها النجوم من أترابها و السماء من أسبابها. فلطف الله به، و أوضح له مذهب مهربه. و ذلك أنه توسل حتى أشرف على السور، في جنح الديجور. و ألقى بنفسه من المكان العالي، و فعل فعل الآيس من حياته السالي. و سلمه الله حيث لا ترجى السلامة، و نزل نزول الغيث حدرته الغمامة، و توقل في تلك العقاب. و تسلل من تلك الشعاب و وقع إلى ولايته. و سر الناس بعود الأوس و السرور بعوده إلى بلده. و علموا أن خطي الخطوب لا- تصل في طورها إلى طوده. و كانت عاقبة الأمير قيصر، أنه ضربت ببغداد رقبتة. و أودت به في سبيل

العقوبة عقبته.

قال أنوشروان: و كان الملك في عهد السلطان محمد مجموعا، و جانبه من الأطماع ممنوعا. فلما صار إلى ابنه محمود فرقوا المجتمع، و ضيقوا المتسع. و جعلوا له فيه شركة. و لم يتركوا له منه مسكة. و ذلك عند حضور السلطان سنجر. فأول ما اقتطعه سنجر لخاصه مازندران و طبرستان و قومس و الدامغان و الري و دباوند و أعمالها، و ما أفردوه للملك ركن الدين طغرل بن محمد ساره و آبه و سارق و سامان و قزوین و أبهر و زنجان و جيلان و الديالم و الطالقان. و للملك سلجق أخيه ولاية فارس بأسرها، و شطر من أصفهان من الخوز. و تغلب الأمير ديبس بن صدقة بن منصور على البصرة و أعمالها، و المضافات إليها من البطائح، و كذلك هيت و الأنبار و أعمال الفرات و الرحبة و عانة، و كذلك أعمال الموصل و نصيبين و الخابور، قد تغلب على كل منها أمير، و الذي بقي للسلطان أقطع جميعه، و ما انحفظ ريعه، و انخفض رفعه. و لم يكن للسلطان خاص لم يكن له عمال، و بطل الديوان، و تدون البطلان. فإنه لم يبق للديوان شغل إلا أخذ أموال ذوى اليسار، و إسعارنا الإعسار.

و قال عماد الدين في ذكر كمال الملك الوزير: و بينا وزارته في ريعانها، و سعادته في عنفوانها، و دولته في كمال سلطانها، فلم يشعر حتى عاجله القدر فجاءه فجاءة. و استحال في الحال كل مسرة مساءة. و ذلك في سنة ٥١٥ هـ فإن السلطان خرج من بغداد عائدا إلى همدان. فتخلف عنه الوزير يوما على أنه يتبع في غد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٢

السلطان. فلما بكر ركب و قد رتب الموكب، و السيوف بين يديه مسلولة، و الغاتشية محمولة. فوثب عليه قوم من بعض تلك الدكاكين، و ضربوه بالسكاكين. فحمل جريحا. و بقي في حجره من غرف السوق طريحا و أحضر من يداويه، و استقل بالجرح آسيه. فلم يحسوا إلا برجل قد قفز من السقف.

و نزل عليه بمدينة الحتف، فأتلف مهجته، و محا من الزمان بهجته. فتولى عمى العزيز حفظ مخلفيه، و حلم عنهم حد الزمن السفیه. و استشهد و له ولدان أحدهما عضد الدين محمد، و الآخر فخر الدين محمود. فتعصب الولد الكبير ذى الفضل الأوفر. و الاعتقاد الأنور، و الدين المتين، و العلم و اليقين. فولاه السلطان أشرف المناصب، و أرفع المراتب. فزهد في الدنيا مع القدرة، و سلك طريق الانكسار و القناعة بالكسرة.

قال عماد الدين: و هو إلى اليوم من سنة ٥٧٩ هـ حسن السيرة، صافى السريرة، خشن العيشة، قال للمعيشة. يلبس السمل «١» البالى و يألف المنزل الخالى. و يأمر بالمعروف، و يأخذ بيد الملهوف. ينظر الدنيا بعين العيافة. مقبل على الآخرة و التقوى قد ألبسته شعار المخافة. و تولى أخوه فخر الدين محمود الأعمال الفاخرة إلى آخر زمانه. و ظهر قدر مكانه و قدرة إمكانه. و العضد الزاهد فيه زاهد. و فى صرف جاهه عنه جاهد. و كان بينهما تضاد. و تباغض فى الدنيا لا تواد. و عضد الدين يرجع إلى فضل وافر، و وجه عن الحق و الحقيقة سافر.

قال عماد الدين: عدنا إلى ما ذكره أنوشروان.

### ذكر وزارة شمس الملك بن نظام الملك

أنشد أنوشروان فيه متمثلا:

لئيم أتاه اللؤم من عند نفسه لم يأت من عند أم و لا أب قال: قال لما صرع الكمال، و اتسع المجال، سمت هممة شمس الملك لطلب الوزارة، و خطب عروسها مع العجز عن افتراع البكاره. فاجتاب لبأسها و أنارت شمس من مطلعها، و ورد على الظماء البرح عد مشرعا. و تولى عزيز الدين أبو نصر أحمد ابن

(١) السمل: الثياب البالية.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٣

حامد منصب الاستيفاء، وقد فضل بالفضل والكفاية جميع الأكفاء. و من جملة مبتدعاته في الخير أنه جعل للمعسكر السلطاني بيمارستان يحمل آلاته وخيمه وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى مائتا بختي، و من جملة ما أتى به أيضا أنه بنى بمحلة العتّابين ببغداد مكتبا للأيتام، و وقف عليها وقوفا مستمره الجدوى على الدوام. و الأيتام مكفولون منها إلى أن يبلغوا الحلم بالنفقة والكسوة والطعام، و تعلم الآداب و حفظ القرآن، و معرفة الحلال و الحرام. و صح له التحكم على الوزير بإحكام التدبير. و تولى ديوان الطغراء و الإنشاء الشهاب أسعد، و كان معلما للسلطان في أيام والده و تنجز حظه أنه يوليه الطغراء إذا انتهت إليه السلطنة، و لما تولى لم يتغير عليه، و بقي إلى آخر عهده في الطغراء، و تولى أبو القاسم الأنسبازي ديوان العرض، و كان أنوشروان عارضا و هو غائب، و في مقامه عنه نائب.

قال أنوشروان: كنت أنا قد تخلفت في بغداد في ذلك الأوان لشغل أفضيه و أمر أمضيه. فاجتمع هؤلاء القوم و اغتتموا غيبتى، و أخذوا بأخذى و تعويقي توقيعا، و شنعوا على عملي و عملوا شنيعا. و كان مضمون المثل السلطاني أن الأمر المطاع أعلاه الله أن أنوشروان إن كان في حدود بغداد أزم بيته بباب المراتب. و سدت عن لقائه طرق الأقارب و الأجانب. و إن كان قد وصل إلى بلاد الجبل فيقعد في ولاية الأمير برسق بقلعة كفراش. و يشترط عليه أن لا يطلب المنصب و المعاش. و يحضر مماليكه إلى الدرگاه لينتقلوا إلى الخواص من الأمراء، و يحمل ثقلهم عنه مع الانزواء. قال: و كان المثل بخط العزيز، و قد مد الطغراء عليه أسعد، و علامة الوزير فيه: "أحمد الله على نعمه و توقيع السلطان، اعتصمت بالله. " و ما وجدت من أنسب إليه هذا القصد غير العزيز فإن الآخرين كانوا مسخرين له و هو المتوحد بالتميز و التبريز. و كتب الوزير بخط كاتبه أن شغل العرض قد فوض إلى العميد الأجل الأخ زين الدين ظهير الدولة أبي القاسم يعنى الدرگزيني، فتختم جميع دفاتر العرض و أوراقها و تنفذ حتى تسلم إليه.

قال: و أنهضوا إلى طريقي جماعة من الفرسان، لولا إعظام الأمر السلطاني المطاع، لما رعيت حرمة أولئك الرعا. و لعادوا و حكوا أنهم لقوا منى رجلا، و لركبوا من الخوف الليل جملا. فامتثلت الأمر و سلمت إليهم موجودى و خرجت من مالى كالشعرة من العجين، و وقع الهجان بتوقيع الهجين. و سلمت نفسى إلى الحبس، و بقي

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٤

أمرى على اللبس.

قال: عدنا إلى الحديث عن شمس الملك بن نظام الملك قال: فعاد الملك به إلى أدنى استقامه، و وجد إلى كفايته أيسر استقامة. لكنه لم يطو بساط الظلم و المصادرة.

و لم يقبض عن التعدى الأيدي المتجرئة على المبادرة. و كان إلى الناس مبغضا، و لمقتهم متعرضا. فلم يكفه ذلك حتى استتاب بغیضا، و استطب لمرضه مريضا. و هو الكامل ابن الكامل ابن الكافي الأصفهاني الذي مضى ذكر مخازيه في وزارة الخطير، و وصف بالشؤم و السوء في الإدبار و التدبير. و هذا الكامل ما ناب عن أحد إلا نابه خطب مبير «١»، و دهمه ملم كبير. كما قال البحترى في سعد، حاجب عبيد الله:

يا سعد إنك قد خدمت ثلاثة كل عليه منك و سم لائح

و أراك تخدم رابعا لتبيره فارفق به فالشيخ شيخ صالح

يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد و لكن أنت سعد ذابح فبدأ هذا النائب في الأول بأخذ مخلفى الوزير المستشهد و كانت خزائنه قد نهبت، و ذخائره قد ذهبت. و هم في بيوت الأحزان، يرجون عواطف السلطان. فلم يرض لهم بالعدم حتى سجنهم و حبسهم. و ضاعف عليهم محنتهم و عرق عظامهم و فرق نظامهم. ثم أمر باستعادة الرسوم و الإدارات. و لم يقتصر على قطع الصلات، حتى كتب إلى

جميع البلاد باسترجاع ما أخذه أرباب الصداقات لستين، و من أخذ عرضا بأدراره ألزم برد العين فوكلوا في كل بلد بالأخيار و الأشراف، و سلطوا أقوىاء الشرط على المتصونين «٢».

قال: و كان قد عزم السلطان في هذه السنة على الغزاة فصدوه و عرضوا كتابا من بعض أمراء بلاد شروان يذكر فيه أنني قد استخلصت لكم المملكة الشروانية، و أهلها ينتظرون الراية السلطانية. و أن الملك شروانشاه محصور، و أن الفرج عليه محذور. فإن أردتم تملك الخزائن، و استخراج الدفائن، و الاستيلاء على الممالك فاصرفوا إليها الأعتن، و اشرعوا نحوها الأسنه. فثنوا عزم السلطان إلى قصد بلاد شروان. فلما

(١) مبير: مهلك.

(٢) تصون: كثر ولده.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٥

وصل وجد الأمر بخلاف ما ذكر، و خرج إليه الملك شروانشاه راجيا أنه قد عاد عيده.

و أن يتحلى بعد العطل بطوق الإنعام جيدة. فإنه كان فقيرا قد قنع الرعية بملكه و ألفوا الانخراط في سلكه. فيحن وطئ البساط طوى بساطه، و عقل نشاطه، و سحب و حبس، و غبن و بخس. و انتظر أهل البلد أنه يعود إليهم مملكا مكملا، مشرفا مجملا. فحين عرفوا الحال أكثروا الصراخ و البكاء، و أثاروا الرجال و النساء، و خربوا عظامم تأنف منها العظام. و اجترحت كباثر تأباها الكبراء. و جر ذلك الخبط خطبا. لم يدع يابسا و لا رطبا. و طمع الكفار المثاغرون «١» فأغاروا. و أبادوا الأعمال و أباروا، و قتلوا خلقا من المسلمين و نزلوا قبالة السلطان في ثلاثين ألف عنان على فرسخين، لكن الله تدارك رمق الإسلام بكسر أولئك الأغانم. و نهض السلطان محمود إليهم محمودا و لم يدع في هزمهم مجهودا، و عاد منصورا مسعودا.

و لما حبس الملك وقع الشروع في مصادرة الرعية فلم يحصلوا على طائل و لم يظفروا بحاصل. و كانت للخزانة السلطانية، في كل سنة على الأعمال الشروانية، مقاطعة مبلغها أربعون ألف دينار، فبطل حق تلك المواضعة بوضع الباطل. و طال المقام في تلك البلاد لدفع البلاء، و رفع الأهوال و الأهواء. و كان هذا القرار على شروان من عهد سلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، فإنه لما عبر على أران، وصل إلى خدمته الملك فريبرز صاحب شروان بعد امتناعه و التزم بحمل سبعين ألف دينار إلى الخزانة. و ما زالت المسامحات تدخل في القرار إلى أن وقف على أربعين ألف دينار. فباء الوزير بالوزر، و قبج الذكر. و لم يحظ في مدة سنة واحدة من وزارته بعمل يذكر به إلا- حبس أنوشروان، و تخريب شروان. و لما أبصر السلطان اختلال الأحوال، و اختلاط تلك الأعمال سخط على الوزير شمس الملك بن نظام الملك، و قتله بالسيف صبوا. و ذلك في آخر ربيع الأول سنة ٥٧١ هـ بباب بيلقان.

قال أنوشروان: و كان الذي جرى على من الأخذ و النهب بباب حلوان أيضا في آخر ربيع الأول سنة ٥١٦ هـ.

من ير يوما ير بهو الدهر لا يغتر به

(١) المثاغرون: سكان الثغور.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٦

قال عماد الدين: و سبب قتل هذا الوزير أن أبا القاسم الأنسبازي كان رسولا عند السلطان سنجر، و قرر من أمر ابن أخيه السلطان محمود ما قرر. و ذكر له أن الوزير هو الذي أذهب الهيبة و شتت شمل الأجناد، و بت حبل السداد.

و توسل بكل طريق حتى تنجز كتاب السلطان سنجر إلى ابن أخيه في طلب وزيره و أمره بتسييره. فحار محمود و خشى إن سيره اطلع على سره، و إن لم يسيره أسخط عمه بمخالفة أمره. فأشير عليه بقتله، و تسيير رأسه. فبغت الوزير أقوى ما كان رجاء في الحياة بئاسه.



قال عماد الدين: و عاد حكم المملكة كله إلى عزيز الدين أبي نصر أحمد ابن حامد و كان حينئذ مستوفى المملكة و جاذب زمامها، و مالك نظامها. فسكن السلطان إليه، و عول عليه، و عرض الوزارة عليه فأبأها. و وجد مغارس المملكة ذاوية فرواها. و قال: أنا أنفذ أمورك و أوامرك، و أصفى مواردك و مصادرك، و لا أدع مصلحة تقف، و لا منفعة تنصرف. لكننى لا أتسم بالوزارة و لا أتقلد وزرها. على أننى أتقلد أمرها.

فإذا حضر صديقى أبو القاسم الأنسبازى جعلته صدرها. و ما عرف أن صداقته عند عودة تعود عداوة، و أنه يتجرع مرارة سم ما ظنه حلاوة. فمكث سنة بالمناصب متوحدا و بالمراتب منفردا. و عاد السلطان إلى مقر ملكه محبوا بالظفر محبورا، محمود الأثر مشكورا. و استمر الشهاب أسعد الطغرائى فى الإنشاء و منصب الطغراء.

و لما عاد الدركرينى قال العزيز للسلطان "قد وصل من يكفل بالأمر و يكفى فى الحل و العقد. فأنهضه للوزارة، فإننى غير ناهض بأوزارها. و اتركنى و مضائى فى غير هذه الخدمة و لا تقلنى بمضارب مضارها. و أنا إن خليت الوزارة اسما، فما أخليها نظرا. و أعدقها بسواى و أكون عليه بحكمى مستظها. فيكون أبو القاسم لى قسيما، و أصبح أنا له مقعدا فى المصالح مقيما." فقال السلطان "ما أعرف سواك، و لا أعول إلا على حجتك و حجاك" و سيأتى ذكر الحال فى ذلك.

قال أنوشروان: و فى تلك المدة، استدعانى السلطان إلى بابه، و انتهت شدة حالى، و انقضت مدة اعتقالى، و أنقذنى اللطف الربانى من كيد الخصوم. و عرفتنى التجارب أنه لا محيد من المحتوم. و علمت أنه لا يجدى طلب العز فى زمان الذل، و لا يوجد الخصب تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٧

فى سنة الأزل. و صممت فى الاعتزال حد العزم، و نزلت على آل المهلب ذوى الكرم و الفضل و العلم، كما قيل:

نزلت على آل المهلب شاتياغريبا عن الأوطان فى زمن محل

فما زال بى إحسانهم و افتقادهم و أطفاهم حتى حسبتهم أهلى قال: و يعنى أنوشروان بآل المهلب الإمام صدر الدين عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت الخجندى بأصفهان و كان أجود الأمجاد، و أمجد الأجواد. فلما ضافه أنوشروان أكرم مثواه، و قبله و آواه. قال: قال أنوشروان: فصرف إلى الأصدقاء الهمم، و حقق إكرامهم عندى الكرم و استقرضت من تاجر غريب جملة. و كتبت له على وثيقة فجاءنى بعد حين إنسان، و قال مخدومى عزيز الدين يسلم عليك، و قد نفذ هذه الوثيقة إليك، و قال لك أبطلها فإن الدين قد قضى، و صاحبه قد رضى. فعجبت كيف توسل فى إسداء هذه اليد إلى، و أفضاله على. فبقيت مدة فى تلك الضيافة آمنا من المخافة سالما من الآفة. حتى استدعانى السلطان بعد قتل الوزير، و أهلى للتدبير. فامتنعت أياما، و طلبت من الخطر زماما.

و لما وصلت إلى الدرگاه رأيت كلا من الجماعة، يقول ما استحضر إلا لسبب، و ما استقدم إلا لأرب. قال: فراجعت فكرى، و ندمت فى أمرى و قلت أعمال السلطان عوارى لا بد من ارتجاعها، و ملابس لا بد من انتزعها. و لو خلصت لكنت فرحت. و لو استخرت الله فى الانزواء لاسترحت. و كان السلطان فى الإذن لى متوقفا و أنا قد ملت إلى الوحدة و الانفراد، و قصرت همتى على هذا المراد. فما زلت به حتى استأذنت منه فأذن لى فى الانصراف، و خصنى من مواعيد عوائده الجميلة بالألطف. فساعدنى أرباب الدولة من الخيل و غيرها بما حمل أنقالى، و من الأزواد و غيرها بما ثقل أحمالى.

و توجهت من أصفهان إلى بغداد. و عدت الملاذ لأجل الملاذ. فلما وصلت إلى حضرة الخلافة وجدت الإكرام، و الإنعام و الاحترام.

### ذكر وزارة الدركرينى فى سنة ٥١٨ هـ

قال: لما وضع عليه اسم الوزارة تبدلت الغزارة بالنزارة. و هو أول فلاح ترك

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٨

العمل بالفدان. فدان له عمل الترك و حل البقر عن الملك. فحل فى دست الملك ففتك و هتك، و استباح الدماء و سفك، و شرع

المنكرات، و أنكر المشروعات، و عاد الكرام، و بدد النظام، و ظاهر الباطنية، و أظهر السنة الجاهلية، و شرع في الفتك بالأحرار، و الهتك للأستار. فمن جملة من فتك به القاضي زين الإسلام أبو سعد محمد بن نصر ابن منصور الهروي و كان أوحد دهره، و نسيج وحده، و المعروف بإسداء المعروف، و المرجو لإغاثة الملهوف. و هو حبر العالم و بحر العلم، و الحاكم بالعدل و العادل في الحكم. و قد ملك من قلوب السلاطين القبول، و لم يروا من نصحه و إشارات العدول.

و كان من متعصبى عمى العزيز، المخصوصين في الفضل و الإفضال بالتبريز. فتقررت له بعد وزارة الدر كزینی رسالة السلطان الأعظم سنجر، و سار إلى خراسان في البهاء الأبهري، و الجمال الأوفر. فصعب على هذا الوزير أمره، و تقسم سره، و عرف أنه إذا حضر هناك انتهك ستره. فإنه كان مؤه و لبس، و أخفى أحواله عند السلطان سنجر و دلس. فعرف أن الهروي يهزيه، و ينزع لباس تلبسه و يعريه. فقرر مع عدة من الباطنية أنهم فتكوا به عند عوده من رسالة خراسان. و قد حضر للصلاة في جامع همذان. فاستشهد قبل أن يشهد السلطان و ذلك في سنة ٥١٨ هـ.

قال: و كان حينئذ بالموصل آق سنقر البرسقى الغازى المجاهد التقى النقى.

فدخل في وزر ذلك السعيد الوزير الشقى. فإنه كان قد قمع أهل الإلحاد، و غمه أمر هذا الوزير الذى سد باب السداد. و توسل الوزير عند السلطان في عزله فلم يقدر، و بالغ في كل مكيدة و لم يقصر. و لما أعياه أمره استدعى إخوانه من الباطنية، حتى جلسوا له في جامع الموصل بزى الصوفية، و قفزوا عليه و ضربوه بالسكاكين. فجلب به مصاب المسلمين. و ذلك في ذى القعدة سنة ٥٢٠ هـ. و كان وزير السلطان سنجر في ذلك العهد الأجل معين الدين مختص الملك أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود و قد مضى ذكر كرمه و فضله في زمان السلطان محمد و توليه ديوان الاستيفاء. و لقد كان موثلاً لأهل الرجاء. و هو من ممدوحى القاضى أبى بكر الأرجانى و له فيه قصيدة صادية أولها:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٧٩ رَوْحاً ساعة متون القلاص و احفظا وقفه بتلك العراض

يا خليلي من سراة بنى الأقبال و الغر من بنى الأعياص

و اسيانى فللأخلاء قدما بالتواصى فى النائبات تواص

كيف أشكو خطبا و مختص ملك الأرض أضحى بالقرب منه اختصاصى

و إذا استنصر الهمام أبو نصر أطاعت لنا الليالى العواصى

ذو ندى يستهل كالديمة الكسب و نشر كالكوكب الوباص

و بنان يريك للقلم الناحل فضلا على القنا العراض قال: فأنف من وزارة الدر كزینی بالعراق. و لقد كان على الدولة شديد الإشفاق. و عرف الدر كزینی أن نقصه مع فضل أبى الفضل باد، و أن أمره مبنى لعمى دهره عنه على عماد. فلم يزل يعمل كيده فى نكته، و يتسلق بالمكر على هضبه، و باطن الباطنية فى قتله. و فرع فكره لشغله، فوجده متحرزا متيقظا، متحرسا متحفظا.

فبث عليه حباته، و أدب إليه غوائله، و سیر إلى خراسان عدة من الملاحدة. فتوصل منهم واحد إلى أن خدم فى اصطبل الوزير المختص سائسا لدوابه. فأراد يوما عرض الخيل فحضر ذلك السائس و هو عريان، و قد خبا سكينه فى ناصية حصان. فأطلق حصانه من يده حتى شغب و استخرج من ناصيته السكين و وثب، و تعمد مقتل الوزير فأصابه. و عظم على الكرام مصابه. و بضع السائس فى الحال تبضيعا و مزعوه تمزيعا.

و ذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ هـ.

و مازال الدر كزینی يتبع الأكابر، فمنهم من يقتله جهارا بإذن من السلطان، و منهم من يقتله غيلة بمن يتخذه من أولئك الأعوان. قال: و كان سبب ميل الباطنية إلى الدر كزینی أن الأمير شير كير - رحمه الله - كان مشغلا بحصار قلعة الموت، و قد قارب فتحها. و شارفت الآمال فى أخذها نجحها. فلما توفى السلطان محمد، و تولى ابنه محمود و تمكن الدر كزینی من الدولة، أعمل الحيلة فى استدعاء

شيركير، و نفس عن القلعة، ثم لم يزل يدقق الاحتيال حتى جعل لشيركير عند السلطان ذنوبا اختلقها و مساوي لفقها، حتى اعتقل ذلك الأمير مع ولده شرف الدولة، و لم يزل يطلب غرة السلطان في أمرهما

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٠

حالتى سكره و صحوه، حتى أخذ رخصة في سفك دمهما الحرام، و أذهب بقتلهما قوة الإسلام. و اتخذ بذلك عند ذوى الإلحاد يدا، و استكثر له من أعوانهم مددا.

و قال: و كان عمى العزيز يحسب أنه إنسان، و أن جزاء الإحسان له منه إحسان.

فلما أحس بشرارة شره، و ضراوة ضره فكر في طريق الانزواء، و الخلوص من تلك الأهوال و الأهواء. فاستأذن في الحج، فسار في سنة ٥١٧ أو ٥١٨ هـ، و كان حاج تلك السنة بأجمعهم في ضيافته و كرامته. و عمهم شمول عارفته، حتى قال الرئيس أبو الحارث البغدادي فيه:

يا كعبة الإسلام ما لى أرى إليك تسعى كعبة الجود

تقصد فى العام و هذا الفتى لم يلف يوما غير مقصود و هناك عند عودة القاضي أبو بكر الأرجاني بقصيدته النونية المشهورة التى أولها:

ورد الخدود دونه شوك القنافمن المحدث نفسه أن يجتنى

لا تمدد الأيدي إليه فطالما شربوا الحروب لأن مددنا الأعينا

ما إن جفوت الطيف إلا ليلئو الحى قد نزلوا بأعلى المنحنى

لما ألم و قد شغلت بمدح لعزيز دين الله فكرى موهنا

فى ليلئ حسدت مصابيح الدجى حكى و قد كانت لها هى أزيينا

قلمى بها حتى الصباح و شمعتى بتنا ثلاثتنا و مدحك شغلنا

حتى هزمتنا للظلام جنوده لما تشاهرنا عليها الألسنا

أفناها قطى و أفنيت الدجى سهرا فأصبحنا و أسعدهم أنا

لله مقدم ماجد أضحى به عنا لنازلة النوائب مظعنا

أمنت إساءته عداه لأنه مذ كان لم يحسن سوى أن يحسنا

أتبع غزوتك الحميدة حجة فقضيت أيضا فرضها المتعينا

و جررت أذيال الكتائب موغلا فى الأرض خلف بنى الخبائث مشخنا

حتى غدت تلك المجاهل منهم و كأنما هن المناحر من منى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨١

قال: و لما عاد من حجه، استعفى السلطان من شغله، فما أجابه إلى مراده، و لا مكنه من انفراده، و أعاده إلى منصبه على العادة، و

أشرق به مطلع السعادة. و أصبح الوزير يجول فى مكر مكره، و يسر له ما يرجع بشغل سره. و عادت تلك الصداقة عداوة، و المعرفة

نكرة و غباوة. و عبرت على ذلك مدة فثبت العزيز على الاستعفاء، و ترك منصب الاستيفاء. فقال السلطان "إذا كنت مستعفيا، و لا

تؤثر أن تكون مستوفيا، فما لى أعز من الولد و المال و قد سلمت إليك خزائنى و أولادى و بهذا يحصل مرادك و مرادى." فلما خلا

منصبه منه، و رغب العزيز عنه تولى الصفى أبو القاسم الجنزى ديوانه، و جلس مكانه.

فتوازر هو و الوزير و الجماعة على قصد العزيز فلم يقدروا على مضرة، و لم يعثروا له على عثرة. و مضت على وزارته ثلاث سنين و

شمل العدل بغير التثام، و سلك الملك بلا نظام. و المعاهد غير مبرمة، و القواعد غير محكمة. و تفرغ العزيز لإعلام السلطان بالتشويش

و التشويه، و حصول كل أمر كريم به فى الأمر الكرية. فأمر السلطان بقبض الوزير و اعتقاله، و سلمه إلى العزيز ليريح الناس من شره و

اغتياله. فرأى أن إهلا-كه على يده شنيع، و أن ذكره بالفتك و هو ليس من أهله فظيع. و دبر في تولية وزير يسلمه إليه، و هو لأجل الخوف على منصبه منه يقضى عليه. فسعى في استدعاء شرف الدين أنوشروان بن خالد بن محمد من بغداد. فلما حضر و استوزر، حمل الدر كزيني إلى داره على حاله، و صيره في اعتقاله.

و كانت في أنوشروان ركائز ظاهرة، و وضاعة لخلق الرفعة قاهرة. فلما تسلم الدر كزيني ضرب له في داره الخركاه و أذن لكل صاحب له أن يدخل إليه و يلقاه.

و كان في كل يوم يدخل إليه و يجلس بين يديه و يخاطبه بيا مولانا، و أنت أولى منا بالمنصب الذي خصنا به السلطان و أولانا. فسقطت حرمة، و ذهب هيبته، و اتضعت وزارته، و عرفت حقارته. و خيف عود الدر كزيني بعد استقرار سلامته إلى منصب كرامته. فشرعوا في إعادته، و جروا على إرادته. و هو جالس في دار أنوشروان و الناس متناوبون إليه لتقرير وزارة السلطان. فما شعر أنوشروان حتى أخرج من داره، وردّ إلى مقره على قراره. و أذن لأنوشروان في العود إلى موضعه، و الغيض في منبعه. فرأى الغنيمه في الإياب، و اغتم السلامة التي تكن له في الحساب. قال: و كانت وزارته سنة

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٢

واحدة على ما أورده في بابه. و الآن أذكر ما ذكره عن نفسه في كتابه.

### ذكر وزارة شرف الدين أبي نصر أنوشروان بن خالد

قال أنوشروان: كنت قد اتخذت بغداد مدينة السلام دار المقام، و أنا من حفظ الله في أوفى ذمام. فجاءني كتاب السلطان محمود و خاتمه. و وصل رسوله و خادمه يستحثني في الوصول إليه. و يستعجلني في المثول بين يديه. فحين حضرت الخدمة شافهني بالتقليد، و خصني بأمره الأكيد. و كمل لي تشريف الوزارة و خلعتها، و أدواتها محلاها و مرصعها. و دواء الذهب و السلاح المجوهر. فجلست في الوزارة سنة و أشهر، لا أقدر على الخطاب في مصلحه، و لا على التنفس بفائدة مترجحه. و صاحبا يميني و يساري الشهاب أسعد الطغرائي و الصفي أبو القاسم المستوفي و الأمير الحاجب الكبير حيتنذ أرغان. و امرأته خلف الستر قهرمانه السلطان. فلما رأيت اتفاقهم على ما هم فيه، قلت في نفسي: لا يظهر لي في الناقصين فضل، و لا يقبل منهم صرف و لا عدل.

فاستعفيت و اخترت العزل على التولية، و أحدث نفسي عن الولاية بالتعزية و التسلية.

و نفضت يدي من صحبتهم. قلت العفاء على تربتهم و ربتهم. و عاد الدر كزيني إلى الوزارة فإنه أرغب أرغان الحاجب بالرشى. و مشى به غرضه فمشى. و رجع كالكلب، و البغل الشغب. و هابه من لم يكن يهابه و امتلاً باللؤم و الشر إهابه.

قال: فعدت إلى بغداد متأنسا بالوحشة ألفا بالوحدة. فلما وصل الدر كزيني إلى بغداد، اجتهد أن ينالني شره. فعصمني الله من كيده، لا لإساءة إليه منى سبقت، و لا لضغينة عليّ بقلبه علقت. فإني كنت أسلفته في حال حبسه و عزله إحسانا، و قلدته امتنانا. و لم أترك في الإنعام إمعانا. و لما كالأني الله من غائلته، مد يده إلى مالي، و أنزل النوازل بأسبابي. و قد كنت بنيت على دجلة دارا فادعاه لنفسه ملكا، و استحضر عدولا شهدوا له بالملكية زورا و إفكا، و انتقل إلى الدار بحكم الشرع، و صير باطله حقا بيناته الكاذبة في الأصل و الفرع.

قال: و اجترأ على الاجترام و اجتراح الآثام، و سفك دم الكرام. فتارة يظهر التسنن بإراقه دم العلوية. و آونه يدعى التشيع في قتل الأئمة السنية. فمن جملة من سفك دمه، و رام عدمه، علاء الدولة رئيس همذان، و كان شابا حسنا شريف النسب،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٣

كريم الحساب. و كان بأصفهان قد حضر مجلس الوعظ. فقام إليه رجل من أصحاب الدر كزيني فضربه بسكينه. و فرى بمديته جبل و تينه. و كذلك عين القضاء الميانجي بهمذان. كان من الأكابر الأئمة و الأولياء ذوى الكرامات. و قد خلف أبا حامد الغزالي - رحمه

الله- في المؤلفات الدينية والمصنفات. فحسده جهال الزمان المتلبسون بزى العلماء. و وضعهم الوزير عليه فقصدوه بالإيذاء. و أفضى الأمر به إلى أن صلبه الوزير بهمدان. و لم يراقب الله فيه و لا الإيمان. و كذلك الملك علاء الدولة يزيد سعى في دمه، و هتك حرمة. و كذلك رئيس ساوه، اعتقله ثم قتله، و تتبع البيوت الكبار و اقتلعها، و الجبال العظام فزعزعاها. و من جملة أفعاله القبيحة، و أقواله العائدة على الدولة بالفضيحة، أنه حسن للسلطان و قد وصل إلى بغداد في سنة ٥٢٠ هـ أن زحف بعسكره إلى دار الخلافة، و قالوا و فعلوا ما لا يحسن ذكره، و اعتمدوا كل ما قبحت سمعته و عظم وزره. و كان حينئذ وزير الخليفة المسترشد بالله- رضى الله عنه- جلال الدين أبو علي الحسن بن علي بن صدقة فتوسط للأمر بكفائته، و كشف تلك الضلالة بهدائته. و كان صديق عمى العزيز،- رحمه الله-، فتعاوننا على الإصلاح. و أسوا الجراح. و حملا السلطان على معاودة طاعة إمامه، و التصرف على أوامره و أحكامه. و ذلك في أواخر ذى الحجة سنة ٥٢٠ هـ أو أوائل المحرم سنة ٥٢١ هـ.

و لما قرب مسير السلطان من بغداد حدث به مرض ضعف منه جسمه و قلبه، فاعتقد أن ذلك من شؤم خلافة الخليفة، فجلس في محفة و وقف على باب الحرم للمواقف الشريفة. و أبدى الإعظام و الإجلال، و طلب العفو و الاستحلال. فخرج إليه التوقيع الإمامى بأجمل جواب، و أطف خطاب. و طابت نفسه، و زاد بذلك أملة في البر و أنسه. و وصل إلى همدان و قد أبل و توفرت له صحة الصحة، و شكر الله تعالى على رواح المنحة.

قال عماد الدين- رحمه الله-: و في هذه السنة عزل الدرگزینی و ولى أنوشروان كما سبق ذكره، ثم عزل أنوشروان بعد سنة و أعيد الدرگزینی، و ما زال عمى العزيز في عصمة من شر الوزير، حتى أخبر السلطان بأن عمه سنجر قد سير في طلب ميراث ابنتيه و جواهرهما رسولاً، فإنه كان قد تزوج بإحداهما، فماتت ثم تزوج بالأخرى فماتت أيضاً، فوضع الدرگزینی من قال للسلطان "إن رسول عمك واصل إليك

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٤

بسبب تلك الجواهر، و أنه لا يعود عنك بما تقرره من المعاذر. و قد رضى سنجر بشهادة العزيز، فإنه أمين قوله صادق، و السلطان سنجر بصحته واثق. و نحن نرى أن تحبس العزيز في بعض المعازل محفوظاً من الغوائل. حتى إذا وصل الرسول و أدى رسالته، و طلب العزيز و شهادته قلت له: "هذا صاحبنا و قد نعمنا منه أمراً، فعزلناه، و قبضنا عليه و اعتقلناه. و ما بقينا نرجع إليه في الشهادة. و سؤال المحبوس خلاف العادة." فتلوم السلطان محمود و تذمم، و تردد فكره و تقسم. ففأوضه الدرگزینی و هون عليه الأمر، و سهل عنده الوعر، و قال له "إذا كنت معتنيا فما يضره القعود مصوناً و ما يعيب الدر مكنونا و الذخر مخزوناً." قال: "و أنا أطلق لك من مالى ثلثمائة ألف دينار إذا حبسته، و أقوم بأدائه إذا أجلسته."

فمال إلى المال و حال بالمحال. فاستدعى عمى العزيز من داره و عرفه بغرضه، ثم أمر بالتوكيل به على أجمل وجه، و كان ذلك و السلطان حينئذ ببغداد في أوائل سنة ٥٢٥ هـ، ثم قالوا للسلطان: الصواب إنفاذه إلى معقل فقد قرب وصول الرسول.

فسلم العزيز إلى بهروز الخادم شحنة بغداد، حتى سيره إلى تكريت، فلم يلبث السلطان بعد حبسه إلا قليلاً. و كم تلا (يا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً). و ذلك أنه لم يسمع رسول عمه عند حضوره ما قيل عن رسالته. و استدلل بذلك على كذب الوزير في مقالته. و أرسل إلى الوزير و طالبه بالمال فزاغ عن مطلبه، و مطل به. و سير إلى أصفهان فقبض على والدى صفى الدين و على عمى ضياء الدين و اعتقلهما بقلعتهما و نهب و سلب. و استولى على أملاكنا و أموالنا و استوعب. و أما العزيز، فإن السلطان كتب إليه بتكريت يعده و يأمره بالصبر و يقول "إذا أخذت من الوزير ما بذله فأنا لا بد أن أطلقك و أعتقله،" و الوزير في كل مدة يزن له شيئاً من المال، و يريه أنه من عنده و من ذهنه، و لا يعلم أنه جباه من مال المصادرات، و جاء به و وعده بالباقي إلى همدان. و فى القدر أن بقاءه قد انتهى و أن حينه قد حان. و رحل السلطان من بغداد و مرض فى الطريق و اشتد مرضه. ثم فارق جوهره عرضه. و ذلك فى شوال سنة ٥٢٥ هـ. و ذكر أن الوزير سمه فى طعامه فإنه لما قصر فى أداء المال، و نظر فى سوء المال، شرع فى اغتيال السلطان على وجه الاحتيال، فتم له

تأمله. و حين مضى السلطان لسيله وضح فى التسلط سيله.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٥

قال: و كان قد اتفق ووصول السلطان سنجر إلى الرى فى سنة ٥٢١ هـ قبل مضى السلطان محمد إلى بغداد، فعاد إلى خراسان و استصحب الملوک معه تائيسا لقلب محمود، باستصحاب طغرل و مسعود. عاد محمود إلى سريره و تفرد الوزير بتدبيره. و من الاتفاقات العجيبه و الواقعات الغريبه أنه اجتمع فى ذلك العهد فى خركاه واحده السلطان سنجر و الأخوه الأربعة: السلطان محمود، و مسعود، و طغرل، و سليمان، و الوزير الدرکزينى، و النصير محمود بن أبى توبه وزير سنجر. و هناك رجل يقال له الفلک، و هو من الندماء المطبوعين. فقام و صلى ركعتين و رفع إلى السماء الیدين.

و جعل يدعو الله و يتضرع، و يبتهل إليه و يخشع. فاستدعاه سنجر و قال "ما هذه الصلاة و الدعاء" فقال "ناجيت الله تعالى و قلت: هؤلاء العصبة الذين اجتمعوا فى هذه الخركاه هم أصول الفتن و فروع المحن فاحسف بهم هذه البقعة، و انفض عنهم هذه الرقعة، حتى يسلم خلقك، و يسلم حقك. فضحك منه سنجر، و استخف النديم المتمسخر.

فلما عاد محمود سار إلى بغداد، و شرع فى إزهاق النفوس فأزهقها. و الأخذ بمشورة الوزير لنفاقها عنده مع نفاقها، و لا جرم أنه ما تمتع بعمره بعد قطع تلك الأعمار، و انتقل بجوره و جبروته إلى جوار الجبار.

قال: و حكى نجم الدين رشيد الخادم الغياثى أنه حضر السلطان محمودا و هو يتقلب على فراشه فى سكرة الموت و يقول "ادفعوا عنى شيرکير و ولده فقد شهرا سيفين ليقتلانى." "و كان يكرر هذا القول إلى أن قضى نجه و لحق بربه. و ما عصبت به هذه الوزر إلا عصبية هذا الوزير. فإنه عجل له سوء الأدبار بسوء التدبير. و كان السلطان محمود محمود الخليفة مودود الطريقة، إن ترك و طبعه، و لكنه بلى بأنواع من البلاء من أعوانه، و نغصوا عليه مشروع سلطانه. و فرقوا فى ابتداء دولته خزائنه أبيه، و استضعفوا جانبه و طمعوا فيه. قال: و وجد تفصيل بخط عمى العزيز- رحمه الله-، أن الخزائنه الغياثية المحمدية كانت تشتمل على ثمانية عشر ألف دينار، سوى الصياغات و الجواهر الثمينه، و أصناف الثياب المعدنيه. فآل الأمر إلى أنهم احتاجوا إلى إقامة وظيفه الفقاع، فلم يجدوا ما يصرفون فيها من المتاع. فأخرجوا إلى الفقاعى عدة من صناديق الخزائنه التى فرغت، فباعها بما بلغت. و حتى طلب السلطان من شابور الخازن غاليه، فاستمهله أياما و ادعى إقلا، ثم أحضر ثلاثين مثقالا. فقال السلطان

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٦

لشابور و كان خازن أبيه "حدث لجماعات بما كان فى خزائنه أبى من الغاليه" فقال شابور "كان فى قلعه أصفهان منها فى الأوانى الذهبية و الفضية، و البلور و الصينيه، ما يقارب مائه و ثمانين رطلا، و معنا فى خزائنه الصلبة مقدار ثلاثين رطلا." فقال السلطان للحاضرين "اعتبروا بالتفاوت بين الأمرين و فصل ما بين العصرين،" قال: و كان محمود قوى المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار و الأمثال الأدبية، عارفا بالتواريخ و السير، ناظرا فيما يوجب الاعتبار من الغير.

### ذكر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود إلى أن استقر الملك لطرغل:

قال- رحمه الله:- كان قد تفرس الوزير فى السلطان محمود أنه موءود، و أنه فى الأحياء غير معدود. و حين فارق كنفه، و رافق كنفه، استصحب إلى الرى مع عساكر العراق، و تظاهر على الاتفاق. و أمراؤهم برسق، و قزل، و قراسنقر و قراطغان و غيرهم.

و أقاموا بها تلك الشتوه، و عقدوا بها على انتظار السلطان سنجر الجبوه. و لبثوا من يوم موت محمود إلى حين وصول سنجر أكثر من خمسة أشهر. فوصل إلى الرى فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ، و استقبله عساكر العراق مع الوزير، و جلس سنجر على السرير. و وصل بعده ليلا طغرل سحره، و لقي عمه بكره. فترجل له الوزير الدرکزينى فما احترمه طغرل و لا التفت إليه، و لا قبله و لا أقبل عليه. و كان الرسول قد أرسل إلى طغرل بتحفة و نسخه عهد، إبانه عن نصح و شفقه و بذل جهده.

قال: وحكى زين الدين المظفر ابن سيدى الزنجاني- وهو الرسول- أنه لقي طغرل بجوار الرى فمثل بين يديه، وأوصل هدية الوزير إليه. فلم يجعل لها وزنا، وأظهر عند رؤيتها حزنا. وذكر أتاكبه شيركير و شرف الدولة ولده، و اغرورقت عيناه و أبدى عليهما كمدته. وقال "أين هما فى هذا اليوم و لو عاشا لكانا أنفع لى من هؤلاء القوم."

و لما عرضت عليه اليمين بأن فيه أثر السخط فشرع فيها متلفظا، و من أن يمين متحفظا. فلم يتفوه بروابطها، و لم يتنبه على شرائطها. و لما رجع الرسول إلى الوزير عرفه ما جرى و أخبره فلم يكثر بتلك الحال، اغترارا بقوة الاحتيال.

قال: و كان وزير السلطان سنجر نصير الدين محمود بن أبى توبه فأنعم على الدركرينى بفرع الرى لتلك السنة. فإن الرى كانت من الأعمال السنجرية و واليها من

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٧

أصحابها الأجل المقرب، جوهر المعروف بالأمر الأجل. فلما فرغ الوزير الفرع و وزعه، منعه الأمير الأجل و وزعه. فأغلظ الوزير له فى المقال، و كان ذلك من أسباب حتفه فى المآل. قال: و رحل سنجر إلى همذان و خيم بها ثلاثة أيام ثم نهى نهد إلى نهاوند و حث على أتباعه الجند. لأن الخبر وصل بأن الملك مسعودا وصل مستعدا للملك و معه صاحب فارس أتاكب قراجه. و لما سمع طغرل بإقبال أخيه مسعود لم يطمع من السلطنة فى مسعود. فعزم على الرحيل فأحس سنجر بعزمه و سير إليه الوزير و الأمير الحاجب و هو محمود القاشانى، و الأمير قماج و جماعة من أمراء العسكر الخراسانى. فأتوه و هو واقف على تلعة حذاء كنگور و بلغوه رسالة عمه سنجر، و أنه و لاه سلطنة العراق، و سلطنه على ولاياته، و أنه و لى عهده، و مالك خراسان من بعده. فهوى إلى الأرض مقبلا، و جرى القدر بملكه من السماء فأصبح مقبلا و سار سنجر إلى نهاوند بعد ثلاث، و نفذ السلطان طغرل فى العسكر العراقى فجاءهم الخبر بأن مسعودا أمسى عائدا إلى أذربيجان على سمت دينور، و ما فى عزمه أن يلقى عمه سنجر، فأغذ الجماعة إليه سائرين، و هجروا تلك الليلة الكرى و وصلوا السير بالسرى. فما أسفر الصبح إلا و ليل العجاج خان و الخطى يهتر من يمين الشجاع كأنه جان. و الكوسات تذعر، و البوقات تنعر. و صادفوا العسكر المسعودى على موضع من عمل دينور يقال له بنجكشت، مرت تلك الجيوش به فامتلا المأ و ماج المرت، و جاش الموت، و طلعت راية السلطان الأعظم سنجر و هو تحت مظلته، كالقمر فى حالته. و على ميمنته السلطان طغرل و الأمير قماج، و على ميسرته خوارزمشاه و عدة أمراء مساعير يسعر بياسهم الهياج. فحملت ميسرة مسعود على ميمنة سنجر و فيها السلطان طغرل فصدمتها و هزمتها، و ركض طغرل فى الهزيمة. ثم تحيز إلى عمه و وقف فى قلبه، و ثبت بجنبه.

و حملت ميسرة سنجر على ميمنة مسعود ففرقت نظامها، و التهمت لها مها. و فر قراجه و وقف فى خواصه. و كانت لسنجر صفوف وراء صفوف، فخرقها إلى القلب، و دارت فى الإحاطة بها رضى الحرب. و كان أشجع أهل زمانه فأثبت فى مستنقع الموت رجله، و لم ير فى الإقدام بالروح بخله، فلما كسر أسر. و قبض معه من أمرائه على يوسف الجاوش و وزيره تاج الدين بن دراسس.

ثم ركب السلطان بعد ثلاثة أيام، و وقف على تلعة، فأحضر بين يديه قراجه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٨

و يوسف و هو مطرق لا يضرع له و لا يخاطبه. فضربت رقبتهما، و طويت و رقتهما. ثم انصرف السلطان سنجر ذلك اليوم و ارتحل من غده، فلما وصل إلى كورشنبه، خلع على السلطان طغرل و سايره على انفراد. و وصاه ببلاده و تلاده. و أفضى إليه بأسراره و أسر إليه بمفاوضاته. و أمره بأن يكون مع رضاه و نهاه عن معارضاته. فقبل عين الوزير ذاكره لماذا كره عمه. و ظن أنه سر يخفر فيه ذمامه و يخفى ذمه. ثم دعاه و ودعه و أودعه من النصيحة ما أودعه. و انصرف إلى الرى راجعا، و لمصالح الممالك جامعا.

### ذكر جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا و الدين أبى طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان

قال- رحمه الله:- جلس طغرل على سرير الملك بهمذان، بعد انصراف السلطان سنجر إلى خراسان فى جماد الآخر سنة ٥٢٦ هـ، و

وزيره القوام أبو القاسم ناصر بن علي الدر كزيني الأنسبأدى استبد بتمشيئه الأمور، والأمر والنهي على الجمهور. وكان لا يوقع في الأمثلة السلطانية مظهرًا أنه وزير سنجر. وإنما خلفه بالعراق ليهذب الممالك ويدر. وهو في هذا الكبر نشيط، والسلطان طغرل منه مستشيط. فهو في بث العدل، والوزير في بث الحبل. وذاك يعطى وهذا يأخذ، وهذا يورط وذاك ينقذ. ووصلت رسل الإمام المسترشد بالله فلقبهم الوزير بعبوس وبؤس، ووقعهم بالنجه، وواقحهم بالجبه. وضع للطمع في الرشى الرشد، وضل عن نهج الضلالة التي تشد. وأفسد ما صلح، وجرى على خلق الفلاحه و ما أفلح. وانفصل الرسل ولم يستقر بين الإمام والسلطان قاعدة، وكلما ظنت متقاربة عادت وهي بعادية عادة الوزير متباعدة.

### ذكر ما جرى للملك داود بن محمود بعد وفاة أبيه

قال- رحمه الله:- كان داود ولي عهد أبيه، و آق سنقر الأحمديلى أتابكه و مربيه، وهو بأذربيجان فى جمع كثير، و جم غفير. و قصده خواص والده و تغضبوا له و تعصبوا، و تابوا إليه و وثبوا. و معهم الأمير سعد الدولة يرناقش الزكوى، و كان من أجل أمراء الخدم، و أحدهم فى إحياء رسوم البأس و الكرم، و معهم ابنا قراجه إيلرمش و أخوه، و عدة من الأمراء هم الأعيان و الوجوه. و من أرباب العمائم الصفى الأوحده أبو القاسم، الذى جعل مستوفيا للسلطان محمد بعد العزيز. فحملهم على التبريز من تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٨٩

تبريز. و نهض السلطان داود فى سنة ٥٢٦ هـ إلى همذان، و لما قرب من معسكر عمه طغرل انحازت عدة من أمرائه الأتراك إلى خدمة طغرل، منهم: بلنكرى و أخوه، مع عصبه ذات عصبية، و كذلك شيمه الأتراك غير الوفيه. و برز طغرل فى جنوده المتفقه، و البنود المختفقه، فلما تصاف العسكران و تضايق العثيران وقع البيض على البيض «١». و لم ير إلا بحر الدم وجود من الغيظ بالفيض. و مضى الظهر و لا صهور. و قد حمى بالصدور الظهور. و ظفر العم و عم الظفر. و نفر ابن الأخ وفر منه النفر. و انهزم آق سنقر بدادود. و باء الباكون بأغللال و قيود. و قتل فى المعركة إيلرمش بن قراجه مقدا، و بذل روحه فى الملقى مكرما، و أخذ سعد الدولة يرناقش الزكوى فاعتقل فى همذان عند الوزير فى قصره، و أمضى على سبعين ألف دينار فصل أمره. و تسلم منه قلعه قزوين، و خلت منه بلاده و ذوين. و أخذ أيضا الصفى المستوفى المعروف بأوحد بهروز و حبس عند جاولى جاندار، و سأل الوزير أن ينقله و يعتقله عنده بالدار، فما رخص فيه السلطان، و لا- تمكن منه ذلك الشيطان، فإنه كتب إلى طغرل يقول "إن سلمتنى إلى الوزير أسلمتنى إلى المبير، و أنا أعطيك مائة ألف دينار على أن أسلم لا أسلم، و يستصفى مالى لا الدم." فلما يئس الوزير من وقوعه فى يده، أفكر فى حيله ضعف بها مال مصادره، حتى أدى مائتى ألف دينار، و ذلك أنه قال للسلطان طغرل "إن عمك أمرنى أن أضرب الدينار الركنى فى همذان، حتى يتفق نقد العراق و خراسان."

و تقدم بضرب ألف دينار بذلك العيار، و نادى بالتعامل به فى تلك الديار. و طولب الصفى الأوحده بذلك النقد من غير تضعيف العقد. ثم إنه صادر الأمراء و أمر بالمصادرات، و بيت بالأذى ذوى البيوتات. فقرر على قتل الرشيدى- و كان أستاذ دار السلطان محمود- ثمانين ألف دينار، ثم غدر به الوزير، فاستخرج من ودائعه ثلاثين ألف دينار أخرى فقرته و افتقرته، و كسرتة و خسرتة. و أخذ من الجمال بن مناره البيع فى همذان، ثلاثين ألف دينار. و ولى فخر الدولة بن أبى هاشم الحسنى رئاسة همذان، و أخذ منه عشرين ألف دينار. و قرر على تاج الدين دولتشاه بن علاء الدولة و والدته

(١) البيض: جمع بيضة و هى الخوذة من فولاذ.



و وزيره مائة و خمسين ألف دينار. و صادر الأكابر، و صدر الكباثر. و جر العظام و عظيم الجرائر. و وزع على بلاد الممالك بعله صياغات بيت الشراب و المطبخ ألوفاً مؤلفة، فاطلع السلطان طغرل على طغيانه و تسلطه، فأنفذ إليه: "إنك أسأت سمعتي و أسمعت مساءتي، و فضحت أمرى و أمرت بفضيحتي. ألم يكفك سلخ جلود العظام حتى شرعت فى استفراغ دماء الضعفاء، و استنزاف دماء الفقراء." فكف الوزير عن التوزيع بعد جباية الأكثر، و الخيانة فى الأوفر.

و سمع السلطان طغرل بتحرك أخيه مسعود، و خروجه مع آق سنقر فى جموع و حشود. فارتحل صوبه إلى أذربيجان. فلما سمع مسعود بقربه لم يقف لحربه، و أغد السير إلى بغداد فى حزبه. و دخل طغرل إلى مراغة و كان الوزير فى تأخر عنه، فانتهاز فرصة غيبته و بسط يد معدلته. فجاءه الوزير فجاءة و جر عليه جراءة، و بطل الحق و عطل العدل. و وجه على وجوه البلاد البلاء. و مثل بالأماثل و إلى الرؤساء أساء.

و صادر زرقان رئيس تبريز على سبعين ألف دينار من الذهب الإبريز. و دخلت الشتوة، و قصرت الخطوة. و اختار السلطان طغرل دخول تبريز و المقام فى قلعتها إلى حين انحسار شتوتها و انكسار سطوتها. فاجتمع عسف الوزير و عصف الزمهير، و إدار المسىء و سوء التدبير. و كان المستولى على فارس بعد قراجه منكوبرس، و قد اجتمع عليه الترك، فكتب إلى السلطان يطلب ولده ألب أرسلان ليدعن بالطاعة، و الاعتراف بالتباعة. فأوجب ذلك رحيل السلطان و الطرق مسدودة، و السبل مسدودة. فنضرب الظهر و ظهر الضرر، و نفقت الدواب و تضور العسكر. و وصل إلى أصفهان، و أنفذ إلى فارس ولده ألب أرسلان. فوقت على منكوبرس حينئذ على الحقيقة سمة الأتابكية، و درت له أحلاف الحرمات البكية «١».

(١) البكية: الكثيرة البكاء.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩١

### ذكر حوادث جرت فى أثناء ذلك من السلطان مسعود و أتاك آق سنقر الأحمديلى

قال- رحمه الله:- لما قصد السلطان مسعود بغداد عبر على تكريت و كان واليها الأمير نجم الدين أيوب، و عمى عزيز الدين عنده. فقال مسعود: لا- يستتب أمرى إلا بوزارة العزيز، فإن الأمراء يميلون إليه، و إذا استوزرته كنت فى حرز حريز. فنفذ إليه خادمه عماد الدين صوابا و الأمير أبا عبد الله الدووى و معه مقدمين و حجابا. و طلبوه من الوالى، فأظهر الأمير طاعة الوالى. لكنه أضمر نية اللأوى و لى المناوى. فإن صاحبه كان مع السلطان طغرل، فحصل فى الأمر المشكل. إن سلمه خشى فى العاقبة عقوبة صاحبه الغائب، و إن لم يسلم خاف من سخط السلطان الحاضر العاتب. و أخرجه من القلعة إلى المشهد بالمدينة و استغل بحمل أسباب التجمل و الزينة. و لم يزل يدافع الوقت حتى حان المغرب، و خان المطلب.

فعزم العزيز على الخروج فيمن معه، و تسابقوا إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت قبل وقت إغلاقها. و عند ذلك، عاد و ثوق الآمال بالانطلاق بوثاقها. و طلبت المفاتيح و قد حملت إلى القلعة. فباتوا على مضضهم فى تلك البقعة. فلما أصبحوا وجدوا صطماز أحد مماليك بهروز، و هو شحنة الحلة، على الباب. و قد استتبع جماعة من الأوباش و الأوشاب.

و قد ساق فى ليلة واحدة أربعين فرسخا، و جاء لمن بالقلعة مصرخا. و دخل على العزيز و أخذ بيده و رده إلى القلعة و قال للقوم: "انصرفوا بسلام. فلا حاجة بنا إلى التعرض من صاحبنا لمعتبة و ملام. و هذا السلطان مسعود إن استقرت له سلطنته فالآفاق له مدعنه. و ما دام الملك لأخيه فلا مطمح له فيه." فعلم القوم أنهم أخطأوا الحزم، و ضيعوا العزم. فرجعوا إلى السلطان و أخبروه بالحكم و العلة، فحل به الشحنة من شحنة الحلة. و طلب بعض أخوة العزيز ليستخدمه، و يتقرب به إليه و يقدمه.

و كان العم بهاء الدين أبو طالب وزير آق سنقر الأحمديلى، و هو فى الخدمة، فرتبه فى منصب الاستيفاء، و تعوض بالصعيد الطيب من

الماء. و استوزر أنوشروان و جمل بمكانته المكان. و أخذ العسكر للملك طالبا، و لأخيه مناصبا. و كان السلطان طغرل حينئذ بأصفهان و قد استخلف أتابك قراسنقر بأذربيجان. فلما نهذ آق سنقر مع السلطان

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٢

مسعود إلى أذربيجان، تزحج عنه قراسنقر إلى زنجان. و تحصن عين الدولة خوارزمشاه و الأميران بيشكين و بلاق بأردبيل، و الأمير الحاجب تثار بأرمية، و تحكّم السلطان مسعود و آق سنقر في تلك البلاد، و انتظمت أمورهم في سلك السداد. و نزلوا على أردبيل محاصرين، و ثبت أهلها صابرين مصابرين، و كتب الدر كزيني إلى قراسنقر يحرضه و يقول له: «بارز آق سنقر فأت له مبار بالمبارزة، و أحضره و ناجزه الحرب بنفسك و إلا حضرت بنفسى إلى المناجزة». فكتب جوابه، و مهد في تأخير القتال عذرا، فلم يعذره الوزير. و كتب إليه ثانيا يأمره بالمناجزة، فاستشاط قراسنقر من اشتطاط الوزير، و قال لجماعته: «قد بلانا الله بهذا الفلاح، و الدولة بوجوده معدومة الفلاح». فاحتد الأميران الحاجب تثار، و جاولى الجاندار، و قال: «لابد من طاعة السلطان في محاربة أهل العصيان، فلا تجبن فهذا مقام الشجعان»، فاغتاظ و ركب، و ساق نيفا و عشرين فرسخا في ليلة واحدة، فوصل بخيول رازحه، و خيول آق سنقر جامه غير جانحه، فتلاقيا و تضاربا.

ثم انهزم قراسنقر وفر، و ظفر آق سنقر وقر. و كانت الحرب على باب أردبيل، فشفي آق سنقر منهم الغليل. و احتوى على ما كان معهم، و لم يبق بعدهم و تبعهم. و هجر الكرى، و وصل السير بالسرى حتى وصل إلى همذان. و عنا الملك لمسعود و دان. و خرج السلطان طغرل و تحصن بأروند و ماوشان، و كان قد عرض له مرض أفعده عن الحركة، و أعجزه عن حماية المملكة. فقدم الأمير الحسن الجاندار على العسكر و هاجه إلى اللقاء و ألقاه في الهيجاء. ثم انهزم طغرل إلى الرى قادما، و على الرأى نادما، و على وزيره واجدا، و لله شاكر على سلامته ساجدا.

### ذكر ما كان من حديث عمى العزيز و حادثته بعد عوده إلى القلعة

قال: قال الدر كزيني لسنجر عند عوده إلى خراسان: «إنك تعود إلى خراسان و يبعد علينا استئذانك في المهام، فاعطنا علاماتك في دروج بياض، لمقاصد تعرض و أغراض. فإذا عنت مصلحة، و اتفقت منفعة للدولة مترجحه، أصدرنا بها مثالا بعلامتك، فلا يخالفه القريب و البعيد، و لا يتقاد إلا له الغوى و الرشيد». و كانت علامة سنجر تحت قوس الطغراء و فوق بسم الله (توكلت على الله) فأخذ العلامات في عدة دروج،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٣

و اتخذها أسبابا لاستباحه دماء و فروج. فأول مثال زوره، إنه وقع تحت علامة منها بقتل العزيز إلى صاحب تكريت بهروز الخصى. و اتفق أنه كان في العسكر معهم فأرهبه و أربعه، و أمره بالامتنال، و الجرى على مقتضى المثال. ففرغ الخصى و تمكن منه الخوف، و كتب إلى والى تكريت نجم الدين أيوب، و خاطبه في الخطب المنخطوب. و قال له: «هذا توقيع السلطان مع صاحب وزيره، يأمر بقتل العزيز و تسليمه إليه و تسييره. فإن أبيت فقد رضيت بسخطى، و خالفت شرطى، و أردت الخطأ في رد خطى».

و كان نجم الدين رجلا مسلما. فما رأى أن يكون لرجل مسلم مسلما. و عرف أخوه أسد الدين شيركوه الحال، و حجز بينه و بين الوقوف على التوقيع الواصل و حال.

فشاركه أخوه شيركوه في رد الوارد، و صرفوه بالخلع و الفوائد. و كان شيركوه ملازما للعزيز و متبركا به، و متمسكا بسننه. و قال عماد الدين: سمعته يوما يقول: «صليت ليلة مع العزيز فسمعت هاتفا يقول: جعلك الله عزيزا كما حميت العزيز». فما أطمعنى في مصر بعد نيف و ثلاثين سنة إلا هذه الدعوة. و أيقنت أنى أنال هذه الخطوة. قال: فكان: ما قال، فإنه ملك مصر و صار عزيزها، و من حاز الجنة بما فعله فلا عجب لمملكة مصر أن يحوزها.

قال: فلما عرف الدرگزینی تمنع ما توقعه، ضاق عليه الفضا و ما وسعه. فثقل على بهروز و فزعه. و قال له: «سر بنفسك، و لا تتنفس بسرک حتى تأتي تكریت، و بيت من بها قبل أن تبيت»، و وكل بالخصی أياما، و مزج له الشهد سماما. ثم أطلقه على الشرط فلم يشعر نجم الدين أيوب و أخوه أسد الدين شیرکوه حتى هجم الخصی عليها القلعة، و قال لهما: «قد دافعتما عن هذا الرجل دفعات، فكيف هذه الدفعة». فدفعاه فلم يندفع، و ردعاه فلم يرتدع، فترکاه ما شأنه، فما ترك ما شأنه. و كان بهروز قد استصحب معه من أعوان الدرگزینی ملحدًا، مثله مفسدا. فلما عرف العزیز - رحمه الله - أنه قد أسلم، و أحس بالأمر و ما أعلم قام يصلى ركعتين فصلی الأولى بسورة الكهف، و شرع فى الأخرى بیاسین. و طالت صلاته على الملحد اللعين فضربه و هو فى السجود فجاد بروحه فى مناجاة المعبود. و شهد السعادة، و سعد بالشهادة، و كان مذ حبس متوفرا على العبادۃ؛ يصوم و يقوم، و ذلك فى سنة ٥٢٧ هـ و عمره ٥٥ سنة. و جرى هذا الأمر و لم يكن عند السلطان طغرل خبر. و فى ذلك عبرة لمن اعتبر. فإنه بعد قتله الدرگزینی طلب العزیز

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٤

فأعلم بحادثته و حديثه، فلعن الوزير على تأثيره، و شؤمه النارى و تأريثه. و لم يكن بين مقتل الشهيد العزیز و بين مقتل المرتد الوزير سوى أربعين يوما.

### ذكر قتل الوزير الدرگزینی و ما آل إليه أمر السلطان طغرل

قال - رحمه الله -: قد ذكرنا أنه أحجم إلى الرى من قدام آق سنقر و مسعود فى عدد مفلول و فل معدود. و خرج الأمراء الذين كانوا بأردبیل فى الحصار، و رحلوا على سمت أصفهان، ليلحقوا السلطان. و فارقهم العسكر فوصلوا فى خوف من الخواص، و عبروا للخلاص، على النهج المعتاص. و جاء العساكر إلى مسعود من كل حدب تنسل، و بكل عسال تعسل و كان طغرل قد رحل إلى أصفهان، ثم رحل لقصده أخيه مسعود إلى خوزستان. و أيقن أن كل ما تم عليه من الوهن فى أموره كان بوزير وزيره، و إدبار تدبيره. فأمر بصلبه، فصلب بأمره. و انقطع لثقل جسمه جبل خناقه. فوقع إلى الأرض فى آخر إرماقه. و فى جملة النظارة مملوك من ممالیک شیرکیر واقف، و هو بما جرى منه على مالکة عارف. فشق الحلقة بسيفه المسلول و ضرب رقبته الوزير المغلول. فقطع فى الحال إربا إربا، و أفرغ قحف رأسه و حمل إلى ابن شیرکیر فاتخذة للكلاب شربا. و أهديت كل أنملة له إلى من عنده له ثار. و انتعش بعثاره من كان له عثار، و كان مقتله بشابور خواست.

و كان السلطان طغرل قد قال له و هو جافل، و من طلوع أخيه عليه آفل "أين العسكر؟ أين الجند؟ أين ما سبق به منك فى الكفاية الوعد؟" فقال له "لا تبال و لا تخطر خطرا بالبال، فإنى قد نذبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك، و كأنى بهم و قد تعجل قمعهم و تفلل جمعهم." فاغتاظ السلطان و قال له "قد وضحت صحة إحدائك، و بان فساد اعتقادك." فأمر بتجريدته و إشعار نار الحديد فى ماء وريده.

قال: و وصل الخبر بأن الباطنية قد دخلوا على آق سنقر فى خيمته بمرج قراتكين، و تناوبوه بالسكاكين. و أن عساكره ارتحلت من همذان، على صوب أذربيجان فإن السلطان مسعود و إن كان فى جمع جم، و عسكر دهم لكن أمره مدبر، إذ عدم من هو له مدبر. فثنى طغرل عنانه، و شرع لنحر الخصم سنانه. و مضى إلى الرى و طوى المنازل إليها أسرع الطى. فلما خيم بها اجتمع الذباب على عسله، و الذؤبان العاسلة فى محفله و جحفله. و رحل السلطان مسعود بعد مقتل أتاكبه آق

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٥

سنقر إلى الرى لإضعاف أخيه أخيه، و مناجزته قبل انتهاض قوادمه بخوافيه. و العسكر الباقي معه يزيد على ستة آلاف فارس، و طغرل فى ثلاثة آلاف، فبرزوا بعدة المبارزة، و أنجزوا عدة المناجزة. فانهمز طغرل و حماه حماة خواصه، و خلصه ذوو إخلاصه.

و استأمن الأميران بلاق و سنقر صاحب زنجان و جماعة إلى العسكر المسعودى، و استوت سفينة السكينة منهم فى بحر جوده على

الجودي و ذلك في ثامن عشر رجب سنة ٥٢٧ هـ.

و امتد طغرل إلى طبرستان، و نزل على الأصفهد على فأكرمه و أعز مقدمه و وسع له و لعساكره الأتراك، و أنفق فيهم الذخائر و الأموال، و أقاموا شتوتهم عنده.

فلما انحسر الشتاء، رحل طغرل عائدا إلى همذان و اتصل به من الأمراء الأكابر جماعة، لهم على الأنام طاعة، مثل عين الدولة خوارزمشاه و محمد بن شاهملك، و حيدر بن شيركير، و سعد الدولة یرنقش. و وصل بوزابه من عند أتابك منكوبرس، في ألفي فارس من فارس، فاشتدت شوكته. و احتدت شكته «١». و كان السلطان مسعود بأذربيجان فاستدعى فخر الدين عبد الرحمن بن طغايك، و اتصل به یرنقش البازادار، و نجم الدين رشيد، و نهضوا لصبوب قزوین و الری، عازمين على حسم الداء بالکی. فرحل السلطان طغرل يتبع آثارهم، و يشق غبارهم. فنكلوا عن لقائه، و ولوه ظهورهم عند ظهور لوائه، و تفرقوا أيدي سبا. و غنم أصحاب طغرل ما وجدوه من دوابهم و أسلحتهم.

و ندب قرا سنقر إلى محاربة الملك داود بن محمود بالمراغة فهزمه، و فل غربه و ثلمه، و تمكن السلطان من سلطنته، و تسلط بمكنته، و فرغ سريره، و عرف سروره.

### وزارة شرف الدين علي بن رجاء

قال- رحمه الله:- سمعت والدي صفی الدين يشكره و يثنى عليه و يقول: لما قتل السلطان طغرل وزيره الدرکزینی استدعاني من أصفهان و ظن أن العزيز باق، و أنه عن حضرته إذا طلبه غير معتاق. قال: فقربني و أكرمني قال:"خذ خطي إلى بهروز يا حصار أخيك. و أسرع فإني منتظر لتوافيك." قال: فمضيت إلى بغداد، و إذا بالقضاء قد قضى، و الحكم قد أمضى. فلما عرف طغرل بوفاته، طلب رجلا كافيا، فوجد علي بن رجاء عليا كما رجاء. فعول عليه في وزارته، و سلم إليه المنصب، و شرع في مصادرة تاريخ دولة آل سلجوق ٢٩٥ وزارة شرف الدين علي بن رجاء ..... ص : ٢٩٥

(١) الشكوة: الأخلاق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٦

الدرکزینیة، و قبض على نوابهم، و ضيق على أصحابهم. قال: و في هذه النبوة قتل السلطان مسعود الصفی الأوحده المستوفی، و صادر أهله على مائتي ألف دينار، و كان ذلك برأى سعد الدين أسعد المنشئ الخراساني، و بمواطأة الكمال ثابت القمي، فإنه تولى منصب الاستيفاء، فرأى إتلاف من يترشح لمنصبه حتى يبطل بيد الاستيلاء.

و لما استقرت قاعدة طغرل، و أمن من معار معارضيه، و علا على مقار مقارعيه، و جلس على تخته، و تبجل بعلو بخته، فاجأه الأجل، فانتقل من الشراء إلى الثرى، و من دار البلاء إلى دار البلى. و ذلك في أوائل سنة ٥٢٨ هـ، فإنه عرض له قولنج، فشرب دواء أسهله و أدواه، و أسقط قواه. فتشتت ذلك الجمع، و انطفى ذلك الشمع، و غاض ذلك البحر، و غاب ذلك البدر.

و كانت وفاته بهمذان و دفنه بها في مدرسة بناها لبعض خدمه، و أسف بنو الآمال على كرمه. و كانت مدة ولايته سنتين و شهرا أو شهرين، و كان جامعا للخلال التي تفتقر إليها السلطنة من الحزم و التحفظ، و العزم و التيقظ. إلا أنه كان مستبدا بأرائه، معجبا بأهوائه. لا يستشير في أموره، و لا يسترشد في تدبيره.

و كان مصطنعا لأراذل صحبوه في أول عهده، فصاروا مقدمي جنده، و المخصوصين برفده. فكانت دناءتهم تغض من جليل قدره، و تغضض على ذكره.

## ذكر جلوس السلطان المعظم غياث الدنيا و الدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين سنة ٥٢٨ هـ

قال- رحمه الله:- كانت أم مسعود حظية تسمى نيسن أندر جهان، و زوجها بعد وفاة السلطان محمد الأمير الأصفهسلار منكوبرس والى العراق. و نقلوا معها برسم جهازها من الخزانة السلطانية أموالاً لا تنفذ مع دوام الإنفاق. و كان منكوبرس من أكرم أمراء الدولة و أعيانها، و قد استبد بإقطاعات العراق بعد وفاة السلطان، و تفرد بها مدة حياته، و ارتفع بوفور ارتفاعاته. و حكى عن وزيره ولى الدين المخلص محمد الميانجى أنه قال:"جمعت له فى العراق ألف ألف و ثلاثمائة ألف دينار نقدا مطبوعا بالسكة الإمامية، سوى ما كان له من الآلات و الثياب و الدواب و الجواهر. و قد ألمنا بذكر قتله فى عهد السلطان محمود، و رجعنا إلى حديث مسعود. و ذلك أنه سلمه

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٧

والده فى سنة ٥٥٥ هـ إلى الأمير الأصفهسلار مودود صاحب الموصل.

ثم جهز مودودا لحرب الإفرنج، و وصل إلى الطبرية و روى صدى الإسلام من دم الكفر، و شهر على أيمان الإيمان نصل النصر. و عاد إلى دمشق محبوا بالفتح، محبورا بالنجح.

و حضر فى الجامع فى آخر جمعة من ربيع الآخر سنة ٥٥٧ هـ، و خرج و يده فى يد طغتكين صاحب البلد، و هو محفوف من جنده بذوى العدد و العدد. فجاء إليه رجل و ضربه بضربتين، فنفذت إحداهما إلى خاصرته، و حمل إلى دار طغتكين، و عز فيه عزاء المسلمين. و قيل إنه خاف منه على دمشق فسدس إليه. و لولا- ذلك لكان لما أهرق منه الدم شق عليه. و لما وصل نعى مودود إلى السلطان محمد، سلم ولده مسعودا إلى آق سنقر البرسقى و أقطعه الموصل و الجزيرة، و أجزل له عطايه الجزيرة. و لما توفى محمد، تولى محمود، فزوج أم مسعود بمنكوبرس استماله لقلبه، و إظهارا للتقرب إليه ترغيبا له و رغبة فى قربه.

فلما ظفر به قتله، و حلّى بصبغ دمه من سيفه عطله. و جمع جوشبك الجيش، و سار بمسعود إلى حرب أخيه محمود، فكان ما كان من هزيمته، و قتل أبى إسماعيل الطغرائى وزيره.

ثم استدعى السلطان سنجر بعد ذلك مسعودا و إخوته، و قرّر على السلطان محمود من مال العراق نفقتهم و نفقته، إلى أن خرج الأمراء على محمود فى آخر أيامه. فاستدعوا مسعودا من جرجان، و حملوه على مناجزة السلطان. فما تسنى له أمر، و لا تهيأ له نصر.

فاستمال السلطان محمود أخاه مسعودا و قربه، و سيره إلى أرنائيه، و استكانت لهيبته عيون أعيانها الرائييه، ثم لما توفى محمود، جرى له ما ذكرناه مع أخيه طغرل، حتى مضى لسبيله.

قال: و كان مسعود قد وصل إلى دار الخلافة فى حياة أخيه، و خطب الخليفة المسترشد بالله له و أجله و بجله، و وقعت عليه سمة السلطنة بلا سمو، و علا صيته بلا صوت علو. و كان الجند يجتمع عليه و يفترق، يشتم تارة معه و يعرق «١». فلما نبت غرسه، و ثبت عرشه قر قراره، و سر أسراراه. و كان وزيره شرف الدين أنوشروان ابن خالد. قال- رحمه الله:- و كان المسترشد بالله رضى الله عنه قد استوزره مدة، و لما وصل السلطان مسعود إلى دار الخلافة و خطب له فى آخر المحرم سنة ٥٢٧ هـ، سفر أنوشروان و هو وزير الخليفة فى مهامه، فسفر بحسن سفارته وجه مرامه. و أحضره

(١) يشتم و يعرق: يذهب إلى الشام و العراق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٨

المسترشد و قال له شفاها:"تلق هذه النعمة بشكرك و اتق الله فى سررك و جهرك." و خلع عليه و طوقه و سوراه، و جلس على الكرسي المعد له، فقبل الأرض و قال له أمير المؤمنين:"من لم يحسن سياسة نفسه لم يصلح لسياسة غيره، قال الله تعالى ذكره: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧، ٨]." فأعاد عليه الوزير بالفارسية فأكثر من الدعاء و الضراعة، و

نطق بالإذعان و الطاعة. و قلده بسيفين، و عقد له بيده لوائين. و سلم إليه ابن أخيه داود و أتابعه آق سنقر، و قال له "انهض و خذ ما آتيتك و كن من الشاكرين." فمضى مسعود، و هي النوبة التي نصر فيها على طغرل. قال: ثم رأى الخليفة عزل أنوشروان و استيزار شرف الدين نقيب النقباء على ابن طراد الزينبي، و فيه يقول حيص بيص قصيدة أولها:

شكرا لدهرى بالضمير و بالفم لما أفاض بمنعم عن منعم فجلس في بيته مكرّما، و لزم منزله محترما. ثم اجتمع بالسلطان مسعود فاستوزره. و صد رهبة الأطماع حين صدره. و كان المستولى على مسعود آق سنقر.

فلما استشهد، تمكن الأمير یرنقش البازدار، فاستولى و لم يلتفت إليه و لا- إلى وزيره، و كان أتابعك قراسنقر حينئذ قد وصل إلى الخدمة في حشوده و جنوده و حماة أذربيجان، و كماة أران، و عنده استشعار من زوجة السلطان الخاتون زبيدة بنت بركياق، فإنها كانت على السلطان متسلطة، فرأى صلحها و إصلاح رأيها، و حملة دهاؤه على حمل النفائس إليها و إهدائها. فلم يعجب الأمير یرنقش ذلك، فاستوحش و وافقه الأمراء الأكابر، و هم برسق و قرل أمير آخر، و سنقر صاحب زنجان، و جاولي و حيدر بن شيركير. فخرجوا عن الطاعة، و تدرجوا إلى مفارقة الجماعة. و رحل یرنقش بهم إلى بروجرد و بقى السلطان و معه قراسنقر في جيوشه، و اتصل به خوارزمشاه، و وصل الأمير السابق رشيد من خراسان، فهض السلطان بهم إلى هؤلاء البهم و التقوا فانهمزم یرنقش، و أسر من الأمراء الطغرلية جماعة وقعت في إطلاقهم من قراسنقر شفاعته. و لم يزل بهم حتى أصلح حالهم، و قضى أشغالهم.

و أما یرنقش البازدار، فإنه رهب فهرب، و دار بخلافه حتى أتى دار الخلافة، فحط

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٢٩٩

بحرم الأمن و رحل المخافة، و استصحب معه من الأتراك جمعا كثيرا، و صار بين الخليفة و السلطان للنشر مثيرا. و أشاع عن السلطان نقض الأيمان، و رفض الإيمان. و زعم أنه قد عزم على صدق القصد، و أنه باغ، باغ «١» زرع الدولة المسترشدية بالحصد. و كان الخليفة قد انقرض من السلطان في تغييرات غيرت فيه آراءه، و بدت من شحنة بغداد ما أبدت شحناه. فلما سمع قول یرنقش، صار يرى نقشه في الحجر، و نبت ما شجر من الخلاف و العناد عند الخليفة نبت الشجر. و كان السلطان قد هم باتباع یرنقش بعسكر يكفه و يكفيه، و يقف على أثره و يقتفيه. فصدق الخليفة قصده، و تحقق حق عناده عنده. فحينئذ خطب و خاطب، و طلب و طالب. و خرج بنفسه في هيئة رائعة، و هيبة رائقة. و خرج معه من كل طائفة أعيانها، و تعاونت على التناصر أنصار الدولة و أعوانها. و سار و قد صحبه حتى الشعراء و الأطباء، و الصوفية و الفقهاء. و في تلك السفرة يقول أبو القاسم بن الفضل الشاعر قصيدته التي أولها:

في العسكر المنصور نحن عصابه مردولة أحسن بنا من معشر

خذ عقلنا من عقدنا فيما ترى من خفة و رقاعة و تهور و يقول فيها:

تكرت تعجزنا و نحن بعقلنا نسعى لناخذ ترمذا من سنجر قال: و لم يقدر على التخلف عن الخليفة ذو قدر، و لم يفسح لذي عذر. و سار في حشد و حشر، و ضم و نشر. و نمى إلى السلطان خروج الخليفة فشق عليه شقاقه، و أظلمت آفاقه. فخرج صوبه من همذان، و التقوا بمرج يقال له دای مرك. و لما تراءى الجمعان، مال الجنس إلى الجنس، فمال الترك إلى الترك، و أسلموا حرمة الإسلام المصونة إلى الهتك. و تفرد الخليفة مع مفرديه، و بعد من جدى منجديه. ثم أقشع نشاصه «٢»، و انفل عنه خواصه. و وقف و لم يول، و ثبت و لم يخل. هابت الجماعة الأقدام عليه، و التندم إليه. فنزل أمير العلم السلطاني و تقدم، و لم يزل يقبل الأرض حتى وصل إليه، فأخذ بعنانه، ثم أحدق به الأمراء كما يحدق كل موكب بسلطانه.

(١) باغ: ساوى.

(٢) النشاص: السحاب.

و أنزلوه في خيمة و معه وزيره نقيب النقباء، و ابن طلحة صاحب المخزن، و سديد الدولة ابن الأنباري، كاتب الإنشاء، و بقي هكذا في مخيم مسعود يرحل برحيله، و يحل بحلولة. و هو يعده بإعادته إلى دار الإمامة، حتى كان المعسكر على المراغة. فوصل الأمير یرنقش قرآن خوان من خراسان برسالة سنجرية، كتم سرها، و أسبل سترها. و هجم على الخليفة جماعة من الباطنية ففتكوا به في سرادقه، و فجعوا الزمان بسيد خلانفه خلانقه. و ذلك في يوم الخميس الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ، فعرف بقرائن الأحوال أن سنجر سير الباطنية لقتله، و ما أشنع و أفضع ما أقدم عليه من فعله.

### ولاية أمير المؤمنين أبي جعفر منصور الراشد بالله بن المسترشد بالله - رضى الله عنهما -

قال: فوصل الخبر إلى بغداد باستشهاد الخليفة - رضوان الله عليه - يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ، و بويع للراشد بالخلافة، و جلس في منصبها في ذي الحجة، و بقي في دار الإمامية ببغداد قريب تسعة أشهر على إرجاف مزعج للأرجاء، و خوف غالب على الرجاء. حتى تفرغ مسعود إلى شغله، فشمّل بيته بيت شمله. و أخرج بدره من بيت شرفه، و أتى على متلده و مطرفه. و سيأتي ذكر ذلك في موضعه.

قال: فأما السلطان مسعود، فإنه بعد حادثه الخليفة بالمراغة، قبحت سمعته، فذكرته الألسن، و نكرته الأعين. فصار يفكر في شيء ينفي عنه الظن، و يستل به من القلوب السخيمة المستكنة. حتى سولت له نفسه قتل الأمير ديبس بن صدقة، و كان في القرب منه بمنزلة إنسان عينه الذي بواه الحدقة. فرأى أنه إذا قتله نسب الناس إليه قتل الخليفة، و أن السلطان لذلك لم يبق عليه. و كان الأمير ديبس المزيدي حضر باركاه السلطان، و هو جالس ينتظر الإذن، فجاءه من ورائه و هو لا يراه بختيار الوشاق، و أبان بسيفه رأسه و أسال على البساط دمه المهرق. و كان بين استشهاد الخليفة و قتل ديبس شهر واحد. و كانت هذه النبوة أيضا شنيعة، و الفضيحة فظيعة و شفعت الكبيرة بالكبيرة، و أتبع الجريرة بالجريرة. فتقرحت القلوب و تحرقت، و أسفت النفوس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠١

و أشفقت. فلم يكثر السلطان بما كرت «١»، و لم يحدث غما لما حدث و طما عاب طماعيته، و لفتح شرر شرته. و خشيه الأكاير و الأماثل، و غشيه الأصاغر و الأراذل.

فرغ قوانين السلطنة و أبطلها، و محاسنا محاسنها و عطّلها.

فأول ما بدأ به بعد حادثه الخليفة، أنه نهض إلى بلاد سكرمان، فجلب على سكانها البلاء، و أضرى بها الضراء. و خافه ابن سكرمان فجفل، ثم بذل له وجه الخيفة.

فنذر و حذر، و قام وقعد، و أحس بقرب من قتل أباه، فأباه و بعد. و كان الأمير زنكي ابن آق سنقر صاحب الشام ببغداد، فحمله على السير منها و الإغذاذ. و كان داود ابن السلطان محمود قد وصل إلى بغداد و زنكي مؤازره، و مظاهره و ناصره. فلما حضرها مسعود و حصرها، و نازل بعسكره عسكرها، رحل داود عائدا إلى أذربيجان، و أحفل زنكي راجعا إلى الشام. و قد خاف السلطان، و أشار على الخليفة باتباع أثره فما أصغى إليه، و لا سهل خروجه من بيته عليه ثم استوحش من مقامه بعد أن أقام مدة على استيحاش، فرحل رحلة آيس، و نفر نفرة خاش «٢». و مضى إقبال خادم أبيه معه، و صحبه وزيره جلال الدين أبو الرضاء بن صدقة، و خيم بظاهر الموصل متمسكا بجبل قاطعه، و مغترا بسلم منازعه. فإن زنكي لما أصلح أمره مع مسعود سييه و خييه. و أخذ إقبالا خادمه و حبسه ثم قتله. و أزعج الخليفة، فانتقل انتقال المرتاب، و تحوّل تحول المرتاع. و بقي كذلك سنتين لا يستقر به مكان، و لا يمكن له قرار. حتى اجتمع بالسلطان داود في أذربيجان، و جاء معه إلى محاصرة أصفهان. و ختم له بالشهادة عليها سنة ٥٣٢هـ في ظهر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان، و كان ذلك في القيظ وقت الهاجرة المتأججة، و القائلة المتوهجة. فهجم عليه قوم من فدائية الباطنية، فأضجعوه على فراش المنية.

قال عماد الدين: وأنا أذكر في صغرى هذا الحادث الكبير و حديثه، و تأثيره في القلوب و تأريثه. و كان ذلك بعقب سنوات إسنان «٣»، و شتوات شتات و مجاعات

(١) كرت الغم فلانا: اشتد عليه.

(٢) خاش: من خشى أى خاف.

(٣) إسنان: جذب و قحط.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٢

للجماعات مفرقة، و نواب نوابى للنواب محرقة. و هلك الناس جوعا، و خرج من أهل أصفهان من لم ينو إليها رجوعا. و ما كفاهم ذلك، حتى نزل عليهم داود، فخربت القرى، و ألحقت بالوهاد، و أغلقت أبواب البلد، و هت أسباب الجلد. و أعيان أهل أصفهان لما أحسوا بالحصار، رغبوا فى الإصحار، و انتقلوا إلى ظاهرها، و سكنوا حتى فى مقابرها، و هناك بقرب زندروذ، عند المصلى، قصور عالية مبنية على قبور أكابرها.

و كنا نحن من جملة المتقلين إلى بعض قصورنا. و قد عيننا بأمرنا. فجاء العسكر المحاصر، فى عدد كل عن عدّه الحاصر. و كان عمى بهاء الدين مع داود فى ديوان الاستيفاء، و إليه وزارة خوارزمشاه. و لم يكن مع الراشد وزيره أبو الرضا بن صدقة. فإن زنيا احتبسه عنده، ثم استوزره، فنذ إلى والدى صفى الدين و ألزمه بوزارته، فأبى. ثم اتفقت حادثه الراشد، فحمدنا الله على ترك خدمته، و العصمة من واقعه. فإن والدى - رحمه الله - حلف أن لا يخدم بعد العزيز سلطانا، و لا يتولى ديوانا. فوفى بيمينه مدة عمره، و عاش بعد أخيه نيفا و ثلاثين سنة مقبلا على أمره. و دفن الراشد فى مدينه جى، و أفردت له تربة فى جامعها، و صار إلى اليوم موضع قبره من أشرف مواضعها.

و حينئذ تفرق شمل تلك العساكر، و رحل داود آخذا طريق الرى، و سار معه والدى و استصحبنى و أخى أبا بكر، و خلانا فى المدرسة المحدثه بقاشان و أقمنا بها سنة نتردد إلى المكتب، و نشتغل بالقرآن و الكتب الأدبية. ثم عدنا إلى أصفهان، و كلانا لم يبلغ قمره إلى الإبدار، و الوالد سار فى ليل الأسفار.

قال: و أما أنوشروان الوزير، فإنه ما لبث فى الوزارة، و كان معهد الملك به غير مستتب العماره، لا لنقص فيه، بل لتغير القواعد، و تكدر الموارد. فعزل و اعتزل، و ما انتقل عن داره حتى تحول إلى جوار ربه و انتقل. و جلس للوزارة عماد الدين أبو البركات الدر كزنى. قال عماد الدين - رحمه الله - و كان نسييا للقوام الدر كزنى من جهة أخواله، و قد حسنت فى أيام دولته حوالى أحواله. و ربه أيام الوزارة المحمودية عارض لل جيش، و بقى مستمرا فى منصبه، مستقيما على مذهبه. و هو الذى يقول فيه القاضى الأرجانى:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٣ دام علاء العماد فهو رجاء العبادام لنا طالعا فهو ضياء البلاد

له يد لم تزل تصدر عنها أيادعيون حساده مكحولة بالسهاد

كأن أجفانها أهدابها من قتاد

و لما رأى السلطان مسعود فى عنفوان دولته، و ريعان سلطنته، الخلل حالا، و الحال مختلة، و العلل بادية، و المبادئ معتدلة استعجز أنوشروان للين أخلاقه، و قرب قمر عمره من محاقه. فرأى صرفه باحترام، و عزله بإكرام، و ظن أنه إذا ولى در كزنىيا أحيا رسوم الاقتدار، وسطا سطوة الجبار. فولى العماد فما رفع عمادا، و لا عرف سدادا. و لا مشى إلا فى طريق السلامة، و قنع بالدست و العلامة. و كان فى منصب الاستيفاء حينئذ كمال الدين ثابت القمى، الثابت الكامل الباسل، و كان فى زمان عمى من نواب ديوانه، و صنائع إحسانه. و كان شهما ناقدا، و سهما نافدا. فأنس السلطان بروائه، و ركن إلى رأيه، و استغنى به عن وزرائه. و هو الذى يقول فيه القاضى أبو بكر الأرجانى قصيدة منها:



سل النجم عني في رفيع سمائه أشاهد مثلي من جليس مبايت  
أساهره حتى تكل لحاظه وينسل في الصبح انسلال المفالت  
سقى عهدهم غيث تقول إذا بدا تجلل وجه الأرض ورق الفواخت  
معلمة الأمطار عيني على الثرى إذا ما سما إن لم يكن كف ثابت

له قلم إن هزه في كتابه أبر على سيف الكمي المصالت قال: وهذا ثابت، كان من دهاء الرجال، وكفاء الأعمال. وبمشورته شيدت القواعد، وشدت المعاهد، وولي المقتفى و خلع الراشد. و أما السلطان مسعود فإنه بعد خروج الراشد من مقام الخلافة، استشار الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، و كان قد اعتقله بعد ما جرى على المسترشد ثم أطلقه و استصحبه، و خاطبه فيمن يخطب له، فأشار بخير الخلائف و الخلائق، أبي عبد الله محمد بن المستظهر. فبويغ له بالخلافة في ذي القعدة سنة ٥٣٠هـ، و نعت بالمقتفى لأمر الله، و وزر له شرف الدين الزينبي، و أجمع الأنام على بيعته، و اجتمعت الآمال الظائمة على شرعته. و ذكر السلطان راجعا إلى الجبل، و اثقا بحصول الأمل. و انتهى إليه أن أتاك منكوبرس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٤

للخروج عليه مستعد، و أنه مستجد مستجد لمجاوريه، مستجد لعدة الحرب مستجد.

فأنهض أتاك قراسنقر إلى أصفهان ليكون على طريق دفعه، فسار و معه يرنقش البازدار، و جاولي الجاندار، و سنقر صاحب زنجان و هم العظماء الكبار. و هم أعضاء الدولة و أركانها، و ملاك مسكن المملكة و سكانها. و وصلوا إلى أصفهان، و كان القحط في الابتداء، فكانوا سبب الوباء و الغلاء. و أكلوا ما وجدوه من الرطب و اليابس، و ألحقوا الغنى بالفقير البائس.

قال: و أنا أذكر، و قد وصل قراسنقر و وزيره عز الملك أبو العز البروجردي، و كان من الشياطين الذين استتبعهم في عصره الدر كزيني، فقبض بقايا أملاكنا التي أسارتها المصادرات، و عمد إلى شمل جماعتنا ليسرع فيه الشتات، و أقاموا تلك الشتوة بأصفهان، ثم صح الخبر بوصول أتاكه منكوبرس، فعرف قراسنقر و الأمراء أنهم لا يطيقون مقاومته، فساروا إلى همذان، و لحقوا بالسلطان. و جاء منكوبرس إلى أصفهان، فخلفهم في الظلم و الإظلام. و رعى الغلال قبل إدراكها، و أعجل الأرقام عن امتسакها. و أقام مدة، و لقي الناس منهم شدة، و رحل في أوفر عدة و أوفى عدة.

فلما قرب من السلطان مسعود، تحاجز العسكران و باتا على لقاء موعود، و التقيا بالموضع المعروف بكورشنبه، و صدقا الوثبة. و كانت الدبرة في الأول على عسكر فارس، فأصبحت فوارسه فرائس، و أسر منكوبرس و أمر السلطان بقتله بين يديه، و كان شجاعا كريما فأسفت القلوب عليه. و كان الأمير بوزابه من أعظم أصحابه، و أفخم أضرابه، فلما رأى العزيمة، أجلت عن الهزيمة. قال: "إذا سلمنا فقد أبنا بالغنيمه" و حسب أن منكوبرس ناج و لم يدر أن نعيه له مفاج. فلما نعى إليه صاحبه، ضاقت به مذاهبه، و حلف أنه لا يبرح حتى يأخذ بثأره، و يستقيل من عثاره. فعطف على معسكر السلطان مسعود و قد أمن، و وفي له النصر بما ضمن و المضارب قد شيمت، و المضارب قد أقيمت، و السوابق قد أريحت، و السوابغ قد أزيحت. فبينما هم في أغفل حالة إذا هجمهم بوزابه و استخرج كل أمير من مضربه، و سد على كل كبير طريق مهربه. و ركب السلطان مسعود فأبلى بلاء حسنا، و لم يترك في الدفاع عن مهجته ممكنا. ثم ولي و معه قراسنقر هزيما تشله الرماح، هشيمتا تذروه الرياح. و حصل في قبضة بوزابه اثنا عشر أميراً، منهم صدقة بن ديبس ابن صدقة المزیدی، و الأمير عنتر الجاواني، و الأمير الحاجب الكبير أرغان، و أتاك سنقر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٥

صاحب زنجان، و محمد بن قراسنقر، و جماعة آخرون، و ما منهم إلا من قدمه، و أراق دمه، و شفى وتره، و وفي نذره. و ذلك في أواخر سنة ٥٣١هـ.

ثم قفل بوزابه إلى فارس و استولى على مملكتها، و استقر في ولايتها. و عاد السلطان إلى سريره، مسلما لقضاء الله و تقديره. و هو

الغالب و المغلوب، و السالب المسلوب. و قد بددت عقود سلكه، و بادت سعود ملكه. فجلس لما تم في المأتم، و عاد إلى ما ثم «١» من عادة المأتم. و اتخذ سواهم ندماء، و رفع غيرهم أمراء.

قال: و في أثناء هذه الفترة، كان خروج السلطان داود و معه الراشد. فجرى ما جرى و استشهد الراشد، و انعكست على داود المقاصد، و تمهدت لمسعود القواعد، و اتصل بعد ذلك الملك سلجق بأخيه السلطان مسعود، فأقطعه بلاد سكرمان من خلاط و أعمالها، و مناز كرد و أرزن، و أضاف إليه الأمير غز أعلى السلاحى مقطع تبريز، فقصدتها و استصفافها، فاستخرج أموالها و استوفافها. و أوسعها سببا و تخريبا، و سام أهلها ظلما و تعديبا. و ما زالت الدولة مضطربة، و الفتنة مضطربة، و أيدي الظلم عاثت، و ألسن الدم عابثت، حتى استجد السلطان وزيراً، استجد لمملكته تديبيرا. و حكم و أحكم، و نقض و أبرم. و هو الوزير كمال الدين محمد بن على الخازن من أهل الرى قال: و كان السلطان استعجز العماد أبا البركات، و وجده في تسكين الخطوب عديم الحركات. فصرفه إلى بيته على أجمل وجه، و لزم موطنه على رفق و رفة «٢». و لم يفلت وزير كإفلاته، و كانت الليالى بالسلامة كإفلاته. و شغلته العطله بصومه و صلاته.

و تولى الوزارة كمال الدين. و كانت وزارته في سنة ٥٣٣ هـ ببغداد، و في ديوان الاستيفاء كمال الدين ثابت، و في منصب الإشراف المهذب بن أبى البدر الأصفهاني، و في كتابة الإنشاء ولى الدين المعروف بسياه كاسه، و في منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الأصفهاني. فانشرحت الصدور، و انتظمت الأمور.

و رتب الوزير لخزانة السلطان أموالا تحمل إليها، و جهات توفر عليها. و أحيا معالم للملك قد دثرت، و نظم عقودا للمصالح انتشرت، و ابتدأ بكسر الجبارين، و جبر

(١) ثم: أصلح.

(٢) الرّفة: طيب العيش.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٦

المنكسرين. و قرر مع السلطان سرا، أن ينوى لقراسنقر شرا. و بذل لقراسنقر فى وزيره عز الملك أبى العز البروجردى خمسمائة ألف دينار على أنه يسلمه إليه، و يسلم يد الاقتدار عليه. فأعرض عنه، و ما قبل البذل منه. و بخل بصاحبه لمحض الكرم، و ما أسعد من اختار الصاحب على الدينار و الدرهم. فلما أيس منه أخاف السلطان من عواقبه و قال له "لا يجمع فى غمد سيفان. و لا يظهر لك مع تسلطه قوة السلطان." و قرر معه استدعاء بوزابه من فارس ليفرسه به، و يجر الخلاف إلى مذهبه. فاستوحش سر قراسنقر فأضمر الكيد، و أعمل الأيد. فاستدعى الملك سلجق و وعده بأن يمضى معه إلى فارس و يستخلصها لأجله، و حمل أيضا على النهضة معه داود بن محمود و أتايكه آياز، و كان من صنائع قراسنقر.

و رحل قراسنقر عن أذربيجان نحو السلطان مسعود إلى همذان و معه الملكان، و معه من العساكر عشرة آلاف. فلما قرب، أنفذ وزيره عز الملك البروجردى إلى السلطان رسولا، و تحدث معه و قرر رسولا. و حملته منه و من الملكين و من جماعة الأمراء كتبها مضمونها "إننا لا نأمن جانب الوزير الكمال، و إننا لا نصبر على ما يبدو منه من الأعمال، فإما أن تعدمه، و إما أن تسلمه، فإن دفعته إلينا فنحن طائعون، و إن دافعت عنه فنحن عن أنفسنا مدافعون." فلما سمع السلطان ما قالوه استقالهم فما أقالوه. فحار فى تديبيرة، و اضطر إلى تسليم وزيره. فقبض عليه و سلمه إلى الحاجب تثار فأوقع به البتار. و ضرب عنقه، و ذلك فى شوال سنة ٥٣٣ هـ. فحينئذ وصل قراسنقر و معه الملكان سلجق و داود إلى الخدمة السلطانية، و حمدوه على اتباع تلك الهمة الشيطانية.

و رتب قراسنقر الوزير مجد الدين عز الملك أبا العز البروجردى فى وزارة السلطان مسعود، و كان شيخا ذا بهجة و بهاء، و لهجة و رواء. و لم يزل منذ عهد السلطان محمد متصرفا مع أكابر الأمراء لم يبطل، و متحليا بالولاية لم يعطل. و ما زال متدرجا فى الولايات حتى بلغ الوزارة، و وجد بعد النزارة الغزارة. فإنه كان فى ريعان عمره يخدم شاكرا، و يستعذب فى كل أوان خدمة وزير و رذا. فتمول

الأموال، و ملك الأملاك، و قيل: إنه كان يجرى فى ملكه أيام وزارته أربعمائه قرية.

قال: فنكب الكمال ثابتا المستوفى و قبضه و أعدمه، و قيل: إنه خنقه، و أذهب بذهابه بهجة الملك و رونقه. و تولى منصب الاستيفاء

بعده المهذب أبو طالب بن أبى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٧

البدر، و لم يلبث فى منصب الاستيفاء شهرا حتى اختفى بدره فى السرار، و انتقل من هذه الدار إلى تلك الدار. و تولى مكانه ديوان

الاستيفاء الكمال أبو الريان الأصفهاني.

قال: و هؤلاء الذين تولوا الاستيفاء كلهم كانوا من صنائع العزيز و تلامذته، و كان فى ديوان الإنشاء سعد الدين الخراساني، و فى

منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبيد الله الأصفهاني. فأما أتابك قراسنقر، فإنه لما قتل الوزير كمال الدين محمد الخازن و

جلس وزيره فى وزارة السلطان، رحل بالملكين سلجق و داود إلى بلاد فارس. فلما عرف بوزابه حضورهم لجأ إلى قلعة كل و كلاب،

و هى بين خوزستان و فارس، و دخل الملك سلجق مدينة شيراز، و جلس على سرير الملك بها مسرورا، و نظم من المصالح ما كان

منثورا، و غفل عن القدر، فأنس بملكه مغرورا. و أراد قراسنقر أن يخلى عنده عسكريا يحمى حماه و يعدى على عداه. فحمل الأمير غز

أغلى السلاحى، و هو مقدم عسكري سلجق، حب التفرد و التوحد على إظهار الغنى عن ينجده، و أنه لا حاجة به إلى من يسعده. فقال

لقراسنقر: "أنا ما أحتاج إلى أحد، و لا أفتر إلى مدد" فاستحسن قراسنقر منه هذا العزم، و ترك الحزم. فصار غزأغلى مستقلا، و سار

قراسنقر مستقلا «١». و مضى صوب خوزستان، ليعبر منها إلى همذان. و سرح الملك داود جماعة من العسكرية على طريق سواها،

للنية التى نواها. فلما وصل عسكري مكرم لم يوافق الهوء الخوزى. فوقع فى القوم و فى دوابهم الموتان «٢»، و عجزت القدرة و تعذر

الإمكان.

فأقام على تلك الصورة بحسب الضرورة.

و أما الملك سلجق فإنه ظن أنه ملك، و أن خصمه هلك، و أن بوزابه على كل حال مملوك لا يقدم على المالك، و أنه إنما فر

لانسداد المسالك. و رجا أيضا من غزأغلى أتابكه أنه لا يخل بالتيقظ، و لا يخلى ما يجب عليه من التحفظ. و كان الأمر بالعكس، و

سقم حاله على النكس. فإن أتابكه اشتغل بالأكل و الشرب، و اللهو و اللعب. فبينما هو كذلك إذ هجم عليه بوزابه و على الملك

سلجق فقتل وفتك، و أسر و أوثق. و لم ينج من العسكر إلا القليل، و لم يعرج على الخليل الخليل. و قبض على سلجق و حمله إلى

(١) مستقلا: راحلا.

(٢) الموتان: الموت.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٨

قلعة أسفيددز و كان ذلك آخر العهد به، و لم يشك أحد فى عطبه. فتمكن بوزابه من ملكه، و جرى على المراد مدار فلكه. و

استشعرت الملوكة مهابته، و تجنبت الأسود غابته. فلم يركض إلى فارس بعدها فارس، و لم ينل الفريسة بها غيره فارس. و أما

قراسنقر، فإنه لما انتهى إليه الخبر، و علم أنه لا قدرة له على دفع ما نواه القدر، مضى على وجهه موليا، موليا أن لا يكون بعدها متوليا.

فلما وصل إلى بروجرد صادفه الخبر بأن مدينة جنزة و أعمالها قد خسف بها، و أن الزلزلة قد هدمتها، و أنها خربت حتى كأن الأرض

عدمها، و أن الكفار الأبخارية الكرجية هجمتها. و قد باد من أهلها مقدار ثلاثمائة ألف نفس، فأمروا الباقين إلا من احتمى بقلعتها، و

آوى إلى تلعتها. و ذلك مع تشعث سورها، و تهدم دورها. و أن الأموال نبشت، و أن الخبايا فتشت. فأغذ قراسنقر السير إليها، و كان

إيوانى بن أبى الليث - لعنه الله - مقدم عسكري الأبخاز، قد قرن الزلزلة الزلازل، و بالنازلة النوازل. و كان قد حمل باب مدينة جنزة، و

بنى مدينة سماها جنزة، و علق عليها ذلك الباب، و اغتتم غيبة قراسنقر عن البلاد فسمها العذاب. و ذلك فى سنة ٥٣٣هـ.

فلما وصل قراسنقر، عادت دولة الدين، و عادة النصر و التمكين. و ظهر أهل التوحيد على أهل التثليث، و نعث الطيب بعثار الخيث. و واقعهم قراسنقر فهزمهم و ثلمهم، و قتل منهم مقتلة عظيمة، و خرب البلدة المستحدثة و أعاد باب جزرة إليها، و أعادها فى العمارة إلى أحسن حالاتها و أجمل هيأتها. و كان من جملة من هلك بها، زوجته بنت الأمير أرغان و أولاده، فاستولى عليه الهم و علق به السل. و بقى مدة يتداوى و لا يبيل. و توفى سنة ٥٣٥ هـ بأردبيل، فأكثر المسلمون عليه العويل، و عدموا عنه البديل. قال: و كان لما اتصل به أجله، و انقطع عن الحياة أمله، أحضر جاولى الجاندار و نصبه مكانه، و سلم إليه ابنه و جنوده و سلطانه، و وصى إليه بقطع دابر الكفار، و مواصلة بر الأبرار. فتولى ولايته، و وصل بنهايته بدايته. و أنفذ إليه السلطان مسعود الخلع و العهد، و أجزل له العطاء و الرغد. و قرر عليه جميع أعمال قراسنقر بأرانية و أذربيجان، و ولاه تلك المعقل و المدن و البلدان، و نهض الأمير جاولى فى السنة الثانية إلى خدمة السلطان، فقبل البساط و بسط له القبول، و عرض هداياه و تحفه و طرفه و الحمول. فضاق الفضاء الواسع بمضارب جنوده، و خفقت القلوب لهيبة خواق بنوده.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٠٩

و اتصل الأمير عباس صاحب الرى، و نشر من المودة بينهما ما كان فى الطى. و توافقا و توثقا، و نظمتها طاعة السلطان فى سلك المصافاة.

و كان الأمير عباس من مماليك جوهر خادم السلطان سنجر، و الرى فى أقطاعه، و قد نفذه إليها واليا، و كان أمره بها عاليا. فلما قتل صاحبه بفتك الباطنية به، ثار عباس للثأر، وجد فى طلبه، و استولى على الرى و أعمالها، و تفرد بحيازة أموالها. و قوى على السلطانين سنجر و مسعود، و استظهر بمن معه من جموع و جنود. و بمن اتصل به من مماليك الأمير الأجل صاحبه، و كانوا زهاء أربعة آلاف فى عدد كثير و جمع كبير.

و قصر عزمه على قصد الباطنية و كبسهم فى مواطنهم، و بيتهم فى أماكنهم، و قتل منهم مدة ولايته أكثر من مائة ألف، حتى بنى من رؤوسهم بالرى منارا أذن عليه المؤذنون، و أخاف القوم، فما كانوا فى عصرهم يأمنون المنون، و كان ذا هممة كافلة للرعية بالمعونة، فرضى السلطان بإيالته، و أقره على ولايته.

و لما اتصل جاولى الجاندر بخدمة السلطان وجده حاضرا، و ألفى روض الرضى به ناضرا. و كان الأمير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك، الحاكم على الدولة، المهيب الصولة. و كان وسيما جسيما، للسلطين قسيما. لا يرى إلا برأيه. و لا إجابة إلا لدعائه. و كان الأمير بك أرسلان خاصبك بن بلنكرى أخص الناس بالسلطان و أعلقهم بقلبه، قد اختاره منذ شعف به على صحبه. و لما كبر، كان أكبر الأمراء، و أعظم الكبراء. و اجتمع هؤلاء الأكابر تلك السنة بالحضرة، و الدنيا بالنعيم لهم بادية النضرة. و حمل فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك الأمير عباسا على مباينة عز الملك الوزير، و معارضته فى التدبير. و أطمعه فى تولية نائبه الجمال الجاجرمى فى الوزارة، و كان شابا مقبول الحركة، مأمول البركة. يرجع إلى توسع فى المروءة، و ترفع فى الفتوة. فاستحكم طمعه فى المنصب، و قوى قلبه بمساعدة الأميرين عباس و ابن طغايرك، فتحمل و تجمل، و جد و جاد، و استجد استجد، و قرب أن يتم مراده و كاد.

فتعصب الأمير جاولى للوزير عز الملك، و أعاد نظم جاهه إلى السلك. و ساعده خاصبك على مساعدته، فاستقام أمر الوزير، و أجمع الجميع على إبقائه، و اتفقت الكلمة على أنه لا مضاهى له فى مضائه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٠

و رحل السلطان إلى بغداد رحلة الشتاء، و استصحب جماعة الأمراء، و عاد عباس إلى الرى. قال: و أنا أذكر وصولهم إلى بغداد فى هيبة عظيمة و هيئة و سيمه فى سنة ٥٣٦ هـ.

قال: و خطب جاولى بنت عبد الرحمن بن طغايرك، و تمت بينهما المصاهرة، و تأكدت ما بينهما المظاهرة. و عاد جولى إلى بلاد

أزانية و أذربيجان مشد الأمر، قوى الظهر، مستبشرا بما تأكد بينه و بين الأمير الحاجب الكبير عبد الرحمن، من عقدى الوصلة و الأخوة و أقام السلطان ببغداد تلك الشتوة، متوفرا على نيل الطرب و قضاء الشهوة. مستهما بإدناء الدنان، و اقتناء القيان. و تقريب المساخر، و إبعاد ذوى المفاخر.

متكلا على السعادة فى دفع الأعداء، فإنه لم يزل، كاسمه مسعودا، و لم يتصد لعداوته إلا من كفى الله شره فأصبح عنه مصدودا. قال: و كان الأمير سعد الدولة يرنقش الزكوى، من أكابر الدولة و قدمائها، و أكابرها و عظمائها. و متولى وزارته يمين الدين المكين أبو على العارض، و له الفضل المستفيض و الإفضال الفائض. و كان سعد الدولة يرنقش متولى أصفهان، و الأمير غلبك نائبه، و سعد الدولة للمعسكر غير مفارق، و لما لا يوافق رضاء السلطان غير راض و لا موافق. فكانت أئبه الملك بمقام أئبه قائمه، و نصره الإقبال بدوام نظر إقباله دائمه.

و كانت الخدام الجبوش لهم الجبوش، و الأشيرة و العروش. منهم نجم الدين رشيد، من مشايخهم و أكابهم، و جمال الدين إقبال الجاندار، و شرف الدين كردبازو و مسعود البلالى، و دونهم فى الرتبة عماد الدين صواب، و شمس الدين كافور، و أمين الدين فرج الدووى، و أمثالهم. و هم عصبه فيهم عصبية على الشافية، و يتقربون إلى الله بما يوصلون إليهم من الأذية. و نكبوا أصحاب الشافعى بأنواع البلاء فى جميع البلاد، و خصوصهم بالطراد و الإبعاد. و حاولوا إخفاء مذهبه فتعالى ظهورا، و أرادوا إطفاء نوره فما زاده الله إلا نورا.

قال: و نكبوا رؤساء المذهب فى كل بلد، و لم يبقوا منهم على أحد. فمنهم أبو الفضائل بن المشاط بالرى، و منهم أبو الفتوح الاسفراينى ببغداد، و منهم بنو الخجندى بأصفهان. و دخل فى مذهب أبى حنيفه جماعة طلبا للجاه، و خوفا منهم لا من الله. و من جملتهم: القاضى عمدة الدين الساوى. قال: و كان وزير الخليفة المقتفى لما تولى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١١

شرف الدين على بن طراد الزينبى، و كاتب الإنشاء سديد الدولة بن الأنبارى، و صاحب المخزن كمال الدين بن طلحة. و تزوج الإمام المقتفى بأخت السلطان مسعود فاطمة خاتون، و عزل شرف الدين الزينبى عن وزارة الخليفة فى سنة ٥٣٤هـ، و سببه أنه استشعر، فمضى إلى دار السلطان معصما، ثم لزم بعد ذلك داره محترما. و تولى الوزارة نظام الدين أبو نصر بن جهير، و كان الاستيلاء بالعراق لأصحاب السلطان، و ليس لأحد بكفهم يدان.

قال: و فى سنة ٥٣٥هـ خرج الكافر الخطائى و استولى على ما وراء النهر، و كسر السلطان سنجر أشد الكسر و وقع عظماء مملكته فى الأسر. و فى سنة ٥٣٨هـ قتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه بأيدى الملاحدة بتبريز غيلة، و عاش أيامه من شريد الدهر شريدا. و لم يسترح ليلة. و كان قد زوجه السلطان مسعود بنته، و ألقعه بتبريز ملازما لبيتته، قاعدا فوق تخته تحت بخته. و لما خانته فى المبدأ السعادة، و فت له فى العاقبة الشهادة. و قيل: إن الأمير زنكى بن آق سنقر وضع عليه من حشيشة الشام من فتك به، فأمن على بلاده بسببه. و ذلك أن السلطان مسعود، كان قد عول على أن يسير داود إلى الشام، و يحفظ به ثغور الإسلام. ففزع زنكى و جزع، و سقط فى يده من حديث الحادث الذى وقع. و خذله الأيد و لكن نصره الكيد. و وصل خبره إلى بغداد، فعقد له فى دار الخلافة مجلس العزاء ثلاثة أيام بحضور أرباب المناصب، و عدت المصيبة بقتله من أفجع المصائب.

و فى سنة ٥٣٩هـ، رحل السلطان مسعود إلى أصفهان، و كانت دار السلطنة قد تشعث فشد منها الأركان. و تغير رأيه فى الوزير عز الملك البروجردى فعزله. و لم يستبق العزلة و استصفى ماله، و شغل بوباله سره وباله. و استوزر مؤيد الدين المرزبان ابن عبيد الله الأصفهانى، و نقله إلى الوزارة من الطغراء. و كانت له زوجة من جوارى مسعود، تركية سليطة متسلطة، حاكمة عليه متبسطة، فتسلم عز الملك و سلمه إليها فخنقته، بعد ما عذبتة و علقتة. فقتل مثل القتل التى قتل بها الكمال ثابتا. و كل من كان حاسدا له على منصبه عاد شامتا. و كان عز الملك البروجردى شيخا بهيجا بهيا، قد جاوز الثمانين سنة، و مع شيخوخته يقطر ماء النضارة من محياه، و كان فى

السعادة سعيدا في محياه. و كان في أيام وزارته مرهوب الغرار، مشوب النار. و كان نائبه في

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٢

الوزارة نجيب الدين عبد الجليل السهم المصيب، و الشهم المهيب. و السيف الذي يفري و يقصل، و يبرى و يفصل، بيت الأصول و يستأصل البيوت، و يستنزل من الجو العقاب، و يستخرج من قعر البحر الحوت. و قد ضربوا على بغداد الضرائب و مكسوا المكاسب.

قال: و كان رضى الدين أبو سعد مستوفى السلطان، البعيد من الشين البديع الشان. ممن يغشاه والدى بسبب خدمته لأخيه العزيز في أيامه. و كان ربيب إنعامه، و كان من أوسع صدور ذلك العصر صدرا، و أقلهم شرا. و كان نائبه كمال الدين أبو الريان الأصفهاني من تلاميذ عمى العزيز و غلمانه، و لم يكن أعرف منه بقانون الاستيفاء في زمانه. لكنه كان خاليا من الأدب عاليا مع نقصه في أكمل الرتب. و هو صورة بلا-معنى، و حسن بلا-حسنى. و برق بلا-وابل، و طول بلا طائل. و كان عز الملك الوزير مع جهله و شدة بخله، ربما نسمت له ريح أريحيه، و سمنت بغيته روح تحية. و من جملة ذلك أنه كان بالعراق عميد رازى تولى سنه، و اكتفى ثروه. و استقنى و استغنى، و حبا و جنى و خبى. فلما جاء السلطان قيل له: "اعمل حسابك" فأحضر المشرف و كان يعرف بابن الحكيم من أهل بغداد، و قال: "أريد أن تدع المكر منك. و تدعو مكرمتك، و تهتم بأمرى و تستأمر همتك، و تحسن الحسبه، و تحتسب الحسنه. و تكف بكفايتك عنى الأيدى و الألسنه" فقال المشرف: "أنا لا أجسر أن أستر. و لكل ما أذكر لا بد أن أذكر. و على أن أخفى كثيرا مما خفى من الجنايات و الجبايات، و الاجتذابات و الجعالات. و لا بد أن أجمع ما أخذته من المرافق الوافرة، و الفوائد الظاهرة." و اتفقا على إسقاط مبالغ حتى تقرر ذكر خمسين ألف دينار. فبذل له ألفى دينار، على أنه يذكرها في الحشو و لا يبرز بها، لعل الوزير يغفل عنها، و لا يؤاخذ بسببها. فأبى إلا إيرادها، و تخصيصها بالذكر و أفرادها.

قال عماد الدين: حدثنى المشرف بن حكيم قال: دخلنا بالحساب إلى الوزير عز الملك، فأول ما وقعت عينه في الجموع، على المبلغ المرفوع. فقال: ما هذا؟ فقيل:

الرسوم التى أخذها، و المرافق التى اجتذبتها. فضرب عليه بقلمه و قال: "كيف تجيزون أن تجمعوا عليه ما ارتفق به من رسومه و خدمه. هذا له معلوم، و حصلت له رسوم.

فليس من المروءة أن نستعيدها و ما فوض إليه الشغل إلا ليستفيدها." قال: فخرجنا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٣

نحسب أذياننا، أنا للنجل، و العميد للجدل، و قد رد إلى العمل. فأخذ بيدي و ناولنى صرة فيها ستمائة دينار، و قال: "هذا ما جعلته باسمك، و ما ضررتنى أمانتك، فأجر فيها على رسمك."

قال: و لما جلس مؤيد الدين المرزبان في الوزارة، بدأت الأمور في الاختلال، و العقود فى الانحلال. و كان قد قنع من الوزارة باسمها، و من المرتبة برسمها. و كان يروق الناس ببشر المحيا. و يروقه الأوس بشرب الحميا، لا ينافر إلا الغوانى، و لا ينافى إلا الأغانى. و كان وزراء الأمراء قد غلبوا على أمره، و بلغوه إلى قدره. فما له قول مسموع، و لا طول متبوع. و لا هو مشكور و لا مشكوك، و لا مخشى و لا مرجو.

و خاصبك بن بلنكرى هو الأمر الناهى، و هو داهية من الدواهى. و كان وزيره رئيس الدين أبو تغلب بن حماد السهروردى، العبيق برياً الرياسة، اللبيق برأى السياسة، قد استولى على الأمر و احتوى، و تمكن من ورد الملك و ارتوى. و كل أمر لا ينفذه لا ينفذ. و كل حق لا يأخذه لا يؤخذ. و كان كصاحبه مسعودا مصحوبا بالسعادة، ممدودا من المال و الجاه بالزيادة.

قال: و كانت قد تأكدت بين الأمير عباس صاحب الرى، و بين الأمير بوزابه صاحب فارس صداقة صادقة، و مودة أحوالها الحوالى متناسقة. فطمعا فى المملكة، و زعما أن البركة فى الحركة. و قال: "إن العرصه خالية، و الفرصة باديه. و هذا وقت الارتماء إلى العرة، و الامتراء للدره." فكتب بوزابه إلى السلطان أنى واصل إلى خدمه السرير، و خرج من شيراز بالملكين محمد و ملكشاه ابنى السلطان

محمود بن ملكشاه، و خرج عباس من الري بالملك سليمان أخى السلطان مسعود. و كتب أيضا " :أننى واصل إلى جنابك، لملازمة ركابك. "فحمل السلطان قولهما على الظاهر، و خاف ما خفى فى الباطن من الباطل. و عرف أن أمره معهما غير مستقيم، و أنه إن رحلا إليه فهو مقيم. فكتب إلى جاولى الجاندار يستدعيه، فوجده متجنيا متجنبا بالقبض على الوزير عز الملك من غير مشاورته، و قلة أكثرانهم به و ترك مراقبته فى مصادرتة.

فلما شعر السلطان بتأخيرها، استشعر حذره و ورى عن الهزيمة برحلة الشتاء إلى بغداد، و حث السير بالإغذاذ. و معه من الأكابر عبد الرحمن بن طغايرك، و خاصبك ابن بلنكرى. و وصل بوزابه و عباس إلى همذان على ظن أنهما يجتمعان بالسلطان، و هما تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٤

مبديان للطاعة مخفيان للعصيان. فأقاما بها شاتين، و اتصل بها الأمير ناصر الدين خطبة البازدارى، و كان ليثا خادرا، و قسورا قاسرا. و كتبوا إلى الأمير جاولى الجاندار بأذربيجان و قالوا له " :أنت الكبير، لك التدبير. و نحن أتباعك و أشياعك، فإن قدمت إلينا، قدمت علينا. و كنت صاحب جيوش من ينتصب على سرير الملك، و انخرطنا معك طائعين فى السلك. " فرد جوابهم بجميل، و أعاد رسولهم بتأميل. و اشتغل بحشد الجموع و جمع الحشود، و حشر الجنود و نشر البنود. و اتصل به أتاكك آياز، و كان أتاكك داود فى حياته و هو مشكور الغناء فى مقاماته، و عضده الأمير شيرين آق سنقر فأظهر حينئذ النهدة إلى همذان، و النهضة إلى الناهضين المتسلطين على السلطان، فوجد الطريق مسدودة بالثلوج، فأقام بعسكره مجمعا، و للنهوض عند انحساء الثلوج مزما.

و تطايرت كتبه إلى بغداد لاستدعاء السلطان إليه، و استقدمه عليه. و السلطان فى بغداد ساه بسهوه، لاه بلهوه، زاه بزوهه. فلما تنبه من وسنه، ندم على خلع رسنه، و رجع من الحزم إلى سننه. و لى نداء جاولى و أجاب دعوته، و عزم على الرحيل إليه و سار على الدر بند القرابلى إلى المراغة فى أوعر طريق، و أعسر مضيق. حتى اتصل بالأمر جاولى، فكثف من العدد الجمع، و كثر من العدد اللمع. و أعجب السلطان الحال و حل به العجب، و انقلب إلى القوة و قوى منه القلب.

فحسدت الجماعة جاولى و غبطوه، و تحيلوا فى أن يقبضوا عليه و يربطوه. فإن ابن طغايرك مع مصاهرته له كان بإمكانه متبرما، و كذلك خاصبك كان من استيلائه متوهما. فأجمع الأمراء و احتالوا لاغتياله فى سرادق السلطان فاطلع على السر، و وقع على مكر المكر. فاحترز منهم، و تقبض عنهم، و أراد أن يبطش بهم كما أرادوا البطش به، ثم جرى فى الحلم و الكرم على حسب مذهبه و قال للسلطان " :أنا على مناصحتك، و فى منى صحتك، و لا يجمعنى و إياك بعد هذا ناد، و لا يسمع تليتى فيه مناد. "فما اجتمع السلطان و جاولى بعد ذلك إلا راكبين، منفردين عن العسكر متجانين. و قال للسلطان " :إن أردت تدانى أمنى، فتباعد عنى، و دعنى انهض بعساكرى إلى أعدائك، و أذكرهم بحقوق نعمائك فإن أتوا قبلتهم، و إن أبوا قتلهم، و إن اتبعوا سررتهم. و إن ساروا تبعتهم. "

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٥

فاعتذر إليه السلطان و استماله، و استعفاه من ذكر ما جرى و استقاله. و حكمه فى الحل و العقد و الإقطاع و أمر الجند و الأمراء بالانتمار لأمره، و سر بسروره سره.

و شرع جاولى فى مكاتبة الملك سليمان و خدعه، و رده عن المقام مع القوم و ردعه. و توثق له من السلطان بيمين، و سير نسخة أمال له مع أمين ففارقهم. و انفصل و انفصم عنهم. و وصل أيضا خوارزمشاه يوسف و أخوه، فاتبعهما للتوجه الأعيان و الوجوه.

و لما عرف بوزابه و عباس تعذر ما حاولاه و تعسر ما زاوواه. و تفرق الجند الذى جمعا، تفارقا على مواعدة فى معاودة الجمع، و ودعا على مواعدة مودعة للطاعة و السمع.

و عزم كلاهما على الرجوع إلى بلده بنية الرجوع، و الغروب فى أفقه على استئناف الطلوع.

و كان السلطان عند اتصال أخيه سليمان بجانبه، و استظهاره بكتائبه، علم أن بوزابه و عباسا يفترقان، و أنهما يعدان بأنهما يعودان. فرحل بالعسكر إلى مدينة سجاس مع جاولى على عزيمة الإسراع و الإتياع. و السلطان و خواصه على حالة من الارتياب و الارتياح. فقال لجاولى: "انهض أنت وراء بوزابه، فالعسكر و الشوكة معه، و الرأى مسيرى إلى الرى لألقى عباسا و أقمعه." فمضى جاولى إلى همدان، و عمد مسعود نحو الرى، فحصل من وردها بالرى و غنى بالسعادة عن استعمال المشرفى و السمهرى.

و قبض سليمان شاه أخاه و حبسه فى قلعة سرجهان، و تلقى ما صعب بالاحتمال و الاحتماء فهان.

و لما علم بوزابه أن جاولى جاء، ولّى و خلّى همدان، و ترك أثقاله و خزائنه بها و سار، فسار جاولى وراءه جريده. و قطع حتى وصل إلى القرب مراحل بعيدة. فلما دنا منه أبدى البقيا عليه، و أسدى الحسنى إليه. و قال: "اتخذ اليوم عنده يدا، لينجذنى عند الحاجة غدا. فهذا السلطان غير موثوق بموآثيقه، و لا موفق فى تسديده و تفويقه."

و ذكر غدره بأخيه سليمان شاه، فكتب إلى بوزابه و هو على حد الهزيمة كتابا مضمونه "،إنى مصدقك و مصادقك. و موافقك لا مفارقك. و خاطب حبك، و طالب ودك، و قد صرت من حزبك، و ما سرت لحربك."

فاعتمد بوزابه على قوله، و اعتد بطوله. و ملأ- أيدي الرسل بالأيادى أرسالا، و قال حسنا و حسن مقالا- و أعاد ما كتب بما كتبت الأعدى، و ذكر: "إنى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٦

أحببت الداعى و لبيت المنادى، و لم يبق الآن إلا التعاهد على الجدد، و التساعد على العهد، و علامة صدقك فى صداقتك أننى خلفت خزائنى ثلاثين وقرا من المال الصامت بهمدان فى دار الأثير أبى عيسى، فإن رأيت أن تأخذها فخذها. و إن سمحت بإنفاذها فأفئذها. لتعلم أنى مستوثق منك بشفيق مسترقق لشقيق. "فعاد جاولى إلى همدان، و تسلم من الأثير أبى عيسى المال. و سير على جماله تلك الأحمال، و ندب معها مائة فارس من عسكره إلى أصفهان و كتب إلى الأمير غلبك واليه، أن يضم لحفظها إلى فرسانه الفرسان. فلما وصلت خزانه بوزابه إليه عقد على الود الخنصر، و زكى فى الوفاء و الوفاق منه العنصر. و تعاقد على المعاهدة، و تعاهدا على المعاودة. و ابن بوزابه يأتى بالملك محمد بن محمود متى أراد، و أن يجعلاهمتهما الجمع و الاحتشاد. و عاد كل واحد منهما إلى مركزه، و احتمى على السلطان بتعززه. و تأكدت بين جاولى و بين السلطان الوحشة، و دبت إلى أعضاء المملكة بسبب فتور أعضادها الرعشة. و اعتلت النقائد، و انحلت المعاهد. و لما تمادى الأمر، تبدى السر و وقع الشر. فأفئذ جاولى الأمير تثار إلى بوزابه بفارس يستنجزه الوعد، و يستنجح منه القصد. و أقام بميانج و معه جميع أكابر الأمراء، و الرسل تترى منهم إلى الأمير تثار، لاستحثاث بوزابه بالاستدعاء.

و أقام جاولى مدة ينتظر، و فى تدبير الملك يفكر. فكان من قضاء الله ما لم يكن فى حسابه، و دنا الأجل الذى فى كتابه. و كان فخر الدين بن طغايك لما عرف توجه الأمير تثار إلى فارس لاستنهاض بوزابه، شخص إليه بنفسه من جانب السلطان ليصده عن الورد، و يرده عن الصدود. و تمادى على جاولى المقام له بظاهر ميانج، و اجتمعت عليه العساكر العظام، و ازدحف الليف و التف الزحام. و كان فى اثنى عشر ألف دارع، و كانت معه عساكر أزانىة و أرمينىة، فخيّم على زنجان، و حتم على عزم همدان.

و كان بيد أيده زمام الزمان، و هو أصم عن حديث الحدثان. و كان قد افتصد لغير مرض عرض، ثم على تصرف عادته بيده فبسط و قبض و نزع فى قمس فتألم عرقه و تورم، و دجا أفقه و أظلم. و كان سريان الورم من شريانه، و سعد فيه الدم بعد جريانه، و تجاوز من عرقه إلى حلقه و صدره، و انتقل إلى بطن الثرى من ظهره. و كانت وفاته بزنجان فى جماد الأول سنة ٥٤١ هـ، و فى ذلك يقول زين الدين المظفر بن سيدى الزنجانى من قصيدة:

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٧ عشرون ألف مهند قد أصلت فلّت مضاربها نكايه مبضع و قيل: إن فى الليلة التى توفى فيها جاولى الجاندار قتل زكى بن آق سنقر بالشام، و كان كلاهما قطبا يدور عليه فللك الإسلام.



قال: و الصحيح أن زنكى بن آق سنقر، قتل فى شهر ربيع الآخر من السنة، على قلعة جعبر قبل موت جاولى بأيام، و لكن تدانى موتهما، و تنادى فوتهما. و من قبلهما كانت وفاة سعد الدولة یرنقش، و وفاة قزل أمير آخر، و كان قد قتل من قبل ناصر الدين قتلغ آبه البازدارى فتقاربت منايهم، و تبدلت نفودهم بنسيانهم. و صاروا أسمارا، و عادوا أخبارا. و لما اخترم جاولى انحلت تلك المعاهد، و اختلت تلك القواعد.

و تفرق ذلك الجمع، و تشوس ذلك الوضع. و عاد كل طائر إلى و كره، و كل صاح إلى سكره. و آمن السلطان من أمله، و أقبل إليه من قبله، و عاد الأمير تثار إلى السلطان لبوزابه متوسطا، و لتمكينه مشترطا. و كان ذلك برأى الأمير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايك، و عملت سعادة السلطان عمله، و قدر الله ما لم يجز بخاطره أمله.

قال: و حيث أجرينا ذكر زنكى بن آق سنقر و قتله بالشام فى التاريخ الذى توفى فيه جاولى جاندار بزنجان، فإننا نذكر جملة من أموره، إلى أن قضى الله عليه بمقدوره.

### ذكر زنكى بن آق سنقر فى آخر عهده

قال: كان جبار عسوف، بنكباء النكبات عسوف، نمرى الخلق، أسدى الحق، لا ينكر العنف، و لا يعرف العرف. قد استولى على الشام سنة ٥٢٢ هـ إلى أن قتل فى سنة ٥٤١ هـ، و هو مرهوب لسطوه، مجفوّ لجفوه. عاد عات، حتف عداة و رعاة.

لكنما ختم الله له فى آخر عمره بالسعادة و بالشهادة، و وفقه للجهاد الذى هو أفضل أركان العبادة. و هو الذى فتح الرها عنوة، و احتل بها من السعادة ذروة، و ذلك يوم السبت السادس و العشرين من جماد الآخر سنة ٥٣٩ هـ فتسنى بفتح الرها للمسلمين، جوس بلاد جوسلين، و عاد جميعها إلى الإسلام فى عهد ولد زنكى نور الدين، و صارت عقود الإفرنج من ذلك بعد فتح الرها نزل على حصن البيرة و هى

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٨

على الفرات، و هو مشحون بالفرنج العتاة. فجاءه الخبر بأن نائبه بالموصل و هو نصير الدين جفر قتل، فترك الحصار و ارتحل.

### ذكر مقتل جعفر نائب زنكى بالموصل

قال: كان مع زنكى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، أحدهما يسمى ألب أرسلان، و هو فى معقل من معاقل سنجار، و الآخر يسمى قَرخشاه، و يعرف بالملك الخفاجى و هو بالموصل. و كان هذا الملك مسلما إلى الأمير ديبس بن صدقة فانترعه منه زنكى فى حرب، و أنزل من إكرامه فى منزل رحب.

و كانت الخاتون السكمانية زوجة زنكى تربيته و تبرّيه، و تجرى به فى حلبة تجريبه و تجزيه. حتى بلغ و أدرك، و ساكن فطنته تحرك، و فهدته المرأة غير مرة و أنهدته، و عاهدته على الوفاق و على الوفاء عهدته. و تأسد الشبل و ضاق به عرينه، و شمش عرينه، و كان نصير الدين جفر نائب زنكى بالموصل للدماء سفاكا، و بالنفوس فتاكا، يأخذ البرئ بالسقيم، و يلحق الولود بالعقيم. و قيل: إنه لما أحكم سور الموصل، و احترز بالحفظه منه على المخرج و المدخل، و أعجبه كمال إحكامه، و ملاك أحكامه ناداه مجنون نداء عاقل و قال: "هل تقدر أن تبني على الموصل سورا يسد طريق القضاء النازل؟" فدار المنجون «١» بتصديق ما قال المجنون، فإنه لما أحس من الملك نحس الملك صار يقبض عنانه، و يبسط فيه لسانه، و يقول: "إن عقل و إلا عقلته و إن نقل طبعه و إلا نقلته." فسمع الملك ما راعه و أسره فى نفسه و ما أذاعه. فقدر و دبر، و فكّر و مكّر، و جمع إليه من حوله، و قال لهم فكنتموا قوله. و اتفقوا على أنه إذا جاء إلى سلام خاتون أو سلامه، أحيط به من خلفه و من قدامه. فإذا أصابوا منه المقتل ملكوا الموصل.

فركب نصير الدين بكرة على عادته، و هو يزعم أن إدارة الفلك بإرادته، و اخترق المدينة و وصل إلى الدار التى فيها الملك للتسليم،

فملك حشاشته حاشية الملك، و قطعت سلك حياته فى طريق الدهليز المنسلك. و مزقوه بسيوفهم و مزعوه، و ضربوه بسكاكينهم و بضعوه، و نادوا بشعار الملك و أركبوه. و ذلك فى أواخر سنه

(١) كذا فى الأصل و لعلها النججون من نججج بمعنى تحير و اضطرب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣١٩

٥٣٩هـ. و تشوش البلد و خاف أهله العاقبة، و حذروا من زكى سطواته المعاقبة.

فخرج القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله الشهرزورى، و جاء إلى الملك و هنا، و سهل له الصعب مما جناه، و قال له "نحن قدامك، و قد صرنا مماليكك و خدامك، فسر فى المدينة و اسلكها، و ادخل القلعة و املكها." فركن إلى قوله، و سكن بحوله. و أحدق به الجند كأنهم فى خدمته، و صوبوا له سداد عزمته. حتى صعد إلى القلعة فأجلسوه فى المركز، و أحاطوا به إحاطة الدائرة بالمركز، و التقطوا مماليكه من حوالبه و أفردوه و احتاطوا عليه، و لم ير له بعد ذلك أثر، و لم يسمع له خبر. و لا شك أنه بعد ما احتيل عليه اغتيل، و بعد ما استنزل أزيل.

و ولى زكى الموصل بعد جفر زين الدين على بن بكتكين، المعروف بعلى كوجك، فنظم السلوك و نهج المسلك، و تلافى و استدرك. و وصل زكى بعد ذلك إلى الموصل فاستصفى أموال جفر و استخرج ذخائره، و استنظف أوله و آخره، و صادر أهله و أقاربه، و أحل بنوابه نوابه و سلبهم القوة و القوت، و نوع عليهم جوره الممقوت. ثم عطف زكى على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، و عنى بتفاصيل أمره و جملة، و ضرب له نوبته و نوبته، و رتب له فى حالتى جلوسه و ركوبه رتبا، و أغرى بتولى إكرامه و توخيه، و غرضه خفاء ما جرى من هلاك أخيه. و قصد حصار قلعة جعبر، و صاحبها عز الدين على بن مالك بن سالم بن مالك و نازلها، و قابلها و قاتلها، و أحاط بسورها المعصوم إحاطة السوار بالمعصم، و ربض على ربضها فى مجثم المخيم.

و لج فى الحصار و هو مستظهر بالأنصار، مستنصر بالاستظهار، و متكثرا بالاستعداد معتد بالاستكثار، مغرور بالدهر، مسرور بالقهر، يظن أن القضاء بحكمه، و أن القدر خصم خصمه. و أهل الحصن قد أشفوا منه على الدامغ الدامر، و قد بلوا من وبل و باله بالهامل الهامر. فأتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا، و وافاهم الفرج من حيث لم يكتسبوا.

و ذلك أن زكيا كان إذا نام، ينام حول سريره عدة من خدامه، يشفقون عليه فى حالتى يقظته و منامه. يذودون عنه ذود الآساد فى ملاحمه، و يزورونه زور الخيال فى أحلامه. و هم من الصباح الروق فى حسن الصباح لدى الشروق. و هو يحبهم و يحبهم، و لكنه مع الوفاء منهم يجفوهم و هم أبناء الفحول القروم، من الترك و الأرمن و الروم. و كان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه و أقصاه، و استبقى ولده عنده

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٠

و خصاه. و إذا استحسن غلاما استدام مروديته بالخصى و السيل، و فاجأه و وجأه بقطع النسل. فهم على أنهم من ذوى الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص. فنام تلك الليلة إليهم مستنهما، و للوثوق بهم مستديما. و هو صريع الراح، نزيه الأقداح. فغلبه نعاسه و ملكه رقاد، و حوله مماليكه مرده و مراده. فانتبه و هم قد شرعوا فى اللعب، و أخذوا فى الشراب و الطرب. فزبرهم و زجرهم، و منعه السكر من الكلام حين أبصرهم. فحرك رأسه يتوعددهم، و هينم بلسانه يتهددهم، و لم يدر أن تحريكه للرأس سبب قطعه، و أن نزوله على القلعة بالنازلة خاتمة قلعه. فتولى كبيرهم الأمر و الباقون ساكتون، و تحرك و رفقاؤه ساكتون. و كان اسمه يرنقش فخف إليه، و برك عليه، و فرش على فراشه، و غشيه فى غشاشه. و ذبحه فى نومه، و لم يغن عنه ذب قومه. و خرج و معه خاتمه، و هو لا يرتاب به لأنه خاص زكى و خادمه، و ركب فرص النبوة موهما أنه فى مهم، و قد ندب لكشف ملم. و أهل القلعة فى أضييق شدة و أشد ضيق، و كلهم لبأس المطيف بهم غير مطيق. حتى أتاهم الخادم فتحدث بما أحدث، فأشاعوا قتل زكى من القلعة، بهم غير مطيق. حتى أتاهم

الخادم فتحدث بما أحدث، فأشاعوا قتل زنكى من القلعة، وارتاع الناس لما هالهم من الروعة، وركبوا ولبسوا السلاح، وركبوا تلك الليلة لأمرهم إلى الصباح. و زحف بعضهم إلى خيمة جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور، فرمى بالنشاب، و حصل من أمره فى الاضطراب. فقصد من حماه من الأمراء، و شاركه فى تصويب الآراء. و اتفقوا على أن يبادر نور الدين محمود بن زنكى إلى الشام، للحوطة على ثغور الإسلام. فسار معه أولياؤه، و كبراء الشام و أمراؤه، و كبيرهم صلاح الدين محمد اليبسانى، و سار معه أسد الدين شيركوه، و انحازت إليه الأعيان و الوجوه. فملك حلب، و بلغ المراد و غلب، و افتض الفتوحات الأبكارة، و استخلص من الكفار الديار.

و أما الوزير جمال الدين محمد بن على أبى منصور، فإنه لما بعد عنه من كان يحذره، و عرف الأمر ممن كان ينكره ضم العسكر و استتم الملك ألب أرسلان و أطمعه فى المملكة، و حثه على الحركة. و كاتب زين الدين على كوجك بالموصل، على أن يستدعى سيف الدين غازيا، أكبر أولاد زنكى، و كان لا يفارق خدمة السلطان مسعود بأمر والده، أمنا به من غوائل القصد و مكايده. فكتبوا إليه بالواقعة، و أشاروا عليه بالمسارعة. فاتفق و صول الخبر إليه بشهرزور و قد انفصل عن السلطان بدستور.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢١

فأخذ السير و استعجل الخبر، و سبق إلى الموصل قبل وصول الجماعة. و لما عرف جمال الدين بوصوله سبق أيضا إلى الموصل و بقى الملك منفردا فاستوحش، و تشور فى رأيه و تشوش. و ركب صوب الجزيرة مفارقا، و إلى حلبه النجاة مسابقا، فسيروا وراءه من وثق بتوفير أمانته أمانه، و خيلوا له أن قد عاد القوم غلمانه، و أن غازيا إذا كنت معه أخذ البلاد باسمك، و جعل الممالك برسلك. و ما زالوا يحدثونه بالخسر و الختل «١»، إلى قلت «٢» القتل. فإنه عاد معهم و دخل الموصل فى استقبال و نثار، و إعظام و إكبار، حتى دخل الدار، و خال الاستقرار. فما أجلسوه، حتى اختلسوه، و ما رسموه، حتى رسموه.

و كتموا أمره، و ختموا عمره. و جرى بين جمال الدين الوزير و بين زين الدين على كوجك و سيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، و التعاهد على التساعد. و تولى جمال الدين وزارة الموصل و استولى، و كان باسترعاء ما أولاه الله من نعمه أولى. و أنه عاش بندية الجواد، و عشا إلى ناديه الوفود. و عادت به الموصل قبله الإقبال، و كعبه الآمال. فأنارت مطالع سعوده، و سارت فى الآفاق صنائع جوده. و عمّر الحرمين الشريفين، و شمل بالبر أهلها، و جمع بالأمن شملها.

### ذكر حال جمال الدين الجواد أبى جعفر محمد بن على بن أبى منصور

قال- رحمه الله:- كان والده من أصفهان الكامل على، و هو حاجب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، و كان أبوه أبو منصور فهّادا فى عهد السلطان ملكشاه ابن ألب أرسلان و ابنه الكامل نجيب، أديب لبيب. و زادت أيامه فى السمو، و أيامه فى النمو. حتى تنافس فى استخدامه الملوكة و الوزراء، و استضاءت برأيه فى الحوادث الآراء.

و كان قد زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العم العزيز، فاشتمل لذلك العزيز،- رحمه الله- على ولده جمال الدين أبى جعفر محمد، و خرّجه فى الأدب، و درّجه فى الرتب.

فأول ما رتبته فى ديوان العرض السلطاني المحمودى محليا، فبرز فى تلك الحلبه سابقا

(١) الختر و الختل: الغدر و المخادعة.

(٢) قلت: الهلاك.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٢

و مجليا. و غلب فى تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، و استقام فى نجابته على المنهج. و اتفق أنه لما تولى زنكى بن آق سنقر

الشام تزوج بامرأة الأمير الأسفلار، كندغدى، وولدها خاصبك بن كندغدى من أمراء الدولة و أبناء المملكة، وهو يسير معها، فرتبه العزيز جمال الدين لخاصبك وزيرا، فسار فى الصحبة، و كان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة. شهى الهشاشة، بهى البشاشة. فتوفرت منى زكى على منادمتها، وقصر صاحبه و مساءه على مساهمته. و عول عليه فى آخر عمره فى إشراف ديوانه، و زاد المال بتمكنه و مكانه. فلم يظهر من جمال الدين فى زمان زكى جود، و لا عرف له موجود. فإنه كان يقتنع بأقواته، و تزجية أوقاته. و يرفع جميع ما يحصل له إلى خزانه زكى استبقاء لجاهه، و استعلاء به على أشباهه. فممكنه زكى من أصحاب ديوانه، فمنهم استضر بإساءته، و منهم من انتفع بإحسانه. و لما قتل زكى صار للدولة الأتابكية ملاذا، و للبيت الأقسنقرى معادا. و استوزره الأمير غازى بن زكى، و آزره على كوجك على وزارته، و حلف له على مظاهرتة و مضافرتة. فأجرى بحر السماح، و نادى حى على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح. و أتوا إليه من كل فج عميق، و قصد من كل بلد سحيق. و قصده العظماء، و مدحه الشعراء. و ممن وفد إليه و مدحه أبو الفوارس سعد بن محمد بن الصيفى المعروف بحيص بيص. قال: و أنشدنى لنفسه من قصيدة أولها:

يا للصورم و الرماح الذبل نصرا و من إنجدتما لم يخذل

لو شتتا و مشية بمشيئة جاد الزمان و بالعلى لم يبخل

أنا فارس الیومین یوم مقاله و غی، أصول بصارمى و بمقولى و منها یصف بناءه لسور المدینه و عماره قبر:

و تقر عین محمد بمحمد محیی دریسى علمه و المنزل

معمار مرقدہ و حافظ دینہ و معین أمه بجود مسبل

خرق یناط قمیصه و رداء بعباب زخار و هضبة یذبل قال: و كنت أنا فى ذلك العهد ببغداد متفقهها، و اتفق حضورى بالموصل فى ذى القعدة سنة ٥٤٢ هـ. فحضرت عند جمال الدين بالجامع فى جمعيتين، و تكلمت عنده

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٣

مع الفقهاء فى مسألتین. و مما مدحته به من قصیده و ذلك من أول نظمى، أولها:

أظنهم و قد عزموا ارتحالاثوا عنا جمالا لا جمالا

سروا و الصبح مبيض الحواشى فلما جال عهد الوصل حالا

اخلائى و هل فى الناس خل به أخلى من الأشجان بالا

لئن لم أشف صدرى من حسودى و لم أذق العدى داء عضالا

فلا أدركت من أدبى مراما ولا صادفت من حسبى منالا

ولا وخذت إليكم بى جمال ولا واليت مولانا الجمالا

و قائلة أفى الدنيا كريم سواه فقلت لا، و أبى العلالا- قال: و لم يقنع ما جاد به للوفود، حتى زم إلى البلاد ركائب الجود، فجعل لكل بلدة من بلاد الإسلام من مواهبه راتبا، و أصبح جوده فى الآفاق إلى المقيمين سائرا و اللطالين طالبا.

### عاد الحديث إلى ذكر ما جرى للسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بعد موت جاولى فى سنة ٥٤١ هـ

قال- رحمه الله-: و لما توفى جاولى جاندار، طمع الأمير الحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك فى تولى بلاد أرائيه و أرمينية، و عرف أنه لا يتمشى له ذلك مع تسلط خاصبك بن بلنكرى، فتوسل فى استماله الأمير بوزابه، صاحب فارس، إلى السلطان، ليتم له مراده بتوسطه، و أرسل إلى الأمير الحاجب تثار، و هو عند الأمير بوزابه، أن هذا أوان قدومه، و زمان هجومه. فقدم المعسكر السلطاني فى عسكر ضخم، و مقدّم فخم. و اتصل به الأمير عباس صاحب الرى فى عدة و عديد، و بأس شديد. و اتفق هؤلاء الثلاثة ابن طغايرك، و بوزابه، و عباس، على تدبير الدولة و تقرير قوانينها و ترتيب دواوينها، و كف عادية المتسطلين عنها، و توفين

حظوظهم بالاستقلال بها منها. فأحوجت السلطان الضرورة إلى النزول على حكمهم، و رأى السلامة سلمهم. و أقسم على رضاهم و رضى بقسمهم. فأول ما فعلوا أنهم عزلوا وزيره، و نقلوا إلى الوزير الذى ولوه تديره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٤

### ذكر وزارة تاج الدين بن دارست الفارسي

قال: كان ابن دارست، وزير بوازبه صاحب فارس، فرتبه فى وزارة السلطان ليصدر الأمور على مراده، و يورد على وفق إيراده. و كان هذا الوزير رفيع البدر، مجبا للخير، مبغضا للشر، فما فعل أمرا ينقم عليه، و لا أحال حالا تتوجه لأجلها اللائمة عليه. و نائبه أمين الدين أبو الحسن الكازرونى ذو الدين المتين، و الحلم الرزين، و الاستهتار بأعمال الشر، و الاشتهار بأفعال الخير. و تولى ديوان العرض والد الوزير عضد الدين، و هو جميل مجليل لمذهبه، مهذب لمنصبه. و أقروا ولاية أذربيجان و أرانيه جميعها على ابن طغايرك عبد الرحمن، و قرروا إبعاد خاصبك بن بلنكرى عن السلطان.

فسار فى خدمة ابن طغايرك أميراً، و صحبه فى مضمار الخلاء و لم يخلص فى صحبته ضميرا. و تقرر أن يكون أحد الثلاثة بالنوبة ملازما لخدمة السلطان حتى يسلم لهم جانبه، و تؤمن نوابه. و انفصل الأمير بوزابه إلى بلاد فارس، و رحل السلطان إلى بغداد و معه الأمير عباس صاحب الرى، فى شوكة مانعة، و هيئة رائعة.

قال: و لما قدموا بغداد فى خريف هذه السنة، خرجت مع الفقهاء لتلقيهم و الناس مشتتلون على تخوفهم منهم و توقيهم. فلما حلوا ببغداد نزلوا دورها، و سكنوا للتخريب معمورها. و ألهبوا الكروب، و أرهبوا القلوب. و كانت هذه عادتهم إذا وصلوا، و عادتهم إذا نزلوا. فتكمن الأتراك، لا يتركون ممكنا من الجهل، و عندهم أن الظلم من العدل. و لكن الوزير نزل فى دار الوزارة بالأجمة، متوخيا بثّ المكرمه. و أمر بتجديد عمارة المدرسة التاجية التى بناها خاله الوزير تاج الملك أبو الغنائم بن دارست ببغداد، و أوطنها شيخنا شرف الدين يوسف الدمشقى فأحيا دريسها بدروسه، و أشرق أفقها بنجوم العلم و شموسه. و رتب الوزير فى داره مجالس للختامات، و حضور أئمة الفرق و فقهاء المناظرات. و لم يعارض السلطان فى شىء من أوامره و أموره، و ابتسمت الدولة بأسفاره و سفوره. لكنه مع تقاصر مدته ما أمرّ و لا أحلى، و لا شغل و لا أخلى، و لا عزل و لا ولى. كل ذلك طلبا للسلامة، و استقاء لماء الاستقامة. و علما بوخم العاقبة، و ألم المعاقبة. فلا جرم توفرت الدواعى على حبه، و فرت العوادى من حربته و حزبه.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٥

قال: و فى هذه السنة قدم الأمير العالم قطب الدين أبو منصور المظفر بن أردشير العبادى الواعظ، فأعجز بالفصاحة و أعجب، و شرق بأنوار البلاغة و غرّب و أنا أذكر، و قد حضرت مجلسه، و قد وضع له منبر على شاطئ دجلة، و السلطان مطل عليه من أعلى مكان، و الأمير عباس صاحب الرى جالس فى شقارته «١» بدجلة بحيث يسمعه، و العبادى يفتن الناس بما يبيديه من سحره و بيدعه. و حضرت مدة مقامي ببغداد جميع مجالسه أكتبها من لفظه، و أقبل عليه الإمام المقتفى و قبله، و رفعه و بجله. و أمره بالجلوس فى جامع القصر فى موضع يقرب من منظرته، ليجلس حيث لا يراه و هو بحضرته. و انبث بدائمه و بدائعه، و أشرقت بنجح مطالبه مطالعه.

### ذكر ما جرى من الحوادث التى انحلت بها تلك العقود و اختلت تلك العهود

قال- رحمه الله:- وصل الخبر بقتل الأمير عبد الرحمن بن طغايرك بأرانيه، و كان من قدر الله سبحانه أنه استصحب معه خاصبك بلنكرى ليعده عن الخدمة السلطانية، غير مكترث به. و كان مع خاصبك أمر من السلطان سرا فى الفتك به أن خلت عرصه، أو أمكنت فرصة. فركب ابن طغايرك يوما لتجهيز العساكر إلى غزاة الكرج، و وقف منفردا فى ذلك المرج. و هو يسير أميرا أميرا. و لا

يمكن من المقام كبيرا ولا صغيرا. وابن بلنكري واقف لا يريم، وهو لبرق ما يشيمه من عارض الغمد يشيم. معه الأمير زنكي الجاندار، فتقدم وأقدم، وضرب رأس ابن طغايرك بسوط حديد شدخه و فشخه، واستصرخ بأعوانه فعدم مصرخه. وضرب بعد ذلك بالسيوف، و تفرقت عنه جموع تلك الصفوف. و تغلب ابن بلنكري على أزانیه، فأحسن إلى الذين ساعدوه، و عقد حبي الحب لهم حين عاقده. و امتد إلى أردبيل محاصرا، و بها الأمير آق أرسلان، و أخرجه منها بالأمان، ثم اشتغل بحصار مراغة لينال منها ما أراغ، و حصرها طويلا و لم يجد فيها المساغ. و لما نمت إلى السلطان ببغداد خبر قتل ابن طغايرك، أحضر الأمير عباسا في داره،

(١) كذا في الأصل و لم نقف لها على معنى يناسب وضعها من الجملة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٦

ليخلو به و يستشير. فلما خلا به أمر بضرب رقبتة، و رمى جثته. و ذلك بكره خميس من ذي القعدة سنة ٥٤١ هـ. فركب عسكر عباس يتقدمهم الأمير آق سنقر الفيروزكوهي، و شقوا مدينة بغداد و ساروا، و نهض الأوباش لنهب دار الوزير و ثاروا. فأركب السلطان جماعة منعوا من الوصول إلى داره، و بقي موقرا موفرا على حرمة و قراره. ثم أذن له في الانصراف إلى فارس مصحوبا بالصيانة مصونا بالصحة، مرتب الأحوال حالي الرتبة. فجاء إليه و ودع و دعا، و رعى له السلطان حق ما رعى و تلا: "و أن ليس للإنسان إلا ما سعى."

### ذكر وزارة شمس الدين بن النجيب الأصم الدرگزيني

قال: و حفظ السلطان حرمة الوزير تاج الدين، فلم يتسم شمس الدين الوزير بوزارته، حتى انصرف الوزير بجاهه و ماله و حرمة، و حشمتة و نعمته. و لم ير وزير للسلاجقية صرف و لم ينكب في نفسه أو في ماله سواه، و لأنه كان يرجو منه استمالة الأمير بوزابه و تحصيل رضاه. فإنه لم يشك في حركته، و الابتلاء بمعركته. فضمن له تاج الدين بن دارست أن يكفيه أمره، و يكف شره. و كان هذا من دهائه لينجو من الدهية، و يستفيد الأحكام لقواعده الواهية. فرحل فرحا للسلامة، ظاعنا من وطنه إلى دار المقامة. فاستقل بالوزارة حينئذ شمس الدين أبو النجيب، و كان من قبل يخدم ابن بلنكري. فلما سار، أقام يخدم الأمير الحاجب تثار، مستديما لعود مخدومه الانتظار.

فرغب السلطان فيه لأجل اختصاصه بخاصبك، و لم يكن فيه من أدوات الوزارة إلا كونه للقوام الدرگزيني نسيبا، فحاز من منصبه نصيبا. و كان بزمانه شبيها، و في مكانه نبيها. لاثقا بالقوم، موافقا للوم. يطلب مرافقهم في مرافقهم، و التخلق بخلائقهم. و السلطان لاه بالملاهي، متناه في المناهي. لا يسأل عما يفعل، و لا يفعل ما يسأل. و لا يقبل ما يقال، و لا يقول ما يقبل. و عن السلطان أن يحرك ساكن الموصل بإبداء عزمه إليها، و إظهار عوجه عليها. فبادر متولوها بحمول، و تحف و هدايا و خيول. فقبلها منهم، و رضى عنهم. و أقام ببغداد باقي تلك الشتوة. فلما رحل ضيف الشتاء، حل السلطان جيوه مقامه، و أمر خبر خروج بوزابه صاحب فارس ما أخلاه من أحلامه.

فخفقت القلوب و البنود، و قلقت الجنوب و الجنود. ثم أغذ السلطان مسعود إلى همدان

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٧

سيره ليسبقه إليها، قبل إطلاله عليها. فإنها مقام ملكه، و نظام سلكه. و طير الكتب إلى خاصبك بن بلنكري و هو على حصار مراغة، ليقدم تلك العساكر، و يقدم إقدام الليث الخادر.

و أما بوزابه، فإنه لما نعى إليه عباس و عبد الرحمن قامت قيامته، و غامت عمامته.

و كدر عيشه، و كثر طيشه، و جاش جاشه و جيشه. و نهد بالملكين محمد و ملكشاه ابني محمود، و أقبل بهما كالنيرين، من جترهما «١» في فلكين. فلما قرب من أصفهان تلقاه صدر الدين ابن الخجندی و فتح له أبوابها، و حمل على الأصحاب له أصحابها. فدخل دار مملكتها، و مقر سلطنتها. و أجلس الملكين على السرير الألب أرسلاني، و التخت الخسرواني. ثم خرج بهما على سمت همذان، و هو لا- يشك أنه إذا بلغ غلب، و إذا بسلب سلب. فوصل إلى مرج قراتكين، و هي من همذان على مرحلة، و اتصل به ابن عباس صاحب الري، فلما عرف السلطان مسعود قربه، حزب حزبه، و قوى قلبه، و طير إلى ابن بلنكري كتبه، و ضيق في التأخير عذره و وسع عتبه. فوصل و قد حم اللقاء، و حق البلاء. فقوى السلطان و تسلطت قوته، و احتبى بالشدة و جمرهما يشب، و ريحهما تهب. فلما بدا الصباح خلف من العجاج الليل ليل، و انجز على المجرة من مجرى المجرين ذيل، و طما بما سل من الجفون سيل، و طلع في كل أفق من لمع اليماني سهيل. و التقى الصفان، و تلاطم البحران. وصال العديد على العديد، و صل الحديد في الحديد. و كادت الكسرة تصح على مسعود، و بقى قلبه ثابتا بين طارد و مطرود، و بوزابه قد تهور و تهجم، و حمل على القلب ليقبله بحملته: و يميز تفصيله بجملته. فكبا به الفرس ففرس، و اختلسه القدر فقدر عليه و اختلس. و حمل إلى السلطان أسيرا، فخاطبه و عاتبه كثيرا. فلم ينبس بنث شفه، و أراد السلطان الإبقاء عليه لشهامته، فأبى ابن بلنكري إلا فش هامته، فأمر السلطان بالإضراب عن رقبته و ضرب رقبته. و أمر بحمل رأسه إلى العراق، و أن يطاف به في جميع الآفاق. و انجلى الغبار عن ابن عباس قتيل، و انهزم عسكر فارس و الملكان موليان لا يلويان، و موليان لا يليان. و جلس مسعود للهناء،

(١) كذا في الأصل و قد كرر المؤلف استعمالها، و ليس لها وجود في المعاجم، و لعلها من الكلمات الدخيلة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٨

و خص خاصبك بالاصطناع و الاصطفاء، و عظمه على الأمراء، و أمره على العظماء.

و ذلك في سنة ٥٤٢ هـ.

### ذكر ما جرى بأصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابه

قال- رحمه الله:- كان نجم الدين رشيد الغياثي والي أصفهان من قبل السلطان، و هو متعصب على الشافعية. فلما تم من صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندی إلى بوزابه الميل، بادر بالإرسال إلى أصفهان للإيقاع بمن خرج على السلطان، و علم ابن الخجندی فخرج منها، و زحف العوام إلى المدرسة فنهبوا، و أحرقوا دار كتبها، و تشتت بنو الخجندی. فقصد صدر الدين محمد و أخوه جمال الدين محمود الموصل، و أوردتهما جمال الدين الوزير من إنعامه و إكرامه المهل و المنهل «١». و مضى جمال الدين إلى الحج، و أقام صدر الدين و بحر وجود الوزير له متلاطم اللج. ثم انصرف عنه مملؤ الحقائق، محبوبا بالمواهب. و عمل في جمال الدين أبياتا من جملتها:

حئت إلى بابك فردا و قد خرجت من نعماك في قافله و وصل إلى أصفهان لتوفر أهلها على خدمته، و افترضوا إقامة حرمة. و أما جمال الدين أخوه، فإنني لما عدت إلى بغداد لقيته و قد عاد من الحج في صفر سنة ٥٤٣ هـ.

و كان قد عزم والدي على العود إلى أصفهان، فصحبناه، و جمعتنا الطريق، و وجدناه نعم الرفيق. ثم تفارقنا، و سار مع قافلة همذان، و سرنا مع أصفهان. ثم وصل الخبر بأن السلطان رضى عنه و عن أخيه و خلع عليهما، و أعاد الرئاسة إليهما، ثم وصلا، و على أضعاف ما كان لهما من الحشمة حصلا.

### ذكر بعض الحوادث

قال: في سنة ٥٤١ هـ حج ابن جهير وزير الخليفة المقتفي، فرتب صاحب المخزن قوام الدين بن صدقة وزيراً، و كان بيته أثيلاً أثيراً. و رتب في المخزن عوضه زعيم الدين يحيى بن جعفر، و رتب بعد ذلك يحيى بن محمد بن هبيرة صاحب الديوان. و في سنة ٥٤٣ هـ، مات قاضي القضاة ببغداد يوم النحر، و هو فخر الدين علي بن

(١) المنهل: الكثير الانصباب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٢٩

الحسين الزينبي. و رتب بعد ذلك عوضه عماد الدين بن الدامغاني.

قال: و أما السلطان مسعود فإنه أرسل إلى ابن أخيه الملك محمد بن محمود بعد قتل بوزابه فاستدعاه، و منّ عليه و منّاه. و زوجته بنته، و عهد إليه في الولاية و ولاة عهده. ثم ملكه خوزستان، و لما أمن ابن بلنكري من الجوانب عمد إلى الأمير الحاجب تثار، و قبضه و أوثقه، و أنفذه إلى قلعة سرجهان و اعتقله بها ثم خنقه. و صفا له الجو فباض و صفر، و صفا عليه الضوء فاجتلى الظفر.

قال: و في شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ، وصلت شعبة من أكابر الأمراء، و معهم الملك محمد إلى بغداد محاصرين، و على خذلان السلطان مسعود لشقوتهم متناصرين، منهم: شمس الدين إيلدكز، و الأمير قيصر، و ملك العرب علي بن ديبس، و غيرهم. فحضرها و حصروها. فخرج أهل بغداد لردهم، فأفرجوا عنهم، حتى أصحروا فكروا عليهم كره أردتهم. و ما أبت عليهم بل أفتتهم. و كانت بالقرب منهم حفر الغسالين، و تنانير الآجريين، و أتاتين الجصاصين. فما نجا إلا من آوى إليها. و قتلوا زهاء خمسمائة نفس، و جل رزء بغداد ليرحلوا، و فصلوا الأمراء على المبلغ لينفصلوا.

فاستشار الخليفة الوزير و أرباب المناصب في أنه هل يبذل لهم الذهب؟ و هل يحتمل للراحة منهم التعب! فما فيهم إلا من عجل بالعدل، للتأني في البذل. فأخرجت العين.

فأشار ابن هبيرة، و هو يومئذ صاحب الديوان، بضد ما أشاروا، و صار من الرأي إلى غير ما صاروا. و قال للإمام: "هؤلاء خرجوا عليك و على السلطان، و جاهروكم بالعصيان، فاجعل بالله الاستجارة، و قدم منه الاستخارة. و أنفق ما عزمت على بذله لهم، في عسكر يقاومهم بدفع شهرهم، فإنك إن دفعتهم بالعتاء لم تسلم من عتب السلطان مسعود، و إن هرمتهم باللقاء، قلت له إنى فلتت جنود عصيانك من أهل أطاعتك بجنود. و أنت لا تحمد على ما تحمل، و لا تشكر على ما تعمل."

فقبل الخليفة رأيه و لم ير خلافه، و جمع حينئذ و جند، و حشر و حشد، و استخدم من البطالين أبطالاً من المقاتلة المبطلين. و فرق المال و مال إليه الفريق، و أنفق فنفق في سوق تفويقه التوفيق. و صار من ذلك اليوم للخليفة جند مهيب، و نار لها في أفئدة العدى لهيب. فرد هؤلاء الأردياء بالحد الحديد و الجدد الجديد. و قال: "إنى أرى المشورة

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٠

الهبيرية أريا مشورا (١)، و صوب صوابه لرى الرأي مشكورا. "فجاء به وزر عليه جيب الوزارة، و لم يزل عنده مودود الشارة، مقبول الإشارة. و ذلك يوم الأربعاء الرابع أو رابع عشر ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ. فشرع في نصر أمر الشرع. رحيب الصدر و الباع و الذرع. و أكرم الفضلاء، و فضل الكرماء. و عاش في وزارتي المقتفي و المستنجد ست عشرة سنة و شهرين، قير العين، أيد الديدن. و كان به عمش، و بوزير السلطان طرش. و أمر الدين و الدولة بهما منتظم، و شعب الخلافة و السلطنة بكفايتهما ملتئم.

### ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه إلى الري في أواخر شعبان سنة ٥٤٤ هـ

قال- رحمه الله:- لما عرف سنجر ما تم بالعراق من اغتيال النفوس، و اقتطاف الرؤوس، و استيلاء خاصبك على خواص الأولياء، و إغضاء السلطان في مهد الإغفال، و خدعه بالألطف خدع الأطفال. قال: "لابد من الإدراك و الاستدراك، و الإمساك و



الاستمساك، و تهذيب المستعلى، و تعذيب المستولى، و إخفاء الشر اللائح، و إطفاء الشرر اللافح." فنهض على كبر سنه، و وصل إلى الري في صميم الشتاء، و قرها في قره، فأجفل مسعود من همذان راحلا على سمت بغداد، فثنى عنانه شرف الدين الموفق كردبازو و قال له "أنت لسنجر مقام الولد، و الأولاد بئر الآباء فازوا، و ما أسعدهم إذا حصلوا رضاهم و حازوا." فسار إلى الري معه، و أبى ابن بلنكري أن يتبعه. و أقام هو الوزير الأصبم بهمذان. فلما بصر سنجر بمسعود قدمه و أكرمه، و قر عينا به و قره، و تحدث معه بما أعجبه، و رضى عنه و ما عتبه. و نسي كل ما ذكره، و أدبر عن كل ما دفعه. و شفع السلطان في خاصبك فأجابته، و ذكر له فعله فاستصابه. فما أمر بمعروف و لا نهى عن نكر، و لا أبدل شكوى بشكر، و لا كشف ظلامه، و لا- كف قلامه. لكنه ودع ابن أخيه و عاد، و أخذ إلى خراسان التأويب و الإسناد، و رجع السلطان و استصحب خاصبك و الوزير الأصبم معه إلى بغداد. و أقام تلك الشتوة في رفاعه و فراغ، و صباح صباح و مساء مساء، و كان مع سنجر كبراء امرائه، مثل المؤيد ير نقش هريوه، و الفلك

(١) أريا مشورا: عسلا مجتنى أو مستخرجا.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣١

على البحترى، و سنقر العزيزى، و غيرهم من عظماء عسكره، و خواص معشره.

### ذكر حوادث في تلك السنين

قال- رحمه الله:- و في السادس من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ نزل ملك الألمان بجمع عظيم من الإفرنج على دمشق و حاصرها، و أشرف المسلمون فيها على اليأس، ثم منعها الله تعالى، و رحلوا عنها بعد أربعة أيام خائنين هائبين، خاسئين خاسرين. و في أوائل جماد الأول من سنة ٥٤٤ هـ، توفى الأمير غازى بن زنكى صاحب الموصل، و تولى أخوه قطب الدين مودود، و جمال الدين الجواد وزير على حاله، و زين الدين على كوجك متولى العسكر و رجاله. و توفى الحافظ متولى مصر في خامس جماد الأول من هذه السنة. و تولى بعده ولده الظافر. و في موسم سنة ٥٤٤ هـ، وقعت زعب و من تابعها من العرب على قافلته الحج عند قفولها من مكة إلى المدينة، فأهلكت الناس، و أحلت بهم البؤس و الباس. و عظم مصاب المسلمين فى الآفاق، و نجا من الآلاف آحاد بأخر الأرماق. و فى الحادى و العشرين من صفر سنة ٥٤٤ هـ، كسر نور الدين محمود بن زنكى على أنب من الشام، ابرنس إنطاكية و قتله و حز رأسه. و شد بتلك النصره للإسلام قواعده و أساسه.

و فى سنة ٥٤٥ هـ، أسر التركمان جوسلين، و سلموه إلى نور الدين، و نزل الملك مسعود بن قلعج أرسلان على تل باشر، و هى مع جوسلين، و نزل نور الدين بعد أسر جوسلين على قلعة عزاز و فتحها بالأمان. و فى يوم الخميس الخامس و العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٦ هـ، تسلم الأمير حسان المنبجى تل باشر بالأمان. و فى سنة ٥٤٦ هـ، أغار عز الدين على ابن مالك صاحب قلعة جعبر على أطراف الرقة، ففزعوا إليه و أدركوه و قتلوه، و جلس مكانه فى القلعة شهاب الدين مالك ولد عز الدين.

### ذكر ما تجدد من الملك ملكشاه ابن محمود و وفاة السلطان مسعود

قال: أغار فى ربيع الأول سنة ٥٤٥ هـ ملكشاه بن محمود على أصفهان، و ساق بعض مواشيها، و صار يغاديبها بالإخافة و يعاشيها. و كان فيها نجم الدين رشيد واليها. فأنهض السلطان إليها شرف الدين كردبازو و ضم إليه جماعة من الأمراء. فلما وصلوا إلى أصفهان، راسلوا الملك ملكشاه و قبحو له ما استحسنة، و تحركوا إليه بما

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٢

سكنه. و تحمل له رشيد بمال حملة، و سيره إليه و رحله. و نزلت السكينة و سكنت النازلة، و أسبل الأمن و أمنت السابله. و شتى السلطان مسعود سنة ٥٤٥ هـ ببغداد غائصا مع لداته في لذاته، قانصا من العيش فرصاته. ثم رحل عنها رحيل مودع، فلم يعد بعدها إلى العراق، و تراقى السلطان و خاصبك و لم يتفارقا، و توافدا على الترافد و توافقا. و كان خاصبك فرحا باختصاصه، و منذ كان ما أحلى صاحبه من حبه و إخلاصه. فوصلا إلى همذان، و انقضت سنة ٥٤٦ هـ صافية عن القذى، كافية للأذى. ماضية مع الغنى، مضية السناء. و لم يعلما أن سنة سبع، بسنها كالسبع عضوض، و أن كل ما أبرمه اليوم الزمان غدا منقوض. و أن الحياة مختومة، و أن الوفاء محتومة. و أن عمران العمر مهدوم، و أن سر القضاء مكتوم. فلم يزل مسعود مسعودا حتى عاجله القدر. و ما أجله الأجل. و أصابته علة الغثيان و القىء. فما سلمت حتى أسلمت نشره إلى الطي، و شمسه إلى الفىء. و جمد في آخر جماد الآخر ذوبه، و خمد ضرامه و أقلع صوبه. و كان مسعود ضخم الدسيعة «١». جم الصنيعة، لكنه يصطنع الأراذل، و يرفع الأسافل. و كان كثير الاتكال، على استمرار الإقبال، قليل الاحتفال بمكاييد الرجال. دائم الإغضاء عن ذميم الفعال. لا يضمم لعدو سخيمه، و لا يقبل في ولى نيمه. و اتفق قبل وفاته أن أخاه سليمان شاه كان بقلعه قزوین معتقلا، و كان عليه بالحوط مثقلا، فواطه مستحفظا موقف الخادم على الخروج بعد موت أخيه لطلب السلطنة، و اتصاله بذوى الأيدي المتمكنة. و كان الملك، ملكشاه بن محمود، قد اتصل بعمه مسعود إليه لاجيا، و لآلائه راجيا. و قد أجمل إليه، و اشتمل عليه. و هو حاضر حين حضره الحين. و غارت و غاضت العين و العين «٢»، و لا بد أن يقطع بين المتواصلين البين. و دفن بهمذان في مدرسة بناها جمال الدين إقبال الخادم الجاندار.

(١) الدسيعة: الجفنة، و تأتي بمعنى العطية و القوة.

(٢) العين و العين: النبع و المال.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٣

### ذكر جلوس السلطان ملكشاه بن محمود

قال: لما توفي عمه اجتمع العسكر على نصبه، و عقد جبي الاعتقاد لحبه «١». و أجلسوه على السرير، و أطاعه الأمراء و ائتمروا بطاعته، و تيمنوا بيومه، و سعدوا بطاعته. و تفرد ابن بلنكري على عادته، و مساعدة سعاداته، بالأمر و النهي، و الحل و العقد، و القصر و المد، و القبول و الرد. و الميل إلى جمع المال، و جباة الأعمال. و إلحاق ذوى الإثراء بذوى الإقلال. و اشتغل ملكشاه بالانهماك في القصف و الانهتاك بالعزف. و فوض الأمور كلها إلى ابن بلنكري. و كان من فلكك ملكها في أوج المشتري «٢». و اعتلق بنجحه، و وثق بنصحه، و ما درى أنه يخسر من ربحه، و يظلم يومه بطلوع صبحه. فإن ابن بلنكري طرف فبطر، و خطر بضميره أن يضمم الخطر، و جمع الأمراء- و كبيرهم الحسن الجاندار-، و قال لهم: "هذا سلطان لا يفلح، و للملك لا يصلح. فإنه غرّ ذو غرور، و غمر جاهل بالأمر، قد شغلته الخمر عن الأمر. و أغناه الحشف عن التمر. و أنا أرى من الصواب أن نخليه، و نستدعى أخاه محمدا و نوليه." فعلم الأمراء أن خاصبك كالباحث عن حنقه بظلفه، و الجالب النكر إلى عرفه. و كانوا قد كرهوا استيلاءه، و سئموا استعلاءه، فوافقوه على الرأى الرائب، و عدوه من المواهب. و قالوا: لعل الملك إذا تولاه حازم جازم، و عاقل بمصالحه عالم، انتحى له من هذا العادى، و شفى بصداه غليل الملك الصادى. فقالوا لخاصبك "عجل هذا الأمر قبل أن يفطن به، فنأيس من نجح مطلبه." فقبض ابن بلنكري ملكشاه في دار الحسن الجاندار و هو في ضيافته، فقراه بآفته. و اعتقله بمرج همذان، و كان قد أنفذ إلى الملك محمد بن محمود جمال الدين إيلفقتش ابن قايماز الحرامى، و نفذ ابن بلنكري

لاستحلافه الأمير مشيد الدين بن شاهملك و معه وزيره الكمال أبو شجاع الزنجاني المعروف بالتعجيلي، فخانوه في الرسالة، و حسنوا للسلطان محمد ضد ما أراه ابن بلنكري من الحالة، و قرروا معه قتله يوم الوصول،

(١) و عقد حبي الاعتقاد لحبه: جملة مضطربة لا معنى لها، و لعلها كانت " و عقد جبل الاعتقاد لحبه "فصحفت.

(٢) أوج المشتري: كناية عن النحس.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٤

و قالوا له لا تقبل غير هذا الرأي لتخطي بالقبول. و عادوا و قالوا لابن بلنكري "إنا قد حلفناه و استوثقنا منه بالإيمان، و أكدنا إقسام القسم، بحيث يكون حنثه ارتدادا عن الإيمان." فوثق بأمانتهم، و أمن للوثوق بهم، و أرسل و استرسل، و عجل و استعجل. و أما ملكشاه، فإنه تخلص من اعتقاله، و خرج نجمه من بيت و باله. و كأنهم توانوا في حفظه، و وكلوه إلى حظه. و كما أغفلوا الإحسان إليه، أحسنوا بالغفلة عنه، و لم يكن لهم عنده ثأر فيحملهم على الانتقام منه، و صرحوا بهربه، و لم يعرضوا بطلبه. و لم يلبث في سلطنته إلا شهرين أو ثلاثة، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن استقر بخوزستان ملكا، و في سلك السلوك نهج السلامة متسلكا.

### ذكر جلوس السلطان غياث الدنيا و الدين أبي شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه في أواخر سنة ٥٤٧

قال: و قدم السلطان محمد همذان في عدة يسيرة، و عدة غير كثيرة. فتلقيه خاصبك بلقائه مستبشرا، و بوفائه مستظهرا. و بصفاء وده موقنا، و بصفات مجده مؤمنا. و إلى دينه راكنا، و إلى يمينه ساكنا، و حمل إليه ما تجمل به من آلات الملك و أدواته، و مخيمات المال و مدخراته، و خيمه و سرادقاته. و الخيل العراب، و العروض و الثياب. فعلقت بالنفوس نفائس أعلاقه، و سكن المسكين إلى وفاء السلطان و وفاقه. و خرج له من قشره، و أرج منه بنشره. و لقيه السلطان بوجه له باشر، و لسان لحمده ناشر. لكن ضميره للشر مضمر، و فكره للفتك به مفكر. ثم إنه في اليوم الثالث من قدمه، جلس في أعلى القصر، و استدعى ابن بلنكري لمسارته في التفويض و مفاوضته في السر. فجاء و معه الأمير زنكي الجاندار، و الأمير كشتغان المعروف بشمله، فلما حصلوا على سلم القصر عرف شمله العملة. و رأى أمارات لا توافق المراد، فعاد و جذب ذيل ابن بلنكري ليعود فما عاد.

و نزل و قد رهب، فركب و هرب. و أما ابن بلنكري و زنكي، فإنهما صعدا فأمر فحز رأس ابن بلنكري و رمى بجثته إلى الميدان، و ضربت أيضا رقبه زنكي الجاندار و كان كبير الشأن. و ارتاعت القلوب و ارتابت النفوس، و ذرفت العيون و أطرقت الرؤوس.

و مما يعتبر به المستبصر، و يستبصر به المعبر، أن خاصبك خلف أموالا لا تأكلها النيران، و لا يحويها الحسبان. و من جملة ما وجد له، ألف ثوب، و سبع مائة ثوب أطلس

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٥

عتابي، فكيف غيره من الألوان. و طلب له كفن في ذلك اليوم فلم يوجد، و بقي على حاله و لم يلحد. و ما ألقى عليه رداء، و لم يبذل له فداء. حتى جبي له من سوق العسكر الكفن و القطن، و تهيأ لمن تولى أمره حسبة لله الغسل و الدفن. فيا بعدا للدنيا ما أكرد صفاءها، و أغدر و فاءها. تخيف من آمنها، و تززع من سكنها. و تقتل من أحيها، و لا ترعى من رعاها.

و أما السلطان محمد، فإنه ظن بعد قتله، أن الموانع قد ارتفعت. و المنافع قد اتسعت، و أن الأمراء النافرين منه، بسببه يجتمعون، و على نصره يجتمعون، و إلى جنبه يفزعون.

و كان وزيره في خوزستان الوزير جلال الدين بن القوام أبي القسم الدر كزيني، و قد أبقاها على وزارته، و جرى ما جرى بمشورته و إشارته. فأشار عليه بأن يسير رأس خاصبك إلى الأميرين الكبيرين: شمس الدين أتابك إيلدكز، و نصر الدين خاصبك بن آق سنقر صاحب مراغة. و ظن أنه يعجبهما إتلافه، و لا يسعهما عصيان السلطان و خلافه. فلما وصل إليهما الرأس هالتهما حالته، و أعيتهما في

هذه العثرة إقالته. و قالاً "لقد أقدم على فتك عظيم بعظيم، و لقد ألام الكريم بظفر لئيم. أما كان استوثق منه باليمين؟ أما استمسك من وعده بالحبل المتين؟ و إذا كان هذا الملك الأكرم ابن الملوكة الأكرمين مجترئاً على مثل هذه الجرائم، و مستصغراً لأمثال هذه العظائم، فقد عزّ العزاء، و خاب الرجاء، و جل المصاب و عظم البلاء. "فملا عنه، و نالا باللوم منه. و أرسل إليه "إنك أخطأت، و زعمت أنك أصبت. و ما يثق قلب إليك، و إن وثقتنا فإنك باليمين التي حلفت بها له تحلف، و لمثل الوعد الذي أخلفته معه تخلف. فليس لنا بك إلمام، و لا لك معنا كلام."

### ذكر ما جرى للسلطان سليمان بن محمد ابن ملكشاه و جلوسه على سرير السلطنة

قال- رحمه الله:- كان لما خرج من مجلسه بقزوين، و وجد التمكن و التمكين. خرج به مظفر الدين ألب أرغو بن يرناقش البازدار إلى زنجان، و كاتب فيه الأميرين شمس الدين إيلدكز و نصره الدين صاحب مراغة، و هما في أمره مترويان. فلما نفرا من محمد، و ترمما و تدمرا، سارا بعساكرهما إلى زنجان، طالبين لخدمة السلطان سليمان، و حملاه إلى همذان، و أجفل السلطان محمد في شردمة يسيرة إلى أصفهان.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٦

فاستقر سليمان على سرير الملك، و كان معه ينالتيكين خوارزمشاه، و أخوه يوسف، و أختها زوجة السلطان سليمان، و هي لأمره متوليّة، و عليه مستوليّة.

و كان سليمان وزيراً شريفاً خميراً. إذا سكر وقع صريعاً، و نام أسبوعاً. كلما رفع رأسه لاذ بالعقار، ثم لاث خمار الخمار «١». و كان يقلب لأنه لا يلقى. و يشق عليهم أنهم لا يسعدون به و هو يشقى. و كذلك وزيره فخر الدين أبو طاهر، ابن الوزير المعين أبي نصر أحمد بن الفضل بن محمود القاشاني، لا يصحو ساعة، و لا يمحو عنه شناعه، و هو أشبه بسلطانه، و كلاهما أليق بزمانه. فضجر الأمراء الأكابر من المقام، و شرعوا في الانفصال و الانفصام. و عاد شمس الدين إيلدكز إلى أذربيجان لقصد أرائيه و انتزاعها من يد روادى ابن عم ابن بلنكرى. و عزم نصره الدين آق سنقر على العود إلى ولايته. ثم إن الأمراء الباقين بعد رواح شمس الدين إيلدكز، قرروا مع نصره الدين، و انتقلوا إلى مرج قراتكين، و خلوا السلطان مع خواصه بقصر همذان، و اجتمعت آراؤهم على قبض الوزير، و أردوا اتباع ذلك بقبض خوارزمشاه ينالتيكين. و السلطان سليمان كان حينئذ قد نكح زوجة أخيه بنت ملك الكرج، و دخل بها و هو في عرس و أنس، فجاءت إليه أخت خوارزمشاه زوجته، و قالت له "إن لم تأخذ لنفسك أخذت نفسك. و طال حبسك، و مضى غدا يومك، و رجع في التطبيق عليك أمسك." فهرب ليلاً معها و مع أخويها، و ترك خاتون الأبخارية و قد بنى عليها، و أصبح الأمراء و قد فقدوه، و نشدوه و ما وجدوه.

فتولت العساكر إلى ولاياتها، و غابت تلك الأسود إلى غاباتها.

### ذكر رجوع السلطان محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه إلى مقر ملكه بهمذان بعد غيبة سليمان

قال: لما وصل السلطان محمد إلى أصفهان، منحازاً عن عمه سليمان. كاتب الجوانب، و راقب الأجانب. و اتصل به الأمير إيناج صاحب الري، فقويت يده، و عرف أن العساكر الغربية لا تقيم مع عمه، و أنهم إذا انفصلوا عنه كان عزمه ملياً بهزمه. فوصلته

(١) لاث الشيء: لأكه في فمه أو خلطه، و الخمار: صداع الخمره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٧

البشرى بأن عمه عام في بحر الليل سابقاً، و ساح لعرض الفلاة بالإفلات ماسحاً. فسر بما وعى، و سار و سعى. و تلقاه أمراء الدولة

مهنئين، و بحدّة جده متهنئين، و عاد إلى قصره، و عادة نصره و ذلك في سنة ٥٤٨ هـ.

### ذكر ما اعتمده الإمام المقتدى لأمر الله بعد موت السلطان مسعود محمد بن ملكشاه

قال - رحمه الله -: كانت السدة الشريفة الإمامية قد منيت بجور الأعاجم، و لم يزل عودها من عداوتهم تحت سن العاجم. و كان أهون ما عندهم خلاف الخليفة و عناده، و تمردهم عليه بأن يحصل مرادهم لا مراده، و لم تزل بغداد مظلمة، مشحونة منهم بالشحن الظلمة. و لهم من الديوان العزيز مطالب لا يفى بها خواصه، و مغارم تلحقه منهم يتعسر منها خلاصه. و الحرم من جنائياتهم خائف، و الشرف لمهاباتهم عائف، و شريعة الشريعة مكدره، و الدماء و الفروج مستباحة مهدره. و الخليفة يغضى و يغضب، و يعتب و لا يعتب، و يقدر عليه و لا يقدر. و يغدر به و هو على العهد لا يغدر.

فلما توفي السلطان مسعود قال: "لا صبر على الضيم، بعد اليوم. و لا قوام مع هولاء القوم" و آزره وزيره عون الدين بن هبيرة و أعانه، و ثبت جناحه. و كان مسعود البلالى الخادم والى بغداد، فقامت عليه قيامة، و تعذرت عليه الإقامة. فرحل إلى الحلّة، و مضى متحملا فى تدبير الأمور المضمحلة. و أقام يحشد و يحشر، و يطوى و ينشر. و كان بالحلّة السلار الكردى، من أكابر أمراء السلطان، فلم يكثرث بالخادم و استرسل إليه، و قصده ليسلم عليه. فأخذ الخادم و قتله و غرقه فى الفرات، و جمع العساكر و أقطع تلك الولايات، و فرق على فريقه الإقطاعات. فسار إليه ابن هبيرة و هزمه و كسره، و لحق البلالى بهمدان مستصرخا، و غدا عقد جمعه منفسخا. و ملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان، و من حدّ تكريت إلى عبادان. و أقطع واسط و أعمالها، و البصرة و أنهارها، و معاقلها و ولاياتها. و الحلّة و الكوفة، و نهر الملك، و نهر عيسى و دجيل و الراذان، و طريق خراسان إلى نواحي حلوان. و أقطع الوزير عون الدين بن هبيرة جميع ما كان لوزير السلطان و أرباب مناصبه فى جميع هذه البلاد، و أعانه على الاستعداد و إضعاف الأعداء بتضعيف الأعداء.

و نعتة بتاج الملوك فلك الجيوش.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٨

و كان الإمام لما استخلف استخلف على أنه لا يشتري مملوكا تركيا، و كان يقتنى مدة خلافته إما أرمينيا أو روميا. و لم يكن له من الأتراك إلا- ترشك، ملكه قبل الإمامة، فولاه الإمارة على الأمراء، و اختص من مماليكه الروم و الأرمن عدة من النجباء، سماهم الخيلية، و ولاهم الرتب العلية. و أحكم أسوار بغداد، و حفر خندقها.

و رتب الولاة فى الولايات، و بث العيون و أصحاب الأخبار، و بعث الجواسيس إلى جميع الأمصار. و اشتغل السلاطين بعضهم ببعض فى تلك السنين، و أعطى الله الخليفة التأييد و التمكين. و كان الخليفة قد سير قطب الدين العبادى فى سنة ٥٤٦ هـ أو ٥٤٧ هـ، رسولا إلى محمد بن محمود بخوزستان، فتوفى هناك، و ختمت به الفصاحة الوعظية، و أظلمت مطالع العلم المضية.

و لما عاد السلطان بعد هرب عمه سليمان إلى همدان، راسل الخليفة و خاطبه فى الخطبة له فما أجابه، و تجنى عليه بقتل ابن بلنكرى و عابه، و آيسه من ملك بغداد و خيب رجاءه، فحينئذ اجتمع عند السلطان الأمراء الذين حلت إقطاعاتهم ببغداد و قالوا: "أرزاقنا قد أقطعت، و أعراقنا قد قلعت. و دورنا قد أنزلت، و ولاتنا عزلت. و لا بد من مداواة هذا الداء قبل إعضاله، و تداركه قبل استفحاله."

و كان السلطان محمد يرجع إلى عقل و دين، و حلم ركين، و رأى رزين. فقال: "لا- تعجلوا، فإن مخالفة الخليفة شؤم، و مواليه محمود، و معاديه مذموم. و أنا أستقيح أن أستفتح سلطنتى بمعاداته، و نية مناواته." فقالوا له: "نحن نمضى و نقضى هذا الشغل، و نخفف عنك هذا الثقل. و نلقى بجمعنا الجمع، و نحصد بسيفنا الزرع." فقال لهم: "كان رأى ما ذكرته، و عرفتمكم ما أنكرته. و الآن فافعلوا ما رأيتموه، و اعملوا ما نويتموه." فودعوه و ركبوا، و جاء إليهم من وافقهم و ذهبوا. و تجمعوا فى جحافل حافلة، و عساكر فى ذلذل «١» السوابغ رافلة. و ساقوا بين أيديهم التركمان ببيوتهم و مواشيمهم، و أهاليهم و حواشيمهم. و كان حصن تكريت قد بقى فى يد

مسعود البلالى، و به نائبه أسبه، و حصره الخليفة مرارا فتمنع، و لم يفتح مغالقه المتصعبة. و فى هذه القلعة ملكان من السلجقية معتقلان، و هما ملكشاه بن سلجق بن محمد بن ملكشاه،

(١) ذلاذل جمع ذلذل و هو أسفل الثوب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٣٩

و أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه. فقالوا لمسعود البلالى "أحضر لنا الملك أرسلان بن طغرل ابن عم السلطان، ليثق بحضوره جموع الأجناد و حشود التركمان." فأقطع عليهم بدره و رفع جتره. ثم وصلوا إلى نواحي العراق.

و لما عرف الإمام ذلك، أمر فأصحرت أسده الخوادر من عريسهها. و تبدلت خيش الوشيح من خيسها. و برز فى مظلته، كأنه البدر فى هالته. و نور النبوة يشرق من جبينه، و القضيب النبوى يورق بالنصر فى يمينه. و البردة الموروثة فوق رداءه، و القدر بالقدرة على أعدائه، ملبى ندائه. فسار فى موكبه الشريف، و على مقدمته وزيره عون الدين بن هبيرة، فى أسود استلأمت من الدرود بأهب أسود، و فى سحائب قساطل، من المناصل و الصواهل، بوارق و رواعد. و فى اليمينه و الميسرة أمراء و مقدمون من عظماء العسكر، كناصر الدين منكوبرس، و أمير واسط مظفر الدين قتلغ برس، و كلاهما من المسترشديه، و حاميا لحوزة المقتفيه. و فخر الدين قويدان، و منكلبه العباسى، و بهاء الدين صندل. و الأمراء المصطفون المصطنعون، و الحماة و الكماة المدرعون المقتنون. و خيم الخليفة على مرحلتين من بغداد فى موضع يعرف ببجمازا، و أقام دون شهر ينتظر منهم البدايه، و يستبعد من غوايتهم الهدايه.

و لما تراحم المجران، و تراجم الجمران. تجزأ العدى بغيهم و غيهم على الاقتحام، و حسروا عن أقدام الإقدام، و قالوا لو أن للقوم بنا طاقة، ما تحملوا من توسيع مدة الإقامة إضاقه. فقد عزت الأقوات و عدم العلف، و وجد التلف. و جهلوا أن الإمام متبع حكم الشرع، فى قتال أهل البغى عند صيالهم بالدفع. فركبوا و ما رقبوا، و برزوا و جلبوا. فركب أمير المؤمنين فى مهاجره و أنصاره، و وقف فى القلب منهم بين أسماعه و أبصاره. و قدم وزيره ابن هبيرة أمامه، و سير معه أعلامه، و أمر الأمراء أن يكونوا معه قدامه. فأقمرت ليالى الرايات السود، بوجوه رافعيها البيض، و أشرقت أيا من الأيام الإماميه بنوره المستفيض، و شرع برق الحديد اللامع على حواشى بوارق البوار فى الوميض. و أولئك قد ساقوا دواب التركمان و مواشيها و أغنامها، و قدموها بين يدي صفوفها قدامها. و كانت آلافا كثيرة الأعداد، كثيفه السواد. و من ورائها الوقاه الكماة، ذوو الحميه الحماة. و قد أخذت هذه المواشى طول الأرض و عرضها، و منعت بتراصها تقويض صفوفها و نقضها.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٠

فتزل الأمير فخر الدين قويدان قائد الجنود، و قبل الأرض للخليفة، و طلب بلاد الحله، و اقتدى به ناصر الدين منكوبرس فى طلب البصره. فأنعم بهما عليهما، فتأهبا للقاء، و تلهبا على الهجاء. و حمل الوزير و من معه، فلم يجدوا فى تلك النقاد للأساد طريقا، و صادفوا فى ذلك الفضاء الواسع للأنعام المحشوره إليه مضيقا. و كان ترشك مملوك الخليفه للمخالفين مخالفا، و فى اليمينه واقفا. فحملت ميمنتهم على ميسره الخليفه، و فيها مهلهل ابن أبى عسكر و الأكراد، فهلهلت نسجها، و حلحلت برجها.

و عادت صفوف الأكراد أكدارا، و أجفلوا كالظلمان «١» هزيمة و فرارا. و دخل ترشك بين أطناب السرادق الشريفه، فطعن برمحه ظهير الدين بن الفقيه المرتب فى المخزن فقتله، و ركضت ميمنتهم خلف المنهزمين فلم يعرجوا، و مروا وراءهم و مرجوا.

و أما اليمينه الميمونه الإماميه، فإنها حملت، و فيها ناصر الدين منكوبرس و فخر الدين قويدان، و نفذت إلى القوم، و قوضت ما قابله من البنيان المرصوص، و حكمت بنصر الحق المنصوص عليه، على الباطل المنقوص. فلم ير غير رأس سائر، و رأس طائر. و رزح يتشظى، و صارم يتلظى. و تبدد شمل آمال الأعادى، و تفرقوا عبايد. و أخلفهم الشيطان ما كان مناهم من مواعيد. و طاروا على خيولهم كأنما استعارت من قوائمها قوادم، و تركوا بتلك المغانى من أغنام التركمان مغانم. و خبت البشرى إلى بغداد بالنصر، بعقب

إرجاف الأجلاف المنهزمين بالكسر.

ووقف بعد الهزيمة مسعود البلالى فى قلبه ثابتا قلبه، راجيا أن يثوب إليه حزبه، فهب إليه ابن هبيرة فهبره، و برى أجزاء صفه وجز وبره. و انتهب الفرصة الأمير سنقر الهمداني، فانفرد بالملك أرسلان بن طغرل و سار به، و أخفى مسيره فى مضائق كل وادى و مساربه. حتى وصل به إلى شمس الدين إيلدكز زوج أمه، و كأنما أنزل به الغنى بعد عدمه. و أما الخليفة فإنه سجد لله شكرا، و انشرح بالنصر صدرا. و دخل إلى بغداد منصور اللواء، مصحوبا بأملاك السماء. و لما تمت على أولئك القوم فى أملهم الخيبة، تملكتم من جانب أمير المؤمنين الهيبه. و نكصوا على أعقابهم عاثرين بذيل الخجل، عابرين على سبيل الوجل. فلما رجعوا إلى السلطان محمد بن محمود ندمهم،

(١) الظلمان: جمع ظليم و هو ذكر النعام.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤١

و عاتبهم على الملك الذى ند منهم. و قال: "كسرتم ناموسكم، و أتلفتم نفوسكم، و أهلكم التركمان و عرضم للسبى الذرارى منهم و النسوان. ثم أخرجتم الملك أرسلان و غفلتم عن حفظه، و هو الآن عند إيلدكز، و ستبصرون ما يفضى إليه الأمر. و لابد أن يتوجه إلى من جانبه الشر. و قد صار الخليفة خصما، فلا يخلص بعد هذا ورد دولتنا معه من الشوب، و لا يقبل على قبول التوبة و لا يرتضى صوابا إرضاء هذا الصوب."

و كان كما حسب. فإن الخليفة لم يغفر للسلجقية بعدها ذنبا، و لا فرغ لهم من جهته قلبا، و كانت الوقعة ببجما فى أواخر سنة ٥٤٩ هـ.

### ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد و قبول الخليفة له و تجهيز الجيش معه و ذلك فى سنة ٥٥٠ هـ

قال- رحمه الله:- كان سليمان قد تخلى عن الملك و أخلى سريره، و وافق إداره تديره. يدور فى البلاد و يبلى بالدوائر، و ينجد مع المنجد و يغور مع الغائر. لا يستقر به قرار، و لا تؤويه دار، و لا يجيره جار. فلم ير لأمره و أمنه حاميا غير حمى أمير المؤمنين، فقصد أن يعلق من عصمته الجبل المتين. قال: و كنت حينئذ ببغداد، فوصل الخبر بأن سليمان قد دنا ودان، فقابلوا بوفور القبول وفوده و أكرموا وروده. ولو وفوه حق السلطنة لتلقاه الوزير و معه قاضى القضاة و النقيبان، و أجلاء الخدم كما جرت عادة السلطان. لكنهم اقتصروا فى تلقيه على موكب شريف يقدمه عز الدين محمد ابن الوزير، و معه مخلص الدين بن الكيا الهراسى و خادمان، و وقف الموقف خارج البلد، حتى قرب، ثم لقيه ابن الوزير و خاطبه بكل ما أطربه و أعجبه. و قال: "أمير المؤمنين- صلوات الله عليه- يسلم عليك، و يهدى تحيته إليك." و ترجم ابن الكيا الهراسى له هذا السلام بالفارسية. فنزل سليمان عن فرسه، و قبل الأرض، ثم ركب و دخل البلد، و خرق الأسواق من باب سور الحلبه، إلى أن جاوز فرضه الرحبه. و حين وصل إلى باب النوبى أنزلوه، و ألزموه بتقيل العتبه و قد أكرموه و هناك حجر، إذا وصل الرسل و مقدمو الحاج، نزلوا عنده و لثموه و عظموه. و ما قيل تلك العتبه قبل سليمان سلطان سلجقى، و لا ملك ديلمى. و كان منهم شقى و سعيد.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٢

ثم أركبوه و خرقوا به السوق، حتى عبروا به باب سور السلطان و أنزلوه بدار السلطنة، و وظفوا له الرواتب، و رتبوا له الوظائف، و شرفوه و سوروه و طوقوه، و خطبوا له على المنابر فى الجمع و الجوامع. و خصوه بالعوارف و الصنائع النصائح.

لكنهم لم ينعتوه إلا بالمعظم، و لم يسموه بالسلطنة و لم يسموه، و كانوا يقتصرون به على المعظم. و ذلك غاية أن يعظموه، لكنه كان فى قد عقله من غفلته، و عى لهجه من غى جهلته. و فى كسرة من سكرته، و فى ذل من لذته. فما زال مدة مقامه مستحلا لمحارم شهواته، مستحليا مذاق اللهو فى لهواته، مترنما بنغماته، متبغما بخرافاته. و الخليفة مع ذلك فى ولائه معتقد و لوائه عاقد. متيقظ لتدبير

مصالحه و هو عنها راقداً. و قد أوعز إلى عساكره بالتأهب للمسير في خدمته، و إعادته إلى عاداته في سلطنته. و استوزر له شرف الدين الخراساني، و كان رجلاً كبيراً يرجع إلى سؤدد و كرم محتد. و كان قد وصل إلى بغداد في عهد السلطان سنجر رسولاً، و أعاد البردة و القضيب النبويين معه إلى دار الخلافة، و كانا قد أخذوا في التوبة المسترشدية.

و أقام شرف الدين هذا في الظل الأمامي، و هو مخصوص بالاحترام، فرأى المقتضى أن يجعله وزير سليمان، و سيره إلى أذربيجان. و جهز معه عساكر وافية العدد، و أفره العدد. فمضوا به إلى أزيانية ثقةً بأتابكك إيلدكز فما رفع بهم رأساً، و لا قراهم إيناسا.

و وصل السلطان محمد بن محمود و جرى المصاف، و وقع بين الفريقين الانتصاف. ثم انهزم سليمان مولياً، و عن عسكر الخليفة متخلياً. فعادت العساكر إلى بغداد عادمةً للظفر، نادمةً للسفر. و رجع سليمان عائداً إلى بغداد في طريق الدر بند القرابلي، فصبحه زين الدين علي كوجك من الموصل، و قبضه في المضيق، و حمله إلى قلعة الموصل. و اعتقله و أراحه من التعب، و أباحه ما كان يؤثره من اللعب، و كان ذلك في شعبان سنة ٥٥١ هـ.

### ذكر اتصال الملك جغرى شاه بن محمود بأخيه السلطان محمد

قال- رحمه الله:- كان الملك جغرى شاه مع أتابكك آياز في أذربيجان. فشغل خواطر الأميرين إيلدكز و أرسلان آبه، صاحبي أذربيجان، عند اتصالهما بالسلطان سليمان، بعد انهزام محمد إلى أصفهان. فلما عاد محمد إلى السلطنة، سير شرف الدين تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٣

كردبازو لإصلاحهم، و الصلح بينهم. فوصل و الحرب قائمة على ساقها، آخذة من الأرواح بأطواقها. فأصلح ذات البين، و عاد قير العين. و قد تسلم جغرى شاه، و ملأ بحمده و مدحه القلوب و الأفواه. و جمع شمل السلطان بأخيه، و عاد أتابكك آياز إلى ولايته، و كانت رعيته آمنة في كنف عنايته. و اقتسم شمس الدين إيلدكز، و نصره الدين أرسلان آبه، بلاد أذربيجان، و أفرجا عن أردبيل للأمير آغوش، و أعادوا من رسوم العدل النقوش. و اجتمع السلطان محمد بأخيه جغرى، و الأخوة تحمله على الشفقة و الملك به يغرى.

قال: و كنت في ذلك العهد- سنة ٥٤٩ هـ- بهمدان، و قد عدت من الحج يصحبه جمال الدين محمود بن عبد اللطيف الخجندی. فشاهدت السلطان قد أنس بأخيه و سر به، و امتزج به، في مطعمه و مشربه. و لاطفه بعطفه، و عطف عليه بلطفه. ثم أمر باعتقاله، و وكل به الأمير عز الدين ستماز بن قايماز الحرامي يرصده ليلاً- و نهاراً، و يرعاه سرا و جهاراً. و مازال الأمر على ذلك حتى فارقنا العسكر، فما أدري أين أقبل به القضاء بعد ما أدبر. و من حين نقل ما سمع له خبر، و لا رئى له أثر. فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء، و جبلت جبلتهم على الإغفال و الإغفاء. فالرحم عندهم مقطوعة، و الرحمة ممنوعة، و العزة في خدمتهم بالذل مشفوعة، و الاغترار بهم غرر و صفوهم كدر. يقسمون و يحتنون، و يرمون و ينكتون.

### ذكر حوادث جرت في تلك السنين

قال في سنة ٥٤٨ هـ استولى الغز على السلطان سنجر، و كانت حادثه هائلة و سنذكر أيام سنجر عند وفاته. و في هذه السنة استولى الإفرنج على عسقلان، و في هذه السنة قتل العادل ابن السلال سلطان مصر، قتله ابن امرأته. و في هذه السنة توفي ابن منير الشاعر بحلب، في جماد الآخر. و توفي ابن القيسراني الشاعر بدمشق، في الحادى و العشرين من شعبان. و توفي أبو الفتوح بن الصلاح الفيلسوف البغدادي بدمشق، في الخامس و العشرين منه. و في سنة ٥٤٩ هـ، توفي تمر تاش صاحب ماردین في أول المحرم، و فتح نور الدين محمود بن زنكى دمشق يوم الأحد ثالث صفر سنة ٥٤٩ هـ. و قتل الظافر متولى مصر ليلة الخميس لانسلاخ صفر.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٤



قال: وفي هذه السنة توفيت حليئة السلطان محمد بن محمود بنت السلطان مسعود، فجلس للعزاء، وامتري در البكاء. و كنت حاضرا في زمرة العلماء. و وصل إلى خدمته أتايك إيلدكز في عساكر أذربيجان، و الأمير شير بن آق سنقر بعسكر أخيه، و أقاما عنده على همذان، ثم استأذنوا في العود و عادوا، و زادهم السلطان حرمة و قوة فزادوا. و وصل رسول ملك كرمان فأكرم، و أحضر حملا فقدم، و سير جمال الدين بن الخجندی مع الرسول رسولا إلى كرمان، ليخطب بنت الملك للسلطان.

قال: فعدت معه إلى أصفهان، فسامني السفر معه في تلك السفارة، فرأيت الربح فيه عين الخسارة، فتأخرت و تقدم، و أحجمت فأقدم. و أقمت فظعن، و أسهلت فأحزن فإنني عند مسيره إلى كرمان سرت على طريق خوزستان إلى بغداد، و جثت إلى عسكر مكرم في شوال سنة ٥٤٩هـ، و الملك ملكشاه بن محمود مالکها، و قد أمنت به ممالکها و مسالکها. و لقيت رئيس الدين محمد بن القاضي أبي بكر الأرجاني، و هو في نيابة القضاء، موفور الحرمة في العلماء. فذكر لي أن والده توفي سنة ٥٤٤هـ، و أعطاني مسودات من أشعار والده، فتنزهت في رياض فوائده. ثم ارتحلت إلى بغداد بعد وصول الخبر بنصرة الخليفة في حرب بجمزا و ظفره، و كنت مع والدي فحرضته البشري على سفره.

قال: وشتي السلطان محمد بن محمود في هذه السنة بساوه، و استعجز جلال الدين بن القوام وزيره، و استقصر تدبيره. و استقصى من فارس تاج الدين الدارستي ليستوزره، فوصل تاج الدين إلى أصفهان، و أقام مدة فبرد أمره، و خمد جمره، و استبتأ السلطان سيره، و استوزر غيره.

### ذكر وزارة شمس الدين أبي النجيب الدر كزینی

قال: قيل للسلطان إنه وزير عمك، و ظهير عزمك. و قد سبقت له خدم، و ثبت له في القدم قدم. فنصبه في المنصب، و رتبه في أعلى الرتب. و استند و تصدر، و أورد و أصدر، و خاطب الأمراء الذين استأثروا بالبلاد أن ينزل كل منهم عن شيء مما في يده، ليكثر الخواص السلطانية، و استضاف بلادا عامرة إلى النواحي الديوانية. فتوفر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٥

الاستظهار و ظهر التوفير، و أثمر الرجاء و رجي التثمير و قال للسلطان: قد اتسقت الأحوال، و اتسعت الأموال. و قد فرغ البال لشغل بغداد، فاسترجع حقك المغصوب، و لا تترك نجحك المطلوب. فإنها دار ملكك، و مقر أيبك وجدك. و أنت إذا مضيت بنفسك، فما يقف قدامك أحد، و لا يكون معك لأحد يد. فلما حضر الربيع مائدته، و وفر فائدته، و أحسن عائده، عاد السلطان إلى همذان، و ذلك في سنة ٥٥٠هـ، و رحل على سمت بغداد، و رحل عدة مراحل، و نزل في قصدها منازل. ثم بدا له فعاد؛ لأن الأمراء الذين سبقت منهم المواعيد على المعاودة أخلفوا العدا، و لم يطاوعه العسكر على مفارقة البيوت و الإقطاعات، عند إدراك الغلايت. فانصرف راجعا، و توجه إلى أذربيجان، و تم المصاف الذي نصر فيه على عمه سليمان. ثم عاد إلى مقر ملكه، و في قلبه من أمر بغداد هم شاعل، في صميم روحه و أغل. و علم أن الجند لا يفارق بلاده في الصيف، فإنه لا يجمع بين حر بغداد و حر السيف. فواعدهم في الخريف، و أمنهم من الغرر المخيف. و اشتغل بالاستعداد و الاستعداد. و الاجتهاد في الاحتشاد. و تجهيز الكتب إلى مجهزي الكتائب. و تبريز المضارب، و تمييز الطلائع و المقانب «١». فارتحل لما انقضى المصيف و أقبل الخريف.

### ذكر وصول السلطان محمد إلى محاصرة بغداد و ما اعتمده أمير المؤمنين المقتدى لأمر الله من حسن الصبر المعقب حميد الظفر و النصر

قال- رحمه الله:- وصل الخبر إلى بغداد في ذي القعدة سنة ٥٥١هـ، بأن السلطان محمد قد قرب في عسكر هائل، و عرمرم صائل. و هو بمنزل "قصر قضاة" فصدق اهتمام الخليفة بالاحتراز و الاحتراس، و أجد لباس الجد للباس. و بالغ في تحصيل العدد، و تحصين

البلد. و أدار بالمنجنيقات سورا على السور، و ملأ أبراجه بالحماة المساعير. و خرج الوزير ابن هبيرة و خيم تحت التاج الشريف، عند المثنمة على شاطئ دجلة، بحيث يطل الخليفة من المثنمة على خيمته وزيهه، و يقرب الاستثمار في دقيق الأمر و جليله، و قليه و كثيره. و فتح باب الكرم المرتجى المرتج. و ثبت قلب

(١) المقانب: جمع مقنب، و هي جماعة الخيل تجتمع للغارة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٦

الإسلام الخافق المرتج. و أعد العدد الخاصة و الخرجية، و استخدم المنجنيقية و الجرجية.

و كان من حزم الخليفة، أنه منذ توفي السلطان مسعود، و نفى مسعود الخادم البلالي من بغداد، أو عزز بإعداد الذخائر و ادخار العدد، و الاستظهار بشغل صناع السلاح. و كانت حجارة المنجنيق معوزة، فأحضر منها في السفن ألوف صارت محرزة.

و أمر ببناء المراكب المقاتلة، و السفن فرعن في دجلة راسيات كالزعن «١». و عبر محمد شاه دجلة إلى الجانب الغربي من أعلى بغداد على بعد منها بجموعه، و راع كل قلب بصدوعه. و كان قد واعد زين الدين على كوجك فوصل بعسكر الموصل يوم الميعاد، في وفور من العدد و الأعداد. و أطلوا من الجانب الغربي على بغداد. و كدروا المشارب، و وفروا المصائب. ثم بكروا و أشرفوا، و بالغوا في العتو و أسرفوا. و وقفوا بإزاء التاج الشريف و شرعوا في السبع، جارين على سوء الطبع. و نبعت من معاجس قسيهم غروب النبع. و جرحوا من النظارة جماعة أحسنوا بهم الظنون، و أمنوا منهم المنون.

و قابلوا الفرض بالرفض، و قاتلوا الله تعالى بقتال خليفته في الأرض. و نزلوا على بعد من بغداد حتى تألفت ألوفهم، و التف ليفيهم. و سيروا إلى الحلّة و الكوفة و واسط و البصرة و لاة و مقطعين، و شحنا و متصرفين.

و في كل يوم يسير الخليفة في دجلة مراكب، مملوءة بمقانب فيها المجانيق الخفاف، و العرادات اللطاف، و الرماة الكماء، و الجرجية الكفاء. فيحاذون المعسكر المحمدي في دجلة و يرمونهم، و يشوونهم و يصمونهم، حتى رأى السلطان محمد التنقل إلى حوالى سور بغداد، فجاء و نزل على الصراة بدار یرنقش الزكوى، و عبر أمراؤه الكبار إلى الجانب الشرقي مثل أتابك آياز، و عز الدين ستماز، و من يجرى مجراهما من ذوى الاعتزاز، و بقى على كوجك بالعسكر الموصل في الجانب الغربي، و السلطان معه، و هو يعبر في دجلة إلى دار السلطنة في جانب بغداد كل وقت و يعود، و البيض قد هجرتها الغمود، و العقول قد انحلت منها العقود. و تبرز خيل بغداد في كل يوم منها من يأتى سور السلطان و الظفرية، و يقفون خلف الباشورة المبنية للحملة على من يكون

(١) فرعن: نزلن، كالرعن: كالجبل الطويل.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٧

منهم في الجاليشية «١». فهم يخرجون، و يجرحون و يجرجون. فيأمر لهم الخليفة بالعطاء، على قدر البلاء.

و كان لكل جراحة على مقدارها عطاء، و لكل عمل مبرور جزاء. فتوفرت دواعى العوام على التهافت في نار الحرب تهافت الفراش في النار، للفوز عند العود بالدين و الدينار. فقامت الحرب على بغداد بالمساء و الصباح، و الغدو و الزواح. و طالت مدة الحصار، و لم يؤثر في الأسعار، و ما عز غير اللحم، و لا عز الملح. و الأمل مقترب النجاح، و خسران الخصم دليل الربح. و كانوا قد نصبوا من الجانب الذى من دجلة على مسناة دار العميد، و بقرب القمرية، منجنيقين عظيمين، و هموا بنصب منجنيق آخر على الخان الذى بناه سرخك مقابل التاج. و لو تم ذلك لأعضل داء الإزعاج.

فعين الخليفة ليلا رجالا أتوا بنيانه من القواعد، و كان لوقوعه سحرا رجفات كأصوات الرواعد. و كانت السفن المترددة في دجلة برماة الجروح و النشاب و القوارير المحرقة، و النفاطات المزركة، و قد آذتهم و آذنتهم بعجزهم، و عزت بإزهاقهم فأزهقت روح عزهم. و ما

كانت لهم مراكب إلا عدة يسيرة يسخرون ملاحيتها، و يخسرون مالكيها.

ثم لا يتقون بالركوب معهم فيها، فحاروا و خاروا، و تشاوروا و استشاروا.

فقال لهم بدر بن المظفر بن حماد صاحب الغراف، و كان قد جاهر الخليفة بالخلاف: أنا أكفيكم بسفن مقاتلة، و أغنيكم بمراكب حامله، و جوار منشآت، و زوارق و سفارات «٢» من بلد واسط و البطائح، من الداني و النازح. فحمدوه و شكروه، و مضى و أقاموا ينتظرونه حتى وصل بالسفن الخفاف و الثقال، و الملاحين و الرجال، فامتنع عليهم عبورها في البلد إليهم، و رتب الخليفة الرجال في المراكب للقائها، و إحراقها بالنار و إردائها. و لما شق عليهم ذلك ردوها إلى نهر عيسى، بعد أن مدوها إلى الفرات. و أخرجوها فوق بغداد في الصراة. و تكاملت مدة شهرين في ذلك، ثم بدأوا بعقد جسر على دجلة فوق دار السلطان من تلك الزوارق، و اتسعت طريقهم في العبور بالتغريب و التشريق. و ضايقوا في الحصر من الجانبين، و شددوا في منع الميرة

(١) الجاليشية: كلمة غير عربية و لعلها فارسية، و لا ندرى لها معنى.

(٢) سفارات: لعلها من شفر بمعنى استأصل أو ضيق.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٨

و قطع الأقوات بجذع الأنوف و قطع اليدين. و وصل إليهم من الحلة أمراء بني أسد و رجالها، و فتاكها و أبطالها. و قالوا هذه بغداد من جانب دجلة ما عليها سور، و توانيكم في هجمها قصور و فتور. فسلموا إلينا المراكب لهجمها، و ما أسهل علينا أن نقتحما. و أذن لهم السلطان في الزحف، فركبوا المركب مستلثمين معلمين، و عبروا إلى المدينة، على الموت مقدمين. و لما وصلوا إلى قرب السور، خرجوا من السفن شاكين، فخرج إليهم من الباب من مماليك الخليفة من طاردهم و جالدهم، و هم مع ذلك يبعدون من الشاطئ، و يوسعون إلى الموت خطوة المصيب غير الخاطيء. ثم كثر عليهم رجال بغداد كثرة حصلوا منها تحت العسر، و في قبض الأسر. و تظافروا إلى السفن فغرق أكثرها، و انخسف بهم موقرها. و قبض الأمير حسن المضطرب و أخوه ماضي، و عدة وافر من معروفى بني أسد، و عدم كثير ممن غرق أو قتل أو فقد. و أمر الخليفة تلك الليلة بصلب حسن و أخيه على دقل زورق، و أصبح الباقون على السور ما بين مصلوب مشنق، و مقتول معلق، ففتح الله لخليفته من المهابة لأولياته و المهابة لأعدائه كل باب مغلق. و سقط في أيديهم بعد ما بسط من تعديهم.

و لما طال الحصار، و تمادى الانتصار، خاف الخليفة الغلاء، ففتح الأهرام، و اقتصر للأجناد في الأعطيات على تفریق التمور فيهم و الغلات. و أخذوها، و احتاجوا إلى أثمانها في النفقات، فرموا في الأسواق و باعوها بالدينار. فخدم بذلك استعارة نار الأسعار، و ما زاد سعر في الأقوات و لا غلا مطعموم في وقت من الأوقات.

و في صفر سنة ٥٥٢هـ، وصلت قافلة الحج، فوجدوا دار الخليفة محصورة، و الهمم من الخارجين على خلاف تعظيمها مقصورة، و نزلوا في المعسكر السلطاني، ثم تفرقوا إلى بلادهم، و رحلوا طالبى أغوارهم و أنجادهم، و من كان من بغداد تحيل في الدخول إلى منزله، و الوصول إلى منله. و ببغداد حينئذ خلق من التجار، يريدون بل يؤثرون مرافقة الحاج، و يقولون متى أخذوا البلد نهبوا بضائعنا، و استخرجوا و دائعنا.

فحضروا التاج، و أكثروا الضجاج. و حاولوا من ضيقهم الإفراج. فقال لهم الوزير "أمير المؤمنين يقول لكم: أنتم في حرم إحسانى، و فى ضمان أمانى. و لكم بى أسوء، و هذه النبوة، ما لها نبوة. و أموالكم فى البلد مصونة، و بأسباب الرعاية منا مضمونة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٤٩

و إذا خرجتم، و وضعتموها على طرق الطوارق، و تعرضت لكم دون السفر عوائد الحداث فى البوائق، فاصبروا، فإن الصبر محمود العواقب. و الله لنا كفيل بفل ناب النوائب.

فضجوا حتى أضجروا، وزجروا فما انزجروا. فوكلوا إلى آرائهم الفائلة، و آرايهم الحائلة. فاستبقوا الباب، و ما استبقوا الألياب. فخرجوا و أحرزوا تلك البضائع في الدار السلطانية، و لم يقدموا مع تلك الفتن على السفرة الهمذانية. فما مضت عليهم إلا أيام قلائل، حتى غالتهم غوائل. فنهبوا و سلبوا و أصبحوا فقراء، و هذه سنة الله في الأغنياء، إذ كانوا أغبياء. و سنذكر سبب ذلك إن شاء الله.

قال: و أما العسكر النازل، فإن السلطان رأى مراسلة الخليفة بالاستعطاف و الاستعطاء، و الاستغفار و الاستعفاء. و كان في صحبته من العلماء صدر الدين محمد ابن عبد اللطيف الخجندی، و شمس الدين أحمد شاذ الغزنوي. فأرسل كلا منهما على حدة، فلم يمكنا من الوصول. و قيل لا مطمع في نجاح السؤال بالرسول. فإنكم لو أردتم الإجمال، لقدتمتم الأرسال. و الآن، إن استرجعتم، و رجعتم، و رأى الوري منكم الندم على ما فعلتم، فهناك نسمع الرسائل، و نقبل الوسائل. ففقط القوم من قبول الرسالة، و شرعوا في الشر، و عادوا إلى العدوان، و لجوا في العصيان و الطغيان، و تخريب العمران.

و انخرقت مهابتهم عند أهل بغداد. فطلبوا بكل نوع عليهم الاستحواذ، فصاروا يكبسونهم في الضياع، و يغافسونهم «١» بالقراع. و يقطعون الطرق على علاقتهم، و يوجدون السبل إلى تكثير مخافتهم. و كانت الأكلاك و اصله من الموصل إليهم بالميرة، و الأقوات الكثيرة. فتلقوها في دجلة فأخذوها، و عبروا بها عليهم و عجزوا أن ينقذوها.

و امتنع أهل الموصل بعد ذلك عن تسيير الأكلاك فما أنفذوها.

و كان وزير الخليفة منذ وصل محمد للمحاصرة واصل مكاتبة أتابك شمس الدين إيلدكز، و حثه على الحركة مع أحد الملكين: ملكشاه، أو أرسلان شاه إلى همذان، فوصلهم الخبر بأن ملكشاه هجم على البلاد، و استولى على الطراف و التلاد. و اقتطع الإقطاعات و حوى الغلات، و رفع الارتفاعات. ففت ذلك في عضد العسكر و تضعع

(١) غافصة: أي فاجأه و أخذه على غره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٠

ثباتهم بهذا الخبر. و حمى أيضا عليهم الحر، و اشتعل البر و البحر. فاجتمع عند السلطان الخواجكية و الأمراء، و الأماثل و الكبراء. و كان الوزير، شمس الدين أبو النجيب الأصم الدركريني، و المستوفى رضى الدين أبو سعد الخوافي، و نائب الاستيفاء، كمال الدين أبو الريان و من الأمراء أتابك آياز، و عز الدين ستماز، و شرف الدين كردباز، و مسعود البلالي، و ظاهرهم على الرأي زين الدين على كوجك الموصلی، و قالوا نعبر بأجمعنا إلى الجانب الشرقي و نصدقهم القتال، و نديم عليهم النزال. فإن تيسر الفتح فقد سفر النجح. و إن تعذر و تعسر تفرقنا على مواعدة المعاودة من قابل، و حصلنا من إدراك الطوائل على طائل.

ثم عمدوا إلى الجسر الذي لهم فأحكموه، و تجاسروا على الحكم الذي اعتمدوه.

و أصبح العسكر في يوم الأربعاء من شهر ربيع الأول و قد أخذ عدته، و لبس شكته.

و ركب خيله، و سحب من السوابغ على السوابق ذيله. و شرعوا في العبور على الجسر مزدحمين، و على العثور بالمنية مقتحمين. و اتفق في ذلك اليوم هبوب ريح عاصف، و تموج بحر من الهواء قاصف. و تلاطمت الأمواج، و تراحمت الأفواج. و ثقل الجسر و انقطع، و هم العسكر أن يرجع فلم يجد طريقا للرجوع. و خاف من على الجسر من الوقوع، فمدوا أيديهم إلى الدبابيس فاضطربوا، و اضطروا إلى التنكيس و التعكيس. و لم يشعر من ورائهم بالأمر، و لم يطلعوا على انكسار الجسر. و انخرعوا لما هالهم، و حسبوا أن خطبا غالهم، فهموا و ما فهموا، و هموا بما و هموا، و ركب السلطان عند اشتباه الخطب، و اتجاه الخبط، و شط نازلا و نزل إلى الشط.

فقيل لزين الدين على كوجك: إن السلطان قد ركب، و أن العسكر قد اضطرب. و أنه قد عبر إلى الدار، و حصل على الاستشعار. فركب أيضا في العسكر الموصلی على سبيل الاستظهار. و لما شاهد أهل بغداد اختلافهم و اختلالهم، و اختلاطهم و اختباطهم، فتحوا أبواب البلد، و هتفوا بأرباب الجلد. و نادوا بشعار أمير المؤمنين و نصره، و زحف العالم في بره و بحره. و جذفت السفن الخفاف بمن

خف من الرجال، و هجم الحق على الباطل بالأبطال. و القوم مشغولون بأنفسهم، حائرون لما عراهم من تعكسهم. و من حصل منهم في الجانب الشرقي، لا طريق له إلا الجانب الغربي. فتتحمّ البغداديون على الدار السلطانية و أجلوهم عنها، و أبعدهم منها. و دخلوها و نهبوا ما

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥١

فيها من الأموال المودعة، و الأتقال المجمعّة. و عاثوا في بضائع التجّر و ودائع السفر.

و لما لم يبق في الدار شيء قلعت أبوابها، و قطعت أسبابها. و انصرف القوم هائبين، خائبين سادمين نادمين، و شغلوا عن أثقالهم، و ثقلوا بأشغالهم. و وقفوا على سهوات الخيل، إلى دخول الليل. ثم سروا و أدلجوا، و عرجوا إلى تلك المسالك و لم يعرجوا.

و سار من الجانب الغربي من عساكر همذان و أذربيجان مع عسكر الموصل للضرورة، و دفعوا إلى ما لم يقدره و لم يخطر لهم من الأخطار المقدورة. و أصبحت بغداد و قد أتاها الله بالفرج، و قرن بهاءها بالبهج، و أحكم حكم نصرها من أطفاه بالحجج، و أنجى أهلها في سفينة السكينة من طوفان الفتن المتلاطمّة اللجج. و غيض الماء و قضى الأمر و نصر الحق و حق النصر. و كفّ المقتضى عن اكتفاء المنكفين، و ستر على المستترين منهم في المحال و المختفين. و انتشرت عساكر أمير المؤمنين في البلاد، و استبشرت بالنصر المعتاد. و عرف الأعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد و حبرت قصائد في هناء الإمام، و استخدمنى الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسطة، فنقلنى عن المدرسة إلى العمل، و عطلنى عن الاشتغال بالعلم، و ظن أنه حلانى بشغله من العطل.

### ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ابن داوود بن ميكائيل بن سلجق و شرح نبذ من أحواله من ابتداء عمره إلى خاتمة أمره

قال- رحمه الله:- توفى سنجر يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ بعد خلاصه من أيدي الغز، و كان مولده بظاهر سنجار، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ٤٧١ هـ، و ولاه أخوه بركيارق بلاد خراسان سنة ٤٩٠ هـ.

### ذكر السبب في ذلك

قال: كانت بلاد خراسان في أيام ملكشاه ساكنة الممالك، آمنة المسالك مشحونة الأطراف بالشحن، مسكونة الأكناف بالسكن. موطنة الديار بالأبرار، دارة المواطن بالمبار، و نظام الملك بنظام الملك مستتب مستدف، و نائله لذوى الفضل مستكف و لذوى الجهل مستكف. و ما بخراسان رأسان، و ما تسلط بها سلطانان. فلما

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٢

استشهد النظام، و أباح حمى ملك ملكشاه الحمام انفسخت تلك العقود، و انتخت تلك العهود. و استشرى الشر، و استضرى الضر. و استولى كل صغير على كبير، و كل مأمور على أمير.

و كان للسلطان ملكشاه أخ يقال له أرسلان أرغون، و كان مقطعا بمبلغ سبعة آلاف دينار في نواحي همذان و ساوه، فقيل له: إلى كم تلزم مرارة العطلّة و القناعة؟

و تهجر حلية الملك و الحلاوة؟ و حرّكوا ساكنه، و بعثوه على شغل أخلى عنه مساكنه.

فنزل عن قراء القرار، و ركب مطا المطار. و اشتد بطل الطلب، و شد لب الخبب.

و جاء إلى نيسابور فما تمكن منها، و دفعه أهلها عنه فصدع مروء مروء، و قال أملكها و لا غرو. فانقاد لأمره الأمير قودن شحنتها، و جعلت تحت مكنته أمكنتها. فقوى أرسلان أرغون بقودن، فإنه وجد الجواد و عدم الكودن. و استولى على بلخ و ترمذ، و صفت له

خراسان، و حيزت بلدانه البلدان. و كتب إلى ابن أخيه السلطان بركيارق:

"إني قد ملكت موضع جغرى بك داود جدى، يجدى و جدى، وقد رضيت به رضاء قانع، و أنا فيما سواه غير طامع و لا منازع. و أنا باذل لما تطلبون، و حامل لما فيه ترغبون." فرأى بركيارق أنه بالعراق فى شغل شاغل، و هم زائد غير زائل. فأمسك عنه، و أظهر أنه قبل منه.

ثم بدا له و آثر قتاله، و كان عنده عمه الآخر بورى برس بن ألب أرسلان فأنهضه لقتال أخيه، و ضم إليه مسعود بن ماجر، و أمير آخر التونتاش، و اجتمعت عليه عساكر خراسان، فطار من النشاط و طاش، و حث العزم البطاش. فأما مسعود، فإن التونتاش توهم منه بما قيل له، ففتك به و بولده، و صار الأمر كله فى يده. و وزر للملك بورى برس، عماد الملك أبو القاسم بن نظام الملك، فوضع و رفع، و فرق و جمع، و خرق و رقع، و ضيق و أوسع. و صاف بورى برس أخاه أرسلان أرغون و صدمه و حط عليه و حطمه، و هز طوده و هزمه. فعاد أرسلان أرغون إلى بلخ مكسورا محسورا، و أقام بورى برس بمكانه منصورا مسرورا.

ثم أرسل أرسلان أرغون إلى الأطراف و الأوساط، و حشد و حشر، و نهض إلى مرو و فرض مروتها، و حط ذروتها. و فتحها عنوة و هدم سورها، و قتل جمهورها. و برز بورى برس من هراء لقصد لقائه، و حفظ البلاد من بلاته. فزحف العسكر إلى تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٣

العسكر، و طنّ الذباب فى المغفر، و ضيح الثعلب فى لبه الغضنفر. و جنى ثمر النصر من ورق الحديد الأخضر. و طارت فراخ الجعاب إلى أوكار المقل، و أدمت لواحظ السهام من الخدود مواضع القبل. و برز البوار لبورى برس و كسر، و أدرك و أسر. و حمل إلى أخيه أرسلان أرغون، فما رق له و لا رفق، فاعتقله فى ترمذ ثم خنقه. و أخذ وزيره عماد الملك بن نظام الملك و صادره على ثلثمائة ألف دينار ثم قتله. و لم يترك سوءا إلا عمله، لا جرم أخذه الله و أقدر عليه قدره، و سلط على صفوه كدره. فإنه عاد إلى مرو و ظن أنه ملك، و أن خصمه هلك فقال له منجمه:

"أرى عليك قطعا، و أنت لا تملك لما قدر دفعا. و الحزم تحرزك و تحرسك، إلى أن تؤمن المخافة. و لا تخشى الآفة." فاحتجب عن أصحابه، و أغلق رتاج أبوابه. و لم يدع إلا مملوكا صغيرا كان به يأنس فانتظره، و أنكر تأخره. فلما حضر عاتبه كيف أبطأ، و عاقبه حيث أخطأ. فضربه الغلام بسكين معه و صرعه، فقصى موضعه. فلما قيل للمملوك لم فعلت ما فعلته؟ و علام قتلتها؟ قال: "أردت أن أريح الخلق من ظلمه، و كان هذا بقضاء الله و سابقا فى علمه." و قتل أرسلان أرغون فى سنة ٤٩٠ هـ و سنة ٢٦ سنة.

و كان السلطان بركيارق، لما عرف استيلاء عمه على خراسان، قلدها أخاه أبا الحارث سنجر، و رتب معه العسكر. فوصل الخبر بمقتل عمه فكفى قتاله، و استصوب إنفاذ أخيه و إرساله، و سار و معه سنجر، فلما وصل إلى دامغان وصله الخبر أن أصحاب عمه قد أجلسوا مكانه ولدا صغيرا له، فلما علموا بمقدم سنجر، نهضوا بالصبي و هو ابن سبع سنين، و طلبوا من السلطان بركيارق، لَمَا عرفوا قربه منهم، له الأمان، و أظهروا له الإذعان. و أحضروه عنده فأكرمه، و احترمه و قدمه. و كان وصول الصبي فى خمسة عشر ألف فارس، و قد استصغروه، و نهبوا خزائنه و أفقره. و أقطعه السلطان بركيارق فى نواحي الرى و همذان، و دخل بركيارق إلى خراسان، و بلغ إلى ترمذ و استولى على جميع بلاد خراسان و نفذ فى سمرقند أمره، و ولاها للخان سليمان تكين ثم لمحمود تكين بعده، ثم أقرها على هارون تكين وحده. و أطاعه إبراهيم صاحب غزنه، و أعطاه الله فى البسيطة المكنة. و بقى سنجر معه لا متوليا متحليا، و لا موليا متخليا. بل عليه اسم الولاية، و عقد الرأى و الراية. حتى سمع السلطان بركيارق عن

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٤

العراق بما تم من الفتوق، و ما و هى به من عقد الوثوق.

و مضى مؤيد الملك بن نظام الملك إلى جنزة لبعث السلطان محمد بن ملكشاه على طلب المملكة، و حثه على الحركة. فسار محمد إلى الرى و بركيارق بها، فلما وصل محمد إليها فارقها، و أخذت أمه زبيدة خاتون فحبسها السلطان محمد و خنقها. و مضى بركيارق إلى بغداد على طريق خوزستان و واسط، و اتصل به سيف الدولة صدقة بن منصور، و عاد إلى بلده بوفر و وفور، و جباء و حبور. و

عاد إليه كوهرائين و كربوقا، فخرج على طريق شهرزور، واجتمع عليه من التركمان خلق كثير، و حارب أخاه محمدا بموضع يقال له كورشنبه فانهزم، و انفلّ حده و انثلم. و سار في خمسين فارسا إلى أسفرائين، ثم تم إلى نيسابور و استنجد الأمراء و استنجد الأمور. و قبض على وجوه البلد و أمائله، و أخنى على أعيانه و أفاضله، و مات فخر الإسلام أبو القاسم بن الإمام أبي المعالي الجويني في اعتقاله، و كان السلطان سنجر حينئذ ببلخ مع رجاله. و معه الأميران كندكز و أرغش، و كان قد استولى على معظم بلاد خراسان و طبرستان و يقال له حبشى بن التونتاق، و قد شق العصا بالعصيان و الشقاق. و هو مقيم بالدامغان، و تحت استيلائه أكثر بلاد خراسان و طبرستان و جرجان و معه قلعة كردكوه، و قد تطرق منه المكروه.

فنهض سنجر في أرغش و كندكز إلى قتاله، و هو في عشرين ألف من رجاله. و معه خمسة آلاف فارس من الباطنية أصحاب إسماعيل الكلكي صاحب طبس و قويت قلوب السنجرية بوصول السلطان بركيارق فأقدموا إقدام الليوث، و استلوا استهلال الغيوث. و صدموا الأطواد بالأطواد، و أنكحوا الهام بنات الأغماد. و كانت الكرة عليهم ثم صارت لهم، و استحلوا قتالهم و قتلهم. و وقع حبشى في الهزيمة إلى بعض القرى، فأخذ و أثنخ، و حمل إلى الأميرين أرغش و كندكز فاعتقلاه. و بذل عن نفسه مائة ألف دينار فلم يقبله و قتلاه.

و عاد السلطان بركيارق إلى العراق، و اتصل به جاولي سقاوو، و أيتكين النظامي، و أصهب صباوه. ثم جاء الأمير آياز في خمسة آلاف فارس مدرع مقنع.

و قصد همذان و هو في خمسة عشر ألفا، و أخوه السلطان محمد بها في سبعة آلاف، فاصطدما و التقيا، و احتدما و اصطليا. و تجلت الواقعة عن هزيمة السلطان محمد، و أفلت منها بجمع مشرد. و أسر مؤيد الملك و قتله بركيارق بيده تشفيا منه بقتله، لما سبق إليه تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٥

من سيئات فعله. و انتزع السلطان محمد إلى جرجان، و اتصل الخبر بأخيه سنجر فاغتم له و اهتم، و ساء ما تم. و أنفذ إليه مالا كثيرا من نيسابور، ثم سار للقياه، و لقيه بجرجان، و صحبه إلى بغداد و جعل دار الخلافة المعاذ و المعاد. و جلس الإمام المستظهر لهما، و أفيضت الخلع عليهما، و عقد الخليفة لهما اللواء بيده. و استقام كلاهما من الملك على جدده. و رحل سنجر على سمت خراسان عائدا، و تأهب محمد لقتال بركيارق عامدا.

و تصافوا بقرب رود راور ثم افترقا من غير قتال، و اتفقا بعد ذلك على صلح و إصلاح حال. ثم انفسخ بينهما عقد السلم، و جرى كلاهما من قصد أخيه على الرسم، و وقعت بينهما بالرى وقعة أخرى، و اتصلت بين العسكرين رسل المنايا تترى. و حوصر السلطان محمد بأصفهان. فراسله الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي بن ميكائيل. يعده بالاتصال به، و إسعافه في تصرفه بمطالبه. فخرج السلطان محمد من الحصار، و مضى صوب أزانية، و اخترم مودود قبل اجتماعه به، و قوى محمد بعسكره. فسار بركيارق لحربه، و التقيا على باب خوى في جماد الآخر سنة ٤٩٦ هـ، و انهزم محمد إلى بلد آنى، ثم توسط بين الأخوين الأفاصى و الأدانى. و قسم الملك بينهما قسمين، و استقر أن يكون للسلطان محمد ما وراء النهر الأبيض المعروف باسفيدرود مع الموصل و الشام، و عاد الملك بهذه القسمة إلى النظام. و خطب لبركيارق ببغداد و أصفهان و جميع العراق، و سائر الأقطار و الآفاق. فلما سكن إلى قدرته حركه القدر، و دنا من ورد عمره الصدر. و توفى ببروجرد في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ.

### عود إلى حديث سنجر

قال: و استمر أمره بخراسان و قويت سلطنته، و تسلطت قوته. فقدر قدر خان صاحب ما وراء النهر، أنه إن عبر إلى بلاد خراسان، ملكها بيد القهر. و طمع في سنجر لصغر سنه، و دار تسويل هذا السؤال في ظنه. و كان الأمير كندكز يكاتبه، و على التأخر يعاتبه. فعبر النهر في مائة ألف يضيقون الفضاء الواسع، و يحققون القضاء الواقع. و هو لقصد سنجر مصمم و للقائه مقدر. فاتفق أن قدر خان خرج عن

عسكره متجردا، و بخواصه متفردا، و بعد عن مخيمه في ثلاثمائة فارس متصيذا. فعرف سنجر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٦

الفرصة فيه فأدر كها و انتهزها، و اعتد انفراده غنيمة فملكها و أحرزها. و أنهض إليه يرغش أسفهلار عسكره في عدة منتخبة، فتصيده من متصيده و وقع في يده، و قد سقط في يده. و سهل لى سنجر من أمره ما عده عسيرا، و حمل قدر خان و أحضر بين يديه أسيرا. ثم أمر به فضرب عنقه، و تفرق جمعه، و انطفا شمعته. و عاد السلطان سنجر إلى مقره، و طلع فيلقه بقلقه. و ذلك في حياة أخيه بركيارق قبيل أيام وفاته، و ساعده السعد من جميع جهاته.

ثم استمرت سعادته و سعدت أموره، و أنارت مطالعه و طلع نوره. و قصده بهرامشاه من أولاد السلطان محمود بن سبكتكين إليه لاجيا، و لإنجاده راجيا، و لشقيقه المستقر على سرير ملك غزنة مشاققا مداجيا. فرعى وفادته، و رأى إفادته، و أثر إيثاره في إجارته و إجابته، و اختار اختياره في إغاثته و إعانته. فجعل غزنة مغزاه، و بلغ الخبر إلى السلطان محمد فلم يحمدته، و كتب إليه أن "هذا بيت كبير فلا نقصده." فرد نصح الأخ، و استعد لإصراخ المستصرخ و ذلك في سنة ٥١٠ هـ و خرج صاحب غزنة وجر ذيوله، و أجرى سيوله، و صف خيوله، و زف فيوله. و جاء سنجر و الجتر على رأسه خافق، و النصر ليمينه مصافق. و كان لصاحب غزنة خمسون فيلا قد صفها بين يدي صفوفه، و ألفها قدام ألوفه، و عليها الكماة و الحماة، و ذوو الحمية الرماء. و كادت تصح على سنجر الكسرة، فإن الخيول نفرت من الفيول، حين أقبلت كالسيول. فترجل الأمير أبو الفضل صاحب سجستان، و تهور في الإقدام، و دخل بين قوائم القيل الأعظم فشق بخنجره بطنه، فصاح القيل و لى ظهره، و أتبت القبلة أثره. فانهزم العسكر الغزنوي، و انتصر الحرب السنجرى. و احتوى على أموال غزنة و خزائنها، و حصل على ظواهرها و بواطنها. و كان ملك آل محمود من أول عهده بكرا لم يفتض، و ختما لم يفيض حتى أتى سنجر و كسر سكره، و هتك ستره.

فلما استصفى أموال غزنة و فرغ خزائنها المملوءة، و نفض كنوزها المحشوة.

نصب بهرام شاه على سريرها و أمره، و قد خربها بتعميرها و شغل ذمته بما يؤديه إليه كل سنة من قرار، و هو مائتان و خمسون ألف دينار. و كتب إلى أخيه السلطان محمد بيشرى الفتح، و يسرى النجح. فوجم لذلك و كان في مرضه الذى شغله، و سقمه الذى نهكه و أنحله، و توفى بعد ذلك بسنة، و قوى سنجر، و اجتمع عليه العسكر. و قصد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٧

بعد ذلك بسنتين سمرقند، و أجنى جناها الجند. و ذلك بعد تطويل حصر، و تضيق عصر. و كان صاحبها أحمد خان، الكبير الشأن، الأثير السلطان. و هو الذى كان له اثنا عشر ألف مملوك تركى، و كان لا يترك غزو الترك، يتوغل فى بلادهم مسيرة شهرين، و ينثنى ظافر اليد قرير العين. ثم أصابته علة الفالج، و أعى طبه على المعالج. و بقى سنجر ستة أشهر يحاصره، و يضايقه و يصابره. إلى أن أخرج إليه أحمد خان، فى محفة يحملها الغلمان. فأجلس بين يديه ساعة، و هو لا يجد للكلام استطاعة، و لعابه سائل، و شدقه مائل. ثم حمل إلى دار الحرم للقرابة التى بينه و بين ترکان خاتون زوجة سنجر، و لى نصر خان مكانه، و أحيا به سلطانه.

ثم غدر صاحب غزنة الملك بهرامشاه بعهد سنجر، و نكل عن ضمانه، فعزم على التوجه إلى غزنة ثانيا، و لأعنه جيوشه و جنوده إليها ثانيا. و نهض إليها، و لما بلغ إلى بست، عسر عليه الوصول، و حالت الوحول. و تعذرت العلوفات، و كان التبن أعز من التبر، و الشدة جاوزت حد الصبر. فما اكثر بذلك و تهور، و أقدم فيهر بهرامشاه رعبه، و أبعده إلى لهاوور قرية. و وصل سنجر إلى غزنة مغيرا، و لكأس الدوائر عليها مديرا. و سلبت أموال و أرماق و نهبت محال و أسواق. و لما انحسر الشتاء و رتب أمور غزنة، عاد إلى خراسان. و لما توفى أخوه السلطان محمد بالعراق فى سنة ٥١١ هـ، و تولى ابنه محمود السلطنة، و حدثت تلك الحوادث، احتاج سنجر إلى الإمام بالعراق، فجرت الوقعة التى قدمنا ذكرها، و أوضحنا عرفها و نكرها. و ما عاد سنجر إلا و قد خطب له بالعراقين و بالشام و الموصل و



ديار بكر و ديار ربيعة و الحرمين، و ضربت الدنانير باسمه في الخافقين.

و يلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا و الدين، و وليّ ابن أخيه محمود بن محمد عهده بالعراق، و نعته بمغيث الدنيا و الدين. و قد ذكر وصول سنجر إلى العراق في أيام محمود نوبتين، و في عهد طغرل و في عهد مسعود دفعتين، و لكنه في زمان مسعود لم يتجاوز الرّي.

### ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان

قال- رحمه الله:- كان من كتابه المخصوصين به في صغره العميد أبو الفتح بن أبي الليث، وصل معه إلى بغداد في ثامن شوال سنة ٤٨٩هـ، و مع سنجر أتاكه كج كلاه،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٨

و ذلك في عهد أخيه بركيارق، و ابتداء خلافة الإمام المستظهر. و استوزر عند مضيئه إلى خراسان فخر الملك المظفر بن نظام الملك، و كان مبر المبرّة، سرى الأسرة، منصور الصحبة، مصحوب النصره. و رزق التأييد و التمكين، و مشى الأمور عشر سنين. و قتل يوم عاشوراء من سنة ٥٥٠هـ. و استوزر بعده ولده صدر الدين محمد بن فخر الملك، فكفى المهم، و شفى الملم. و نظم المنثور، و ضم المنثور. و قتل ببلخ غداة الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٥١١هـ.

### ذكر السب في ذلك

قال: كان للسلطان سنجر مملوك يقال له قايماز قد استحسنة و استخصه، و اشتهر بحبه و استخلصه و قد أصبح به صبا، و شغفه حبا. و تسحب على السلطان بدلاله و إدلاله. و ما صار يبالي لعمله باشتغال باله به بشغل باله. و كان هذا المملوك يعرف بكج كلاه، أى مائل القلنسوة. و كان الوزير أبدا ينهاه، و يرده إلى نهاه. و قال له يوما: "إن عقلت و إلا دبرت في تسويتك، و قومت ميل قلنسيك." فقال له غير مكترث بوعيده، و قابل تهديده بتهديده: "إما أن تسوى قلنسوتي و إما أن أسوى عمامتك." فاتفق أن السلطان كان في ضيافة الوزير، و اصطبح و اغتبق عنده ثلاث ليال. فلما كان في اليوم الثالث و السلطان في سورة راحه، و سكر اصطباحه، و قد ذهب ذهنه و ضعفت قوة تمييزه، و عينه في عين المملوك و يده في يده و قد ملكه بغمزته و تغميزه. فغافله و نزع خاتمه و ساتره أمره و كاتمه. و قام و مضى و هو حاقد و الوزير في حجرته راقد و قال: "استأذنوا لي عليه، فقد جئت من عند السلطان بمهم إليه."

و ليج حتى ولج، و كل من كان حاضرا بدخوله خرج.

فلما استخلى المجلس، و أصغى الوزير له و استأنس، حز رأسه و علقه من يده و دخل على السلطان و وضعه بين يديه. فصحا سنجر، و هاله ما جرى من اجترائه و اجتراحه، و أخافه ما تم من اقتحامه و اتقاحه «١». و استدعى الأمير قماجا، و هو أوضح أصحابه في الرأي منهاجا. و قال له سرّا: "انظر إلى ما صنعه هذا المؤاجر بوزيري، و قد نخص على سروري و سريري. فأخرجه من عندي على وجهه سحبا، و قطعه إربا

(١) الاتقاح: قلة الحياء.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٥٩

إربا فقال له: "هذا أمر فظيع، و صنع شنيع. و حفظ الناموس يوجب أن لا يعرف أحد من رعية بلدانك، أن مثل هذا الأمر يتم في سلطانك، بغير استئذانك فأظهر أنه جرى بإذنك، و صن جاهك و احذر من وهنك، و اركب الآن إلى دارك، و ارجع إلى قرارك." فقبل النصيحة، و كتم الفضيحة. ثم أمر بعد مدة بقتل ذلك المملوك أسوأ قتله، و مثل به أقبح مثله.

و استوزر بعده ابن أخى نظام الملك، و هو شهاب الإسلام، عبد الدوام ابن الفقيه عبد الله بن علي بن إسحاق، و كان ذا فضل و

إفضال، و قبول و إقبال، و بأس و نوال. متبحرا في علم الشرع، متكلماً في الأصل و الفرع. و صارت للفقهاء في زمانه سوق، و ظهرت بهم حقائق و حقوق، و لم يزل مقصداً للفضلاء، و مفضلاً على القصاص، شديد الأمر أمراً بالسداد، و تحلى الملك بحلاه، و تجلى بسناه إلى أن توفي بسرخس يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة ٥١٥ هـ.

و تولى الوزارة بعده أبو طاهر سعد بن علي بن عيسى القمي، و كان وجيه القدر، نبه الذكر. و كانت وفاته يوم الأربعاء الخامس و العشرين من المحرم سنة ٥١٦ هـ.

و تقلد الوزارة بعده الكاشغري، و صرف عنها في صفر سنة ٥١٨ هـ. و تقلد الوزارة بعده معين الدين، مختص الملك، أبو نصر أحمد بن الفضل بن محمود، و قد تقدم ذكر فضله، و شكر نبه. و لقد كان أمجد الأجواد، و أجود الأمجاد. هو الذي حسب أيام عمره، ورد كل مظلمة جرت على ذكره. و استدعاه السلطان سنجر لافتقار ملكه إليه، و عول في وزارته عليه. و فتكت به الباطنية يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من صفر سنة ٥٢١ هـ.

و قلد الوزارة بعده نصير الدين أبو القاسم محمود بن أبي توبة المروزي و كان أوزر الفضلاء، و أفضل الوزراء. و لم يزل للأفاضل جامعاً، و للأراذل قاعاً.

و قصده أهل الفضل، و آوهم بالإحسان الوافر إلى وارف الظل. و خدمه العلماء بمصنفاتهم، و خصوه بمضافاتهم، و صف له عمر بن سهلان كتاب "البصائر النصرية." و هو الكتاب الذي لم يصنف مثله في فنه، و لم يسبق إلى إحسانه فيه و حسنه.

قال: و أنشدني بأصفهان شيخنا جمال الدين عبد الرحيم بن الأخوة الشيباني البغدادي من مدائحه فيه عند سفره إلى خراسان، و اجتدائه منه الإحسان، قوله من

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٠

قصيدة مدحه بها بنيسابور ليلة عيد الفطر سنة ٥٢٥ هـ:

خل الظلام لأيدى الضمر القوديهتكن ما انبت من أثوابه السود

الليل و الناجيات الضمر أخلق بي إذا تصاريف أزمانى حنت عودى و منها:

و للقواضب منى هبة و سمت بهن ما أزور من هام الصناديد

قرع الطبى بالطبى أشهى لسامعتى من مسمع خنث الأعطاف غريد

و الأعجبان و أحوال الورى عجب غمر معنى و حر غير مكدود

و منتشين على الأكوار رنحهم سكر الكرى لا مجاجات العناقيد

إذا اطمأنت بهم أرض نبت بهم حاج تلاعب بالمهرية القود

شاموا بروق الغنى و أشتف أنفسهم تطلع نحو لا بأس و لا جود

حتى اطباهم و قد كلت عزائمهم ندى الوزير نصير الدين محمود

لين السجايا و فى أثنائها شرس و الماء و النار يكتنان فى عود

و المرء و السيف ما لم يديا أتراحى كميث و مسلول كمغمود

فذاك و الأفق مغبر هياذبه أروى لعافيك من وطف المراعيد

كما يراعك و الهيجاء كالحه يغنى عن السمهريات الأمايد

إذا اعتلى صهوة القرطاس ضاحكة آثارك البيض فى آثاره السود

فدم بما يكمد الأعداء مغتباطيفضى بك السعد من عيد إلى عيد قال: و صرف عن الوزارة فى سنة ٥٢٦ هـ عند وصول سنجر إلى

العراق بعد وفاة ابن أخيه السلطان محمود بن محمد، و ترتيب السلطنة لأخيه طغرل بن محمد مكانه. و كان القوام أبو القاسم

الدركزینی مستولیا علی الدولة، و سأل السلطان سنجر أن تكون وزارته باسمه، و تجرى رسومها برسمة. و يكون هو بالعراق لشغل طغرل مدبراً، و علی توفر ماله و جاهه متوفراً. و يستنوب فی الحضرة السنجرية من يكفل بأمرها و يكفى، و يكلف بمصالحها و يشفى. فأجيب سؤله و أصيب سؤله. و عزل العالم تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦١

و ولی جهوله. و صرف ذلك الفاضل بهذا الناقص، و راج المغشوش بكساد الخالص.

و تقلد نيابة الوزارة عن الدركزینی ظهير الدين عبد العزيز الحامدي، و كان عبد العزيز هذا يسكن إليه سنجر لأمانته و ديانتته، و هو المعول عليه في خزائنه. و هو يناظر الوزراء في قرب مكانه و مكانته. و إنما فوض إليه الدركزینی نيابته، لأنه علم أن الأمر بغيره لا يتمشى، و أن ثوب الملك بدون طرازه لا يتوشى. و لما صلب الدركزینی و ضربت رقبتة بالعراق، تقلد الوزارة السنجرية ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في جماد الأول سنة ٥٢٨ هـ. و استمرت وزارته إلى آخر العهد، و كان في تقويم ما تأود و إصلاح ما فسد باذلاً للجهد. و توفي بعد مجيء الغز في ذى الحجة سنة ٥٤٨ هـ.

### ذكر جماعة من خواص سنجر و ممالিকে أحبهم ثم سلامهم و وضعهم بعد أن أعلاهم

قال- رحمه الله:- كان من عادة سنجر أن يشتري غلاماً اختاره ثم يتعشقه و يشتهر بحبه، و يستهتر بقربه، و يبذل له ماله و روحه، و يجعل معه غبوقه و صبوحه، و يملكه حكمه، و يوليه سلطانه. فإذا نسخ الليل نهاره، و سيح البنفسج جلناره، سلاه و قلاه، و تخلى عنه و خلاه. و انتهى في مقتته إلى أن لا يرضى بهجره بعد وصله، و رأى الراحة منه في قتله. و من جملة أولئك، مملوك كان لصيرفي اسمه سنقر، فعشقه سنجر قبل رؤيته فاشتراه بألف و مائتي دينار ركنية، بعد تشريف لمالكه و عطية سنية. و حكى عن ظهير الدين عبد العزيز خازنه، أنه قال: استدعاني سنجر يوماً و قال: إني أمرك بما هو أوفق لخدماتك، و أوثق لحرمتك، فانهض فيه بشاتك، و أت فيه الممكن يوأتك فأجبتة بالسمع و الطاعة، و بذل الوسع و الاستطاعة.

فقال: "هذا مملوكي سنقر الخاص قره عيني و ثمره فؤادي، و ريحانة روعي و نتيجة مرادي. و هذه خزائني تحت ختمك، و مالي بحكمك. و حمول غزنة و خوارزم قد وصلت فاقبضها، و بذول الممالك قد عرضت فاستعرضها. و هذه خدمتي التي أمرت بها في حقه لا ترفضها و افترضها. و لا تستأذني في شيء و لا تستأمر. و قدم هذا المهم و استخر الله فيه و لا تستأخر. أريد أن تضرب له سرادق كسرادقي، و تجرى له سوابق كسوابقي. و تشتري له ألف مملوك يمشون في ركابه، و يعيشون إلى جنبه. و تحل إقطاع تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٢

من رأيت حل إقطاعه و تعقده عليه، و تأخذ بلد من شئت و تفويضه إليه. و تجعل له خزانه كخزائني بالمال مملوءة، و بأجناس الصياغات الذهبية و الفضية مجلوة. و تجعل له ديواناً مجملاً بأماثل الكتاب، و أفاضل النواب، بحيث يكون بعد أسبوعين صاحب عشرة آلاف فارس."

قال: فاستمهلته ثلاثة أشهر فما أمهل، و أمر بترك الريث و استعجل. فما زلت به حتى فسح لي في مهلة شهر و نصف، و شرعت في الأمر و أنفقت على ما قدره في عشرين يوماً سبعمائة ألف دينار ركنية، و ذلك سوى ما نقلته إليه من الخزانه من الآلات الخسروية، و الثياب المعدنية. و ذلك سوى الإقطاعات، و الولايات و التقارير.

ثم أخبرته، و لم يمض الشهر، بأنه قد استمر الأمر، فركب السلطان سنجر، فرأى العساكر صفوفاً، و الخيل صفوناً حول سرادق سنقر الخاص، فرأى رواء ظاهراً، و بهاء باهراً. قال: فعانقني و شكرني، و نوه بي و ذكرني. و فوض إليّ أمر خزائنه، و أمرني بتحصيل مطالبه، و وصي كلاماً بصاحبه.

قال: فلم يمض سنتان حتى اشتعلت نار خده في الدخان فشفن «١» و أنف و عاف و عزف، و سنقر يزيد في التسحب عليه و التبسط، و

يستديم مع عادة التسلي عنه عادية التسلط. و زاد في غيظ الأمراء، و استحقر العظماء، و استصغار الكبراء. و هو لا يبالي بسنجر إذا توعده، و لا يلتفت إليه إذا تهدده فاستدعى السلطان يوما جميع أمرائه إلى حجرة مفردة مفردين. و من جميع أصحابهم سوى سلاحى واحد مجردين. و قال لهم:

إذا دخل سنقر الخاص إليكم ضعوا فيه بأجمعكم السكاكين. فبادروا إلى ما أمروا به و امتثلوا، و وثبوا إليه و مثلوا. و عاد ذلك الضياء يجورا، و ذلك البهاء هباء منثورا.

قال: و منهم قايماز كج كلاه قاتل وزيره، و قد آل تعظيمه إلى تصغيره. و من جملة من حباه بحبه، و اختصه بقربه، الأمير المقرب الأجل اختيار الدين جوهر التاجى.

و كان مملوك أمه و من خواص خدمها، و كانت توفيت أم سنجر فى شوال سنة ٥١٧هـ، فانتقل هذا الخادم إلى خدمة سريره، ثم غلب حبه على ضميره، فغلب بذلك على تدبيره، و رقاها إلى ذروة لم يتسنمها أحد قبله، و أسماه إلى رتبة لم ترفها عين مثله.

(١) شنف: أبغض.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٣

و بلغ عسكره ثلاثين ألفا، ثم مل السلطان طول مدته، و دبر فى إخالق جدته. و ضاق مجال احتياله، ففسد الباطنية لاغتياله. و نمى إلى جوهر تعرض جوهره لأن يصير عرضا، و علم أن غرض السلطان أن يصير لسهم الحنف غرضا. فأخفى التى علمها، و أسرها فى نفسه و كتمها. فقال السلطان له يوما: "يا جوهر، إنى أخشى عليك هؤلاء الملاعين فتحرز منهم و تحفظ، و تحزم لأمرك و تيقظ." فقال له: "لو أمنتنى من نفسك ما خفت أحدا، و ما أردت فى دفع غائلة القوم مددا." فاحتمل السلطان مقاله، و رأى احتمالها، و ركب جوهر ضحوه من داره، و خرج خروج القمر من سراره و فى ركابه ألف سيف مسلول. فلما نزل فى دهليز دار السلطان و كمامته حواله، و حماته من ورائه و بين يديه، قفز إليه نفر من الباطنية، و ضربه بالسكاكين و أزاروه قادم المنية. و لما ارتفع الصباح قال سنجر و هو فى دار حرمه: "هذا جوهر قد قتل،" فعلم أن ذلك ياذنه عمل.

قال: و كان عاقلا متأتيا، أرييا متهديا. و من نكته المستحسنة: أن السلطان كان أمره ببناء قبة عالية فى مرو يكون فيها ضريحه، و ينضد عليه بها صفيحه. فوصل إلى مرو و رآها غير مفروغ منها. فقال: "يا جوهر، متى تتم هذه القبة؟" فقال: "لا أتمها الله." فأبكى الجماعة بما ذكره. و لطف موقع قوله عند السلطان و عذره.

### ذكر علو همة السلطان سنجر و كرمه و إسهام أصحابه و أمرائه من نعمه

قال: كان حليما حيا مليا، بالعرف و فيا، كبير النفس أريحيا. معديا للمهوف، مسديا للمعروف، مفرقا بالأقلام ما جمعه بالسيوف. ذكر عنه أنه اصطبج خمسة أيام متواليات، ذهب بها فى الجود كل مذهب، و أتى على معظم ما فى الخزائن من عرض و ذهب. فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة ألف دينار أحمر، و جاء ما وهبه من الخيل و الخلع أكثر. و عوتب على إسرافه فقال: "أما رأيتموني أفتح إقليما يشتمل على أضعاف ما وهبته من المال، و أهبه بكلمة واحدة لمن أراه قبل السؤال. فهذا بالإضافة إلى ذلك الكثير قليل. و ما للملام إلى فى نهج هذه السبيل سبيل."

ذكر عن ظهير الدين عبد العزيز، صاحب خزائنه، أنه قال: أحببت أن يشاهد

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٤

السلطان سنجر ما اشتملت عليه خزائنه، لتظهر كفاية متوليها و أماتته. فقلت له:

أخدمك بألف ثوب أطلس حتى تبصره، و تستعرض صامته و ناطقه. فسكت، و ظننت أنه رضى بما ذكرته. فجئت إلى الخزانه و

أبرزت ما فيها وأظهرته. و كان فيها ما لم يجتمع قط في خزانه سلطان قبله من طرائف يعز وجودها، و جواهر تجل عقودها، و صرر أكياس قد ملأت الفضاء نقودها، و أعلق لا يعرف لها قيمه، و صناديق لآلى كلها يتيمه. فلما نضدته و أبرزته، و لفقت كل جنس و نوعته و ميزته، جئت و قلت له:

"أما تبصر مالك، و تشاهد حالك. و تشكر الله الذى خصك به و أتالك "؟ فقال "يقبح بمثلنى أن يقال عنه إنه مال إلى المال، أو أنظر إليه أو أخطره بالبال. ففرق ما جعلته لى من الثياب الطلس على الأمراء، و أعرض عليهم ما فى الخزانه من تلك الأشياء. و قل لهم يقول لكم سنجر: قد ادخرت هذا لكم، و جمعته لأفرقه فى قمع عدوكم و جمع شملكم. "قال: ففعلت ذلك ففرحوا و استبشروا، و حمدوا و شكروا.

و كان سنجر لا يدخل خزائنه و لا يعيرها نظره، و لا يوجد بخاطره منها خطره. و كان لكرمه يحسن الظن بنوابه، و يسلم حكم القلم إلى كتابه، مفضلاً على أصحابه، و يقول:

"إن الدنيا فانية، فندعهم يرتعون معنا، و يسعهم من النعم ما وسعنا. " و كانت جواهره فى طبول مختومه بختمه، محفوظه باسمه. فإذا أراد منها شيئاً استحضرها، و فض خواتيم أفعالها و أخذ منها، ثم أعادها بختمها إلى حالها.

### ذكر سبب اختلال ملكه و انحلال سلطه

قال: لما امتدت مدته حياته، و أمدت بالطول مادة عمره، تسلط الأمراء على سلطان أمره، و تسحبوا على قدره، و حقر الصغير حق الكبير، و تأخر الكبير لتقدم الصغير. و استخف الوقور و قر الخفيف، و صرف الضعيف. و وقع التحاسد بينهم و التحاقد، و ارتفع و انحل التساعد و التعاقد. و كان أكابر الدوله فى ذلك العهد، سنقر العزى، و يرناقش هريوه، و قزل، و أضرابهم. و أقدم منهم قماج، و على الجترى. و قد اختلف آراؤهم و أرابهم، و ركب كل منهم أم رأسه، و عض على الأضرار بأضراره.

فأول خطأ أصاب سنجر كسر الكافر الخطائى له و لعسكره، ورد صفو ملكه إلى كدره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٥

### ذكر السبب فى ذلك و انكسار سنجر فى حربته مع الخطائيه

قال: كانت خيول قزلق فى نواحى سمرقند، و قد وفرت أموالهم و انتشرت مواشيهم، و انتشت غواشيهم و حواشيهم. و خيفت مضرتهم، و خشيت معرفتهم. فأشار الأمراء على السلطان سنجر بأن يتوجه لدفعهم، و يتنبه لردعهم. و القوم مستمرون على الصلاح لو خلوا، مستقرون من الفلاح على ما إليه دلوا. فمضوا إليهم و ضايقوهم فى مراعيهم، و قايضوهم عن محاسنهم بمساويهم، و أسرفوا فى سرقة نساءهم و ذراريهم. فأنفذوا إلى السلطان سنجر، و بذلوا له الخدمه بخمسه آلاف جمل، و خمسه آلاف فرس، و خمسين ألف رأس غنم، ليتمسكوا منه بأقوى ذمم و أوفى عصم، و ليأمنوا على أهاليهم و نساءهم و ذراريهم. فلما لم يقبل خدمتهم، و لم تحصل عصمتهم، حملتهم الحميه على الاحتماء بالتحمل، و آل بكبارهم الترحم و الحنو على صغارهم إلى الترحل. و دخلوا إلى بلاد الترك قاصدين حضرة أوزخان صاحب خطأ و ختن و نعماء.

و لم يكن فى الكفار الخطائيه أوسع منه ملكا، و أنظم سلكا، و أوفر عددا، و أكثر عددا.

و كان أمره ينفذ إلى حدود الصين. فلما وصلت القرلقيه إليهم أفلقتهم، و شوفتهم إلى الملك و شوقتهم. و أطمعت الكفر فى الإيمان، و استصرخت على أهل العدل بأهل العدوان. و قالوا له "إن الممالك بخراسان و ما وراء النهر مشمره، و إن السعاده من سلاطينها متمره. و إن سنجر قد تخالف عسكره، و كسف معروفه منكروه. "فوسع الخطائى خطى وسعه، و دبت عقارب كتابه لسلب الدين و لسعه. و أقبل فى سبعمائ ألف مقاتل، و وصل فى قطع من ليل الكفر المعتكر، و وقع من سيل البؤس المنحدر.

والسلطان سنجر في سبعين ألف فارس. لكن التوفيق عليه ساخط، والتأييد من حزبه ساقط. فشهد المشركون وحملوا بكراديسهم، واستشهد المسلمون وحملوا إلى فراديسهم. وبقى سنجر في عدد قليل، ومدد كليل. فقال له الأمير أبو الفضل صاحب سجستان: "قد أحذقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر، فانج بنفسك لأقف مكانك تحت الجتر." فوقف ووقع في الأسر. وأسرت خاتون زوجته السلطان و بقيت في الإسر إلى أن فديت بخمسمائة ألف دينار.

و أسر الأمير قماج و بلى بكل عسف، و لقي كل عنف، حتى فدى بمائة ألف

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٦

دينار. و أما الأمير أبو الفضل، فإنه علم الكافر استيلاء أولاده على بلاده، و الاحتواء على طرافه و تلاده، فحقق اقتراحه، و أطلق سراحه. و قال: "مثل هذا البطل الهمام، و الشجاع المقدم يجب الإبقاء عليه، و الإحسان إليه" و هذه الوقعة كانت في سنة ٥٣٢هـ.

قال: و استولى هذا الخطائي على بلاد ما وراء النهر، و حصل المسلمون معه تحت القهر. و استشهد على يده الإمام حسام الدين بن البرهان بن مازة رضى الله عنه ببخارى. و لقد كان في علم الشرع لا يبارى و لا يجارى. و هلك أورخان و تولت أخته بعده. و تولى تخته و بخته. و استمرت مملكة الخطائية في ما وراء النهر، إلى هذا العصر. و الولاة مسلمون من قبل ولاية الكفر. قال الفتح بن على بن محمد البندراى الأصفهاني مختصر الكتاب: و تمادت مدتهم في تلك البلاد، و استيلاؤهم بها على العباد. إلى أن قيص الله تعالى استئصالهم على يد السلطان السعيد علاء الدنيا و الدين، محمد خوارزمشاه ابن السلطان تكش، بن أيل أرسلان بن أتسز بن محمد فإنه جرد عزيمته لقطع شأفتهم، و قلع أرومتهم، و اعتنى بشن الغارات عليهم، و توالى الركضات إليهم. حتى أخرجهم من بلاد ما وراء النهر، و صب عليهم سياط القسر و القهر. ثم توغل ديارهم، و جاس بلادهم، حتى قلعهم أجمعين، و لم يبق من الخطائية نافخ ضرمه في الأرضين. و ذلك بعد سنة ٦٠٠هـ.

ثم أخذ في قهر جنس آخر من كفار الترك و هم التتارية، و ممالكهم تنتهى إلى آخر بلاد الصين. فلم يزل عليهم ظافر الجند، منصور الجد، متوغلا مسيرة خمسة أشهر من خوارزم إلى بلادهم. باسطا يد السبى و النهب في ذراريهم و نساءهم و طرافهم و تلادهم. إلى أن اجتمعوا و احتشدوا، و خرجوا فأحجم عنهم السلطان، فأخذوا بجميع بلاد ما وراء النهر. ثم دخلوا إلى بلاد خراسان فخرّبوا أرباعها، و أخذوا قلاعها و سبوا نساءها، و قتلوا رجالها، و انتهبوا ذخائرها و أموالها. و انحاز السلطان عنهم إلى بلاد الجبل فتبعوا أثره إلى حدود أصفهان و أخذوا الرى و قزوين و همذان. و قتلوا جميع من كان في هذه البلاد، و ما تاخمها من الأغوار و الأنجاد. و كان ابتداء دخولهم إلى بلاد خراسان في أوائل سنة ٦١٧هـ. و جرى منهم على المسلمين من القتل و الأسر و القهر، ما لم يعهد مثله و لم يرد ذكره أبد الدهر. و طالت مدتهم في بلاد الإسلام

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٧

و أقاموا فيها على وتيرة واحدة لا يفيقون من سفك الدماء، و شن الغارات ثلاث سنين إلى أن خرجوا من طريق أذربيجان مخربين للبلاد، سافكين دماء العباد. و توغلوا منها إلى بلاد اللان، و منها إلى أرض قفجاق، ثم عادوا من تلك الطريق إلى بلادهم. و الله تعالى يكفى المسلمين شر معادهم، و لا يمكن استيفاء شرح معرفتهم، و ذكر ما جرى على الإسلام من مضرتهم، إلا في مجلدات طوال. لكننا ألمنا بذكرها ههنا على إجمال، و الحمد لله على كل حال.

### ذكر انتعاش سنجر بعد أن عثر و انتقاه «١» و انجباره بعد أن شيك «٢» و انكسر

قال: و كان عند اتجاه سنجر لجهاد الكافر و قتاله، انتهز خوارزمشاه أتسز بن محمد نوشتكين فرصة اشتغاله. فمر إلى مرو و دخلها عنوة، و قتل وجوه أهلها، و حرق بالجور مجاورى حزنها و سهلها. و جلس على سرير سنجر و مد الطغراء، و وقع و نهى و أمر، و نقل من الخزانة السنجرية صناديق جواهره، و لما عاد السلطان عن و جهته، عرف خوارزمشاه أن القدر غير مظاهره، فرجع إلى خوارزم، و

استوبل (٣) ذلك العزم. و وصل سنجر إلى هزارسف فحصرها، و رمى بالحجر حجرها. و كان له خندق عريض عميق فجعله همه، و كان الماء قد طما به فطمه. و قسم السور على أمرائه فحسروا لثامه، و حققوا انثلامه. و فتحت القلعة عنوة، و أضحت لما يرام فتحه من القلاع أسوة. و ذلك بعد أن قتل عليها و فيها ألوف، و جدعت أنوف، و تصرفت نوب و نابت صروف. ثم وقع الصلح، و أسفر بعد تلك الظلمة الصبح. ورد خوارزمشاه على سنجر صناديق جواهره التي أخذها من الخزانة بمر و بختها، و حقق سلامه نفسه بحق سلمها، و ركب و وقف بإزاء سنجر من شرقي جيحون، و قد سير في البر و البحر عسكره المجرور و فلكه المشحون. و نزل بحيث يرى، و قبل الأرض، و تقبل الفرض.

و عاد سنجر إلى خراسان و هو عنه راض، و القدر بنصر قاض. و لم يزل أمره يتمشى،

(١) الانتقاش: تدارك الذنوب.

(٢) شيك: أصابه الشوك و دخل جسمه.

(٣) استوبل: عده و بيلا، استوخم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٨

و برد ملكه بالحسن يتوشى إلى أن أراد الله شت الشمل، و بتّ الحبل. فسلب العز، و سلط الغز. و تحللت عقود الدولة، و تفللت حدود الصولة. و انقضى الدهر، و قضى الأمر.

### ذكر نوبة الغز و ذلك في سنة ٥٤٨ هـ

قال- رحمه الله:- الغز من التركمان طائفة، للضيم عائفة. و كانت في اهتمام الأمير قماج، و هى تحمل إليه ما عليها من الخراج. و أميرها قرغود و طوطى بك يخدمان الحضرة، و يحضران الخدمة. و مازالت شوافعهم مقبولة و ذرائعهم موصولة. حتى تجنى عليهم الأمير قماج ذنبا تنصلوا منه فلم يقبل، و تحيلوا في تحليل عقد سخطه فلم يتحلل. و أرضوه بكل طريق و طريف فلم يرض، و ضيق عليهم من واسع البسيطة الطول و العرض. و اضطروهم إلى مضرتهم، و دفعهم إلى الشر لدفع معرفته. فأوحشوه و ناوشوه، و هارشوه و هاوشوه. و لم يتركوا في جلاده جلدا، و قتلوا له في تلك الوقعة ولدا. فازدادت ضراوته، و ثار ثاره، و التهب ناره. و أبرق و أردد، و أرغى و أزيد.

و غض غضبه من حلمه، و سد جهله سبيل علمه. و حضر صلحاء القوم في إصلاحه، و انتهوا في البذل إلى غاية اقتراحه، و بذلوا له إحضار قتله ولده، و إيقاعهم في يده. فأبى إلا قتلهم و قتالهم، و قلعهم و استئصالهم. و ماج قماج في بحره الزاخر، و صرف إلى قصدهم أعنة العساكر. فركبوا إليه و أكربوه، و التهبوا به و ألهبوه، و هزموه و هشموه.

فجاء إلى سنجر و هو قلق حنق، و كأنه بالغيط مختنق. و قال له "قد اختل الملك، و انحل السلوك. فإن قعدت عنهم أقاموك، و إن لم ترمهم و لم ترمهم رموك و راموك.

فانهض إليهم بجنودك، و رد نحوهم بسعودك." فلم ير أحد من أولئك الأمراء إثارة أحد لذلك الأمر، و ما شاروا بالشر. و قالوا لسنجر "إن هذا قماجا قد شاخ، و باخ و خشى و خاب، و أخطأ الصواب. فإن أنجدته خذلت، و إن هويت هواه لذعت و عدلت." فأنف قماج، و شنف و عنف، و لم يزل بسنجر حتى صغا «١» صغوه، و نحا نحوه. و أمر أمراءه بالتأهب، و أضرى ضرمة بالتهلب. و سار في جمع كالخضم زاخر، و سواد كليل المحب بلا آخر. فلما عرف الغز أنهم غزوا و إلى الشر عزوا، و صلوا

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٦٩

و توصلوا، و قالوا نخدم السلطان بخمسين ألف رأس، من جمال و أفراس، و بمائتي ألف دينار ركنية، و بمائتي ألف رأس غنم تركية. و نحضر قتله ولد قماج، و نلتزم كل سنة بخرج و خراج. و خشعوا و لانوا، و خضعوا و استكانوا. فأغلق سنجر باب القبول في وجوه هؤلاء الوجوه، و أبى أن يعاملهم بغير المكروه. فتوهلوا و توجلوا، و تعزلوا و استقتلوا. و لجأوا إلى أرض لا يسلك إليها إلا في واد لا يسع عرضه أكثر من مائة فارس، و أعدوا في الطرقات الطوقان، على رسم قتال التركمان. و نشروا المصاحف يطلبون أمان أهل الإيمان. ثم اشتدوا، و أعدوا و استعدوا. و جعلوا الخراكهات كالأسوار محدقة، و نيران النصال من ورائها للحدق محرقة. و صبروا حتى لا يسهم العسكر، و في قلبه سنجر. و امتلأ الوادي بسيل الخيل، و اجتاب النهار لباس الليل. و كانت في المقدمة أمراء خاروا و خاموا، و هموا بما و هموا و هاموا. و اغتتم الغز إضعافهم، و ركبوا أكتافهم، يقتلون و يأسرون، و يصدمون و يكسرون. و عز المخلص من المضيق، و فرشت جث القتلى على الطريق. و قتلوا الأمير قماج و ولده، و أتوا على العسكر و أفنوا عدده و عدده. و خلصوا إلى السلطان سنجر و هو في خوف من خواصه، و جواده قد بخل بخلاصه. فأحدقوا به إحداق الأهداب بالحدقة، و حصل في وسط تلك الحلقة المحدقة.

و بقى كالمركز في الدائرة، و وقع في الأيدي الجائرة. و نزل أميرهم و قبل الأرض و أمسك بعناده عنانه، و أطلق بدعائه لسانه. و قال: "إن قومك فتحوا بالأذية، و لم يحسنوا رعاية الرعية. و نحن حولك حولك، نقول بقبولك و نسمع قولك." و أفردوه عن أصحابه، و عوضوه عن عز جماعه بذل أصحابه. و مكث معهم ثلاث سنين كالأسير، و قد أرضوه من طعامه و شرابه باليسير. لكنهم يجلسونه على السرير، و يقفون مائتين بخدمته سوى قرغود و طوطى بك الأمير. و انتشروا في البلاد انتشار الجراد، و دب دبابهم بالفساد. و أذهبوا الأموال و النفوس، و أعدموا النعم و أوجدوا البؤس. و خربوا مدينة نيسابور و قتلوا أهلها تحت العذاب، و سفكوا دماء العلماء و الأئمة في المحراب.

و كانوا يستصحبون سنجر معهم، و هو لا يقدر أن يردعهم. و ربما خشن عليهم في القول، و نهاهم و نهرهم، و سبهم و سبهم، و هم لا يجيبونه إذا نهجهم بالمكروه و أسمعهم.

و لما يئس الباقون من عسكر سنجر من خلاصه، و رأوا مضيقا عليه في قفص اقتناصه، فرقوا و تفرقوا، و خفقوا و أخفقوا. فهرب منهم في آخر عمره و وقع إلى ترمذ،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٠

و أرفه حد العزم و شحد، فأصابه سهم الأجل و نفذ. فأحضر عسكره سليمان شاه ابن أخيه محمد ليتولى مكانه، و يجد سلطانه. فلم يجد أمره للنفاذ النفاذ. و أجمع العسكر على الاتفاق في تولية محمود خان ابن أخت سنجر، و أقام بنيسابور متمكنا، حسنا في هيئته محسنا. و ذلك في أيام السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فكتب له العهد من همذان و ولاءه، ثم استولى الأمير المؤيد أي ابيه بنيسابور، و أخذ محمود خان و أعدمه، و تولى الأمور و بقى الغز بمر و بلخ و سائر البلاد ضالين عن نهج الرشاد، عابدين للجور جائرين على العباد.

### ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان محمد ابن محمود عن بغداد بعد حصارها في سنة ٥٥٢ هـ

قال- رحمه الله:- قد سبق شرح الحصار، و ما قوى الله به أمير المؤمنين المقتدى من الانتصاب و الانتصار. و كان من أقوى الأسباب في دفعهم، أن الخليفة راسل أتابك، شمس الدين إيلدكز، أن ينهض بعسكره إلى همذان، حتى إذا عرف السلطان محمد أن سريره قد فرغ، و أن سروره قد رفع، ارتحل عن بغداد، فسار أتابك إيلدكز بالسلطان ملكشاه بن محمود إلى همذان و دخلها، و استولى على ذخائر الملك بها و نقلها.



و أجلس ملكشاه على السرير، و قام بين يديه بالتدبير. فلما عرفت العساكر المنازل لبغداد أن منازلها بهمذان نزلت، و أن ولايتها في ولاياتها عزلت، تشوشت خواطرها، و استوحشت ضمائرهما. و اتفق عن بغداد انفلاتهم و انفلالهم، و قدر انفصامهم و انفصالهم، و عادوا إلى همذان. و لما أحس ملكشاه بقرب أخيه محمد انصرف و انحرف، و قفاه أتابك إيلدكر و ما توقف. و كان قد استوزر المظفر بن سيدي من زنجان، و كان كبير الأصل، كثير الفضل. و له نظم رائق، و نثر فائق. فمن ذلك قوله في شمس الدين أبي النجيب وزير السلطان محمد:

أبا النجيب و ما في الحق مغضبة أنت مثلي فأين العلم و الحسب  
و أنت أنت و هذا الوفر منتقل إلى سواك و هذا الأمر منقلب  
تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧١  
و قوله:

إني و تيجان أسلافي و تلك لنا ألية بره لا نمتري فيها  
لألحظ الملك الطاغى بصولته شزرا و أعرض عن غشيانه تيتها  
يبغى الوزارة قوم «١» يكثرون بها و قد تصاغر قدرى في توليها  
قلدتها مكرها و القوم في قلق يراوغون سما في مراقبها  
و عفتها طائعا و الدولة اضطربت من بعد من هو بعد الله يحميها  
ورد نفسى إلى التقوى تيقنها أن التقى هي من أجدى مراميها

و أسأل الختم بالحسنى إذا انقلبت نفسى إلى الله مولاها و موليتها قال: و بقى السلطان بعد ذلك سقيم الأمل، قسيم الألم عديم الشبه في سيرته لكنه شبيه العدم. متوجع الجسم، متعوج الرسم. معضوض النشاط، مقبوض الانبساط.  
و كان في عصره أكابر الدولة من الفحول، و ذوى الهمم و العقول، عز الدين ستماز، و ناصر الدين آقش، و أمين الدين أبو عبد الله أمير الدولة. و من الخدم شرف الدين كربازو، و نجم الدين رشيد. و هؤلاء ما زالوا أكابر فى الدول، مقدمين ذوى العديد و الجيوش و الخيول. يلازمونه فى السفر و الحضر، و يثبتون معه فى سبيل السلامة. و وادع أخاه ملكشاه و عقد له على خوزستان، فما تمكن منها منهاجه، و لا تم بها ابتهاجه.

لاستيلاء الأمير أيدغدى بن كشتفان المعروف بشمله عليها و تغلبه، و تبطل أمره بتطلبه. فبقى فى البلاد دائرا حائرا، صابرا بالبلاء و إلى الضيق صائرا. و أما السلطان محمد، فإنه مع تكسيره و امتزاج صحه مزاجه بسقمه، و وقوف رصد المنون على لقمه، رغب فى التزوج بابنة ملك كرمان فخطبها مع ما هو فيه من خطب، و بذل و حمل، و أتحف و احتفل. و وردت الخاتون الكرمانية، فزينت لقدمها القصور، و وفر لحضورها الحبور و استقبلها السلطان لمرضه فى المحفة، و أحلها فى كنفه. و تركها لا يقدر منها على متعة، و لا يطيق الإلمام من روضها برتعة. فما اقتضت باقتضاها قدرته، و لا افترت

(١) لعلها "يكبرون" حتى يتجانس المعنى و يستقيم، و ظنى أنها تصحيف من الناسخ.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٢

بافتراعها مسرتة. بل عجز عن البناء عليها، و قصرت يد صحبتها عن الامتداد إليها.

و بقيت فى جنبه مخيمه، و فى حياته متأيمه. و عرضت للوزير شمس الدين أبى النجيب هيضة «١» غربت بها شمسها، و فاضت نفسه، و غاض بفيض رسمه، و انقطع غده و نسي بيومه أمسه. و لقد كان أقوم قومه سيره، و أمثل أمثاله وتيره. و كان بالتواضع حاليا، و من التكبر خاليا. و قد السلطان وزارته ضياء الدين بن مجد الدين بن علجة الأصفهاني فنقله إلى الوزارة من منصب الطغراء، و زف عروس

تلك المرتبة منه أمثل الأكفاء. ولقد كان في السيادة عريقا، وبالرئاسة ليقا. لكنه جاءته الوزارة و هو مشارف الرجل، و مشار «٢» الأجل. فما قرب من الوسادة حتى قبر و وسيد، و ما قام خطه بقدره و حتى قاومه القدر و أقعد فأحزن السلطان موته، و حزبه فوته. و كان قد طالت له صحبته، و أدالت منه لذته صحته. و هو يعده بالوزارة و يعرضها المطل، و جادت بوصل حين لا ينفع الوصل. و مكث السلطان بعد ذلك لا حيا فيرجى، و لا ميتا فيسجى، ثم إنه توفي يوم السبت لانسلاخ ذى القعدة سنة ٥٥٤ هـ، و كثر عليه الترحم، و زاد بمصابه التألم. فإنه كان أوقر السلجقية حلما، و أوفرهم علما، و أحبهم للعدل، و أحباهم للفضل. و اختلف من بعده الأمراء، فاجتمعت آرائهم على استدعاء الأمير إيناج صاحب الرى، و نشروا من الأمر المستور بممالاته ما كان فى الطى. ثم تعارضت آراؤهم و تناقضت أهوؤهم، فمنهم من مالى إلى ملكشاه أخى المتوفى، و منهم من رأى الإرسال إلى الملك أرسلان لمكان أتابك إيلدكز زوج أمه. و منهم من أشار بتمليك سليمان عمه. و كان الأمير إيناج يومئذ أكثر جندا، و أكثف جمعا و أرهف حدا. و مال إلى سليمان و قال: هو أسلم جانبا و أوطؤه.

و أثبت عن الأذية رأيا و أبطؤه. و الخليفة كان قد ولاه، و والى إليه الجميل و أولاه. فإذا أجلسناه قام الخليفة بتربيته، و رضى بتوليته. قال: و كان سليمان بالموصل فى اعتقال على كوجك، فاتفق الأمير إيناج، و ناصر الدين آقش، و شرف الدين كردبازو على إرسال الأمير مظفر الدين ألب أرغون صاحب

(١) الهیضة: المرض بعد المرض.

(٢) هكذا وردت و لعله يريد بها دنا أجله و أو شك أن يقطف، على سبيل المجاز.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٣

قزوین إلى الموصل للوصول به، و كوتب صاحبها فى طلبه. و كان زين الدين على كوجك أطلقه عند علمه بوفاء السلطان محمد، و جهزه بعد التوثقة منه بالإيمان. فقدم و استقر بهمدان على سرير الملك، و دخل فى طاعته سراة الترك، و انتظم أمره، و اضطرم جمره. و وافقه مخالفوه، و وفاه محالفوه. و أصبح بالأمر إيناج حل الدولة و عقدها، و بيده حبلها، و بأيده وصلها. و صار مظفر الدين ألب أرغون بن یرنقش صاحب قزوین الأمير الحاجب الأمين. و قلد وزارته شهاب الدين محمود بن الثقة عبد العزيز النيسابورى، و كان وزير إيناج فنذ «١» فى الأقاليم أقلامه، و مضت بالأحكام أحكامه. و أعاد إلى وجه الوزارة ماءها الذهب، و أوضح فى إنارة آفاقها المذهب. و لما رأى أنه ليس معه، و أنه ربما قصد سليمان ليدفعه. سير إليه بولاية أرانية منشورا، و نظم و ضم ما كان هناك منشورا منشورا. و جعل ولاية العهد للملك أرسلان بعد سليمان، و تذلل الصعب و هان. و حسبوا أن السلطان بعد غموضه يبنه و لكأسه یريق، و من سكره يفیق. فبقى على الشرب مكبا و للعب محبا. و للعقل هاجرا، و للحم زاجرا. فلا- جرم حالت حاله و ساء مآله، و سنذكر ذلك بعد ذكر بعض الحوادث فى أيامه، و نصل افتتاحه بافتتاحه.

### ذكر وفاة الإمام المقتفى لأمر الله و جلوس ولده الإمام المستجد بالله أبى المظفر يوسف أمير المؤمنين

قال- رحمه الله:- كان الإمام المقتفى لأمر الله، بعد الحصر، آثر أن يخرج إلى البلاد ليراها، و يثرى ببركة حركته ثراها. فما حضر طرفا إلا خضره، و ما نظر كفا إلا نصره.

و كانت إقامته فى عسكره، طال أم قصر سفره و كانت الأخباز و الأغنام و الحوائج و العلائق، تفرق على عدد الناس و الدواب، و عساكره مجرون من جراياتهم، و نفقاتهم و أعطياتهم على المبار و المحاب، فما ينفق لأحد فرس إلا أخلفه عليه، و لا يلتمس صاحب معونة و لا مغوثة إلا عجل بها إليه. و أجناده يتمنون أن تطول أسفارهم، ليدوم لصبح سعادتهم بعطايه أسفاره. و وصل إلى واسط فى

وأواخر صفر سنة ٥٥٤ هـ، وأتاب نائب الوزير ابن هبيرة بها، وخرجت في أصحابي للتقى، و كنت من زحمة اللقاء على غاية

(١) نذ: خرج من الأنف أو الفم، واستعارها الكاتب هنا استعارة قبيحة لما يخرج من رأس الغنم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٤

التوقى. فبصرت بموكب الخليفة وقد أقبل في أفواجه، كأنه البحر في أمواجه. فنزلت و تقدمت إليه، و قبلت الأرض بين يديه. فوقف لأركب إشفاقا على من الزحمة، و كانت فطرته مجبولة على الرأفة و الرحمة. و قال له مخلص الدين ابن الكيا الهراسي: هذا الذى يقول فى أمير المؤمنين من قصيدته، كأنه يصف هذه الحالة:

لما شفعت العزم و هو مؤيد بالحزم أسفر بالمنى منك السفر

و برزت مثل الشمس تشرق للورى و سناك يحجب عنك ناظر من نظر

بمظلة سوداء تحكى هاله و وجه الإمام يضىء فيها كالقمر و قال الوزير: هذا صاحبى و قد وليته، و أصحبتة و أوليته. و بهج بخدمتى و نجح، و بذخ بنيابتى و رجح. فوصى الإمام وزيره بى، و أعجبه سمى و أسلوبى. و سار على رسله و دخل إلى دار الديوان، و جلس ساعة فى الإيوان. ثم قام و جلس الوزير فى الدست، و كتب و وقع، و قال و أسمع. و الناظر حينئذ فى واسط الأمير شمس الدين أبو الفضائل فاتن، و هو من أكابر الخدم الذين لهم المزايا و المزاين. ثم انتقل الخليفة إلى سرادقه، و الوزير إلى مضاربه، و نزل أرباب الدولة كل منهم على مراتبه.

قال: و حضرت بميدان واسط، و المقتنى رضى الله عنه حاضر، و معه أولاده ولى العهد المستنجد يوسف، و أبو على، و أبو أحمد، و ولده المستنجد أبو محمد. و هو المستضى الذى تولى بعده، و لعبوا بالكرة. و لم يلبث بواسط ثلاثة أيام، حتى عاد إلى بغداد سريعا، و كان وصوله للانحدر إلى الغراف، فزاد الماء زيادة منعت العبور، فرجع على نية الرجوع. و عند عودته غرقت بغداد، و ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٤ هـ، و ذلك لأن الماء زاد فى تلك السنة على خلاف عادته. و تهور به بثق القورج و تقور، و غلب و بلغ السور من صوب الظفريه و تسور. و طاف بتلك النواحي طوفان نوح، و راح شبح كل بناء بغير روح. و كان ذلك منظرا هائلا، و قدرا نازلا. و طارقا كثرت طرقة، و فتقا عسر رتقه. و ركب الوزير و أرباب الدولة فصدوه و سدوه، و ردعوه و ردوه، و اتفق أنه نقص و وقف. و غرق من ذلك الماء العظيم غرف. و لما انصرم الصيف و انكسر الحر، وصل المقتنى إلى واسط مرة أخرى، و انحدر إلى ناحية الغراف، و عزل عن ولايتها ظفرا خادمه، و ولاها أبا جعفر

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٥

ابن البلدى. و قبض على ابن أفلح وزير ظفر و عاقبه، و ألزمه بما استخرجه من دفائن ابن حماد و طالبه. و كبا به الفرس فى بعض تلك السواقي فوقع و تألم، و اعتذر بصحته إليه القدر مما تجرم، و ذلك فى شهر رمضان من السنة.

و لما دخلت سنة ٥٥٥ هـ، خرج الخليفة إلى هيت، و كان مقطعا نور الدولة ابن الأمير العميد، فحل عنه الإقطاع، و ألزمه شح المطاع. و أقبل من سفره سافر الإقبال، ظافر الآمال. فما عاد حتى عاد سقم، و ألم به ألم. فتوفى فى يوم الأحد ثانى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ، و انتقل إلى جوار الرب، طاهر الذليل نقى الجيب، أمين الغيب، برياً من العيب. و لما عرف ولده و ولى عهده الإمام المستنجد بالله أبو المظفر يوسف، أن والده قد وقع اليأس عنه أشفق من إتمام الأمر لأخيه أبى على، و أنه للعهد غير ولى. و هجم الدار، و قبض الكبار و الصغار، و عقل و اعتقل، و نقل و انتقل.

و بويح له بالخلافة يوم وفاة والده، و احتوى على طارفه و تالده. و قبض عدة من الأمراء الخيلية مماليك الخليفة المقتنى و أعدمهم، و انتخب جماعة من مماليكه و أمرهم و قدمهم، و أخذ القاضي سديد الدين بن المرخم أخذاً شديداً، و ردد العذاب عليه ترديداً إلى أن فاضت نفسه، و غاض به رمسه. و حبس المخلص ابن الكيا الهراسي مدة أيام خلافته. و حرمة حظ عاطفته و رأفته. و أقر عضد الدين

ابن رئيس الرؤساء على أستاذية الدار، و رفع قدره على الأقدار. و أقر عون الدين ابن هبيرة على وزارته، و بقي ماء الدولة به على غزارته. و استولى على دولته مملوكه قايماز، و عز بالاستظهار و ظهر بالإعزاز.

### ذكر ما آل إليه أمر السلطان سليمان، و كيف جفاه زمانه و خان و كيف قبض من مجلسه ملكه، و نقل إلى منزل هلكه

قال: لما اتسع ملكه، و اتسق سلكه، ظن الأمراء أنه قد لاحف (١) الفلاح، و صالح الصلاح. فلم يضمنوا بالإحسان إليه لحسن ظنهم فيه، و ما زالوا في تقرير أسبابه و تسبب قرار مساعدته و مساعدته، حتى بدا لهم إبداله، فإن الأمير إيناج عاد إلى ربه،

(١) لاحف: لازم.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٦

و السلطان سليمان انهمك في غيه، و أدخل مظفر الدين صاحب قزوین بموضع الحجبة، و ثبت الباقون من الأمراء على الفتك بالسلطان، فإنه اشتغل بلهوه و لها عن شغله.

وجد جبل جده بخبله. و قالوا: الصواب ضبطه و ربطه، و قبضه لا بسطه. و مكثوا مدة يتشاورون في خلعه، و يتوامرون في وضعه، و يكاتبون شمس الدين إيلدكز ليقدم بآبن زوجته الملك أرسلان بن طغرل، و أنهم لا يقطعون أمرا حتى يصل. و أحكموا العهد و أبرموا بضيق نفسه و نفسه. فعادوه لألمه و عادوه في أمله. و اعتقلوه في قصر الدار السلطانية، و وكل كل أمير به من ثقافته جماعة. و أعقدوا على إضاعته عهدا و اعتقدوا لعهد إضاعته. و ذلك في شوال سنة ٥٥٥ هـ، ثم إنهم نقلوه إلى قلعة همذان، و جرعه كأسا مسمومة، و أزاروه ميتة مذمومة. و كانت وفاته في ثالث عشر شهر ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ، بعد جلوس ابن أخيه في السلطنة.

### ذكر مراسلة الخليفة للسلطان

قال: و أرسل الخليفة إلى السلطان سليمان، يسأله الطاعة و الإذعان، و يطلب منه أن يخطب له في جميع البلاد، و يقوى رجاءه منه في نيل المراد، و يذكره بإحسان المقتفى إليه، و أفضاله عليه. فبادر السلطان إلى التثام الأرض، و امتثال الفرض. و قبل كتابه و قبله، و كتب إلى البلاد ليخطب له. و ظن أن بغداد قد وصلت إلى بغيته، و حصلت في قبضته، و أنها في انتظار نهضته. فرتب القاضي نبيه الدين أبا هريرة الهمذاني رسولا، و كان مقبلا في سمته و سمته مقبولا. و هو من أعيان المملكة و أمثالها، و علماء الأمة و أفاضلها. و ندب معه الأمير ابن طغايرك ليكون ببغداد واليا، و يعيد ما رخص و نزل من قدم السلجقية غالبا عاليا، فعزم في عدة، و زعم أنه على عدة. و سار القاضي و الأمير و من معهما مع رسول الخليفة، و هو الحاجب سونج النظامي ذو النطق و اللسن، و الرأي الحسن، و العلم و الفصاحة، و الحلم و الحصافة. فاستصحب القاضي و الأمير و وصل، على ظن أنه بالمراد حصل. فلما قربا قربا، و بالرغائب رغبا. و أقيمت الوظائف، و وضعت اللطائف. و أقاما مدة للتقرب و الترقب، ثم قاما للتطلب و التغلب.

و قالوا إنما حضرنا للتعرف و التصرف، لا للتوقى و التوقف. فقال لهما الوزير: ما بالكما، و ما حالكما، و بم إرسالكما، و فيم سؤالكما؟ فقالا: ما جئنا لنذهب، و إنما

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٧

نخاطب و نخطب. فقيل لهما ما أنتما إلا سفيرا اهتداء و إهداء، و خفيرا ولاية لولاء.

و التعرض للخطبة تعرض للخطوب، و لا ترغبا في الخطبة إن رغبتما في الولاء المخطوب. فقالا: رسولكم بها وعد، ففيم إخلاف العدة، و إتلاف الجدة، و إثارة النائرة الموجدة للموجدة. فقيل لهما: ما كان لرسولنا أن يقول ما لم نشر به، و فيم رضانا عن مرسلكما أمن شربه و سربه، و غدا يوافقكم رسولنا على أنه لم يقل ما قلتماه، و لم يعقد و لم يحل فيما به عقدتماه. فافترقوا للاجتماع في غد، و

المعاودة لموعد.

فاتفق أن رسول الخليفة، وهو الحاجب سونج النظامي، في تلك الليلة توفي، وأحمد سراج حياته وأطفى، وكنتم سره تحت التراب وأخفى. وكان هذا من أعجب الغرائب، وأغرب العجائب. حتى تحدث الناس بذلك الحادث، وانبعثوا لذكر ما تجدد عليه من المباعث. وقيل: إنه خير بين أن يقتل صبوا، أو يشرب سما وما فيهما حظ لمختار، وقيل: بل بقضاء من الله جار، وأجل موقوف بمقدار. فلم يجر بعد وفاته لتلك المواعيد معاودة ولا موافاة، وقعت من الرسولين منافرة و منافاة.

فاتفق أن القاضي أبا هريرة أحد الرسولين توفي بعد أسبوع من وفاة سونج، ولم يكن دينه أيضا من القدر بمنج. فرجف الناس وأرجفوا، وتحدثوا بما عرفوا وما لم يعرفوا. واستشعر الرفيق الآخر وقال: ما في الإقامة خلاص. وأفلت راحلا وله خصاص، فإنه غلب على ظنه أنه إن أقام قضى، ولحق بمن مضى. فتلاشت تلك الرسالة لعدم رسلها، ولروعة مثل ذلك الحادث لم يرجعوا إلى مثلها. وقعت في أنفسهم من بغداد، الهيبة ومن حصولها الخيبة. فلم يقدم ملك إليها، ولم يقدم سلطان عليها.

قال: وفي هذه السنة. وهي السنة ٥٥٥ هـ، توفي ملكشاه بن محمود بن محمد وذلك إنه لما عرف ملكشاه أن عمه ملك، وأن حسان الممالك به تفذلك، وأنه يتعود خلوته، ولا يخلى عادته، ويريد هواه ولا يهوى إرادته، نهض وافر العدد، وافى العدد، وجاء إلى جى بلا-لى. وفر حبور أهل أصفهان بحضوره، وأذعنوا لأوامره إذ عنوا بأمره. واستبشروا وأنسوا ببشره، ونشروا الطيب وطابوا بنشره. وقالوا عاودتنا الألفاظ الإلهية، وعادت علينا الأيام الملكشاهية. وأقام، وسير الكتب إلى الأطراف،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٨

بالاستمالة والاستعطاف. وخطب اللهو ولها عن الخطب، وغفل عن إسراع الذوى إلى عوده الرطب. وكان مغرورا بالشباب مشبوب الغرار، مقدارا للأمن آمنا من الأقدار. فلم ينقض عليه شهر حتى اشتهر أنه قضى ومضى، وأنه برقه ويومه ومضى، وذلك فى يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ربيع الأول من غير مرض سبق، ولا عرض عرض. بل كانت له مغنية قد استهوتته واستغوتته، وخبلت خلبه، وسلبت لبه، فصار يأكل من يدها ويشرب، ويحى بحبها ويذهب. وقيل: إنها بغت موته فمات بغته، وقيل: بل أصابه سكتة، و أنها قد رغبت حتى سقته سما، وكان قدرا حتما، قد أحاط الله به علما.

### ذكر جلوس السلطان ركن الدنيا والدين أبى المظفر أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان

قال: وصل أرسلان إلى همذان بعد اعتقال عمه فى ذى القعدة من السنة، وجلس على سرير سروره، واجتاب حبر حواره. و نعت شمس الدين إيلدكز بأتابك الأعظم.

فتقدم وأقدم، وأهان وأكرم. وكان السلطان تحت سلطانه، يرتوى من إحساء إحسانه، ويأكل من خوانه مع إخوانه. فإن أولاد آتابك إيلدكز بنو أمه، وصار واسطة عقدهم بنظمه إليهم وضمه. وسعى سعد آتابك إيلدكز بقدم التقدم، وجد جده فى التوسع والتوسم. وتصاغر له الكبراء وأئتم له الأمراء. وتقررت الوزارة على شهاب الدين محمود ابن الثقة عبد العزيز، والحجبة على طغرلتكين آياز.

وأقاموا بهمذان شهرين، ثم توجه السلطان إلى أصفهان، وجعل ساوه مسلكه، واستصحب معه إيلدكز آتابكه. وصل إليه فى ساوه الأمير إيناج بك سنقر صاحب الرى، فابتهج بلقيته ولقى منه بهجة، وأقام بإيضاح محجة خلوصه على حكم طاعته حجة. وصار بينه وبين آتابك إيلدكز مصاهرة، وتمت بذلك للسلطان معهما مظاهرة.

وزوجت ابنة إيناج بابن إيلدكز الأكبر، وهو نصره الدين بهلوان محمد، وهو أخو السلطان لأمه، وأقوم أهل الدولة بمهمه. ثم أكرموا إيناج وردوه إلى ولايته غير أنه باق على عتوه، راق فى غلوه، متكره بتكثر إيلدكز متكرث، متأثر قلبه من تقدمه، متأثر لكنه أبدى الرضا بما بدى، وأظهر أنه مع الأولياء، وأسر كونه مع العدى.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٧٩

و وصل السلطان و الجماعة و اتقين بالمذكور، معتدين بعمله المشكور، إلى أصفهان، و دخل السلطان إلى دار السلطنة فاحتل سريرها، و قربها سامى العين قريها. و مدوا بأصفهان أيديهم و أجدوا تعديهم. و أخذوا البرىء بالسيقم، و الكريم باللثيم، و الحميد بالذميم. و ساقوا الناس بقلم التوزيع إلى لقم للتفريغ، و استثمروا أصول المصادرات بالتفريغ، و سدوا الأنهار على البساتين، حتى أخذوا أثمان المياه، و شفها الموارد و صدوا عن الصادى ورد الشفاه. و أقام السلطان كذلك برهه، و لما عزم على الرحيل، تلوى عليه الأمير عز الدين ستماز، و تخلى عنه و تخلف، و توفى منه و توقف.

و كان قد كاتب الأمير إيناج لمناوة السلطان، و شق العصا بالعصيان، و استدعاء أخيه الملك محمد بن طغرل من فارس و أحس السلطان بالتدبير، فوقع من التشويش و التشوير. فإن أتاكك إيلدكز و أولاده كانوا بهمذان، و هم لا يظنون من أولئك بالإيذاء الإيدان. فأغذ فى السير، و استعار فى القدوم عليهم قادمة الطير. فلما اتصل بهم أفرخ روعه و أفرق، و أشرف ضوؤه و أشرق. و امتد إيناج من الرى متوجها مسارعا إلى لقاء السلطان و مناجزته، قبل التقاء أتاكك إيلدكز به و محاجزته. فاتصل بإيناج عز الدين ستماز، و صاحب قزوين ألب أرغو فى جموع حاشده، و حشود جامعه. و الملك محمد بن طغرل معهم و قلوبهم معه، و قد ضاق الفضاء بالعسكر فما وسعه، و السلطان فى عمرمه العرم، و جحفله الحفل.

فزحف الجيشان، و رجف الجاشان. و تحرك المجران، و تحرق الجمران و كان اجتماعهما بنواحي الكرج، و كرب الحرب معوز الفرج، و كان السلطان قد اتهم الوزير بمداجاته، و مكاتبه إيناج و مناجاته. و كانوا حملوا السلطان على قتله، و حذروه من مكروه و ختله. فما سمع فيه مقالا و لا رأى له اعتقالا، بل و كل له فى السر جماعة يظهرون أنهم فى خدمته، و يظهرون فى حفظ حرمة. و كان فى اهتمام نصره الدين بهلوان، فقرر أمره على هدايا يهديها، و أربعين ألف دينار يؤديها. فأخذوا منه فى المآل المال، و تركدوا فيه القيل و القال. فصرفوا المال فى مصالح العسكر، و عاد الوزير إلى سعده الأزهر وجدده الأبهى. و قدم الحركة، يوم المعركة. و لما تواقف الجمعان،

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٠

و اجتمع الموقفان، حملت ميمنه إيناج على ميسره السلطان و كسرتها، فوجد «١» السلطان و وجم، و هجم عليه الهم بما هجم. لكنه ثبت فى قلبه، و انتحى إيلدكز فحمل بأولاده و صحبه. و خفقوا على قلب إيناج و قلبه خافق، و همه لوهمه. مصافح مصافق. و الطرد من ورائه، و رأى فى الطرد. و غاب فى الغبار، و أضمرته دياجى الضمر الجياد، و أصابت وجه الوزير فى هذه الوقعه ضربه سيف أذهبت عينه اليمنى. و لم يدر أنه بعد ذهاب ذهبه و عين نضاره بذهاب ناظر عينه اليمنى، و حمل إلى همذان فى محفه ليتداوى، و شمت به عاداته و عادت ضواريتها عليه تتعاوى. فولى إيناج مدبرا و أدبر موليا. و خلى رحله و رحل متخليا. و عاد السلطان إلى عادته فى السلطنة و اتسع ملكه، و اتسق سلكه و دار فلكه، و در فلكه، و تفرد زوج أمه أتاكك إيلدكز بالأمر و النهى، و النشر و الطى، و الحسم و الكى، و الإثبات و النفى. فأدنى و أبعد، و أشقى و أسعد. و راقب الإضراب، و ضرب الرقاب. و حابى الأعداء و عادى الأحاب.

و لما وضعت الحرب أوزارها، وجه السلطان إلى الرى براياته، و وصل سراياه إلى إيناج لقطع سراياته. فقدموها وجبوا أعمالها، و جنوا أموالها، و جمعوا ذخائرها، و فرقوا أخايرها. و كان إيناج منهم بنجوه، و قد قنع من العيش بنجوه. و هو فى حدود الدامغان، و ما زال بها يستعطف و يستسعف، و يتوصل و يتوسل، إلى أن صلحت أسبابه و استتب صلحه، و نجحت آرايه و أربى نجحه. و قصروا رأيه على القناعه بالرى، و تعوض برشده عن الغى. و حلت عنه جرباذقان و ساوه. و عاودت معيشته و عيشته الطلاوة و الحلاوة. و رحلوا إلى قزوين، فتحصن صاحبها فى قلعه سرجهان، و عاين و عانى الامتحان و الامتهان. ففرقوا العمال، و جمعوا الأموال. و أقاموا إلى أن دهم الشتاء بشتات الدهماء، و رحل البلاء بنزول البلاء. فإنهم لم يقيموا بالمكان و لم يتمكنوا من المقام، و فكوا عن البلده عروه

الازدحام. و سار السلطان نحو همذان، و أتابك إيلدكز إلى أذربيجان. ثم استقرت سلطنة أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، و عدم في عزه و نفاذ أمره الأشباه. و حكم عليه و على البلاد جميعها شمس الدين إيلدكز زوج أمه، و جرى في إقامة ناموس سلطانه على رسمه.

(١) وجد: غضب.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨١

و كانت الوزارة مستمرة بشهاب الدين الثقة، و له من الناس لكرمه و علو همته المقة «١» إلى أن توفي بأصفهان و استوزر بعده الوزير فخر الدين ابن الوزير المعين المختص. و لما توفي بهمذان بعد سنين استوزر جلال الدين بن القوام الدرگزيني، و امتدت وزارته في الأيام الأرسلائية، و وفي بأحكام الأحكام السلطانية.

### ذكر وفاة السلطان أرسلان في سنة ٥٧١ هـ و وفاة أتابك إيلدكز قبله

قال- رحمه الله:- كان السلطان قد تزوج بأخت فخر الدين رئيس همذان، فاتفق وفاة شمس الدين إيلدكز بنخجوان، و تمكن ابنه محمد المنعوت بهلوان و هو أخو أرسلان من أمه، فأراد الاستبداد دونه بحكمه. و كان أرسلان مريضا، فنقل إلى دار زوجته بهمذان، و توفي بها، و قيل: إن أخاه بهلوان سقاه، و للحزم في بقائه ما أبقاه. و أجلس ولده طغرل الصغير، و شغل به السرير. و نفذت أوامره في الممالك، و واضحة المسالك، و واسعة المبارك. و ما زال أمره مستقيما و استقامته مستمرة، و ثانيا دولته عن مباسم السعود مفتره، إلى أن توفي بهلوان في أوائل سنة ٥٨٢ هـ، و تولى أخوه مظفر الدين قزل أرسلان بن إيلدكز الملك، و نهج المسلك و نسق السلوك. و طغرل قد شب و أرب، فوجد أمره مهجورا، و عزه محجوبا محجورا. فأحب الانفراد، و أراد الاستبداد. فهرب ليلا و انضم إليه جماعة من الأمراء البهلوانية، و بعثوه على التوحد بالعزة السلطانية. و كان سيئ التدبير، يعاقب على التهم بالقتل و التدمير. و كانت البهلوانية قد أنجدوه، و ساعدوه و أسعدوه. و أقام قزل أرسلان مرارا فأقعدوه، فاتهمهم يوما على ظنه أضرمت نار اشتطاطه، فقتلهم غيلة على بساطه. فنفرت منه القلوب، و تمكن قزل أرسلان، و تضعع السلطان. و اتهم وزيره عزيز الدين بن رضى الدين يوما فقتله و أخاه صبيرا. و زاد في فتكه بخواصه كلما انكسر و لم يلف خيرا.

و اغتال فخر الدين رئيس همذان، و سمه، و سلط على كل من تقرب منه و هممه و هممه.

و كلما تمكن أزعجه عمه قزل أرسلان، حتى وصل في سنة ٥٨٥ هـ إلى الأمير حسن

(١) المقة: المحبة.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٢

بن قفجاق و تزوج بأخته، و جرى معه على حكم وقته. فنهض معه لينصره، و يعضده و يؤزره، و وصل إلى مدينة أرمية فأغلقوا بابها دونه، و القفجاقية معه يسعدونه. فدخلوا المدينة و استباحوها و نهبوها، و اجتاحتوها و خربوها. و سير السلطان صلاح الدين من الشام رسله في الإصلاح بينه و بين قزل أرسلان، فدان له ولائ. و كاد الصلح يتم، و الخبر ينم، فأبى سوء الآراء استواء الآراب. و تستر الصواب بالحجاب، فعن للسلطان أن يقصد قزل أرسلان بهمذان، إحمادا لنيان الافتتان. فقبضه يوم قدومه و اعتقله في بعض المعاقل، فتعفت آثار تلك الطوائل. و سكن الدهر، و قضى الأمر. و ضرب قزل أرسلان النواب الخمس، و وطن على الاستبداد بالسلطنة النفس. و لهي بالصفاء عن الكدر، و غفل عن القضاء و القدر. فوجد ليلة من الليالي بهمذان مذبوحا على فراشه، و قد يئس عاثر الملك به من انتعاشه، و كان بين حفاظه و حراسه، و لم يعلم من الذي أقدم على قطع رأسه، و ذلك في شعبان سنة ٥٨٧ هـ.

و سار ابن أخيه نصره الدين أبو بكر بهلوان إلى أذربيجان فملكها، و سار أخوه قتلغ إينانج بن بهلوان إلى طريق الري فسلكتها و أدركها. و سعى بعض الأمراء في إخراج طغرل من محبسه، و أعاده من السلطنة إلى مجلسه، و مضى إلى دار الملك همذان، و استأنف الإمكان، و استجد العدل و الإحسان. فجاء السلطان خوارزمشاه في سنة ٥٨٩ هـ للتغلب على المملكة. فلقبه السلطان طغرل في المعركة و خرق بفتنه قليلة الصف الخوارزمي، و أظهر البأس الرستمي.

فأحدقوا به و رموه، و أخذوا رأسه و ما ذب عنه أصحابه و لا حموه. و سير رأسه إلى بغداد، و استولى السلطان خوارزمشاه على البلاد، و ختمت الدولة السلجقية بطغرل، و كان افتتاحها بطغرل. و كانت مدة ملكها منذ وصل طغرل بك إلى بغداد إلى هذه الغاية ١٤٠ سنة، و كأنها أشبهت سنة. فسبحان الذي ملكه لا يزول، و حكمه لا يحول.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٣

### ذكر الوزراء المتولين

قال- رحمه الله:- كانت الوزارة لجلال الدين بن القوام، فلما توفي وزر أخوه قوام الدين، ثم عزل و استوزر كمال الزنجاني، المعروف بالتعجيلي، و بقي سنين و عزل، ثم استوزر صدر الدين قاضي مراغة، ثم استقرت الوزارة بعد عزله على عزيز الدين ابن الرضى، ذى الخلق و الكرم المرضى. ثم جرى ما جرى من قتله، و آذن الملك بشتات شمله.

قال: و في شهر سنة ٥٦٥ هـ، وجد إيناج صاحب الري مقتولا على سريرته، و لم يعلم كيف كان سبب تدميره. و أضيف الفتك به إلى ممالكه، بتدبير الوزير و تشريكه. و كان وزير إيناج سعد الدين أسعد الأمل، فاستوزره شمس الدين إيلدكز و استقل. و كان وزير إيلدكز من قبله مختار الدين.

قال: و تولى السلطان طغرل في الدولة الإمامية المستضوية. و كانت ولاية المستضوية بأمر الله في ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ. و انتقل إلى- رحمه الله تعالى- في آخر شوال ٥٧٥ هـ. و تولى الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضوية بأمر الله أبي محمد بن المستنجد بن المقتفي- رضى الله عنهم أجمعين-.

قلت و امتدت ولايته إلى آخر شهر رمضان سنة ٦٢٢ هـ، و توفي في هذا التاريخ، و تولى ولده الإمام الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد و توفي رضى الله عنه، في رجب سنة ٦٢٣ هـ، و تولى ولده الإمام المستنصر بالله أبو جعفر منصور أعز الله أنصاره، و ضاعف اقتداره.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٤

قال الإمام عماد الدين- رحمه الله:- وقد كنت أوتر أن أنهى هذا الكتاب إلى آخره بشرح حادثة كل عام، و الانتهاء فيه إلى كل مرام. لكنه بغيثي إلى الشام، و تباعدى عن معرفة صروف تلك الأيام، اقتصرت على ما عرفته من المجمل و استغنيت بها عن ذكر المفصل، و لأن السلطنة في تلك الأيام وهنت و هانت، و بانت أسباب اختلالها و ظهرت أسرار وهائها و هانت، و ما تمكن وزير من سيرة سارّة، و مبرة بارّة، حتى أنه بذكره و أثبه، و فيما أنشأته من محاسن الأيام الناصرية كفاية. و لكل موفق إلى هداه هداية.

تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٥

### فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

المقدمة: الأتراك السلاجقة ٣

أصل السلاجقة ٧

الانقلاب على مسعود و قتله ١٥



- السلاجقة في العراق ١٩  
 طغرل بك في العراق ٢٩  
 بعد طغرل بك ٥١  
 كيف سيطر الجماليون ٥٨  
 الاسترسال في التزييف ٦٧  
 بين السلاجقة و الصليبيين ٧٨  
 و عادت الخطبة للسلطان محمد بيغداد ٨٤  
 التلاقي في بغداد ٩٠  
 بر كياق من جديد ٩٢  
 في الجانب الآخر من الوطن الإسلامي ٩٤  
 نقطة بيضاء ٩٦  
 في غرب العالم الإسلامي ١٠٠  
 من هم المثلثون؟ ١٠٤  
 ابتداء الحركة و تطورها ١٠٤  
 تساقط بلاد الأندلس ١١١  
 ثورة قرطبة ١١٥ تاريخ دولة آل سلجوق ٣٨٥ فهرس الموضوعات  
 السلاجقة ١١٩  
 الحال في غرب العالم الإسلامي ١٢٤  
 بين السلاجقة و الخوارزميين  
 تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٦  
 مؤسس الدولة الخوارزمية ١٣٨  
 فساد ما بين سنجر و أتسر ١٤٠  
 بين الخطا و سنجر ١٤١  
 توسع ملك خوارزم شاه ١٤٣  
 العودة إلى الخوارزميين ١٤٧  
 الخطا و الخوارزميون ١٤٧  
 الصدام الأول: خوارزميا، سلجوقيا، عباسيا ١٤٩  
 صدام المتحالفين ١٥٠  
 عود إلى الخطا ١٥٢  
 التتر و المغول ١٥٩  
 التتر يتحركون ١٦٠  
 دولة بني عمار في طرابلس ١٦٣  
 تأسيس الدولة و ازدهارها ١٦٤

- منقبة مؤسس الإمارة، أمين الدولة الحسن بن عمار ١٦٥
- دار العلم فى طرابلس ١٦٦
- أمرء الدولة علماء مؤلفون ١٧١
- حركة شعريه ناشطة ١٧٣
- بنو عمار من الكتاب إلى السيف ١٧٥
- ابن عمار و السلاجقة ١٧٨
- بنو عمار و العمران ١٧٩
- مقدمة ١٨٣
- ذكر نبذة من بداية حال السلجقية ١٨٤
- ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرل بك ١٨٧
- ذكر الحال فى ذلك ١٨٨
- ذكر عوارض عرضت و حوادث حدثت ١٨٩
- ذكر عودة السلطان إلى بغداد ١٨٩
- تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٧
- ذكر سبب تولى ابن دارست وزارة الخليفة إلى حين انصرافه ١٩٦
- ذكر حوادث فى هذه السنين ١٩٦
- ذكر وصول السلطان طغرل بك إلى بغداد ١٩٧
- ذكر وفاة السلطان طغرل بك بالرى ١٩٨
- ذكر سيره طغرل بك رحمه الله ١٩٩
- ذكر جلوس السلطان عضد الدولة ١٩٩
- ذكر نظام الملك ٢٠١
- ذكر ما جرى لألب أرسلان بعد ملكه ٢٠١
- ذكر وصول شرف الملك أبى سعد محمد بن منصور ٢٠٣
- ذكر حوادث طوارئ و طوارق و اتفاقات و موافقات ٢٠٣
- ذكر أحوال ألب أرسلان بديار بكر و الشام ٢٠٥
- ذكر خروج ملك الروم و كسره و قسره و أسره ٢٠٦
- ذكر أحداث حدثت فى هذه السنين ٢١٠
- ذكر وفاة ألب أرسلان فى سنة خمس و ستين و أربعمائ ٢١١
- ذكر جلوس السلطان جلال الدولة أبى الفتح ٢١٣
- ذكر وفاة القائم بأمر الله، و تولى المقتدى بأمر الله ٢١٤
- أيام السلطان جلال الدنيا و الدين أبى الفتح ٢١٧
- ذكر الأكابر و الكتاب فى زمانه ٢٢١
- ذكر ظهور الإسماعيلية ٢٢٦

- ذكر نبذ من حوادث و أخبار في أيام ملكشاه ٢٢٧
- ذكر جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك ٢٣٠
- ذكر دخول السلطان ملكشاه إلى بغداد ٢٣٤
- ذكر حوادث ٢٣٥
- ذكر حال ولاية السلطان أبي المظفر ٢٣٥
- وزارة عز الملك أبي عبد الله الحسين بن نظام الملك ٢٣٦
- ذكر خروج السلطان أبي الشجاع محمد بن ملكشاه ٢٤٠
- تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٨
- وزارة الأمير ضياء الملك أبي نصر أحمد بن نظام الملك ٢٤٦
- وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن الحسين الميذني ٢٥٠
- ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان ٢٥٤
- ذكر تولى كمال الملك على السمرمي إشراف مملكة السلطان محمد ابن ملكشاه و ابتداء أمره ٢٥٥
- ذكر وزارة ربيب الدولة أبي منصور ٢٥٨
- ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا و الدين أبي القاسم ٢٦١
- ذكر وصول السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم ٢٦٥
- ذكر وزارة شمس الملك بن نظام الملك ٢٧٢
- ذكر وزارة الدرگز في سنة ٥١٨ هـ ٢٧٧
- ذكر وزارة شرف الدين أبي نصر أنوشروان بن خالد ٢٨٢
- ذكر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود ٢٨٦
- ذكر جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا و الدين ٢٨٨
- ذكر ما جرى للملك داود بن محمود بعد وفاة أبيه ٢٨٨
- ذكر حوادث جرت في أثناء ذلك من السلطان مسعود ٢٩١
- ذكر ما كان من حديث عمي العزيز ٢٩٢
- ذكر قتل الوزير الدرگزيني و ما آل إليه أمر السلطان طغرل ٢٩٢
- وزارة شرف الدين علي بن رجاء ٢٩٥
- ذكر جلوس السلطان المعظم غياث الدنيا و الدين أبي الفتح ٢٩٦
- ولاية أمير المؤمنين أبي جعفر منصور ٣٠٠
- ذكر زنكي بن آق سنقر في آخر عهده ٣١٧
- ذكر مقتل جعفر نائب زنكي بالموصل ٣١٨
- ذكر حال جمال الدين الجواد أبي جعفر ٣٢١
- عاد الحديث إلى ذكر ما جرى للسلطان مسعود ٣٢٣
- ذكر وزارة تاج الدين بن دارست الفارسي ٣٢٤

- ذكر ما جرى في الحوادث التي انحلت بها ٣٢٥
- تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٨٩
- ذكر وزارة شمس الدين بن النحيب الأصم الدرزيني ٣٢٦
- ذكر ما جرى بأصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابه ٣٢٨
- ذكر بعض الحوادث ٣٢٨
- ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه ٣٣٠
- ذكر حوادث في تلك السنين ٣٣١
- ذكر ما تجدد في الملك ملكشاه ٣٣١
- ذكر جلوس السلطان ملكشاه بن محمود ٣٣٣
- ذكر جلوس السلطان ملكشاه غياث الدنيا و الدين أبي الشجاع ٣٣٤
- ذكر ما جرى للسلطان سليمان بن محمد ٣٣٥
- ذكر رجوع السلطان محمد بن محمود ٣٣٦
- ذكر ما اعتمد الإمام المقتفى لأمر الله ٣٣٧
- ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد ٣٤١
- ذكر اتصال الملك جفري شاه بن محمود بأخيه السلطان محمد ٣٤٢
- ذكر حوادث جرت في تلك السنين ٣٤٣
- ذكر وزارة شمس الدين أبي النحيب الدرزيني ٣٤٤
- ذكر وصول السلطان محمد إلى محاصرة بغداد ٣٤٥
- ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه ٣٥١
- ذكر السبب في ذلك ٣٥١
- عود إلى حديث سنجر ٣٥٥
- ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان ٣٥٧
- ذكر السبب في ذلك ٣٥٨
- ذكر جماعة من خواص سنجر و مماليكه ٣٦١
- ذكر علو هممة السلطان سنجر و كرمه ٣٦٣
- ذكر سبب اختلال ملكه و انحلال سلكه ٣٦٤
- ذكر السبب في ذلك و انكسار سنجر في حربه ٣٦٥
- ذكر انتعاش سنجر بعد أن عثر و انتقاه ٣٦٧
- تاريخ دولة آل سلجوق، ص: ٣٩٠
- ذكر نوبة الغز و ذلك في سنة ٥٥٤٨ هـ ٣٦٨
- ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان ٣٧٠
- ذكر وفاة الإمام المقتفى لأمر الله ٣٧٣
- ذكر ما آل إليه أمر السلطان سليمان ٣٧٥

ذكر مراسلة الخليفة للسلطان ٣٧٦

ذكر جلوس السلطان ركن الدنيا و الدين ٣٧٨

ذكر وفاة السلطان أرسلان في سنة ٥٧١ هـ ٣٨١

ذكر الوزراء المتولين ٣٨٣

فهرس الموضوعات ٣٨٥

### تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكمم و أنفسكمم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رَحِمَهُ اللَّهُ" - كان أحدًا من جهاذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايت المبتدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءة و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللزومه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في أكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الايرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى. - من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيره SMS

ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعىة و اعتبارىة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمىة، الجوامع، الأماكن الدينىة كمسجد جَمكران و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليمىة عمومىة و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنّة

المكتب الرئىسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رَمضان " و مُفترق " وفانى / " بنايه " القائمىة "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرىة الشمسىة (= ١٤٢٧ الهجرىة القمرىة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوىة الوطنىة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

البريد الالكترونى: [Info@ghaemiyeh.com](mailto:Info@ghaemiyeh.com)

المتجر الانترنتى: [www.eslamshop.com](http://www.eslamshop.com)

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارىة و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمىن ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانىة الحالىة لهذا المركز، شَعبىة، تبرعىة، غير حكومىة، و غير ربحىة، اقتنىت باهتمام جمع من الخىرين؛ لكنّها لا تُوفى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينىة و العلمىة الحالىة و مشاريع التوسعة الثقافىة؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمىة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقىة الله الأعظم (عَجَل اللهُ تعالى فرجه الشريف) أن يُوفِقَ الكلّ توفيقاً متزائداً ليعانثهم - فى حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

